

محمد اليحمداوي

ابن هانئ المغربي الأندلسي

[973/362 - 931/320]

شاعر الدولة الفاطمية

دار الغرب الإسلامي



ابن هانئ المغربي الأندلسي

[973/362 - 931/320]

شاعر الدولة الفاطمية

شبكة كتب الشيعة



shiabooks.net
nktba.net  رابط بديل

تأليف

محمد العلوي

أستاذ بكلية الآداب بالجامعة التونسية



دار الغرب الإسلامي

جَمِيعُ الْحَقُوقِ مَحْفُوظَةٌ

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

دَارُ الْعَرَبِ الْإِسْلَامِيَّةِ

ص.ب. ٥٧٨٧/١١٣

بَيْرُوت - لُبْنَان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تمهيد

ترتكز شهرة الشاعر المغربي محمد بن هانيء على أسس متنوعة . فقد شهد له المغاربة ، ومن بعدهم أهل المشرق ، بالشاعرية الفائقة ، بل رفعه أهل المغرب ، حسب عبارة ابن خلكان ، الى المرتبة التي بلغها في المشرق معاصره المتنبئي⁽¹⁾ .

هذا الجمع بين الرجلين لا يعني بالضرورة أنهما صنوان ندان متشابهان ، أو أن صاحبنا مدينٌ للآخر بالتبعية والتلمذة والتقليد . فالفروق بينهما كثيرة ، في السلوك وفي الطريقة الشعرية ، كما سنبين في الفصل العاشر من هذا الكتاب . بل الحكم ، هذا الحكم الذي جعل عبارة « متنبئي الغرب » لقباً لاصقاً الى اليوم بابن هانيء ، ناتج في رأينا عن أمرين : أولاً ، ميل الناس الى الاختصار ، وذلك بصوغ المقارنة السريعة في العبارة الوجيزة ، أو الجمع بين المتلازمين في الواحد منهما ، فقالوا : العمران والحسان والقمران . ثانياً ، ميل أهل الأندلس والمغرب قديماً الى مطاولة المشاركة في ميادين الحضارة والفنون والأدب ، حتى يقارعوهم فرداً بفرد ، وعلماً بعلم ، كلما افتخر المشرق بشاعر أو أديب ، أو أعتز بملك مُظَفَّرٍ أو أمير ، أو تباهى بمغني زاهر أو قصر منيف . على أن هذا التفسير لأسس المقارنة بينهما لا يمنع

(1) وفيات الأعيان ، ترجمة 640 : « وهو عندهم كالمتنبئي عند المشاركة » .

من التماس النواحي المشتركة في شعرهما ، كما فعل المستشرق | .
فأرنيا - قوميت في تعليقه على القصيدة الحادية والعشرين⁽¹⁾ من ديوان ابن
هانيء ، وهي بالذات القصيدة التي تعرّض فيها شاعرنا المغربي الى ديوان
معاصره الكبير⁽²⁾ .

فجدير بنا إذن أن نهتمّ بهذا الرجل الذي اعتبره ابن خلكان « أشعر
المغاربة على الإطلاق » ، فقدّمه على السابقين منهم والمتأخرين ، وأن
نحلّل عناصر شاعريّته وعوامل ذبوع شعره ذبوعاً تشهد به كثرة النسخ
المخطوطة من ديوانه ، وقد بلغت فيما عرفنا ، الثلاثين .

وحتى تلك « المنافسة الثقافية » التي كانت تحرّك الأندلسيين في وجه
الأفارقة وإزاء الشرق ، والتي خفّت حدّتها اليوم فصار كلّ إقليم يهتمّ بأعلامه
أولاً وبالذات وأمجاده ، هذه الإقليمية الثقافية قد تدعونا الى توضيح ما غمض
من شخصيّة ابن هانيء ، وإنارة ملامح هذا الأندلسي الغريب الذي « تغرّب »
إلى إفريقيّة وانبرى لخدمة الدولة الشيعيّة .

ذلك أن محمد بن هانيء لم يكن « أشعر المغاربة » فحسب ، فهو أيضاً
شاعر متحرّز للعقيدة الإسماعيليّة ، متطوّع لخدمة الأئمّة الفاطميين ، يُعلي
بشعره كلمتهم ويدحض احتجاج خصومهم ، فتصبح دراستنا له ، بفضل
انتمائه هذا ، متجاوزة لحدود الدراسة الأدبيّة ، فتعلّق بالجوانب التاريخية من
القصائد ، وخاصة بمقومات الدعاية الشيعيّة أثناء القرن الرابع ، ذلك العصر
الذي أسماه لويس ماسينيون « القرن الإسماعيلي للإسلام » .

وبالفعل ، يمتاز ابن هانيء عن شعراء البلاط العاديين : فليس يحركه

(1) نعيّن القصائد من الآن فصاعداً ، بالأرقام الترنيبيّة التي أسندها اليها زاهد عليّ في شرحه
للديوان .

(2) المتنّي وابن هانيء ، بحث بالفرنسيّة ضمن مجموع فصول على شرف وليام مرسى ، باريس

رجاء الرّفْد ، ولا طمَع في جاه . بل تحدوه عقيدة دينيّة وسياسيّة قويّة جعلته يتعلّق بأحفاد المهدي عبيد الله تعلّقاً تلقائياً نهائياً ، وميّزته حتى عن غيره من شعراء آل البيت ، سواء كانوا مغاربة مغمورين كعلي الإيادي التونسي وسعدون الورجيلي ، أو مشاركة مشهورين كالسيد الحميري أو دعل الخزاعي .

وهناك ظاهرة أخرى تدعو الى الانكباب على شعر ابن هانيء : وهي « خفوت المغربيّة » عند هذا الشاعر المغربي ، نعتي قلّة ظهور البيئّة الأندلسيّة ، والإفريقيّة ، بل انعدامهما ، من شعره ، وهو الذي قُسمت حياته نصفين بين الأندلس والمغرب : فلن تجد في كامل ديوانه ذكراً لمدينة إفريقيّة⁽¹⁾ أو جبل مغربيّ أو نهر أندلسيّ . بل ، إذا مسّت الحاجة ، يتّجه الى الشرق البعيد ، ويفضّل النيل والفرات ، ويؤثر رضوى وثبيراً ، ويذكر بغداد وحلب ويعرض تماماً عن إشبيلية والقيروان ، فينصرف عن البيئّة الحقيقيّة الى بيئّة مجتلبّة بالحفظ والتحصيل . وإن هذا الانعتاق من البيئّة والنشأة لجدير أيضاً بالدراسة .

كما سنحاول أن نبذّ الغيوم التي لا تزال تكتنف شخصيّة هذا الشاعر وتغشّي ديوانه أيضاً : فهو شاعر « واقع » لا يشك أحد في وجوده ، وديوانه انتشر في العالم العربيّ الإسلاميّ منذ القرن الخامس ، ولا يخلو كتاب أدب من مختارات من شعره ، لكن ، بالرغم من هذا الذبوع ، فإنّ الضباب يغطّي فتراتٍ شاسعة من حياته ، ولا سيّما الفترة الأندلسيّة ، فهي لغز محيرٌ : سبعة وعشرون عاماً قضاها بالأندلس ولا نجد لها صدًى في شعره ، ولا حتى بيتاً واحداً ! وكذلك وفاته ببرقة : فما هي ظروفها وأسبابها ؟ أكان ذلك اغتيالاً سياسياً أو انتقاماً شخصياً ؟ أم كان حادثاً عادياً وموتاً طبيعياً ؟

ثمّ هناك لغز آخر يختصّ بالديوان : فعلى الرغم من انتشار هذا الشعر

(1) ذكر مرّة رقادة وحياناً إقليم الزاب دون قصبته المسيلة .

وشهرة صاحبه في حياته وبعد مماته ، وعلى الرغم من حظوته عند الأئمة الفاطميين ، لم يتطوع الشراح لدرسه ولا المعلقون لشرح غوامضه . كما نستغرب أيضاً اختلاف نسخته ، وتفاوت مادتها : هذا مخطوط يتضمن قصائد ومقطوعات يخلو منها مخطوط آخر . وهذه نسخة اقتصرت على كبرى المدائح ، وتركت باقي شعره ، علاوة على التناقض الكثير في عزو المدائح الى أصحابها ، واختلاف الترتيب من أبجدية الروي الى التوبيب على الممدوحين . وهي أمور تحتاج إلى محاولة تفسير .

هذه هي إذن الدوافع التي تدعونا للاهتمام بآبن هانيء الأندلسي المغربي ، على قلة « مغربيته » وانعدام أندلسيته ، وتحذونا للبحث في آثار هذا الشيعي الذي جعلته العاطفة الحزبية القوية الصادقة مثلاً للشعراء المناضلين الذين يهبون للدعوة فنهم وعبريتهم ، بل أنفاسهم وحياتهم⁽¹⁾ .

(1) الكتاب الذي نقدّمه هو ترجمة متا للرسالة التي تقدّمنا بها إلى جامعة السربون بباريس يوم 19 ماي 1973 فأسندت لنا بها شهادة دكتوراه الدولة . وقد طبع الكتاب سنة 1976 في لغته الفرنسية ضمن منشورات كلية الآداب بالجامعة التونسية . وشرعنا في تعريبه منذ ذلك التاريخ وحالت مشاغل التدريس والمسؤوليات دون إنجاز الترجمة قبل اليوم .

الفصل الأول

مصادر ترجمة ابن هاني

لو وصلتنا ترجمة مدققة لحياة الشاعر أو شرح مفصل لديوانه ، لأمكننا أن نتتبع كافة مراحل حياته بدقة وأن نتعرف على ممدوحيه وعلى الأشخاص الذين ذكرهم في شعره ، قصداً أو عرضاً ، ولأمكننا بالخصوص أن نقف على الظروف التي نظمت فيها القصائد والمقطوعات فنبدد الغيوم التي تحول دون فهم قسم وافر من شعره .

وازاء هذا الفقر ، فسيبنا أن نستعين بكتب الطبقات والتراجم ، المغربية والشرقية ، وأن ننظر في كتب التاريخ ، وبالخصوص في الأقسام التي تتعلق بخلافة المعز الفاطمي ، وأن نستقرئ أيضاً كتب الأدب والمختارات الشعرية ، ولا سيما المجموعات المغربية : فقد تنقل إلينا شيئاً من شعره ، وتردده ، الى جانب الأحكام التقييمية التي لا تهتم ترجمته مباشرة ، ببعض المعلومات أو التعليقات التي تساعد على سد الفراغ في بنائنا لترجمته .

ونستعين كذلك بما قد يرد في مخطوطات الديوان من تعاليق وتوطئات . فبعض النسخ تتضمن مقدمة في حياته ، وتمهد للقصائد أحياناً بتوطئة في ظروف نظمها ، فلعل هذه الإشارات تساعد على فهم شعره ، ولا سيما القصائد العقائدية النضالية .

ولا يخفى أننا سنضطرّ أخيراً ، بعد مقابلة هذه الجزئيات ونقدها وقبول

بعضها وطرح بعض ، الى الافتراض الشخصي في شأن فترة ما من حياته ، أو في التعريف بأحد ممدوحيه أو تأويل إشارة غامضة في بعض أبياته . على أننا كلما تجاسرنا على مثل هذا التدخل ، نبهنا اليه القارىء ، في انتظار أن يأتينا ما يخالف الرأي الذي ذهبنا إليه .

كتب الرجال الأندلسية

لقد ألف علماء الأندلس كتباً كثيرة جمعوا فيها تراجم الأعلام وأخبارهم ، وتدرج هذه القواميس في سلسلتين من الكتب عمل أصحابها على متابعة مجهودات سابقهم باصلاح خطئهم وتدارك سهوهم وإكمال نقصهم .

فالسلسلة الأولى تتركب من كتاب ابن الفرضي (1013/403)⁽¹⁾ « تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس » وقد خصّصه للفقهاء ورجال الدين أولاً وبالذات ، وتتواصل بقاموس ابن بشكوال (1182/578) ، الذي سمّاه « كتاب الصلة » لأنه صاغه كـ « صلة » ، أي متابعة ومواصلة لتاريخ ابن الفرضي ، ويأتي بعدهما ابن الأبار (1260/658) فيؤلف « تنمة » لصلة ابن بشكوال ويسمّيها لهذا الغرض « التكملة لكتاب الصلة » .

وهذه الكتب الثلاثة تهتمّ برواة الحديث وعلماء الدين وأهل الجاه والسلطان أكثر منها بأهل الأدب والشعر ، لذلك لا نجد ذكراً لابن هانيء عند ابن الفرضي ، رغم قصر الفاصل الزمنيّ بينهما - أقلّ من خمسين عاماً - ولا عند ابن بشكوال ، وأول من يذكره هو ابن الأبار فيخصّص له ترجمة من تراجم التكملة⁽²⁾ .

(1) نذكر سنة الوفاة بالتاريخين الهجري والميلادي .

(2) الترجمة رقم 350 .

أما السلسلة الثانية فتركَب من كتاب الحميدي (1095/488) « جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس »، ومن تكملة « بغية الملتبس في رجال الأندلس » للضبي (1203/599)، وهما كتابان يتضمَّنان أخبار الشعراء والكتَّاب أيضاً، إلى جانب الولاية وأصحاب السلطان، كما يصرِّح به كلا المؤلفين في التوطئة، إلَّا أنَّ الضبيَّ أتى مواصلاً لتراجم الحميدي، وقد وقفت عند حدود سنة 450 للهجرة، فلذلك لا نجد فرقاً كبيراً بين الكتَّابين فيما نقلاه من أخبار محمد بن هانيء، رغم ما صرَّح به الضبيُّ من أنَّه « زاد ما أغفله الحميدي وغادره ».

ومهما يكن موقف الضبيِّ من الحميدي، فإنَّه اكتفى، فيما يخصَّ ترجمة شاعرنا، بنقل نصِّ الجذوة بحذافيره، حتى المختارات الشعرية لم يزد عليها شيئاً. وهذه الترجمة وردت في غاية الاختصار: « محمد بن هانيء شاعر أندلسي، خرج عن الأندلس فشهَّر شعره في الغربية، وصحب المعزَّ صاحب المغرب ومدحه وغالى... ». فما هو سبب هذا الاقتضاب؟

لأنَّ الحميدي لم يعتبره أندلسياً بحق، نظراً لهجرته إلى المغرب؟ لكنَّ الحميدي صرَّح في خطبة الكتاب بأنه يعتزم الحديث عن كل من نَبَّه له ذكر بين الأندلسيين، حتى من وفد عليهم أو خرج عنهم.

أم لأنَّ الحميدي - وقد ألَّف الجذوة وهو مهاجر ببغداد - لم تكن لديه معلومات أخرى، بسبب انقطاعه عن المصادر الأصلية؟

هذا التفسير، إن صحَّ في شأن الحميدي، فإنَّه لا ينطبق على الضبي، لأنَّ صاحب البغية ألَّف كتابه بعد قرن تقريباً من كتاب الحميدي، فكان لديه من المادَّة في خصوص الأعلام الذين ترجمت لهم الجذوة، ما لم يكن لسابقه، كما تدلُّ عليه ترجمة ابن درَّاج القسطلي⁽¹⁾ وقد زاد فيها الضبيُّ على

(1) في البغية، ترجمة رقم 342. وترجمة ابن هانيء تحمل رقم 301.

ما وجده في الجذوة⁽¹⁾ .

فلا نبعد ، والحال هذه ، إن نحن عزونا هذا الاقتضاب في نقل أخبار محمد بن هانيء ، الى شيء من التحفظ لدى كتاب ستيين ، إزاء شاعر اعتبره الأندلسيون مارقاً عن الدين ، نظراً لخروجه عن سلطان الأمويين ودخوله في خدمة العبيديين ، وهو في نظرهم خروج عن عقيدة السنة والجماعة الى فرقة كافرة ضالة .

هذا ، بقطع النظر عما نسب اليه من تحدّد للقيم الأخلاقية في شبابه بإشبيلية ، وانسياق مع نزوات الهوى وتجروّ على الدين في شعره آنذاك .

ومعلوم أن الإفراط في التعصّب العقائدي قد يؤدّي الى مثل هذه العداوات الفكرية ويجرّ الى تضيق الخناق على حرية الفكر والمعتقد ، ولقد كبت السلطان الفاطميّ كافّة خصومه وأرهق هل السنة بالخصوص وحملهم على اتّباع طقوس ضالة في نظرهم ، فلا نستغرب أن يرّد أهل السنة بالمثل ، بعد انهيار الدولة الشيعية ، بل أن يضاعفوا النقمة والنكال ، بقدر ما صبروا على التعذيب والإرهاق طيلة السنوات والأجيال : انفجرت نقمة أهل القيروان بعد قطع الولاء الفاطميّ بافريقية ، فانقلبت تفتيلاً ذريعاً لد « مشاركة » ، وستتعرّض اليها بشيء من التفصيل في الفصول القادمة⁽²⁾ . وانفجرت نقمة المصريين بعد قهر الأيوبيين للحكم الفاطميّ ، فامتدّت الأيدي ، لا الى الأرواح والمال فحسب ، بل الى المباني والمكتبات ، فهذمت القصور وأحرق الاثاث ، وأتلفت المكتبات الفاطمية ومزّقت أسفارها لتصنع من جلدها النعال للعساكر ، يقول المقرئ (1441/845) راثياً مستنكراً : « ... وأحرق ورقها تأولاً منهم أنها خرجت من قصر السلطان أعزّ الله أنصاره ، وأن فيها كلام المشاركة (الشيعة) الذي يخالف مذهبهم ، سوى ما غرق وتلف وحُمِل الى

(1) في الجذوة : ابن درّاج : ترجمة رقم 186 . وترجمة ابن هانيء : رقم 157 .

(2) انظر الفصل الخامس .

سائر الأقطار . وبقي منها ما لم يحرق وسفّت عليه الرياح التراب ، فصار تلالاً باقية الى اليوم في نواحي آثار تعرف بتلال الكتب⁽¹⁾ .

فلا غرابة ، إزاء تصاعد العداوات أن ننسب الى هذا أو ذاك شيئاً من التحفظ إزاء شاعر المعزّ ، فهذا مؤرّخ الأيوبيين ، العماد الأصفهاني (1201/597) تحدّثه نفسه بـ « تطهير » كتابه من تراجم شعراء الفاطميين أمثال ابن الضيف⁽²⁾ فيقول : « . . . وكنت عازماً لفرط غلوّه على خطّه ، لأنّه أساء شعراً وإن أحسن شعراً ، بل أظهر فيه كفراً ، فلم يستحقّ لإساءته كفراً ولا غفراً » .

وهو ، إن لم يطرحه برمته ، فقد « طهر » الأبيات التي نقلها له من كل إشارة إلى الخلفاء الفاطميين .

وقد تعرّضت بعض النسخ المخطوطة من ديوان الشاعر الى عمليّة التطهير هذه ، فالنساخ يطرحون القصائد التي تبدو لهم مغرقة في الإشادة بفضائل المعزّ ، وخصوصاً القصيدة الرابعة والعشرين .

وبعد ، قد لانتغرب من الحمّيدي تحفظه إزاء ابن هانئ ولا استنكاره لمغالاته في أوصاف المعزّ التي « أنكرت واستعظمت » كما يقول ، فهو فقيه سنّي ، وربّما ظاهريّ ، اليه يُنسبُ كتاب « الجمع بين الصحيحين » في التوفيق بين مسلم والبخاري ، فلا يتظر منه أن يكون من محبّذي الشعر الشيعي !

ومثل هذا الاستنكار نجدّه عند أندلسيّ آخر ، وهو الفتح بن خاقان (1334/529) . فقد خصّص لابن هانئ إحدى تراجم كتابه « مطمح

(1) المقرئزي : خطط ج 2 ص 254 ، انظر محمد كامل حسين : في أدب مصر الفاطميّة ص 29 .

(2) العماد الأصفهاني : الخريدة ج 1 ص. 285 (القسم المصري) .

محمد كامل حسين : في أدب . . . ص 138 .

الأنفس»، فمزج فيها، وراء بهرج اللفظ وكلفة السجع، بين الاستنكار لمروق الشاعر عن جادة الدين وغلوه في مدح المعزّ، والاستحسان لبلاغته في نظمه الذي «تمتئى الثريا أن تتوج به وتقلد، ويودّ البدر أن يكتب فيه ما اخترع وولّد»⁽¹⁾. ويفيدنا نصّ المطمح ببعض المعلومات، كاشتراك ابن هانيء وأمرء المسيلة في الأصل الأندلسي، كما يمدّنا ببعض من أسباب خروج الشاعر من الأندلس الى العدو.

ولم يعدّ الفتح بن خاقان الى شاعرنا في كتابه الثاني، «قلائد العقيان»، ولا غرابة في ذلك، فالقلائد تكملة للمطمح ومواصلة له.

ونقل المقرئ (1631/1041) نصّ المطمح بدون زيادة ولا نقصان في «نفع الطيب».

أما ترجمة التكملة، فهي أكثر تفصيلاً من سابقتها، وخصوصاً من نصّ الجذوة الذي صرح ابن الأبار بأنّه نقله، فقد زاد عليه تفاصيل أخرى، مثلاً في اتصال نسب الشاعر بنسب آل المهلب بن أبي صفرة، ونزوح أبيه هانيء من المهديّة الى الأندلس واستقراره نهائياً بالبيرة، وتلقّي الشاعر «أكثر تأدبه بقرطبة»، ثمّ خروجه من الأندلس الى العدو واتّصاله بأميري المسيلة جعفر ويحيى ابني الأندلسيّة، ثمّ مصاحبته للمعزّ وأخيراً موته ببرقة سنة 361 هـ. ويظهر أن ابن الأبار لم يرتح لهذا التاريخ فأضاف: «... وذكر أبو الحسن ابن رشيق في «قراصة الذهب» من تأليفه أنّه توفي سنة 362...» ولكن هذه الرسالة النقدية لا تذكر، في صورتها التي وصلت بها إلينا⁽²⁾، سنة وفاة الشاعر.

وتلفت انتباهنا، في كلام ابن الأبار، عبارة «غلب عليه ذلك» إثر لقب

(1) الفتح بن خاقان: مطمح الأنفس 84.

(2) ابن رشيق: قراصة الذهب - الطبعة القديمة ضمن «الرسائل النادرة»، القاهرة 1926 والطبعة الجديدة من تحقيق الشاذلي بويحيى تونس 1972.

الشاعر « الأندلسي » ، فكأنّه لا يقرّ استحقاق ابن هانيء لهذا اللقب ، أما لخروجه عن الأندلس وأما لانضمامه الى الدعوة الشيعية .

ونجد ترجمة قصيرة عند أندلسي آخر ، استقرّ مثل الحميديّ بالمشرق ، وهو ابن دحية (1265/663) في كتابه : « المطرب من أشعار أهل المغرب » ، ولكنها لا تمدّنا بشيء جديد ، حتى استنكارها لغلوّ الشاعر صار أمراً معروفاً معهوداً .

ومن الكتب المغربية والأندلسية التي ترجمت لصاحبنا ، نذكر أخيراً كتاب « المغرب في حلى المغرب⁽¹⁾ » لابن سعيد المغربي (1286/685) ، وكتاب « الإحاطة في أخبار غرناطة »⁽²⁾ للسان الدين بن الخطيب (1375/776) .

في « المغرب » نجد ترجمة صالحة مفيدة في بعض التفاصيل التي لا يذكرها ابن خلكان ، وسنستثمر هذه المعلومات في الفصل الرابع من هذا الكتاب ، حين نعيد بناء حياة الشاعر ، معتمدين أولاً وبالذات على نصّ « الوفيات » . ولكنّ ابن سعيد أفسد كلامه بما ارتضى نقله من خبر دخول ابن هانيء على أمير الزاب ، جعفر بن حمدون ، وهي حكاية سخيفة وضعت ولا شكّ للتفكّه على حساب الشاعر الفاطميّ كما وضعت خرافات مماثلة في شأن أبي نواس وغيره .

أمّا نصّ الإحاطة ، ففيه أولاً ترجمة وجيزة لا جدّة فيها إلّا بما ينسبه ابن الخطيب الى شاعرنا من « المشاركة في العلوم والنفوذ في فكّ المعنى » أي في علوم الطلاسم والألغاز . ثم ينقل لسان الدين نصّاً من رسالته المسماة « تخليص الذهب » وهي رسالة لم تصلنا ضمن آثار الأديب الغرناطي ، وهذا النصّ المزخرف المسجّع على عادة ما يكتبه لسان الدين ، يتضمّن حكماً أدبياً

(1) ابن سعيد : المغرب ، ترجمة رقم 409 .

(2) ابن الخطيب : الإحاطة 212/2 .

في شعر ابن هانيء نقله ابن الخطيب من « مقامات » ابن شرف القيرواني التي تعرف بعنوان « مسائل الانتقاد » .

كتب الرجال الشرقية

ترجم لصاحبنا ، من المؤلفين المشاركة ، ياقوت (1230/627) في معجمه « ارشاد الأريب »⁽¹⁾ وابن خلّكان (1262/681) في « وفيات الأعيان » ، الترجمة عندهما مفصلة فيها معلومات جديدة بالنسبة الى نصّ ابن الأبار في التكملة ، فقد ذكرا مسقط رأسه بتدقيق : اشبيلية ، وفصّلا الحديث عن علاقته المتينة بأمير المدينة ، واضطرار هذا الوالي إلى إقصائه لمّا تألّب أهل البلد على الشاعر بسبب مجونه واستهتاره بالدين في شعره . ثم لخّصا حكايته مع القائد جوهر بالمغرب وحاولا ضبط سنّ الشاعر عند وفاته ببرقة يوم 23 رجب 362/29 أبريل 973 : إمّا 36 سنة وإمّا 42 سنة (بحسب تاريخ ولادته إن كان سنة 320 أم سنة 326) .

ويقول ابن خلّكان انه خرج من الأندلس في سنّ السابعة والعشرين . وهو خبر سيذكره ابن الخطيب في ترجمته بالإحاطة . وقد صرّح ابن خلّكان انه اعتمد على قراضة الذهب لابن رشيق لضبط تاريخ وفاته ، كما اعتمد على كتاب « أخبار القيروان » ، وهذا الكتاب النفيس يظهر أنه تاريخ ابن شدّاد (1186/582) أحد أمراء بني زيري ، المعنون بـ « الجمع والبيان في أخبار القيروان » ، وهو كتاب مفقود .

أمّا الكتب المتأخّرة كـ « مرآة الجنان »⁽²⁾ لليافعي (1367/768) و « شذرات الذهب »⁽³⁾ لابن العماد الحنبلي (1678/1089) فهي تنقل نصّ الوفيات ، وتزيد عليه خرافة مماثلة للحكاية التي نقلها ابن سعيد في شأن

(1) ياقوت : ارشاد الأريب ، 92/19 .

(2) اليافعي : مرآة الجنان مخطوط دار الكتب الوطنية بتونس عدد 13443 ورقة 230 وج 375/2 من المطبوع .

(3) ابن العماد : شذرات . . . سنة 362 ، 42/3 .

اتصال ابن هانيء بصاحب المسيلة : ويفهم من هذه الحكاية أن المتنبي (الشرقي) قصد أمير قابس بجنوب أفريقية لينال رفته ، فتصدى له ابن هانيء فلقيه بجانب البحر فأحبط عزائمه بحيلة مضحكة ، ويرفض الياضي الحكاية وينكر أن يكون وقع لقاء بين الشاعرين .

وبعد ، فمن تحليلنا لهذه المصادر المختلفة ، المغربية والشرقية ، يظهر أن أضفى ترجمة لشاعرنا ، هي ترجمة الوفيات . فهي لهذا السبب ، حقيقة بأن نتخذها أصلاً ومنطلقاً في محاولة تخطيط حياة ابن هانيء : ولعلها اكتسبت هذه التفاصيل من هذا المصدر النفيس المفقود الذي اطلع عليه كثير من المؤرخين واستثمروه ونقلوا عنه : أخبار القيروان لابن شداد الصنهاجي⁽¹⁾ .

كتب التاريخ

قد تمدنا كتب التاريخ ببعض الإرشادات الصالحة لاستكمال معلوماتنا عن حياة الشاعر ، وذلك بفضل الفقرات التي تخصصها للأشخاص الذين اتصل بهم ، كالمعز الفاطمي وكبار قواده وأمراء دولته ، أو للحوادث التاريخية التي نجد لها صدى في شعره ، كحروب الفتوحات في أرض الإفرنج أو في مصر ، أو الفتن التي تحدثها القبائل البربرية الثائرة ضد السلطان الشيعي .

وهكذا يحدثنا أقدم المؤرخين الأندلسيين ، ابن حيان (1076/469) في كتابه «المقتبس»⁽²⁾ عن خروج أمير المسيلة جعفر بن حمدون عن المعز وإعلان ولائه للخليفة الأموي ، الحكم الثاني ، ووصول موكله إلى قرطبة ،

(1) ابن شداد : فيما يخص هذا المؤرخ ، انظر فصل الاستاذ محمد الطالبي بدائرة المعارف الإسلامية . وانظر كذلك : لويس ماسينيون : قائمة ... عدد 31 . ويبدو أن الباحث خلط بين الأمير الصنهاجي وأمير زيدتي توفي عام 1115/509 .

(2) المقتبس (حجتي) 32 .

وهذا الحديث يأتي عرضاً لأنّ كتاب المقتبس هو ملخّص لخلافة الحكم المستنصر ، فلا يتصل بأفريقية والمغرب إلّا بقدر مشاركة السياسة الأموية في شؤونهما .

وكذلك ابن الأثير (1233/630) في « الكامل »⁽¹⁾ ، يفيدنا عن ظروف مقتل الشاعر أثناء حديثه عن هجرة المعزّ الى مصر ، فيقول ، خلافاً لما سيذكره ياقوت وابن خلكان ، انه لقي حتفه أثناء تشييعه للمعزّ في طريق مصر ، لا بعد توديعه للمعزّ ورجوعه الى افريقية لاستصحاب عياله ثمّ السفر نهائياً الى القاهرة ، العاصمة الجديدة .

أمّا المؤرّخ الصنهاجي ، ابن حمّاد (1230/628) فيفيدنا ، في كتابه « تاريخ ملوك بني عبيد »⁽²⁾ ، ببعض الملاحظات في خصوص مراسيم البلاط الفاطمي ، علاوة على الحوادث والفتن والحروب التي تخلّلت خلافة الأئمة الفاطميين بداية من انتصاب عبيد الله المهدي الى خروج المعزّ الى مصر .

وكذلك ابن عذاري (1312/712) ، يلقي في « البيان المغرب » أعضاء على بعض الأعلام الذين خالطهم شاعرنا ، مثلاً ، أمير الزاب جعفر بن حمدون ، فيقصّ علينا بالتفصيل تقسّمه بين طاعته للمعزّ وصداقته القديمة للثوار الزناتيين وشقّه عصا الطاعة أخيراً في وجه المعزّ ، ثم دخوله في خدمة خلفاء قرطبة الى أن كاد له الحاجب ابن أبي عامر فدسّ له من قتله⁽³⁾ .

ونجد لسان الدين بن الخطيب مؤرّخاً في كتاب « أعمال الأعلام » فتتضح لنا بفضل بعض الجوانب من الصراع السياسي والحربي الجهادي الذي دار في جنوب إيطاليا وفي جزيرة صقلية بين الفاطميين والروم البيزنطيين، كما يقدّم لنا الكتاب عرضاً لولاية الأمراء الكلبيين على صقلية ،

(1) الكامل 46/7 ، سنة 361 .

(2) ص 28 .

(3) 242/2 و 280 .

وملخصاً لخلافة المعز .

أما ابن خلدون (1406/808) ، فإنّ الفصول التي خصّصها في تاريخه ، للدول والإمارات التي قامت بالمغرب ، وبالأخصّ إمارات صنهاجة وزناتة وإمارة بني حمدون بالمسيلة ، هذه الفصول تساعدنا كثيراً على فهم الحروب والفتن التي تغذّيها العصبية القبليّة ، والعداء السياسيّ بين الأمويّين والفاطميّين . وهي حوادث كثيراً ما يشير إليها الشاعر في مدائحه للمعزّ أو قوّاده .

وفي ما يتعلّق بخلافة المعزّ بالذات ، فإننا نجد عرضاً مفصّلاً لها عند مؤرّخي مصر : المقرئزي (1441/845) وابن تغري بردي (1470/874) اللذين يفصّلان كذلك أعمال القائد جوهر في سياسته لمصر بعد فتحها ، وأعمال بعض مساعديه من القوّاد الأفارقة ، مثل جعفر بن فلاح الكتامي⁽¹⁾ .

أما بقية المؤرّخين المشارقة ، مثل أبي الفداء (732 / 1831)⁽²⁾ ، والذهبي⁽³⁾ (1848/748) والصفدي⁽⁴⁾ (1363/764) ، فإنهم لا يفيدوننا إلّا بما يدخلونه من تنقيحات على ترجمة شاعرنا كما أثبتتها ابن خلّكان : فالصفدي مثلاً ، في « الوافي بالوفيات » ، رغم أنه ينقل نصّ ابن خلّكان ، يؤرّخ وفاة الشاعر بسنة 365 ، وهو تأريخ غريب لم نقف عليه عند غيره ، ولعلّه خلط بين تاريخ وفاة المعزّ (976/365) وتاريخ وفاة شاعره ، وعلاوة على هذا الخطأ ، فهو يسمّيه محمد بن إبراهيم بن هانيء ، وفي هذا أيضاً ، يخلط الصفدي بين شاعرنا محمد بن هانيء ، وشاعر مصري من أهل القرن السادس يرجع نسبه إلى صاحبنا ، ويسمّى ابن هانيء الحفيد أو محمد بن إبراهيم بن هانيء .

(1) اتعاظ الحنفاء 134-136 . الخطط 2/155 .

النجوم الزاهرة 4/28 .

(2) مختصر ... 2/212 .

(3) تاريخ الإسلام ورقة 300 ب .

(4) الوافي ترجمة عدد 240 .

ويخبرنا الذهبي في « تاريخ الإسلام » أن عداء أهل اشبيلية لابن هانيء
كاد يؤدي بحياته ، فلم ينج منهم الا بالهروب الى برّ العدو .

بقيت الكتب المتأخرة ، مثل « المؤنس » لابن أبي دينار (1698/1110) ،
و « الحلل السندسية » للوزير السراج (1736/1149) ، و « كتاب الاستقصاء »
للسلاوي الناصري المغربي (1895/1312) ، فمادّتها منقولة عن المصادر
الأصليّة التي استعرضناها ، فلا نرتجي منها حينئذ اكتشافات جديدة .

ولنفس السبب ، فأنّا لا نذكر كتب المعاصرين ، من عرب
ومستعربين ، لأنهم يستمدّون مادّتهم أيضاً من هذه المصادر القديمة التي بنينا
عليها معرفتنا بحياة ابن هانيء وبالبئة التي عاش فيها . ولكن ، اذا ما احتجنا
الى مقارنة المصادر ومقابلة المعلومات ، فاننا نعتمد على هذه البحوث
المعاصرة ، حتى نغلّب فكرة على أخرى ونرجّح مصدراً على مصدر . وبهذا
الصدد لا بدّ من الإشارة إلى الفائدة التي جنيناها من بحوث ثلاثة من العلماء
الأوروبيين : أولاً ، ج . شلمبرجي⁽¹⁾ في رسالته الضخمة عن الأمباطور
البيزنطي نقفور فقاس عدوّ الإسلام في الشرق والغرب ، فقد وصف بالتدقيق
القتال بين أسطول الروم وأسطول الفاطميين في مضيق مسينا وبحر صقلية .
ثانياً ، م . أماري⁽²⁾ الذي جمع كل النصوص العربية القديمة المتعلقة بجزيرة
صقلية واهتمّ خاصّة بالتطاحن بين النفوذ الإسلامي فيها والنفوذ المسيحي .
وأخيراً ، ماريوس كانار الذي قادته بحوثه عن البيزنطيين الى التنقيب عن كل
من لاصقهم وقاومهم من أمراء الإسلام ، فألف رسالته القيّمة في سيف الدولة
الحمداني وجمع كل النصوص الخاصّة بإمارة حلب ، ثم اهتمّ بالخلافة
الفاطميّة فكتب فصلاً عديدة في علاقاتها مع الروم ، ومراسيم البلاط ،
وأحوال بعض الولاة الفاطميين كآسرة بني حمدون بالمسيلة ، وكيفينا دليلاً

(1) شلمبرجي : G. Schlumberger: Un empereur ...

(2) أماري : M. Amari: B.A.S.

على سعة معرفته بالميدان الفاطمي ، ترجمته لـ « سيرة الأستاذ جودر » مع ما تضمّنته من تعليقات وتوضيحات نفيسة .

كتب الأدب

قد نعثر في كتب المختارات الأدبية ، وفي كتب النقد ، على أبيات لابن هانئ ، ينقلها المؤلفون للاستدلال على غرض شعري ما ، أو الاستشهاد بصورة بلاغية ، أو للمقارنة بينه وبين شعراء آخرين من الشرقيين خاصة . ولا تأتي هذه الشواهد منفردة جافة ، بل تصحبها عادة تعليقات من المؤلفين وأحكام تقييمية ، وأحياناً ، إشارات تتعلق بترجمة الشاعر فتزيدنا تعريفاً مثلاً ببعض ممدوحيه أو بعض من عرفهم وذكرهم في شعره .

فالحصري (1061/453) مثلاً ، يقارن في « زهر الآداب »⁽¹⁾ بين شاعرنا وشاعر أفريقي آخر معاصر له يسمّى « عليّ بن محمد الإيادي » ، في وصفهما للأسطول الفاطمي ، كما يمدّنا بقسم مجهول من قصيدة لابن هانئ في مدح أمير الزاب .

كذلك ابن رشيّق (1063/456) يروي لنا خبراً عن الإيادي هذا وابن هانئ ، فيقول في « العمدة »⁽²⁾ ان ابن هانئ دُعي الى مهاجاة شعراء إفريقية ، فقال : لن أهجو إلاّ الإيادي اذا هجاني فقال الإيادي : كيف أهجوه بعد أن رفعني على الشعراء كافة ؟

وقد عرّجنا على ما كتبه ابن شرف (1067/460) في إحدى مقاماته الأدبية⁽³⁾ في خصوص غلوّ شاعرنا وتنكّبه الجادة القويمة ، وهو الحكم الذي

(1) 133/1 .

(2) 111/1 .

(3) مسائل الانتقاد ، 40 .

نقله ابن الخطيب في الإحاطة وأضاف اليه ترجمة وجيزة لفتت انتباهنا بتاريخها
لوفاة الشاعر بسنة 361 عوض 362 .

ولكن لا تَعْرُنَّا كثرة هذه المصادر وتنوعها ، فالمعلومات التي نستقيها
منها لا تَمَكِّن من ترجمة صحيحة مدققة للشاعر ، نملاً فيها مثلاً فراغ الفترة
الأندلسية من حياته ، وهي فترة طويلة دامت سبعة وعشرين سنة ، ونقدّر فيها
المدة التي لازم فيها أمير المسيلة ، ونحقق ظروف وفاته أو مقتله ببرقة ، كما لا
تسمح هذه المعلومات بالوقوف على هويّة كثير من ممدوحيه .

فلذلك نتّجه الى الديوان نفسه ، والى نُسخِ المخطوطة لنستمدّ منها ما
قد يساعد على مزيد من الفهم والتعرّف ، وذلك ضمن ما نجده من مقدّمات
للقصائد أو تعليقات عليها ، وأحياناً ضمن ما نكتشفه من قطع مجهولة لم يسبق
نشرها .

المخطوطات

نجد في الديوان المطبوع أو في النسخ المخطوطة منه تقديماً لبعض
القصائد والمقطوعات ، ولكنه لا يفيد كثيراً لأنّه لا يذكر الشخص الذي أهديت
اليه القصيدة ، وإن يذكره ، فلا يعرفه بل يقتصر على اسمه ، مثلاً : أبو الفرج
الشياني ، ولا يتعرّض الى ظروف النظم الآ نادراً ولا يذكر تاريخ النظم بتاتاً .
وما دمنا لا نعرف من الشياني الا اسمه ، ونجهل مهنته أو وظيفته ، والظروف
التي مدحه فيها الشاعر ، والصنيع الذي استحقّ به هذا المدح ، وما دامت
القصيدة نفسها مبهمّة غامضة لا يضبط فيها زمان ولا مكان ولا حادث معروف
تاريخياً ، قلنا : ما دمنا في هذا الغموض ، فانا مضطرون الى الافتراض
والتخمين في تقسيم حياته الى ثلاث فترات : أندلسية ومغربية وأفريقية ، وفي
التعريف بممدوحيه ، وضبط علاقاته بالبلاط الفاطمي . ولعلنا كنا نستفيد
كثيراً من تاريخ ابن شدّاد المفقود ، أو من شرح الديوان الذي نسيه ح . ح . عبد

الوهاب⁽¹⁾ الى التيفاشي القفصي بعنوان : « الديباج الخسرواني في شرح ديوان ابن هاني » ، ونستفيد على الأقل ظروف النظم ، كما نستفيد اليوم من شروح ابن جني والواحدي والعكبري على ديوان المتنبي ومن تعليقات ابن خالويه على شعر أبي فراس الحمداني .

هذه النسخ المخطوطة تُفتَح أحياناً بترجمة للشاعر منقولة عن ابن خلكان غالباً ، الا أنها تنفرد في بعض المخطوطات بإشارات جديدة ، ممّا يدلّ على أنّ مادّتها أخذت من نصّ الوفيات ومن غير الوفيات . فهذه مثلاً مخطوطة دار الكتب الوطنية بتونس التي رقمناها بـ « تونس 1 » - وهي أوفر مادة من جميع النسخ المعروفة - تفيدنا بأمرين :

1 - الإشارة الأولى تتعلّق بدخول الشاعر في خدمة أمير المسيلة : فتقول ، نقلاً عن فقيه يدعى « الزهراني » - الزهراني لا الوهراني كاتب الأمير - أنّ جعفر بن حمدون سمح لابن هاني بالانتفاع من مكتبته . فهذا يوهم بأنّ الشاعر قد استكمل تعلّمه عند ممدوحه الأندلسيين بالمسيلة ، ونحن نميل الى رفض هذا الخبر لأنّ المؤرّخين لم يلفتوا انتباهنا الى وجود مثل هذه المكتبة بعاصمة الزاب . غير أنّ الإشارة قد تدلّ على أن مقام الشاعر بالمسيلة لم يكن قصيراً ، ممّا يفسّر كثرة القصائد التي نظمها هناك في مدح بني حمدون .

أمّا الإشارة الثانية ، ففيها تبرير لطيف للغلو الذي تتسم به مدائح الخليفة فيطبّعها بطابع الكفر ، يقول صاحب النصّ : « . . . وله فيه غلوّ عظيم كفر فيه ، اذ كان لا يجوز عند الممدوح الآ به . . . » .

فنفهم أن ابن هاني ما كان يرتضي هذا الإغراق في إجلال الامام ، وأنه كان يُدفع اليه دفعاً . وهي فكرة خاطئة ، فالمعاني والأساليب التي يعبر بها شعراء الشيعة - ولا سيّما صاحبنا - عن احترام الأئمة ومحبتهم والتعلّق بهم ،

(1) الورقات ، تونس 1966 ، 458/2 .

تبدو لجمهور السنين كفراً محضاً وإغراقاً في الضلالة ، فلذلك راح صاحب المخطوطة يلتمس له الأعذار حيث لا موجب للاعتذار .

هذا المخطوط الذي نحن بصده ، يتضمن كل القصائد والمقطوعات التي نجدها في الطبعات الثلاث للديوان ، ولا سيما في الثالثة منها ، وهي أكملها وأتقنها ، ونعني بها الشرح الصافي الذي نشره الباحث الاسماعيلي زاهد علي الحيدر آبادي بالقاهرة سنة 1352/1933 بعنوان : « تبين المعاني في شرح ديوان ابن هاني » . إلا أن مخطوطنا يحتوي على مجموعة أخرى من القصائد والمقطوعات لم تبلغ الى علم الباحث الهندي ، وقد نشرناها بعددين من « حوليات الجامعة التونسية »⁽¹⁾ .

ونجد ، من بين هذه الأبيات التي تنفرد بها نسخة تونس 1 ، مقطوعتين غزليتين نظمهما الشاعر في « غلام فائق الجمال » يدعى عبد الله بن سليمان ، والمقطوعتان تسترعيان الانتباه من ناحيتين :

1- فهما تصوّران جانباً مجهولاً من شخصية الشاعر ، وهو جانب الانحراف الجنسي والمجون والعريضة ، الذي يغاير تماماً الصورة « الرسمية » التي ألفناها لشاعر المعز في تعلّقه بالدعوة الاسماعيلية وانصرافه الى الدفاع عنها بشعره الجدّي القوي . هذا الجانب المجهول ، إن تحقّق وجوده ، لا يتنافى اذ ذاك مع الرأي القائل بأن موته ببرقة كان قتلاً إثر خصومة فاحشة : « . . . وقتل ببرقة في مشربة على صبي »⁽²⁾ .

2- هذا الغلام المخنث كان يتعشقه أيضاً الأمير تميم بن المعز ، وإنما نظم ابن هاني القطعتين ليغيظ الأمير . هذا ما تصرّح به المخطوطة . ولئن كان تميم معروفاً بفسوقه وميله عن شؤون الدولة الى الشعر واللهو والشراب ،

(1) العدد السادس 1969 ، والتاسع 1972 .

(2) ابن سعيد : المغرب ، ترجمة رقم 409 .

مِمَّا أَدَّى إِلَى عَزْلِهِ عَنْ وَلايَةِ الْعَهْدِ⁽¹⁾ فَإِنَّ خَبَرَ هَذِهِ الْمُنَافَسَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ شَاعِرِنَا ،
أَيَّ خَبَرَ مُنَافَسَةِ غَرَامِيَّةٍ ، وَرَبَّمَا شَعْرِيَّةٍ ، لَمْ يَبْلُغْنَا إِلَّا عَنْ طَرِيقِ هَذِهِ
الْمَخْطُوطَةِ ، وَعَنْ طَرِيقِ أَحَدِ مُؤَرِّخِي الْفَاطِمِيِّينَ ، وَهُوَ الدَّوَادَارِيُّ (1335/736)
الَّذِي يَقُولُ إِنَّ قَتْلَ ابْنِ هَانِيءٍ كَانَ بِإِيعَازٍ مِنْ تَمِيمٍ⁽²⁾ .

وَلَا وَجْهَ لِدَفْعِ هَذِهِ الصُّورَةِ الْمَاجِنَةِ عَنْ شَاعِرِنَا ، فَالْمَجَانُ
وَالْمُنَحْرِفُونَ ، مِنَ الشُّعْرَاءِ وَمِنْ غَيْرِ الشُّعْرَاءِ ، كَثِيرُونَ ، فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ ،
عِنْدَ الْعَرَبِ وَغَيْرِ الْعَرَبِ . وَلَعَلَّنَا نَرْجِّحُهَا وَنَقْبُلُهَا إِذَا مَا دَقَّقْنَا النَّظَرَ فِي قَصِيدَتَيْنِ
مِنَ الدِّيَوَانِ الْمُنَشُورِ مَدْحَ بَهُمَا الْقَائِدِ الْفَاطِمِيِّ الْمَجْهُولِ الَّذِي يَدْعَى « أَبَا
الْفَرَجِ الشَّيْبَانِي » . فَقَدْ اسْتَهْلَ الْمَدْحَ عَلَى عَادَةِ الْقَدَمَاءِ ، بِالنَّسِيبِ التَّقْلِيدِيِّ ،
إِلَّا أَنَّهُ خَلَطَ فِيهِ بَيْنَ الْمَعَانِي الْغَزَلِيَّةِ وَالصُّوَرِ الْحَرَبِيَّةِ خَلْطًا يَحْمِلُ الْقَارِءُ عَلَى
التَّسَاوُلِ فِي هَذَا الْمَمْدُوحِ : أَبْطَلَ مَغْوَارَ هُوَ ، أَمْ عِذْرَاءُ خُجُولُ ؟

فَفِي الْأَوَّلَى ، بَعْدَ أَنْ يَسْتَغْرِبَ مِنْ قُدْرَةِ الْمَمْدُوحِ عَلَى حَمْلِ الرَّمْحِ ،
مَعَ رَقَّةٍ قَوَامِهِ وَلَيْنِ قَدِّهِ ، قَائِلًا : [كَامِلٌ]

17/4 وَيُكَلِّفُ الْأَرْمَاحَ لَيْسَ قَوَامِهِ فَبِذُّمٍ ذَا يَزِنُ وَيَظْلُمُ قَعْضَبًا⁽³⁾
يَتَمَنَّى لِنَفْسِهِ سَيْفًا مِثْلَ لِحْظِ الْمَمْدُوحِ قَاتِلًا ، وَقَلْبًا مِثْلَ دَلَالِهِ جَرِيئًا
فَانكَا :

24/4 . . . قُمْ فَاخْتَرِطْ لِي مِنْ حَوَاشِي لِحْظِهِ سَيْفًا يَكُونُ ، كَمَا عَلِمْتُ ، مُجَرَّبًا
25 وَأَعِزَّ جَنَانِي فَتَكَّةً مِنْ ذَلِكَ كَيْ مَا أَكُونُ بِهَا ، الشَّجَاعَ الْمَحْرَبَا

أَمَّا اسْتِهْلَالُ الثَّانِيَةِ ، فَأَمْرُهُ أَغْرَبُ ، إِذْ يِبَادِرُ فِيهِ الشَّاعِرُ ، مِنَ الْبَيْتِ
الْأَوَّلِ ، إِلَى تَشْبِيهِ الْمَمْدُوحِ بِالْغَزَالِ اللَّطِيفِ الَّذِي لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَحْمِلَ

(1) سيرة الأستاذ جوهر 115 و 123 . والترجمة الفرنسية 181 .

(2) الدرة المضيفة (من كنز الدرر) 254 .

(3) ذويزن : أحد أقبال اليمن - وقعب : جاهلي يصنع الرماح .

1/60 قُولَا لِمُعْتَقِلِ الرَّمْحِ الرُّدْنِيَّ وَالْمُرْتَدِيَّ بِالرِّدَاءِ الْهِنْدُوَانِيَّ
2 ضَعِ السِّلَاحَ ! فَهَلْ حُدِثَتْ عَنْ رَشٍّ فِي مَشْرِفِي صَقِيلٍ أَوْ رُدْنِيَّ ؟

هذا المعنى الغريب ، وهذه المقابلة عند الغلام ، بين الجسم الناعم والحديد الصارم ، كثيراً ما يعود اليهما الشاعر ، كأنه يتذوقهما أو يساير بهما ذوق الجمهور ، ويستخدم لهما كل وسائل الصنعة ، مثلما نراه في المقطوعة التالية ، وهي من زوائد مخطوط تونس 1 : [كامل]

كَمْ قَلْتُ اذْ نَزَهْتُ فِي وَجَنَاتِهِ طَرْفِي ، فَمَا رَجَعْتُ إِلَيَّ مَحَاجِرِي
ذَا - وَيَحْكَمْ ! - مَاءٌ وَجَمْرٌ مُحْرِقٌ فَقَدْ احْتَرَقْتُ ، وَمَا تَرَوَى نَاطِرِي !⁽¹⁾

فاستعارة الروض للخذ المورد ، والمطابقة بين ماء البشرة الصافية والتهاب الوجنة ، كل هذا معروف ، أما الطريف هو هذا التساؤل الكاذب ، أو ما يسمّى عند أهل البلاغة بـ « تجاهل العارف » : كيف يدوم الاحتراق مع توفر الماء ؟ كيف يستمرّ الظمّ والماء متدقّق ؟

وفي مقطوعة أخرى من زيادات تونس 1 ، نراه يدافع ، في غير ما احتشام ، عن هذا المذهب الجنسيّ ، فيفضّل الصلة بالمدّكر على الصلة العادية بين أجناس مختلفة ، ويحتجّ لها فيعدّد مزاياها : لا حيض ، ولا نسل ولا حجاب ! وممّا يزيد الأبيات جرأة ، أنّها موجهة الى امرأة : [سريع]

لَا تَلْجِيْنِي يَا هَذِهِ ! إِنْسِي لَمْ تُضَيِّنِي هِنْدٌ وَلَا زَيْنْبُ !
لَكُنِّي أَصْبُو إِلَى شَادَنٍ فِيهِ خَصَالُ جَمَّةٍ تُرْعَبُ :
لَا يَرْهَبُ الطَّمْثُ ، وَلَا يَشْتَكِي حَمَلًا ، وَلَا عَنْ مَقْلَتِي يُحْجَبُ !⁽²⁾

(1) حوليات 1972/9 ص 84 .

(2) حوليات 1972/9 ص 78 . وقد أورد ابن سعيد الأبيات الثلاثة ، وسها عنها زاهد عليّ .

وفي قطعة أخرى ، نراه يدعو صيقلاً يصنع السيوف الى الانتثار له من « غلام مليح » قام بين يديه يختبر سيفاً ، ولكن يتوسل اليه أن يصون مواطن حسنه الأربعة ، ولا سيّما العجيزة : [بسيط]

... خُذْهُ بشاري جزاءً بالذي فعلاً واقتله عني ، فإنّي بعضُ مَنْ قَتَلَا
أقِذْهُ بي ! وتجنّب منه أربعة : الجيد ، والخذ ، والألحاظ ، والكفلا! (1)

هذه القطع التي لم تنشر في الديوان تكشف لنا كما قلنا عن صورة مجهولة لابن هانيء : صورة شاعر له « غنائية » ككلّ الشعراء الحقيقيين ، ألا أنها غنائية خرجت عن الغزل التقليديّ الجاف الذي لا يترجم عن واقع ، الى غزل تعودت التقاليد الأخلاقية أن تنبذه . فالشعور بالجمال ، والإحساس بالفتنة ، والانسحاق مع العاطفة القويّة ، كل هذا اتّخذ في قلب الشاعر طرقاً شاذّة ، فلذلك عمل على إخفائها في جلّ شعره ، ولم يظهرها الا في بعض الاستهلاكات الملتوية أو بعض المقطوعات شبه السريّة التي لم تتجاوز الندامى والخلآن في مجلس الأنس ، فلذلك غابت عن جامعي الديوان ولم تظهر الا في نسخ قليلة ، كنسختنا هذه النفيسة التي فتحت لنا بفضل زوائدها ، هذه الأفاق المجهولة من شخصيّة ابن هانيء .

وكما وجدنا في الديوان هذه النماذج المكشوفة من الغزل بالمدّكر ، فإننا نجد كذلك نماذج من الشعر الخمرّي ، تتمثل في مقدّمات خمرية لقصائد المدح ، على غرار استهلاكات الأعشى أو أبي نواس . هذه الاستهلاكات توجد حتى في القصائد « الجدّيّة » مثل مدائح المعزّ ، وتتمثل أيضاً في مقطوعات قصيرة تصف مجالس الطرب والشراب ، مثل هذه الأبيات التي يقرن فيها وصف الخمرة بالشرّ الجنسي : [وافر.]

وليلٍ بئٍ أسقاها سُلَافاً معتقة كلون الجُلُثَارِ

(1) حوليات 1972/9 ص 89 .

كَأَنَّ حُبَابَهَا خَرَزَاتُ دُرٍّ عَلَتْ ذَهَباً بِأَقْدَاحِ النَّصَارِ
بَكَفٍ مُقَرَّطٍ يُزْهِى بِرِدْفٍ يَضِيقُ بِحَمَلِهِ وَسُغَ الْإِزَارِ
أَقَمْتُ لَشَرْبِهَا عَبْثاً ، وَعِنْدِي بَنَاتُ اللَّهِو تَغْبُثُ بِالْعُقَارِ
وَنَجْمُ اللَّيْلِ يَرُكُّضُ فِي الدِّيَاجِي كَأَنَّ الصُّبْحَ يَطْلُبُهُ بَشَارُ⁽¹⁾

وقد نظم الشاعر أيضاً مطوَّلة على غرار قصص أبي نواس إلا أنها وحيدة من نوعها ، كأنها « تمرين » قلَّد فيه أبا نواس وأمثاله⁽²⁾ .

وكما لم ندفع عن شاعرنا صفة الشذوذ الجنسي ، لا يسعنا أن ندفع عنه تهمة التعلُّق بالخمير ومستلزماتها : فالميل الى اللهو أمر طبيعي ، ولا سيما عند الشعراء ، وهذا الميل لا ينقص شيئاً من موقفه كشاعر رسمي للبلاط الفاطمي . فالجانب الرسمي من شعره يتمثل في القصائد السياسية النضالية . أما هذه المقطوعات وهذه المقدمات ، فهي فرصة ينتهزها الشاعر ليعبر عن غنائته المكبوتة .

ولا يخفى أن هذا الشعر الخمرى يَدْعُمُ هو الآخر ما رُوِيَ عن شبابه الماجن باشبيلية أو عن ليلته الأخيرة ببرقة .

هذا ما استفدناه من مخطوط تونس 1 . أما بقية النسخ التي تحتوي على مقدِّمة ، فلا نجد فيها ما يلفت النظر ، إلا ما نقله مخطوطا باريس⁽³⁾ ومدرید⁽⁴⁾ في شأن سنَّ الشاعر عندما قُتِل : الخامسة والثلاثين ، ولكنهما ينقلان نصَّ ابن خَلَّكان الذي لم يذكر إلا امكانيتين : 36 سنة أو 42 سنة ؛ فهذا الرقم سهوٌ حينئذٍ أو غلط .

وتزيد مخطوطة مدرید على نسخة باريس - رغم تشابه نصَّ المقدِّمة -

(1) ص 334 من طبعة زاهد علي .

(2) القصيدة 34 .

(3) باريس رقم 3108 .

(4) مدرید رقم CCX 5271 .

بنقلها لخرافة اللقاء بين ابن هانيء والمتنبّي ، وروايتها لحكم المعزّ بين الشعارين ، وهو يفضّل طبعاً شاعره على شاعر سيف الدولة .



وبعد ، فهذه هي المصادر التي نستقي منها معلوماتنا عن ابن هانيء وببئته وممدوحيه ، وهي كما يلاحظ القارئ ، معلومات جزئية غير ثابتة ، ولا سيّما في القضايا الأساسية من حياته ، كنشأته الأندلسيّة وأحوال أسرته ، وتكوينه وتعلّمه ، وأحواله العائليّة ، وظروف وفاته .

بقي لنا أمل العثور على شيء من الإرشادات المفيدة خلال استعراضنا لشعره ، في محاولة لضبط تاريخ القصائد والتعريف بالأعلام المذكورين فيها وبالأحداث التي تشير إليها : فإذا تمّ لنا ذلك - وهو محور الفصل الثاني والثالث من هذا الكتاب - فإننا سنقترح بعد ذلك ترجمة مفصّلة للشاعر .

الفصل الثاني

ديوان ابن هانيء

يبلغ عدد النسخ المخطوطة من ديوان ابن هانيء ثمانى وعشرين نسخة ، بين كاملة وجزئية . هذا العدد يضبط المخطوطات المعروفة ، أي المحفوظة في كبريات المكتبات في العالم ، أو الباقية على ملك بعض الخواص من رجالات الشيعة الاسماعيلية في بلاد الهند .

ولا يخفى أن هذا العدد قد يرتفع بما قد يكشف من مخطوطات مخبأة مجهولة .

وقد اطلعنا منها على نحو عشر نسخ ، بما فيها مخطوطات دار الكتب الوطنية بتونس وهي خمس نسخ . أما البقية ، فعرفناها بالوصف : إما من الفهارس التي تسجل فيها المكتبات الوطنية كنوزها ، وإما من نقل الدارسين ، كوصف ناشر الديوان ، زاهد علي ، للنسخ الهندية التي يحتفظ بها رؤوس طائفة البهرة في سرت وحيدرآباد بالهند⁽¹⁾ ويغارون عليها ويضئون بها على عامة الدارسين ، ولئن تمكن المرحوم زاهد علي من الاطلاع عليها ، فلأنه كان

(1) انظر فصل « البهرة » في دائرة المعارف الإسلامية 2 ، كنه آساف فيضي وهو أيضاً اسماعيلي ، وانظر كذلك ما يقوله المرحوم محمد كامل حسين : في أدب مصر الفاطمية . . . المقدمة ص 8 .

اسماعيليًا ، بل كان أحد رجالات هذه النحلة في بلاده⁽¹⁾ .

وستحدّث في هذا الفصل ، عن النسخ التي عرفناها بالممارسة الفعلية ، ثم نقابلها بالتي عرفناها بالوصف والرواية ، وبعد ذلك ، نحاول أن نرتّب كافّة النسخ ترتيباً زمنياً ، أي بحسب تاريخ نسخها . وفي قسم ثان نتحدّث عن طبعات الديوان .

النسخ المخطوطة :

يظهر أن أقدم النسخ المخطوطة هي النسخة المحفوظة بالمكتبة الوطنية بباريس تحت رقم 3108 . ويرجع تاريخ صنعها الى سنة 858 للهجرة / 1455 للميلاد ، حسب ما يذكره الناسخ في نهاية المخطوطة .

(ب) مخطوط

يتركّب المخطوط من 189 ورقة ، والقصائد مرتبة فيه بحسب حرف الروي ، الهمزة ، الألف ، الباء ، التاء . . . ويتضمّن مقدّمة نجد فيها ، بعد الحمدلة ، ترجمة للشاعر يظهر أنها ، كما قلنا ، نقلت عن نصّ الوفيات ، وان كانت تختلف عنه ببعض الجزئيات ، كحكاية اللقاء بين ابن هانيء والمنتبي ، تلك الخرافة التي نقلها اليافعي ، وينقلها ابن العماد الحنبلي ، ممّا يبعث على الاعتقاد بأن كلّ من مؤلف هذه المقدّمة وهذين المؤرّخين قد أخذوها من مصدر واحد .

ونلاحظ أخيراً أن القصيدة 24 من ترتيب زاهد عليّ - وهي مدحة للمعزّ لا يزال الناس يستذكرون غلوها - قد طرحت أصلاً من هذه المجموعة ، فكأنّ أيدي « التطهير » قد امتدت الى هذا المخطوط فحذفت منه ما قد يُستعظم .

(1) زاهد عليّ : تبين المعاني . . . ص 14 من المقدّمة ، وراجع ما ذكره عنه فيضي في الفصل المذكور عن « البهرة » .

النسخة الثانية توجد بالمكتبة الوطنية بمديرية تحت رقم 210 ج 233 .

تفتح هي أيضاً بمقدمة مماثلة ، ولكن ترتيب القصائد مختلف : فهو ترتيب بحسب الممدوحين : القصائد الأولى هي مدائح المعز ، بدون أن يكون ترتيبها خاضعاً لنظام ما : فالقصيدة الأولى لامية ، والثانية نونية ، والثالثة يعود فيها اللام الخ . . . ولم يذكر تاريخ النسخ ، على أنه ذكر تاريخ التملك باسم شخص يدعى عبد الرحمان الحسيني . التاريخ متأخر : 1668/1080 ، ونسبة « الحسيني » توهم بأن صاحب المخطوط هذا ، كان من نسل فاطمي أو كان على الأقل شيعياً .

وهذه النسبة نفسها ، يتّصف بها صاحب مخطوط الاسكوريال الآتي الذكر ، وهو رجل يدعوه الناسخ باسم « زيد ابن أمير المؤمنين المنصور بن أحمد الحسيني » ، فهل كان هؤلاء أمراء وملوكاً ، أو أفراداً من أسرة مالكة ؟ لعلها إحدى الأسر العلوية التي حكمت البقاع المقدسة قبل حركة الوهابية⁽¹⁾ .

واسم الحسيني هذا أكثر انتشاراً في الزمان والمكان من أن نستطيع معرفة عبد الرحمان الحسيني معرفة صحيحة .

ومهما يكن من أمر المالك ، فإنّ المخطوط لا يجمع كامل شعر ابن هانيء ، بل تنقصه أربع قصائد ، علاوة على القصيدة 24 التي أشرنا إليها ، ولا يمكن هذه المرّة ، أن نتهم « المحافظين » بتطهير المجموعة : فمن هذه القصائد المطروحة - وهي المرتبة عند زاهد علي تحت أرقام 21 و 26 و 32 و 35 - ما لا يتصل أصلاً بالمذهب الشيعي ولا بالحكم الفاطمي ، كالقصيدة 21 التي يتعرّض فيها الشاعر الى ديوان المتنبي . ونجد على هامش القصائد الأولى من النسخة ، بعض الشروح اللغوية المقتضبة .

مخطوط (م. ب) أما نسخة المتحف البريطاني⁽¹⁾ ، فلئن ذهبت منها ورقتا البداية والنهاية ، فهي تزيد على النسختين السالفتين بالقصيدتين 61 و 62 من ترتيب زاهد علي ، اللتين تخلو منهما جلّ المخطوطات : فلذلك لم تردا في الطبعات الأولى من الديوان ، وأوّل ظهورهما كان في طبعة الباحث الهندي الذي اعتمد هذا المخطوط فيما اعتمد .

ويقول زاهد علي ، معتمداً على نوع الورق ، ان تاريخ نسخها يرجع الى القرن السابع / الثالث عشر ، وبذلك يكون مخطوط المتحف البريطاني أقدم نسخ الديوان ، ولكننا نحفظ بفكرتنا في أسبقية نسخة باريس التي ضُبطَ تاريخ نسخها .

في هذه النسخة ، لا نتبيّن ترتيباً واضحاً للقوائد ، فلا هو بحسب الممدوحين ، ولا على الأبجدية : فالقصيدة الأولى قافية وهي في مدح ابن أمير المسيلة ، والثانية ثائية في مدح جعفر ، والأخيرة فائية في مدح المعز .

مخطوط (ا س) وكذلك الأمر بالنسبة الى مخطوط مكتبة الاسكوريال باسبانيا⁽²⁾ ، فهو يبدأ بالقصيدة رقم 13 الدالية ، ولا نعرف كذلك تاريخ انجاز هذه النسخة التي لا تتضمن مقدّمة ولا خاتمة .

النسخ التونسية

مخطوط (ت 1) ونصل بعد هذا الى نسخ دار الكتب الوطنية بتونس التي لم يطلع عليها زاهد علي . هذه النسخ الخمس تتفاوت قيمتها ، فأهمّها هو المخطوط رقم

(1) عدد B. M. 3767 .

(2) عدد 443 .

13746 الذي لقبناه « تونس 1 » ويتألف من 124 ورقة رُتبت عليها القصائد ترتيباً أبجدياً على حرف الروي .

ولهذا المخطوط ميزتان : قدم العهد أولاً ، فقد نسخ سنة 1594/1004 ، وهو تاريخ قريب نسبياً ، إلا أن الأصل الذي نقل عنه يرجع تاريخه الى سنة 1211/608 ، وهو أقدم تاريخ يشهد بوجود ديوان مصنف لشعر ابن هانيء . فالمخطوط يعتمد على نسخة قديمة جداً ، وإن كانت مفقودة ، من ديوان ابن هانيء .

والميزة الثانية هي اشتماله على 8 قصائد و 18 مقطوعة غير مذكورة في بقية النسخ المعروفة . فالقصائد مهداة الى ممدوحين ، منهم المعروف بالخليفة المعز وأمير المسيلة ، ومنهم المجهول كالكاتب «أحمد بن زائدة» . أما المقطوعات ، فقد لفتت انتباهنا بما كشفت لنا من مخبآت ميول الشاعر وطباعه . هذه الزيادات التي ينفرد بها مخطوط تونس 1 تضيف الى طبعة زاهد علي - وهي أكمل من سابقتها ومن لاحقاتها كما سرى - 368 بيتاً من شعر ابن هانيء .

وقد صرح ناسخ المخطوط بأنه نقل هذه القطع الإضافية « من غير الأصل المنقول عنه » : يعني هذا أنه اعتمد أصليين : الأصل العادي إن صح التعبير ، وهو مخطوط سنة 608 الذي نتوقع أنه لا يختلف عن النسخ الموزعة اليوم في العالم ، والتي كانت مصدراً لطبعات الديوان ، ثم الأصل المجهول الذي فُقد هو الآخر ، وبقينا نجهل في شأنه هل كان يتضمن كل شعر ابن هانيء أم هو يقتصر على هذه الإضافات لا غير ، والأقرب الى الظن أنه كان نسخة كاملة من الديوان ، أو على الأقل نسخة أكمل من نسخة سنة 608 .

هذا ، وقد أشرنا الى المعلومات الطريفة التي أفادتنا بها الترجمة الواردة في ذيل المخطوط ، مما يبعث على الاعتقاد بأنها ترجمة سابقة حتى لنص ابن الأثير في التكملة ، نظراً لقدم الأصل المعتمد .

وخاتمة القول في مخطوطات 1 ، أنه صالح ، بفضل هذه الزيادات
أولاً ، وبفضل وجوده في تونس أي إفريقية موطن الشاعر ثانياً ، أن يكون أصلاً
يعتمد لطبعة جديدة للديوان ، تجمع كامل الشعر المعروف حتى اليوم .
وسنحاول تحقيق هذه الأمنية ان شاء الله .

مخطوط (ت 2) المخطوط الثاني - ونسميه ت 2⁽¹⁾ - نُقل سنة 1847/1264 عن ت 1 ،
الذي كان قد حُبِس على مكتبة الجامع الأعظم ، أي جامع الزيتونة ، ابتداء
من سنة 1839/1256 ، كما يشهد به عقد التوقيف المثبت في صدر نسخة ت
1 . غير أن هذه النسخة ت 2 تنقطع عن نقل ت 1 ابتداء من ورقة 74 وجه ، فلا
تنقل اضافات ت 1 الواردة ابتداء من قافية اللام ، وقد أهمل الناسخ كذلك
المقدمات التي تعلق القصائد ولم يحسن خطه ، كأنه أتقن العمل في أول
النسخ ، فاعتمد نسختين ، منهما ت 1 ، ثم أعجله أمر فطرح النسخة
الطويلة - ت 1 - واكتفى بنقل الأصل القصير الذي لا يتضمن اضافات ، بهذا
يمكننا أن نبرّر وجود بعض زيادات ت 1 في هذه النسخة وفقدان الأخرى .

ثم نجد ، في مخطوطات دار الكتب التونسية ، نسختين متشابهتين وان
مخطوط (ت 3) اختلفتا عن السابقتين : أولاهما - ونسميها ت 3⁽²⁾ - نقلت سنة 1695/1107 ، وقد
كانت على ملك الفقيه التونسي الشيخ إبراهيم الرياحي (ت 1849/1266) ،
ولعله كان اقتناها بالشرق أثناء إحدى سفراته - أو سفاراته - لأن خط النسخة
مشرقي واضح أنيق مطعم بالمداد الأحمر ، وإن كان ناسخها - واسمه محمد
الشرابي - نُسب في المقطوعة التي نظمت بمناسبة اختتام النسخ ، الى
المغرب . ويبدو أن المخطوطة كانت ، قبل وصولها الى الشيخ إبراهيم
الرياحي ، على ملك رجل يدعى « أحمد الدلنجاوي » ، تقول المنظومة إنه

(1) ت 2 : رقم 2231 قديم .

(2) ت 3 : رقم 15850 .

هو الذي قام بتزيين المخطوطة بالتزويق الحمراء . وأحمد الدلنجاوي هذا ليس مجهولاً تماماً ، فقد كان على ما يقول بروكلمان ورضاً كحالة⁽¹⁾ ، شاعراً مصرياً ، عاش حتى سنة 1711/1123 ، وخلف ديوان شعر طبع ببلاق سنة 1885/1303 . فتكون المخطوطة مرّت بأيدي شاعرين ، الدلنجاوي والشيخ الرياحي الذي كان ينظم الشعر في المناسبات ، ولا سيّما السفارات لدى الباب العالي .

خطوط (ت 4) النسخة الأخرى - ت 4 - نقلت بحذافيرها عن ت 3 ، سنة 1834/1250 ، فقد نقلت حيثُذ في حياة الشيخ ابراهيم الرياحي صاحب النسخة المنقول عنها ، وأوقفت هي الأخرى على مكتبة الجامع الأعظم ابتداء من صفر 1873/1291 ، ويفهم من الإشارة الواردة في ذيل المخطوطة أنها كانت على ملك المؤرّخ التونسي أحمد بن أبي الضياف المتوفى في شعبان من نفس السنة / أكتوبر 1873 ، فيكون صاحب الاتحاف قد تخلّى عنها لغيره أو جعلها من أحباس الزيتونة خمسة أشهر قبل وفاته .

خطوط (ت 5) أمّا بقية المخطوطات التونسية ، فهي جزئية لا تجمع كامل الشعر ، بل مختارات منه ، فالنسخة التي ورثتها دار الكتب عن العلامة التونسي ح . ح . عبد الوهاب قبيل وفاته سنة 1968 ، وتحمل رقم 18624⁽²⁾ ، هذه النسخة تنقل بعض المطولات فقط برمتها ، أمّا بقية القصائد ، فتشير إليها بالبيت الأول منها الذي يصبح هكذا عنواناً لها ، فالقصيدة 24 مثلاً لا يعرف وجودها الا ببيتها الأول : [كامل] .

ما شئت لا ما شاءت الأقدارُ فأحكّم فأنث الواحدُ القهّارُ
ورأى صاحب النسخة في خصوص هذه القصيدة بالذات أن يبرّر

(1) بروكلمان 260/2 والملحق 388/2 . كحالة : 220/1 .

(2) انظر قائمة المخطوطات المهداة الى دار الكتب الوطنية في الحوليات 1970/7 .

اقتصاره على هذا المطلع بما يوجد في القصيدة من شرك ، فنقل لنا حكماً قاسياً لابن شدّاد صاحب تاريخ القيروان على كفر ابن هانيء . فهذه فرصة أخرى نتحرّس فيها على فقد هذا الكتاب .

ونسخة ح . ح . عبد الوهاب هذه - ت 5 - صُنّفت سنة 1275/1859 : وتشتمل على 102 ورقة تتقدّمها بعض الاشارات في ترجمة الشاعر وبعض الأحكام في شعره ، منقولة عن مطمح الأنفس لابن خاقان ، وعن الوفيات ، وعن « عيون التواريخ » لابن شاکر الكتبي (764/ 1362) .

أما النسخ الموالية ، فتكتفي بنقل بعض القصائد المختارة ولا تنقلها كاملة، وهكذا نجد في مخطوط (ت6)⁽¹⁾ فقرات من القصائد: 31 و 40 و 48 و 53 ، جمعت مع فقرات أدبية أخرى مختلفة المناهج والأغراض ، ضمن « كشكول » نسخه أو انتسخه سنة 1279/1862 الفقيه التونسي محمد بيرم الثاني . والقصيدة الأولى من هذه المجموعة اشتهرت عند القدماء والمحدثين بوصفها للنجوم الذي يستهله الشاعر بقوله : [طويل]

أَلَيْلَتُنَا إِذْ أَرْسَلَتْ وَارِداً وَخُفْفاً وَبِتْنَا نَرَى الْجَوَازِءَ فِي أُذُنِهَا شَفْفاً
فصاروا يتناقلونها ويتمثلون بها .

فلا بدع حينئذ أن لا نجد في ثلاثة كنانيش إلا هذه القصيدة « الفلكية » من شعر ابن هانيء ، الى جانب مختارات مختلفة من شعراء وأدباء آخرين⁽²⁾ .

وشبيه بهذه المجموعات التونسية ، مجموع تحتفظ به مكتبة

(1) ت 6 : رقم 436 .

(2) ت 7 وت 8 وت 9 : رقم 3920 و 18768 و 18458 .

الأمبروزيانية بميلانو⁽¹⁾ ، الا أنه لا يتضمّن الأبيات الفلكيّة ، بل فقرات من القصيدتين 20 و 26 ، مع منتقيات لغيرابن هانيء .

النسخ الأخرى

هذه هي النسخ التي تسنّى لنا أن نطلع عليها بنفّسنا ونمارسها ممارسة فعليّة . ولم نتمكّن من الاطلاع على بقيّة المخطوطات التي بنى عليها زاهد علي طبعته للديوان سنة 1352/1933 ، فاضطررنا إلى الاكتفاء بما نقلته عنها الفهارس المختصّة كفهرست أهلوارت أو روزين ، أو ما وصفها به زاهد علي في مقدّمته⁽²⁾ . هذه الأصول الأخرى تتوزّع كما يلي :

- نسخة بالمتحف البريطاني ، وهي غير التي عرفناها .

- نسختان باكسفورد .

- نسختان بالمتحف الآسيوي بليتنغراد .

- نسختان ببرلين .

- نسختان بدار الكتب بالقاهرة .

هذا الى جانب النسخ الأربع التي يملكها جماعة من البهرة بسُرت وحيدآباد ، ومنهم بعض أقارب الناشر .

ولنذكر أخيراً مخطوطاً آخر تحتفظ به المكتبة الوطنيّة بباريس ، مع كُشّ يتضمّن قطعة مختارة من شعر ابن هانيء⁽³⁾ .

ترتيب القصائد في المخطوطات :

هذه النسخ كلّها حديثة العهد نسبياً ، وقد ربّبت القصائد في معظمها

(1) رقم 118 من فهرست قريفيّ ج 1 ص 593 .

(2) تبين المعاني ... ص 12-16 من المقدّمة .

(3) رقم : 6031 و 6034 من فهرس Blochet .

بحسب الممدوحين ، ولا نجد ترتيباً أبجدياً مثلما هو الشأن في (ت 1) و
(ب) غير أن بعض النسخ تفتتح بالقصيدة الثالثة عشرة : [طويل]

1/13 أَلَا طَرَفَتْنَا وَالْجُجُومُ رُكُودُ وفي الحَيِّ أَيْقَاطُ ، وَنَحْنُ هُجُودُ
على غرار مخطوط (م . ب) .

هذا ونحاول ، في الجدول الذي نقدّمه في آخر هذا الفصل ، أن نرتّب
المخطوطات ترتيباً زمنياً تقريبياً ، بالاعتماد على تاريخ التصنيف كلّما ذكر ، أو
على تاريخ الوقف أو التملّك ان وجد : في الوادي الأول والوادي الثاني ،
نعرف المخطوط بمصدره وعلامته ، ونذكر التواريخ في الواديين الثالث
والرابع ، ونشير في الوادي الخامس إلى أنواع الترتيب ، وهي في الواقع
متباينة لا تجمع بينها وحدة . أما الوادي السادس فخصّصناه للملاحظات :
نلفت الانتباه الى كون المخطوط كاملاً يجمع كل الشعر ، أو جزئياً يقتصر على
مختارات منه ، وإلى وجود مقدّمة مثلما في (ب) و (م) . وأنّ وجود هذه
المقدمة لا يشكّل حجة على تشابه المخطوطات وانحدارها من أصل واحد :
يشترك (ب) و (م) مثلاً في المقدّمة ولكنّهما يختلفان في الترتيب .

وحتى الترتيب لا يشكّل حجة : فـ « ب » و « ت 1 » يتبعان الترتيب
الأبجدي ، ولكنّهما يفرقان بالنقص والزيادة . والترتيب بحسب الممدوحين لا
يخلو نفسه من بعض الفوضى : هناك نسخ تبدأ بمدائح المعزّ ، ثم تتركه الى
مدائح بني حمدون ، ثم تعود الى الخليفة في أواسط الديوان او حتى في
نهايته . وكذلك الأمر بالنسبة الى أمراء المسيلة : بعض مدائحهم يرد في
المرتبة 20 من الديوان ، (أي القصيدة العشرون من النسخة تكون في
مدحهم) ، ثم تنقطع فتعود في المرتبة 51 ، وتنقطع من جديد ، فتعود في
القصيدة 63 . فلا نتميّز بين هذه الأنواع من التنظيم ، ترتيباً يراعي مثلاً أفضليّة
الخليفة فيقدّم مدائحه على مدائح ولاته وقوّاده . ولئن توسّنا في بعض النسخ
مثل هذا الترتيب ، فسرعان ما يخيب الظنّ فنلاحظ الخلل .

ولا نتميز كذلك ترتيباً ما ، أبجدياً أو تاريخياً ، ضمن القصائد الموسومة باسم الشخص الواحد : نعني أن مدائح المعز مثلاً ، اذا وردت مجموعة متتابعة ، فإنها لا تتوالى بتوالي حرف الروي ولا بتوالي الأحداث والزمان ، بل ترتب كما يطيب للناسخ أن ينقلها أو يرتبها .

غير أننا نجد أحياناً ، ضمن الترتيب الأبجدي المتبع في (ت 1) و (ب) تبويماً ثانوياً يعتمد الاشتراك في الممدوح ؛ نعني أنّ القصائد الهمزية ، أو البائية ، أو الدالية ، اذا اجتمعت في نسخة ، فقد تتقدمها مدائح المعز ، ثم تليها مدائح جعفر بن حمدون ، وهلمّ جرّاً ، ولكن هذا التبويب سرعان ما يختل فتعود الحرية المطلقة ابتداء من قافية الرأء .

وواضح ،إزاء هذا الاختلاف في الترتيب ، أنه يتعذر علينا أن نعين للقصائد وللمخطوطات تاريخاً صحيحاً ولا مصدراً ثابتاً ، فنجزم بأن قصيدة كذا نظمت في بلد كذا وفي تاريخ كذا ، وأن المخطوط الفلاني نسخ في تونس أو في مصر . وأنما نضطرّ ، في كل هذا ، الى الافتراض والتخمين ، وغاية ما نتجاسر عليه ، في البحث عن أصول المخطوطات ، هو أن نرجح أنّ النسخ التي تفتح بمدائح المعز هي نسخ فاطمية أو منقولة عن أصل فاطمي ، لأنها تقدّم الخليفة فتجعله في الديوان ، أول الممدوحين ، وان لم يكن في الترتيب التاريخي الا ثالثهم أو رابعهم .

طبقات الديوان :

لقد طبع ديوان ابن هانيء ثلاث مرّات قبل الطبعة المحقّقة التي قام بها زاهد علي سنة 1933/1352 . طبع أوّل مرّة ببولاق سنة 1857/1274 ، ثم طبع ببيروت سنة 1886 ، وظهرت الطبعة الثالثة ببيروت أيضاً سنة 1907/1326 .

طبعة بولاق :

تتألف من 160 صفحة مسبوقة بترجمة للشاعر منقولة عن ابن خلكان ،

ويقول الناشر انه رأى من الصالح أن يرتب القصائد ترتيباً أبجدياً ، مما يبعث على الاعتقاد بأن الأصل الذي بنى عليه طبعته لم يكن مرتباً بمثل هذا الترتيب : ولعلّه انطلق فعلاً من النسختين المحفوظتين اليوم بدار الكتب بالقاهرة : فهما مختلفتا التبويب بعيدتان كلّ البعد عن الترتيب الأبجدي .

والآيات فيها غير مشكولة ، وقد تكلف الناشر نقل بعض الشروح اللغوية في الهوامش ، ألا أنّ الطباعة رديئة جداً لا تكاد تتضح حروفها ، والديوان بعد هذا خال من كل فهرسة .

طبعة بيروت الأولى :

ظهرت سنة 1886 في 232 صفحة ، والطبع أقل اختلالاً منه في السابقة ، وبالرغم من إلغاء التعاليق الهامشية ، فإنها منقولة عن طبعة بولاق : فالترتيب هنا أيضاً أبجديّ وعنوانه القصائد مماثلة وكذلك القراءات الخاطئة . إلا أنها تزيد عليها بفهرس للغلط المطبعي .

وقد صرّح ناشرها « شاهين عطية » بأنه طبع الديوان على نفقة « لطفي الزهار » و « عمر هاشم » وهما رجلان يحترقان تجارة الكتب بدمشق ، ولا شيء في الإشارة يبعث على الظن بأن هذين الكتبيين كانا شيعيين وأن طبع الديوان كان بدافع مذهبي .

طبعة بيروت الثانية :

طُبعت سنة 1907/1326 على مطابع جريدة « الإقبال » وهي إحدى الصحف الإسلامية الثلاث التي كانت تصدر آنذاك ببيروت⁽¹⁾ ، ولا تختلف عن السابقتين إلا برُجوعها الى الشروح اللغوية القليلة التي كانت نقلتها طبعة بولاق .

(1) ف . طرازي : تاريخ الصحافة العربية . . . ص 8-9 من الفهرس العام .

شرح زاهد علي

هذه النقاخص المنجّرة عن فقدان كل عمل تحقيقي من الطبقات الثلاث وبالخصوص عن انعدام المقابلة بين المخطوطات حملت أحد أساتذة المعهد النظامي بحيدرآباد بالدكن في القطر الهندي ، على الشروع في تحقيق الديوان وشرحه ، والتقديم له بمقدّمة ضافية . أنجز هذا الباحث - واسمه زاهد علي ، وهو سليل أسرة شيعيّة اسماعيليّة بحيدرآباد - عمله ، فشفعه بترجمة انجليزيّة للديوان ، تقدم بهما سنة 1932/1350 لنيل شهادة الدكتوراه البريطانيّة من جامعة اكسفورد . ثم نشر الديوان بالقاهرة سنة 1933/1352 تحت عنوان : « تبين المعاني في شرح ديوان ابن هانيء » ، فالعمل ليس ضبطاً للنصّ فحسب بل هو أيضاً شرح وتقديم .

بنى الشارح تحقيقه على طبقات الديوان الثلاث ، وعلى عدد كبير من المخطوطات ، واعتمد منها خاصّة نسخة المتحف البريطاني التي تحدّثنا عنها (م . ب) : فقد اتخذها أصلاً لضبط النصّ نظراً لما ارتآه فيها من قدم العهد واكتمال المادّة . واعتمد أيضاً النسخ المحفوظة في الهند عند طائفة البهرة بسُرت ، وعند بعض أفراد عائلته ، واستخدم بالخصوص شرحاً للقوائد المعزّيات - أي مدائح ابن هانيء للمعزّ - صنّفه على النهج الباطنيّ أحد أقاربه ، الشيخ حميد الدين عليّ ، فقال انه اعتمد عليه كثيراً لفهم الأبيات المتعلّقة بالعقيدة الاسماعيليّة وبالقاب الأئمة وصفاتهم ، ثم شرحها⁽¹⁾ وأضاف الى مادّة الديوان بعض المقطوعات وأبياتاً منفردة اكتشفها في مطمح الأنفس لابن خاقان وفي نفع الطيب .

وبهذا كانت تكون طبعته أكمل طبقات الديوان وأجمعها لشعر ابن هانيء ، لولا اغفاله للمخطوطات التونسية ، ولا سيّما (ت 1) بزياداتها

(1) زاهد علي : تبين - ص 9 من المقدّمة .

الهامة ، وانا لنستغرب هذا السهو من زاهد علي ، وقد كان رحمه الله باحثاً رصيناً وأديباً عارفاً ، اذ كان عليه ، أثناء استقرائه للنسخ المخطوطة ، أن يتجه أولاً وبالذات الى تونس وارثة الحضارة الافريقية التي زانها مجد الشاعر . ونستغرب كذلك أن يسهو أستاذه المشرف على بحثه - وهو المستشرق مرغليوث المعروف بحملته على الشعر الجاهلي - عن النسخ التونسية فلا يدعوه الى التحقق من وجودها .

هذا الشرح الضخم يتألف من 818 صفحة من الحجم الكبير ، مصدرة بمقدمة ذات 61 صفحة . في هذه المقدمة ، يشرح الناشر أولاً دوافعه الى هذا العمل ، ثم يصف الطبعات الثلاث التي سبقت الديوان ، وكذلك المخطوطات التي حقق بها طبعته ، وهي ثمانية عشر مخطوطاً ، تأتي بعد ذلك ترجمة للشاعر مستوحاة من كلام ابن الأبار وابن خلكان وابن الخطيب ، وتليها جملة من الأحكام في قيمة الشاعر للقدماء وبعض المستشرقين يشفعها زاهد علي برأيه هو في ابن هانيء مع مقارنته بالمتنبي .

وفي قسم ثان من هذا التصدير ، يترجم الناشر لأهم ممدوح الشاعر ويبسط أبرز الأحداث التي تخللت خلافة المعز . ثم يشرح عناصر العقيدة الإسماعيلية مستشهداً بأبيات من الديوان ، مبرراً ما اعتبره السيئون غلواً من الشاعر ومروقاً عن الدين ، ومُبرِّئاً ساحته من تهمة الكفر .

ولا يخفى أنَّ هذا الباحث الاسماعيلي معجب بابن هانيء ، فهو يعادله بأعظم الشعراء ، ولا سيما المتنبي .

ويختم المقدمة بقاموس قصير جمع فيه ثلاثين كلمة من غريب الديوان ، مما لا يخضع حسب رأيه لمقاييس اللغة ، وينقل أخيراً نصّ المقدمة التي تنصّد نسختي (ب و) (م) .

أما الشرح ، فقد صرّح الناشر نفسه بأنّه احتذى فيه حذو العكبري (1219/616) شارح ديوان المتنبي . هذه المجازاة تظهر من عبارة العنوان :

« التبيان في شرح الديوان » عند العكبري ، و « تبين المعاني في شرح ديوان ابن هانيء » ، أي في مشابهة « تبيان » و « تبين » . غير أن المشابهة لا تقف عند هذا الحد : فهو يتبع منهج العكبري في الاهتمام أولاً بـ « الغريب » أي باللفظ الذي يحتاج الى شرح معجمي ، غير أن شرح المادة يجر ، كما هو الشأن عند العكبري وغيره من الشراح القدامى ، الى الاستشهاد الكثير على معانيها واستعمالاتها بشواهد من القرآن والحديث والأمثال والشعر القديم ، وبالتالي يتضح هذا القسم الأول من الشرح ، على حساب القسم الموالي الذي يبدو هزيلأ أحياناً .

في هذا القسم الثاني يأتي بسط الفكرة والتعليق عليها ، ويقدمه الشارح بعنوان « المعنى » : هذا الشرح المعنوي كثيراً ما يقتصر على تلخيص الفكرة او إعادتها بعبارة أخرى ، دون ما تعمق ولا إفهام حقيقي : وربما غاب المعنى عن فطنة الشارح تماماً ، فينبهنا تارة الى تعذر التأويل متهمأ التحريف في البيت ، وتارة يسكت عن المعنى أصلاً ويكتفي بالغريب ، ويلتجئ أحياناً الى الشرح الإجمالي ، ولا سيما في القصائد الأخيرة ، فيجمع خمسة أبيات وحتى ستة فيقدم تأويلاً لها إجمالياً . واذا وقعت في البيت قراءات مختلفة ، فهو يذكرها مع الرمز الى مظانها من المخطوطات ، ويثبتها على سطر خاص بين نص القصيدة والشرح . ولم يحاول الشارح تأريخ القصائد ، وإنما اكتفى بنقل الاشارات القليلة الواردة في المخطوطات . فلا تنفعنا هذه الطبعة في تبويب القصائد بحسب تاريخ نظمها ، ولا تغنينا عن محاولة الترتيب الزمني التي نقدم عليها في الملحق الثاني من هذا الفصل . الترتيب في هذا الديوان أبجدي والأبيات مشكولة كلها ، والطباعة حسنة واضحة أنيقة . وينتهي الكتاب بفهارس ثلاثة : للأعلام ثم للأماكن ثم للمراجع ، ولكنها تقريبية لا تفي بكل الأسماء المذكورة في المقدمة أو في الشعر وشرحه . أما فهارس المقدمة وفهارس الديوان فتصدر الكتاب ، على الطريقة الانجليزية ، عوض أن تذيله .

ولكن ، بالرغم من هذا النقص المتمثل في انعدام الترتيب التاريخي للقصائد أولاً ، وفي استمرار الغموض في شأن بعض الممدوحين والأشخاص وبعض الأحداث التي تشير إليها الأبيات ، ثم في إغفال الشعر الإضافي الذي تضمنته مخطوط (ت 1) ، بالرغم من كل هذا ، فإن طبعة زاهد علي هي أتنّ طبعة ظهرت حتى اليوم .

ولعلّ محاسنها الكثيرة هي التي أغرت الناشرين المتأخرين بنقلها مع شيء من الحيطة ، دون ما إشارة الى الناشر الهندي فضلاً عن الاعتراف بجميله : وهكذا فإنّ طبعة بيروت التي ظهرت سنة 1952 ثم تكرّرت كما هي مراراً ، لئن احتفظت في الظاهر بالترتيب المتبع في طبعة سنة 1886 ، واقتصرت على المادّة المنشورة فيها ، بدون استيلاء على إضافات زاهد علي ، فهي في الواقع تستثمر مجهوداته ، في شكل الأبيات وفي تصحيح القراءات وحتى في الشروح ، على قلّة غنائها هنا ، دون أن تذكر اسمه ولو مرة واحدة .

محاولة ترتيب القصائد ترتيباً زمنياً :

لا نتوقّع من هذا العمل أن يفضي بنا إلى نتائج ثابتة يوثق بها . ذلك أن ندرة الاشارات التاريخية في ديوان ابن هانيء وفي مقدّمات النسخ ، تحول دون معرفة تاريخ القصائد بصفة مضبوطة . ولكنّ هذه القلّة لا تصدّنا عن الاجتهاد في استنطاق الأبيات والتعليقات المبوّثة هنا وهناك ، ومقابلتها بما عرفناه في مصادر أخرى عن الشاعر وبيئته ، لتتمكّن من وضع هذا الشعر في المراحل الثلاث أو الأربع التي مرّت بها حياة ابن هانيء القصيرة .

ولنقرّ أولاً حقيقة لا مناص منها ، لتّضح لنا الأمور في محاولة ترتيب الشعر وتبويبه بحسب مراحل حياة الشاعر . هذه الحقيقة هي أنّ جميع شعر الشباب ، أي الشعر الذي نظم بالاندلس قد ضاع وتلاشى أو أهمل والغني ، ولا أدلّ على هذه الحقيقة من سكوت أصحاب التراجم ، وجامعي الشعر ،

ومؤلفي المختارات الأدبية ، سواء كانوا أندلسيين أو مشاركة : فلا أحد منهم يروي بيتاً وينسبه الى الفترة الأندلسية ، فكأن حياة ابن هانيء الأدبية قد بدأت بأرض المغرب ، حوالي سنة 958/347 ، عند بلوغه السابعة والعشرين من عمره .

وعندما وطئت قدماه أرض العدو ، شرع في التنقل عبر أقطار المغرب ، فمرّ بفاس حيث كان جوهر الصقلّي يحاصر آخر الأدارسة ، ثم انتقل الى المغرب الأوسط فاستقر مدة بالمسيلة عاصمة الزاب ، ثم دخل افریقیة في خدمة البلاط الفاطمي ، وانتهى به المطاف فجأة ببرقة قرب بنغازي الحالية .

فإذا اتّضح لنا هذا الخطّ المنطلق من الغرب نحو المشرق ، وتعيّنت لدينا منه نقط الاستقرار أمكننا أن نقدر تقديراً أولياً تاريخ بعض القصائد :

فتكون أولاها في التاريخ، أي أولى قصائد الديوان إن رتبناه ترتيباً زمنياً، هي القصيدة رقم 10 التي مدح بها جوهرأ أثناء حملته بالمغرب الأقصى بين سنة 347 و 348/ 59 - 958. ذلك أن أصحاب التراجم يتفقون على أن أول من مدحه الشاعر عنه وصوله الى المغرب هو القائد الفاطمي . ثم أنّ هذه القصيدة تذكر الثوار الذين قهرهم جوهر ، وتسميهم بأسمائهم فمنهم « ابن واسول » الذي تمرد على المعز وأعلن استقلاله بسجلماسة : [طويل]

33/10 وأدرکت سؤلا في ابن واسول عنوةً وزحزحت منه يذبلاً فتزحزحاً

ومنهم رئيس قبائل مكناسة حليف الأمويين ، موسى بن أبي العافية :

56/10 وفي آل موسى قد شئت وقائعا أهبت لهم تلك الزعازع لقعاً

ثم تأتي فترة الزاب ابتداء من سنة 959/348. الى هذه الفترة يمكن أن نعزو نحو 29 قصيدة تتصل كلها بأمراء المسيلة ، ولكن لا يمكن أن نجزم بأنها نظمت كلها بالمسيلة : فالقصيدة 16 يبدو أنها نظمت سنة 967/356 ، أي بعد

انقطاع الشاعر عن خدمة بني حمدون بثلاث سنوات ، فلعلّ الشاعر نظمها بالقيروان وأرسلها الى جعفر : ثم إن أمير المسيلة ، حسب ما تنقله توطئة القصيدة 15 ، كان يتردّد على عاصمة الخلافة : فالأتصال بين الشاعر وممدوحه السابق ممكن اذن ، ولعلّ ابن هانئ نفسه كان يتردّد على المسيلة وربما كان له بها مقرّاً ثابت كما سنرى .

كثّاً نخاطر اذن لو وضعنا كل هذه القصائد في فترة المسيلة ، خصوصاً وأنه يصعب علينا أن نضبط حدود هذه الفترة ، فلئن أمكن أن نعرف بدايتها بفضل لقاء الشاعر مع جوهر بالمغرب الأقصى ، فلا يمكن أن نحدّد نهايتها الا بالافتراض والترجيح .

وكان من المنتظر أن تدلّنا هذه القصائد على أزمنتها ، لما تتضمنه من إشارات الى الحروب التي يخوضها الأخوان جعفر ويحيى ضدّ القبائل المتمردة ، ومن تفصيل للحوادث السائرة أو المؤلمة التي تقع بالبلاط الحمدونيّ ، ولكنها إشارات ، لئن تدخّل فيها خيال الشاعر ، فعظّم الحقيّر وفخّم التوافه ، وصعد بالعادي المبتذل الى أجواء الزلازل والخوارق ، فهي لا تملك من التدقيق ما يسمح بتحديد زمانها : فلا المكان يُذكر بالضبط ، ولا الزمان يدقّق ولا حتى اسم الخصم .

ولا نلوم الشاعر في إيهامه هذا : فوظيفته حين يمدح ، أن يزيّن ويضخّم ، لا أن يعلم ويحقّق ويتبسّط كما يفعل المؤرّخون .

على أنّ هؤلاء - وحتى المختصّين منهم بأخبار الفاطميّين مثل ابن حمّاد - لم يعيروا بلاط بني حمدون اهتماماً كبيراً حتّى يفصلوا نشاطهم العسكري أو يتفجّعوا على وفاة أمّهم أو يبتهجوا بتشييد قصر لإبراهيم ، كما يفعل ابن هانئ .

فكيف نحدّد اذن نهاية إقامة الشاعر بالزاب ؟ قد نحدّدها ببدء اقامته بافريقية عند المعزّ ، أي ببدء نظم المدائح في الخليفة . ولكن من مدائح

المعزّ ما نظم على ما ترجّح سنة 961/350 . فهل نقول أنّ الشاعر انتقل الى افريقيّة سنة 350 ، أي بعد سنتين فقط من دخوله في خدمة أمراء الزاب ؟ لو قبلنا هذا التاريخ ، لحصرنا هذه القصائد التسع والعشرين في فترة لا تتجاوز العامين ، أي بنسبة 15 قصيدة في العام ، وهي نسبة ضخمة لا تتفق مع ما نعرفه من عادات الأمراء ومادحيهم .

فالأغلب على الظنّ أن اقامة الشاعر بالزاب تواصلت أكثر من سنتين ، ولعلّه ترك المسيلة في غضون سنة 964/353 كما سنرى ، ولكنّه مهّد لدخوله في خدمة المعزّ بأن أرسل اليه من المسيلة مدحتين : القصيدة 9 التي تتفق النسخ المخطوطة على أنها « أوّل شعر مدح به المعزّ » دون أن تصرّح بأنّه أنشدها بين يديه ، والقصيدة 11 ، والمرجّح عندنا أنّه نظمها سنة 961/350 .

وسيقع مثل هذا المدح بالمراسلة بعد أن يستقرّ الشاعر ببلاط الخليفة ، فينظم في أميري الزاب القصيدتين 15 و 16 .

ولئن تعذّر علينا أن نحدّد تاريخاً لهذه القصائد الحمدونيّة ، فقد يمكن أن نرتبها بالنسبة الى بعضها بعضاً ، وذلك باستثمار ما يرد فيها من اشارات ، كالأخبار بالوفيات مثلاً : نفهم من القصائد 14 و 19 و 59 أن أمير الزاب أصيب ، أثناء اقامة الشاعر عنده ، في حفيد له ، ثم في والدته ، ويسهل أن نقدّم القصيدة الرابعة عشرة على الآخرين ، أي وفاة الطفل على وفاة الجدّة ، ذلك أن الشاعر يشير في الأولى الى فقيديّن : والد الأميرين ، علي بن حمدون ، ووفاته قديمة نعرفها من المؤرخين (945/334) . ثمّ الطفل ، ابن إبراهيم بن جعفر : [رمل]

58/14 أي مفقوديك تبكيه : أب هبرزيّ أنت منه ، أم ولّد؟

في حين أنه يذكر في القصيدة التاسعة والخمسين ، ثلاثة أموات ، لأن الجدّة التحقت في الأثناء بزوجها وبالحفيد : [متقارب]

قبورُ الثلاثةِ في مصرَ أما كان في واحدٍ ما كفى ؟

الى هذا المقياس الممكن في ترتيب القصائد ، يمكن أن نضيف معيارين آخرين : الأول يعتمد أصداء العقائد الشيعية فيها ، والثاني ينظر الى ما قد تتضمنه من اشارات شخصية خاصة بالشاعر .

فالمعيار الأول يمكن أن نلخصه كما يلي : اذا بدت تعاليم الشيعة ضعيفة خافتة في قصيدة ما ، فهي من أول ما نظم ، وان تبد لنا القصائد مفعمة بالمعتقدات الاسماعيلية مغالية في تقديس الأئمة الفاطميين ، فهي متأخرة في الزمن ، وهو معيار يفترض فكرة قد تقبل وقد تدفع : وهي أن ابن هانيء أول دخوله المغرب كان خالي الذهن تقريباً من المبادئ الشيعية ، وأنما تعلمها شيئاً فشيئاً أثناء اتصاله بولاية المعز وقواده أولاً ، ثم أثناء خدمته المباشرة للخليفة . فإذا قبلنا هذا الافتراض ، يمكن أن نؤخر القصائد 50 و 69⁽¹⁾ و 28 فنعتبر أنها نظمت في آخر اقامته بالزاب ، لأن العقيدة الشيعية فيها أظهر منها في القصائد الأخرى .

أما المعيار الثاني ، فليس أكثر ثباتاً من السابق : لا نجهل أن الشكاوى التي يضمّنها الشاعر أبياته ، من تحسّر على الشباب الضائع ، وتذمر من الدهر القاسي ، وتألّم من الحساد الكثيرين وبكاء على الحبيب القليل ، قد لا تترجم عن حالات واقعة ، وأنما تكون أغراضاً تقليدية يسترحم بها الشعراء ممدوحيهم ، كما يفعلون في النسب التقليدي بالبكاء على الأطلال والتفجع على فقد الأحبة ، والتعظيم لمتاعب السفر نحو الممدوح . نعلم هذا ولا ننكره ، ولكن ما دمنا مضطرين الى الافتراض ، فاقدين للوسائل الثابتة ، فلنبتن هذا المقياس أيضاً ، ولنقل أن القصيدتين 50 و 52 قد تؤخران أيضاً الى

(1) إن الأرقام 63 إلى 70 تعين القصائد الإضافية التي نشرناها سنة 1969 بالحواليات ، وهي مواصلة لترقيم زاهد علي الذي انتهى الى 62 . هذا ، ونفصل بين رقم القصيدة ورقم البيت بخط مائل . [/]

آخر المُقام بالمسيلة ، لأنّ الشاعر يبدو متألماً شاكياً من الجفوة التي أقصته عن
بلاط الأمير : [متقارب]

73/ 50 وإني وإن تَرَنّي قابضاً جناحي اليّ ، كظيماً وجّم
74 أقلّل من هفوات المزار وأبدي الغناء وأخفي العدم
75 فإني من العَرَب الأكرمين وفي أول الدهر ضاع الكرم

وما دمنّا بصدد تأريخ شعر ابن هانيء ، فلا يفوتنا أن نتعرّض الى فكرة
أبداها منير ناجي في دراسته عن الشاعر⁽¹⁾ : توقف عند القصيدة الرابعة
والثلاثين ، وهي قطعة لا مدح فيها ولا هجاء ، بل هي تصف رحلة ليلية الى
بعض الخمارات على طريقة أبي نواس ، فرأى أنها قد تكون من بقايا إنتاجه
الأندلسي ، ودعم رأيه بما لاحظته في بعض مدائح يحيى بن حمدون من هذه
المعاني الخمرية ، كأنّ هذه القصائد الحمدونية ، لقرب عهدها بالفترة
الأندلسية من حياته ، لا تزال متأثرة بأغراض الشباب والعفوية .

ويظهر أن هذا الباحث قد حيّره هو الآخر السؤال الذي طرحناه وما زلنا
نطرحه في خصوص مصير شعره الأندلسي ، كيف أمحى هذا الانتاج الذي
حمل عليه الرواة والمؤرّخون ؟ أين ذهب هذا الشعر الذي استعظم الأندلسيون
زندقته فأطردوا صاحبه من أجله ؟ فراح يبحث في الديوان فاتخذ هذه المقطوعة
الباهتة شاهداً على شعر اللهو والبهتان . وأنما هي في نظرنا « تمرين » نواسي
قلّد فيه محمد بن هانيء الحسن بن هانيء ، كما يقلّد اللاحقون السابقين فيما
يعرف بـ « المعارضات » .

ثمّ ان المعاني الخمرية لم تنقطع فيما بعد من انتاج شاعرنا . فلا يمكننا
أن نرى في هذه الفقرات من قصائد المسيلة صدى بعيداً لسلوك ابن هانيء
باشبيلية ، بل الحديث عن مجالس اللهو يتواصل الى ما بعد فترة المسيلة ،

(1) منير ناجي : ابن هانيء ص 56 .

حتى قصائده الى المعزّ تستهلّ أحياناً بمقدّمة خمريّة ووصف لآلة الخمرة مثلما في القصيدة الخامسة والثلاثين . أليس الأصوب حينئذ أن نعتبر هذه المعاني غرضاً تقليدياً يطرقه الشعراء ، كما يطرقون باب النسيب أو الوصف أو الشعر الحكمي ؟

يتّضح بعد هذا ، أنّه يتعلّدّر على الباحث أن يؤرّخ لهذه القصائد الحمدونيّة ، فيوزّعها على السنوات الخمس التي قضاها ابن هانيء ببلاط المسيلة . وإنّ أقصى ما يمكن أن نقرّره في شأنها ، يتعلّق بالقصيدة الأولى التي ألفاها الشاعر بين يدي جعفر بن حمدون : لقد عيّنها لنا ابن سعيد⁽¹⁾ وغيره ، فقالوا انها القصيدة الحادية والثلاثون ، أي القصيدة « الفلكيّة » .

فلذلك ، لئن أقدمنا على ترتيب هذه القصائد التسع والعشرين في الجدول النهائي ، فمع كامل الحذر والاحتياط .

القصائد الافريقيّة⁽²⁾

هذه اثنتان وعشرون قصيدة نظمها الشاعر بالبلاط الفاطمي ، منها ما يمكن تأريخه بفضل ما يتضمّن من اشارات الى أحداث كبرى معروفة في التاريخ كوقعة الخليج سنة 965/354 بين الاسطولين الفاطمي والبيزنطي ، أو فتح مصر على يد القائد جوهر سنة 969/358 أو انتقال الخلافة الى الشرق سنة 973/362 . ومنها ما يتعلّدّر معرفة تاريخه لخلوّه من مثل هذه الاشارات أو لأنّ الشاعر يصف فيه أعياداً ومواكب تتكرّر كلّ عام فلا تختصّ بها سنة دون سنة . هذا القسم المبهم يبقى على غموضه ، مثل أغلب قصائد المسيلة .

وقبل استعراض الانتاج الافريقي بالتفصيل ، يجدر بنا ان نبرّر تأريخنا

(1) ابن سعيد : المغرب ترجمة 409 .

(2) نعتي بافريقيّة مقرّ الخلافة بالقيروان أصلاً وما يليها مباشرة ، وإن كانت ولاية الزاب وولاية طرابلس داخلتيّين في حدود افريقيّة القديمة .

لدخول الشاعر في خدمة المعزّ بسنة 964/353 :

مستندنا في ذلك هو القصيدة الأربعون التي أشادَ فيها بانتصار الجيش الفاطمي برمطة بصقلية⁽¹⁾ فذكر فيها موت القائد البيزنطي منويل فقام⁽²⁾ :

[كامل]

26/40 سَلْ زَهْطَ مَنُوِيلَ ، وَأَنْتَ غُرَّتَهُ فِي أَيِّ مَعْرَكَةٍ ثَوَى مَنُوِيلُ ؟

وتاريخ موت القائد البيزنطي في هذه المعركة معروف في المصادر البيزنطية والاسلامية : سنة 964/353 . فلذلك قلنا ان الشاعر كان موجوداً بالبلاط الفاطمي في هذا العام ، ومما يدعم رأينا ، أنه يصف بالتدقيق موقف الخليفة عند وصول بشير النصر اليه : لقد خرّ ساجداً يحمد الله على نصره لجيوش الاسلام ، وقبل الأرض تواضعاً وعبادة وعفر وجهه بالتراب : [كامل]

13/40 لَلَّهِ عَيْناً مَنْ رَأَى إِخْبَاتَهُ لَمَّا أَتَاهُ بِرِيدُهَا الْإِجْفِيلُ

14 وسجوده حتى أَلْتَقَى عَفْرُ الثَّرَى وَجَبِيئُهُ ، وَالنَّظْمُ وَالْإِكْلِيلُ

غير أننا ، لئن أرّخنا هذه القصيدة بسنة 353 ، وأرّخنا بها وجود ابن هانيء ببلاط المعزّ، فلا يعني ذلك أنها أول مدحة نظمها في الخليفة، فقد سبقتها قصيدتان على الأقل : القصيدة التاسعة التي يذكر فيها الشاعر خطباً لحق بني أمية بالاندلس ، ولا نخاله إلا وفاة عبد الرحمان الناصر يوم 2 رمضان 350/15 أكتوبر 961 : [كامل]

43/9 لَبَسُوا مَعَايِيَهُمْ وَرَزَّاهُمْ فَقِيْدَهُمْ كَاللَّابِسَاتِ عَلَى الْحِدَادِ مُسُوحَا

وكذلك القصيدة الحادية عشرة التي تبدو معاصرة للسابقة ، لأنها تشير هي الأخرى الى هذا المصائب الذي قهر « أصنام » قرطبة ، أي بني مروان : [طويل]

(1) رمطة Rametta قرب طبرمين Taormine في الجنوب الشرقي من الجزيرة .

(2) Manuel Phocas .

33/11 لَقَدْ سَارَتْ الرُّكْبَانُ بِالتَّبَا الَّذِي يَشِيبُ لَهُ طِفْلٌ وَنِصَاتٌ أُجْلُخُ
34 وَضَجَّتْ لَهُ الْأَصْنَامُ إِنَّ ضَجِيجَهَا صَدَى مِنْ بَنِي مروان حَرَّانَ يَصْرُخُ

وقد رَجَّحنا أَنَّ نظمهما وقع بالمسيلة ، فتحلَّصنا من المشكلة التي تجعل القصيدة التاسعة والقصيدة الثالثة والخمسين متنافستين في الأسبقية : ذلك أن النسخ المخطوطة تقول في احدهما انها أولى مدائح المعز ، وفي الأخرى أنها أول قصيدة أنشدها أمام الخليفة بالقيروان ، فقلنا أنَّ القصيدة التاسعة نظمت سنة 350 بالزبَاب وأُرسلت الى المعز ، وأنَّ القصيدة الثالثة والخمسين نظمت بافريقية بعد سنة 964/353 وأنَّ الشاعر أنشدها بنفسه أمام الخليفة .

والذي نرجَّحه في شأن القصيدة الثالثة والخمسين ينطبق أيضاً على القصيدة الخامسة والثلاثين ، نظمها بمناسبة عيد الفطر : [خفيف]

26/35 وَجَلَا الْفِطْرُ مِنْهُ عَنْ نَبَوِيٍّ أبيض الوجهِ أبيض الأخلاقِ
ولكن من أيِّ سنة ؟ غير أنَّ تردّد المعاني الاسماعيلية فيها ، وإشارة الشاعر الى « مظلة » الخليفة لأول مرة :

32/35 فَوْقَهُ خَيْطَةُ اللّجَيْنِ تَهَادَى بِيَدَيَّ كُلِّ بُهْمَةٍ مُصَدِّق
تحملنا على وضعها في بداية مُقامه بافريقية .

والى المدة نفسها نرجع المدحيتين السادسة والعشرين ، والثالثة . في الأولى تهجُّمٌ على بني أُمَيَّة خلفاء قرطبة ، وفي الثانية تشنيع على العباسيين ببغداد لأنهم لم يحولوا دون احتلال « الجائليق » - أي الدمستق البيزنطي - لحلب ونهبها : [طويل]

32/3 وَلَكِنْ لَعَلَّ الْجَائِلِيْقَ يَغُرُّهُ عَلَى حَلَبٍ نَهَبَ هُنَالِكَ مَنُهَوَّبُ

(1) أنصاب (صوت) : استوى بعد انحناء ، الأجلخ : الضعيفُ الغائرُ .

ومعلوم أنّ وطأة الأباطرة البيزنطيين على الثغور الشامية تفاقمت ابتداء من سنة 962/351 .

كذلك القصيدة رقم 1 ، تحمل هي الأخرى على بني العباس ، ولكنها تتضمن إشارة شخصية من الشاعر : بحثه الطويل عن مدح أبيض الوجه والأيدي ، ونصح الناس له بالتوجه إلى المعز : [كامل]

27/1 وطفقت أسأل عن أغرّ مُحجّل فإذا الأنامُ جبلةَ دَهْمَاءِ
28 حتى دُفِعْتُ إلى المعز خليفة فعلمتُ أنّ المطلب الخلفاء
فهو إذن من المدائح الأولى التي نظمها بعد اتصاله بالمعز .

وتأتي بعد ذلك مدحتان - رقم 12 و 44 - يعرض فيهما الى وقعة الخليج ، أي معركة المضيق الذي يفصل صقلية عن جنوب إيطاليا ، ويسمى اليوم مضيق مسينا . دارت هذه المعركة بين الأسطولين الفاطمي والبيزنطي سنة 965/354 ، أي بعد انتصار رمطة مباشرة ، فكان النصر حليف المراكب الأفريقية ، وانهزم الشاعر بالامبراطور البيزنطي : [بسيط]

50/12 فَقُلْ له: حال من دون الخليج قنا سُمرٌ ، وأذرُعُ أبطالٍ مناجيد
ويجعل الموج حليف الأسطول الإسلامي في هذا النصر : [كامل]

88/44 والمَوْجُ من أنصارِ بأسِكَ خَلَفَهَا فالمَوْجُ يُغْرِقُهَا ، وسيفُك يَقتُلُ
أما القصيدة الحادية والأربعون ، فتصف مراسم عيد النحر ، ولكن بدون أن تعين العام ، مثلما في القصيدة رقم 35 . وهي ، ان لم تفدنا في ضبط تاريخها ، أفادتنا بشيء من المعلومات عن حياة البلاط الداخلية . ونظراً لاستحالة تاريخها ، فاننا نضطر إلى وضعها ، مع كثير من المدائح الأخرى ، في الفترة بين 965/354 و 969/358 ، أي في مدة لم يسجل فيها المؤرخون حوادث هامة في حياة الدولة الفاطمية بالمغرب ، وهكذا نفترض - اضطراباً لا اعتباطاً - وجود مدة خالية من الحوادث ، فنحشر فيها ما لا نستطيع له تاريخاً .

بيد أنَّ بعض هذه القصائد ، على قلة وضوح ظروفها ، تلوح لنا فيها إشارات إلى أحداث بعيدة كمصيبة بيضة الإسلام بالجيوش الرومية في الشام . من هذه التلويحات ، ما نجده في القصيدة الثالثة عشرة من تلَهَف على محاصرة الدمستق لأنطاكية وتوغّله في منطقة « العواصم » : [طويل]

61/13 غَضِبْتُ لَهُ أَنْ ثُلُّ بِالشَّامِ عَرْشُهُ وَعَادَكَ مِنْ ذِكْرِ الْعَوَاصِمِ عَيْدُ⁽¹⁾

أو في القصيدة رقم 58 التي يعود فيها إلى التشجيع على العباسيين ، غاصبي الخلافة من مستحقّيها وتاركي الدفاع عنها ، فخمولهم هو الذي أطمع الأباطرة في الإسلام ، فكالوا له الضربات المتوالية ، وهكذا يفسّر سلسلة الانهزامات التي عرفتها الإمارة الحمدانية بين 355 و 68/357-966 .

وقد نستتج من إشارة وردت في هذه القصيدة ، أنَّ الشاعر ، في هذه المدة ، أي حوالي سنة 357 ، قد بدأ يحسّ بوطأة السنّ ، ولعلّه قارب الأربعين : [مقارب]

4/58 لَيْسْتُ رِءَاءَ الْمَشِيبِ الْجَدِيدِ وَلَكِنَّهَا جِدَّةٌ لِلْبَلَى

ونلحق بهذه الفترة أيضاً القصيدتين رقم 37 و 67 . في الأولى يتزلف الشاعر إلى الأئمة بتشجيع لهم قديم جعله عرضة لنقمة الأندلسيين : [طويل]

49/37 وَمَا نَقَمُوا إِلَّا قَدِيمَ تَشْيِيعِي فَتَجَى هَزْبُراً شَدُّهُ الْمَتَدَارِكُ

وفي الثانية يحرض الخليفة على اقتحام الأراضي العباسية ويتنبأ له بالدخول إلى بغداد : [طويل]

27/67 بَنِي الدَّوْلَةِ الْغُرَاءِ شَبِمُوا سَيُوفَكُمْ فَأَنِّي لَهَا الْمُلْكُ الْعِرَاقِيُّ شَائِمُ⁽²⁾

(1) العواصم هي منطقة الثغور بشمال الشام ، التي تعصم دار الإسلام من الخطر البيزنطي . والعيد هنا ما يعتاد الإنسان ويعاوده من همّ وفكر وخوف .

(2) حوَلِيَّات 1969/6 ص 103 .

فقد اقتربت اذن ساعة الفتح ، فهذه مصر مشتاقة الى المعز ، خصوصاً بعد وفاة كافور (21 جمادى الأولى 29/357 ماي 968)

37/67 بمصر صباباتُ اليك ، وطالما صرمت ، ولهفي من حبيب يصارم
فلا مانع اذن من أن نؤرخ هذه القصيدة بسنة 968/357 .

ونصل بعدها إلى سنة 969/358 ، سنة استيلاء جوهر على مصر . خصص ابن هانيء لهذه الحملة أربع قصائد ، بحسب مراحلها المختلفة : القصيدة 27 تصف مرحلة التعبئة للانطلاق نحو الشرق ، وقد شجع الشاعر بنفسه هذا الجيش العرمرم وقائده حين تحرك يوم السبت 14 ربيع الأول 5/358 فيفري 969 : [طويل]

1/27 رأيْتُ بعيني فوقَ ما كنتُ أسمعُ وقد راغِني يومٌ من الحُشُر أروغُ
4 وكيف أخوضُ الجيشَ ، والجيشُ لُجَّةٌ واتي بمن قد قاده الدُّهرُ مُولِعُ

وقد عنونها رواة الديوان بـ « مدح جوهر » ، وهي في الواقع مدح مشترك للقائد الصقلي والخليفة مولاه ، فلذلك اعتبرناها من المدائح المعزيات ، وهي ، على كل ، من الانتاج الافريقي ، بل هي من الشعر القليل الذي يمكن ضبط تاريخه بشيء من الدقة .

ثم تأتي القصيدة رقم 46 ، يصف فيها للمعز تشييعه للجيش الفاتح ويذكر له ما رآه فيه من بوادر النصر .

وتليها مباشرة القصيدة رقم 22 التي تعلن عن تحقق النصر ، ونجاح جوهر في حملته ، إلا أن الشاعر يتلطف فيجعل الهزيمة لا للمصريين ، بل لحكامهم العباسيين : [طويل]

1/22 تقولُ بنو العباسِ : هل فتحَتْ مصرُ؟ فقل لبني العباسِ : قد قُضيَ الأمرُ!
فهذه ثلاث مدائح تؤرخ بسنة الفتح ؛ أما الرابعة - وهي القصيدة رقم

23 - فنوّرَها بالسنة الموالية 970/359 ، لأنّ الشاعر يعدّد فيها الهدايا التي أرسلها جوهر إلى الخليفة بعد استقراره بمصر . هذا ترجيحنا لظروفها وتاريخها ، إذ لا عبرة في نظرنا بما تنقله توطئات القصيدة من أنه « . . . يذكر هدية وصل بها جوهر الكاتب من المغرب إلى الحضرة »⁽¹⁾ أو أنه « . . . يصف هدية القائد جوهر ، وذلك بعد تسخير القائد بلاد المغرب ، وانتهائه إلى البحر المحيط سنة 348 »⁽²⁾ .

ونبني رفضنا لهذه النسبة على حجج داخلية مستفاعة من القصيدة نفسها ، وحجج خارجية تتصل بما نقله لنا المؤرّخون والرواة عن هذه الفترة من تاريخ الدولة الفاطمية بالمغرب . فمن الحجج الداخلية أمران :

1 - يظهر من البيت 42 أن هذه الهدايا قد نقلت إلى صاحبها بحراً وبراً ، وتمّ نقلها على أقساط نظراً لكثرتها :

42/23 وَلَوْ لَمْ يُعَجَّلْ بَعْضُهَا دُونَ بَعْضِهَا لَصَاقَ الثَّرَى وَالْمَاءُ طُرْقاً وَمَغْبِراً

وقد أفاض المؤرّخون في وصف هدايا جوهر من مصر ، ولا سيّما المقرئ الذي يقول⁽³⁾ أنها نقلت إلى الاسكندرية بحراً ، ومنها إلى القيروان برّاً ، وقد يكون عنى بالبحر نهر النيل الذي يسمّيه المصريون « بحر النيل » كما هو معروف ، أو البحر الحقيقي ، فتكون المراكب أقلعت من الشام التي تمّ فتحها على يد جعفر بن فلاح ، أو من موانئ شرقي مصر ، إلى الاسكندرية منتهى الخطّ البري بين افريقيّة ومصر ، كما سبق أن قرّره ابن هانئ في قصيدة الفتح :

2/22 وَقَدْ جَاوَزَ الْإِسْكَندَرِيَّةَ جَوْهَرُ تَطَالَعُهُ الْبَشَرَى وَيَقْدُمُهُ النَّصْرُ

(1) ت 1 ورقة 46 ب .

(2) توطئة القصيدة 3 .

(3) اتماظ 171 .

هذا ، وما علمنا لدى المؤرخين أنه كانت بين افريقية والمغرب الأقصى صلة بحرية ، بل هذا جدّ مستبعد ، نظراً لتوفر الخطوط البرية أولاً وتيسرها تحت النفوذ الفاطميّ الموحد من المهدية الى فاس ، ونظراً أيضاً إلى تسلط الأعداء الأمويين على جلّ المناطق الساحلية من المغرب الأقصى ، وعلى الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط .

2- آهتّم الشاعر ، من بين هدايا جوهر ، بالخیل خاصّة فخصّص لها فقرة من أبداع الوصف⁽¹⁾ وذكر النوق كذلك ، ويتفق في هذا مع ما يذكره المقرئزي .

أمّا الهدايا التي توجت حملة سنة 347-8 بالمغرب ، فتمثلت على ما نقله المؤرخون⁽²⁾ في بضعة أسماك من المحيط الأطلسي أرسلها جوهر في جرة من ماء البحر إلى الخليفة ، وهي هدية رمزية بالمعنى الصحيح ، ترمز إلى وضع البحر المحيط أيضاً تحت نفوذ الإمام الفاطميّ . وأرسل معها أسرى من رؤوس الثوار في أقفاص من القصب .

ولا نجد ذكراً في القصيدة للأسماك ولا للأقفاص ، فخرجت بذلك عن أن تكون من منظوم سنة 348 ، كما تقول التوططات .

أمّا الحجة الخارجية ، فهذه :

لو كانت القصيدة تصف هدايا المغرب لا هدايا مصر وهي مع ذلك تمدح المعزّ ، لترتب عليها أن يكون الشاعر قد عرف المعزّ منذ سنة 348 ، أي تقريباً منذ وضع قدميه على أرض المغرب ، أو أن يكون على الأقلّ قد راسله بالمدح منذ ذاك التاريخ . وهذا يناقض تماماً ما علمناه من المترجمين والرواة ، من أنّ اتصاله بالخليفة كان خاتمة طوافه بأقطار المغرب ، لا بدايته .

(1) الأبيات 4 إلى 23 من القصيدة 23 .

(2) الناصري السلاوي : الاستقصاء 1/199 . وانظر كذلك : المقرئزي : اتعاظ 135 .

فلا شكّ عندنا إذن في أن هذه القصيدة 23 إنما تصف هدايا مصر ،
فتؤرّخ اذن بسنة 970/359 كما قلنا .

وبنفس هذا التاريخ ، 970/359 ، تؤرّخ القصيدة الثلاثين التي يشكو
فيها الشاعر ذهاب الشباب ووصوله الى منتصف العمر ، أي الأربعين حسب
المُتعارف : [كامل]

2/30 إِنَّ لَا أَكُنْ بَلَغْتُ بَيِّ السِّنِّ الْمَدَى فَلَقدْ بَلَغْتُ مِنَ الطَّرِيقِ الْمُنْصَفَا

وليس معتمدنا فيها على هذه الاشارة ، بدعوى أنه ان يكن بلغ الأربعين
أو قاربها ، وهو المولود في سنة 320 ، فلا تكون القصيدة الآ وليدة سنة 360 أو
ما قاربها . ولكنّ معتمدنا هو اشارة أخرى : ففي البيت 17 ، نجد صدى
لحصار أنطاكية وسقوطها بأيدي الروم في آخر سنة 358 / أكتوبر 969⁽¹⁾ :

17/30 فَكَأَنَّمَا وَقَعَ الصَّرِيخُ إِلَيْهِمَا بِحِصَارِ أَنْطَاكِيَةِ فَاسْتَرْجَفَا

ولا شكّ عندنا في أنه لا يعني الحصار الأول الذي دار سنة 966/355 ،
بل حصار سنة 358 ، لأن البيت 39 يشهد بأن احتلال مصر قد تمّ بعد ، إذ
أصبح الشاعر يحرض المعزّ على استبقاء جوهر بمصر ودفع جيوشه نحو
بغداد :

39/30 فإِلَى الْعِرَاقِ! وَذَرْ لِمَنْ قَدَمَتَهُ مِصْرَا، فَهَذَا مُلْكُ مِصْرِ قَدْ صَفَا!

وتناسب السنة الموالية ، سنة 971/360 ، القصيدة رقم 43 ، لأن الشاعر
يعرض فيها إلى نهاية القائد الزناتي محمد بن خزر ، الذي ظفر به بعد لأي
زيري بن مناد الصنهاجي وابنه بلقين ، ونعلم أنّ قتل ابن خزر تمّ في غضون
هذا العام 360 : [بسيط]

22/43 لَقَدْ قَصَمْتُ مِنْ ابْنِ الْخَزَرِ طَاغِيَةً صَعَبَ الْمَقَادَةِ أَبَاءَ عَلَى الْجَدَلِ

. M. Canard: Hamdanides 832. (1)

وكذلك القصيدة رقم 24 ، تلك التي استعظم غلوها حتى طُرحت من بعض نسخ الديوان . نضعها أيضاً في سنة 360 لأنها تشير إلى غزوة بـ « فراقس » : ولا نخال فراقس هذه إلا تحريفاً لـ « فرقلس » وهي قرية بالشام ، فتصبح الإشارة متعلقة بحملات الجيش الفاطمي في جنوب الشام ضد فرق القرامطة⁽¹⁾ : [كامل]

12/24 لِّلْهُ غَزَوَتْهُمُ غَدَاةَ فَرَاقِسٍ وَقَدْ اسْتُثْبِتَ لِلْكَرِيهَةِ نَارًا
وقد يستغرب في البيت 61 منها ، ما يفهم من استقرار المعز بمصر ونحن نعلم أن الخليفة لم يدخل مصر إلا في رمضان 973/362 ، أي بعد شهرين من وفاة الشاعر ببرقة :

61/24 هَا أَنْ مَصْرَ غَدَاةَ صِرْتُ قَطِينَهَا أَحْرَى لَتَحْسِدَهَا بِكَ الْأَقْطَارُ
ولا إشكال في البيت إذا فهمنا أن الشاعر إنما يتنبأ بحلول المعز الوشيك بمصر ، بعد أن تم الفتح ، وأسست العاصمة الجديدة ، فاستعمل صيغة الأمر المقضي لما لا يزال في النية .

ونصل أخيراً إلى القصيدة رقم 47 ، أطول قصائد الديوان إذ تبلغ مائتي بيت . يُجمع رواة الديوان على أنها آخر شعر ابن هانيء ، وأنه نظمها بالمغرب وبعث بها الى المعز بالقاهرة . لقد فارق الشاعر الخليفة ببرقة في رجب سنة 362 فواصل المعز سيره نحو مصر ، وعاد الشاعر إلى افريقية أو إلى الزاب لأخذ عياله ومتاعه استعداداً للحاق بمولاه في القاهرة ، هذا هو رأينا في المرحلة الأخيرة من حياة الشاعر ، كما سيتضح من ترجمته . وعلى أساس هذا الافتراض ، يكون الشاعر قد فرغ من القصيدة وهوبركة، إمّا في طريقه إلى افريقية ، وإمّا في طريقه إلى مصر ، ولا نظنّه إلا راجعاً إلى الزاب حسب ما نجد في البيت 186 من احتجاج بالأهل « القطين في القصي من النوى » :

(1) المقريزي : اتعاظ الحنفاء 139. وفرقلس يجعلها ياقوت قرب سلمية وكذلك البكري في معجمه . وانظر خطط الشام للمرحوم كرد علي ، 224/1 حيث ذكر أن جعفر بن فلاح وصل إلى حمص .

وَلَوْلَا قَطِينٌ فِي قَصِيٍّ مِنَ الثَّوَى لَمَا كَانَ لِي فِي الزَّأْبِ مِنْ مُتَلَوِّمٍ

وعلى كل ، فإن ارتبنا في شأن شهر النظم ، فلا شك في سنة النظم :
362 ، وان في طولها المفرط لشاهدًا على أنها دُبجت للقراءة المتأنية لا للإنشاد
أمام الخليفة .

وهكذا يتبين القارئ أن من بين هذه المدائح الثلاث والعشرين ما
يستعصي كذلك على التأريخ المدقق ، شأنه في الإبهام شأن جل قصائد
المسيلة ، هذا بالرغم من أنها تتصل بالخليفة وسياسته ، ووقائع دولته ، مما
أطمعنا في امكانية تعيين تاريخها بدقة .

وزداد الطين بلةً ويتكاثر الضباب في خصوص بقية القصائد التي مدح
بها بعض رجال الدولة ، المذكورين قليلاً عند الاخباريين كأفلق الناشب
قاضي برقة أو واليها ، أو المسكوت عنهم تماماً كالقائد أبي الفرج الشيباني
والكاتب أحمد بن زائدة .

مدحتا أفلق الناشب

هذا الممدوح يعرف عند الاخباريين بأنه « والي » برقة ، وفي توطئة
القصيدة 55 بأنه « قاضيها » ، وفي متن القصيدة بأنه قائد مغوار ساعد على
توطيد النفوذ الفاطمي بالصعيد المصري وباللدنا ، أثناء حملة جوهر وبعدها ؛
وفي الحقيقة ، تتضارب نسبة القصيدتين ، فالمدحة 55 منسوبة إليه ، أما
المدحة 5 ، فمنسوبة إلى الشيباني ، غير أنهما تصفان نفس الأعمال البطولية
في مصر ، وتشيران الى نفس الرجل ، فلذلك أرجعنا القصيدة 5 إلى أفلق
الناشب كذلك .

وبعد هذا ، لا نخالهما نظمنا في نفس الوقت ، فالنوتة (ق . 55)
تحدث عن فتح مصر بعد وقوعه واستتاب الأمن في وادي النيل ، أما القصيدة

البائية (ق . 5) ، فتحدث عن الفتح كأمرو وشيك : [بسيط]

3/5 وَلَوْ أَشْرُتَ إِلَى مِصْرٍ بِسَوْطِكَ ، لَمْ تُخْرِجْكَ مِصْرُ إِلَى رَكْضٍ وَلَا خَبَبٍ
4 وَلَوْ ثَنَيْتَ إِلَى أَرْضِ الشَّامِ يَدَا أَلْقَتَ إِلَيْكَ بِأَيْدِي الذَّلِيلِ عَنْ كُتُبِ

فلذلك زَجَحْنَا أَنْ تَكُونَ الْبَائِيَّةُ نَظِمْتَ سَنَةَ الْفَتْحِ ، أَي 358 وَالنُّونِيَّةُ فِي
آخِرِ حَيَاةِ الشَّاعِرِ ، أَي عِنْدَ مَرُورِهِ الْآخِيرِ بِبِرْقَةٍ سَنَةِ 973/362 .

مدائح الشيباني

القصائد 4 ، 20 ، 33 ، 42 ، 60 و 66 .

يظهر ، من المدائح الست التي نظمها الشاعر في هذا القائد ، أنه كان
مكلفاً بإخماد الثورات الخارجيّة بالمغرب الأوسط ، وباستخلاص الجباية من
المتلذذين ، وهو عربيّ ينتمي إلى بكر بن وائل ، وقد فحّم الشاعر نشاطه
العسكريّ وعظمه وأطال في تفصيله . يشهد بذلك وفرة القصائد التي مدحه
بها . فلذلك نتعجب من سكوت جميع المترجمين والمؤرخين عن هذا
الرجل ، كأنه لم يُوجَد قط . وبالتالي لا يمكن أن نُورِّخ لهذه المدائح ، وغاية
ما نقدّره في شأنها ، أنها نظمت أثناء الفترة الإفريقيّة ، لأنّ هذا الممدوح
يتصل بالخليفة مباشرة ، على ما يبدو ، لا بواسطة أحد ولاته . ولا مانع أيضاً
من تبني رأي معاكس : وهي أنها نظمت في الفترة المغربية ، بين حائيّة جواهر
(ق 10) وقصائد المسيلة ، كما سنرى في الفصل الثامن .

القصيدة 65 في أحمد بن زائدة

وهذا ممدوح آخر مجهول تماماً ، نفهم من المدحة ومن المقطوعتين
اللتين وَسِمَتَا بِاسْمِهِ⁽¹⁾ أنه من أصل يمنيّ ، مثل بني حمدون ومثل الشاعر

(1) حوليات 1972 . ص. 79 و 90 (مقطوعة 4 و 13) .

نفسه . ولا نعلم شيئاً بعد هذا . وهو مجهول حتى في الديوان إنمطبوع ، أي في كل النسخ المخطوطة ، عدا نسخة (ت 1) : فمنها استقينا الشعر الموجّه اليه .

القصيدة 48 في أبي عبد الله بن المهذب

للشاعر مع هذا الموظف مطارحة أدبية ، ويظهر أنه كان ساهراً على بيت المال ، وقد ذكر المقرئ موزناً بيت مال المعز ، اسمه ، لا أبو عبد الله ، بل « أبو جعفر حسين ابن المهذب »⁽¹⁾ .

أغراض أخرى

استعرضنا في هذا الفصل خمساً وستين قصيدة من السبعين التي يتضمنها الديوان الموسع ، أي الذي تضاف إليه زيادات (ت 1) . وهي مدائح كلّها ، إلا المراثي الثلاث . والمراثي عادةً تنشد أمام عظيم أو أمير . وحتى ان غلب فيها الحديث عن الفقيه ، فهو تعداد لمحامده ، أي مدح له .

أما القصائد الخمس الباقية فمنها واحدة - القصيدة 29 - في هجاء كاتب لجعفر بن حمدون يدعي الوهراني ، ورغم تعلّقها بأمر الزاب ، ينبغي أن نؤرّخها بسنة 971/360 أي قبيل خروج جعفر عن طاعة المعز ، لأنها تشعرنا بدبيب الشقاق بين الأمير والخليفة .

وتتوزّع الأربع البواقي بين أغراض مختلفة : المغامرة الغرامية (رقم 49) أو الخمرية (رقم 34) ، والوصف الساخر (رقم 56 ، في أكل) ، والنقد الأدبي (رقم 21 في ديوان المتنبي) . وهي تخلو من كل إشارة زمنية ، فلا يمكن تأريخها ، فلذلك نصنّفها ، في الجدول النهائي ، الى جملة الشعر الذي لم تتمكّن ، في الظرف الراهن ، أي فيما بلغ اليه علمنا بحياة ابن هانيء وبشعره ، من ضبط تاريخ نظمه .

(1) المقرئ : أنماط ... ص . 138 .

ملحق 1

مخطوطات الديوان مرتبة ترتيباً زمنياً تقريبياً

ملاحظات	نوع الترتيب أو أول قصائده	تاريخ الرقف أو التملك	تاريخ نسخته	مصدره ورقفه في الفهارس	علامة المخطوط المدرّس
مقدمة خاصة به	أبجدّي	1839/1256	(1211/608)	تونس 13746	1 - ت 1
مقدمة مشتركة	أبجدّي		1495/858	باريس 3108	2 - ب .
	قصيدة 32 بالعراق		(القرن 7/13هـ)	المتحف البريطاني 3767	3 - م . ب
في إبراهيم بن جعفر					
نسخها الجوزدي شيعي ؟	ق. 40 لامية في المعز		1592/1002	أكسفورد 21	4
ترجمة من الوفيات	ق. 13 دالية في المعز	1617/1027	1610/1020	لينستراد 280 (فهرست روزن)	5
مقدمة مثل ب.	ق. 40		1621/1041	برلين 212 (فهرست أهلوارت)	6
مقدمة مثل ب.	ق. 40		1655/1067	أكسفورد 527	7
	ق. 12 دالية في المعز		1660/1072	القاهرة دار الكتب 1870	8

ملاحظات	نوع الترتيب أو أول قصائده	تاريخ الوقف أو التملك	تاريخ نسخه	مصدره ورقمه في الفهارس	علامة المخطوط المدورس
مقدمة مثل ب.	40. ق.		1668/1080	مديد 210 (فهرست روبلس)	9- م.
ملكها زيد الحسيني	13. ق.			الاسكوريال 443	10- ا.س.
	40. ق.	1851/1268	1695/1107	تونس 15850	11- ت. 2.
	40. ق.		1697/1109	لبنفراء 281	12
	13. ق.	1730/1127		المتحف البريطاني 3161	13
مقدمة مثل ب.	40. ق.		1712/1147	برلين 211 7585	14
مقدمة مثل ب.	40. ق.		1770/1185	القاهرة دار الكتب 2204	15
مقدمة مثل ب.	40. ق.	1291/1878	1834/1250	تونس 15890	16- ت. 17.
يقفل ت 1 إلى اللام.	أبجدي		1847/1264	تونس 2231	17- ت. 4
مقدمة مثل ب.	13. ق.	1852/1269		حيدر آباد. الدكن	18- عدد من قائمة زاهد علي

19 - عدد 17	سُرْت بالهند	18624 تونس	1859/1275	ملكها الشيخ عبد العلي (ت. 1857/1274)	40 ق.	تنقصه بعض التفاصيل منها ق. 24
19 - قائمة زاهد علي	436 تونس	1862/1279	ملكها محمد بزم 2 شرح الشيخ حميد الدين علي (ت. 1880/1300)	ق. 41 لامية في الموعز.	فيه 5 ق. فقط: 48- 53- 31- 40- 41	يقصر على المميزات
22 - عدد 18 من قائمة زاهد علي	سرت (تورة)		ملكها محمد علي الحمادي (ت 1896/1315)	ق. 13		
23 - عدد 15 من قائمة زاهد علي	سرت (تورة)		نفس المالك	ق. 47		
24 - عدد 16 من قائمة زاهد علي	سرت (تورة)					
25 - ت. 7	تونس 3920				فيه ق. 31 فقط.	
26 - ت. 8	تونس 18768				ق. 31 فقط.	
27 - ت. 9	تونس 18458				مختارات فقط.	
28 - ميلاد	ميلانو 118 فهرست فرينيني				مختارات من 10 و 26	

ملحق 2
قصائد الديوان مرتبة بالتقريب ترتيباً زمنياً

ملاحظات	التاريخ التقريبي ومكان النظم	الممدوح أو ما شاكله	عدد الآيات	البحر	طبعة صادر 1964	المدد الرتبي عدد زاهد علمي	قافية المطلع
أثناء ما بالغرب	958-9/347-8	جوهر الصفاقي	67	طويل	75	10	1 تُوضّحاً
أول مدائح جعفر	959/348 المسيلة	جعفر بن حمدون	71	طويل	207	31	2 شتفا
توجد بـ م. ب. و د ت فقط	959/348 المسيلة	جعفر	35	منسرح	/	61	3 نهذ
شباب الشاعر بالبيت 7	960/349 المسيلة	جعفر	61	كامل	49	6	4 ركايا
	960/349 المسيلة	جعفر	36	طويل	61	7	5 نافت
	960/349 المسيلة	يحيى بن حمدون	46	كامل	179	25	6 مستقرهين
	961/350 المسيلة	يحيى	60	طويل	/	64	7 مقاول
مرض جعفر	961/350? المسيلة	جعفر	17	بسيط	335	51	8 عجم
	961/350? المسيلة	يحيى	11	كامل	18	2	9 غراء

الشاعر مع يحيى؟ إشارة الى عيد الفطر. القصيدة في ت 1 و د ب ٢٠ م فقط	961/350? (بعيد عن المسئلة)	جعفر	90	طويل	/	62	10 كَوْنَر
الإشارة الى موت عبد الرحمن الناصر	961/350 من المسئلة	المعرّ	59	كامل	69	9	11 صَفِيحًا
10 أبيات في د ب ٢٠ م . الباقى من د ت 1 فَقُصِدَ يحيى	961/350 من المسئلة	المعرّ	64	طويل	82	11	12 مُضْمِنٌ
وصف قصر إبراهيم جعفر في حملة حربية	962/351 من المسئلة	جعفر	90	طويل	/	63	13 مَشْرُوقٌ
فَقُصِدَ يحيى	962/351 من المسئلة	يحيى	50	كامل	110	17	14 البِيدُ
وصف قصر إبراهيم جعفر في حملة حربية	962/351 من المسئلة	إبراهيم بن جعفر	100	كامل	361	57	15 كَتَمْنَاهَا
962/351 من المسئلة	962/351 من المسئلة	إبراهيم (وجعفر)	36	كامل	358	54	16 دَوْنَهُ
962/351 من المسئلة	962/351 من المسئلة	يحيى	76	سريع	228	36	17 الشَّرِيقُ
962/351 من المسئلة	962/351 من المسئلة	يحيى	43	كامل	252	39	18 فَيْكُ
جعفر بالقيروان؟	963/352? من المسئلة	جعفر	114	كامل	292	45	19 حُلَا جَلْ
من ت 1 فقط ، وبقية بزهر الأداب ج 1 ص 312	963/352? من المسئلة	إبراهيم	13	كامل	/	70	20 نَدِيمٌ
إبراهيم في حملة بالمرزب؟ (أبيات 43 و 54-53)	963/352? من المسئلة	جعفر (وإبراهيم)	62	طويل	222	32	21 يَرْثُهُ

ملاحظات	التاريخ التقريبي ومكان النظم	الممدوح أو ما شاكله	عدد الآيات	البحر	طبعة صادر 1964	العدد الرتبي عدد زاهد علي	قافية المطلع
	963/352?	يحيى	39	طويل	65	8	22 تَبْلَجَا
	963/352	إبراهيم	29	خفيف	249	38	23 مِنْكَ
	؟	رثاء الجفند	97	رمل	120	14	24 حَسَدُ
	؟	رثاء الأم	61	كامل	166	19	25 الثُّلُثُ
تخريض الأخرين على الوفاق.	؟	رثاء الأم	86	متقارب	27	59	26 مُشْتَهَى
يشفع في يحيى؟ (بيت 72-73)	المسيلة 963/352	جعفر ويحيى	90	طويل	153	18	27 الكَذْبَرِي
يشفع في يحيى؟ من ت. 1 فقط	المسيلة 963/352	جعفر	14	طويل	/	69	28 نَظْمُ
	المسيلة 964/353	يحيى	65	طويل	337	52	29 حَاكُمُ
شكوى الشاعر	المسيلة 964/353?	جعفر	75	متقارب	329	50	30 الْبُهْمُ
تخديره من الأمويين؟	المسيلة 967/356? أو القتيروان؟	جعفر	35	طويل	188	28	31 (أو 41) رَدْعُ

أول شعر أنشده إياه	964/353 المنصورية	المعز	87	كامل	350	53	32 البيهقي
	964/353 المنصورية	المعز	41	خفيف	218	35	33 الأحقاد
	964/353 المنصورية	المعز	113	كامل	256	40	34 حُجُول
	964/353 المنصورية	المعز	73	طويل	34	3	35 عَارِيْب
	964/353 المنصورية	المعز	35	بسيط	184	26	36 يُلَنَقَط
	964/353 المنصورية	المعز	99	كامل	9	1	37 السَّيْرَاء
رقعة المضيّق أو الخليج	965/354 المنصورية	المعز	110	كامل	283	44	38 يَتَهَيَّل
الخليج أيضاً	965/354 المنصورية	المعز	78	بسيط	89	12	39 عباديد
عبد الإضحى	966/355 المنصورية	المعز	1122	كامل	265	41	40 ذبولا
ذكر قلعة كيانة	967/356 من القيروان	جعفر	60	طويل	105	16	41 الأَسَد
سفارة رومية ؟	967/356 المنصورية	المعز	96	طويل	96	13	42 هُجُود
إشارة إلى العمر (بيت 1)	967/356 المنصورية	المعز	86	متقارب	20	58	43 القهقرى
	968/357	المعز	78	طويل	241	37	44 بَاتِلْ
من ت 1 فقط	968/357	المعز	44	طويل	/	67	45 مَاتِم
انطلاق جوهر نحو مصر	969/358	جوهري	105	طويل	192	27	46 أَرُوْع
وصف جيش الفتح	969/358 المنصورية	المعز	51	طويل	308	46	47 الصَّوَارِم
فتح مصر	969/358 المنصورية	المعز	101	طويل	131	22	48 الأمر

ملاحظات	التاريخ التقريبي ومكان النظم	الممدوح أو ما شاكله	عدد الآيات	البحر	طبعة صادر 1964	المدة الزمنية عند زاهد علي	قائمة المطالع
يسلمه عن عزله من قيادة الجيش؟	969/358 برقة؟	أفصح الناشب	22	بسيط	54	5	49 القفص
الأخوان ماتا بافريقية	969 قبل عزم	أخوا المعز	76	رمل	114	15	50 القناد
هدايا مصر	970/359 المنصورية	المعز	68	طويل	140	23	51 أضدرا
إشارة إلى حصار أنطاكية	970/359 المنصورية	المعز	56	كامل	202	30	52 أخرفا
أسر ابن خزر	970/360 المنصورية	المعز	95	بسيط	275	43	53 الدؤل
إشارة الى فرفلس	971/360 المنصورية	المعز	69	كامل	146	24	54 القهار
بعد فتح مصر	973/362 برقة	أفصح الناشب	91	كامل	369	55	55 الفرسا
آخر شعره	973/362 من الزاب؟	المعز	200	طويل	313	47	56 مخذم

قصائد يصعب تأريخها

ملاحظات	عدد الآيات	البحر	صادر 1964	زاهد علي	القافية
	82	كامل	41	4	57 مطلباً
	38	كامل	161	20	58 المُسفر
الشياني ؟	24	بسيط	235	33	59 يفترق
	53	طويل	302	42	60 مقاتلي
	91	بسيط	378	60	61 الهندواني
	35	بسيط	/	66	62 الأسل
ابن المهذب	11	كامل	348	48	63 الإبرام
أحمد بن زائدة	37	منسرح	/	65	64 عاذلها
هجاء الوهراني قبل 360؟	42	خفيف	214	29	65 الشريف
محمد ابن قاضي برقة 362/؟	20	خفيف	/	68	66 غرام
ديوان المتنبي	21	بسيط	172	21	67 كَفَرَا
في أكل	18	بسيط	376	56	68 التنائين
خرية	21	رجز	238	34	69 مطروق
غزل	35	طويل	343	49	70 الزلّم

الفصل الثالث

ممدوحو الشاعر

سنحاول في هذا الفصل أن نلقي بعض الأضواء على حياة ابن هانيء ، من خلال دراستنا لعلاقته بالأشخاص الذين خدمهم بشعره ، سواء كانت خدمته لهم دائمة مستمرة ، كبنّي حمدون أو الخليفة المعزّ ، أو عرضيّة متقطّعة كالشيباني أو أفلح الناشب .

وليس غرضنا أن نصنّف ترجمة ضافية مدقّقة لهؤلاء وأولئك ، إنّما قصدنا أن نلتقط من كتب التاريخ والتراجم كل الارشادات الكفيلة بتوضيح الظروف التي نظم فيها الشاعر مدائحه فيهم ، وتدقيق المدد التي قضّاها في خدمتهم ، عسانا نتوصّل الى تبديد الغيوم التي تكتنف الإشارات التاريخية والاجتماعيّة - الحضاريّة في جلّ القصائد . وهي إشارات ، لعلّها كانت واضحة مفهومة لدى الممدوحين وجمهور المعاصرين ، ولكنها عندنا مستغلقة تستعصي غالباً عن كل محاولة للفهم والشرح .

هذا وإنّا نرتّب هؤلاء الممدوحين لا بحسب عدد القصائد التي خصّصها لهم الشاعر ، ولكن بحسب امكان تعرّفنا عليهم والوقوف على أخبارهم في المراجع الأدبيّة والتاريخيّة .

المعزّ لدين الله

هو الخليفة الفاطميّ الرابع ، ترجمت له المصادر التالية :

- 1 - سيرة الأستاذ جوذر : نشرها محمد كامل حسين بالقاهرة ، ونقلها الى الفرنسية ماريوس كانار بالجزائر .
- 2 - ابن حمّاد : (1231/628) أخبار ملوك بني عبيد .
- 3 - ابن الأثير : (1233/630) الكامل في التاريخ .
- 4 - ابن الأبار : (1259/658) التكملة لكتاب الصلة .
- الحلة السيرة : ترجمة عدد 216
- 5 - ابن خلّكان : (1282/681) وفيات الأعيان : ترجمة رقم 398 .
- 6 - ابن عذارى : (1312/712) : البيان المغرب .
- 7 - ابن الخطيب : (1375/776) : أعمال الأعلام .
- 8 - ابن خلدون : (1428/832) : كتاب العبر (تاريخ البربر) .
- 9 - المقرئزي (1441/845) : الخطط ، واتعاظ الحنفاء .
- 10 - ابن تغري بردي : (1470/874) : النجوم الزاهرة .
- 11 - ابن أبي دينار : (1698/1110) : المؤنس .
- 12 - فرنال (Fournel) : البربر (Berbers) .
- 13 - كاترمير (Quatremère) : حياة الخليفة المعزّ Vie de calife
Moezz .
- 14 - حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعزّ لدين الله .
- 15 - حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية .
- 16 - ماريوس كانار : حياة الأستاذ جوذر ، وفصول أخرى .
- 17 - فرحات الدشراوي : الخلافة الفاطمية بالمغرب (بالفرنسية) .
- 18 - القاضي النعمان (974/363) : كتاب المجالس والمسائرات
(ملاحظات عابرة فقط) .

ولد أبو تميم معذّ بن اسماعيل بالمهدية سنة 930/319 ، وارتقى الخلافة عند وفاة أبيه المنصور سنة 952/341 ، فاتخذ لقب « المعزّ لدين الله » . وتشيد

المصادر الشيعة ، مثل سيرة الأستاذ جوذر ومجالس القاضي النعمان ، بحسن أخلاقه من تسامح وحلم وتواضع ، كما تشيد بسعة معارفه في شتى أنواع العلوم ، ولا سيما العلوم الباطنية المنبثقة عن العقيدة الاسماعيلية . وقد نسب اليه المستشرق لويس ماسينيون⁽¹⁾ ، في الثبت الذي صنفه للمؤلفات القرمطية ، رسالة ذات نزعة قرمطية سماها « الرسالة الى حسن القرمطي » وأخرى ذات نزعة عقائدية جدلية ازاء النصرانية سماها « الرسالة المسيحية » ، وقد أرخها ماسينيون بسنة 969/358 . والواقع أن هذه الرسالة المسيحية إنما هي فصل من « مقالة مسيحية » منسوبة الى المعز ، ولكنها لغيره بدون شك ، لأن هذا الفصل من المقالة قد نسخ سنة 920/308 ، أي ، قبل ميلاد المعز بأكثر من عشر سنوات . هذا ما يطلعنا عليه فهرست المخطوطات بالمكتبة الوطنية بباريس⁽²⁾ . أما الرسالة الى الثائر القرمطي ، فتتضمن قبل كل شيء دعوة الى وضع السلاح والاعتراف بالحكم الفاطمي الذي أقره جوهر بالقاهرة . وقد احتفظ لنا القاضي النعمان من جهة أخرى برسائله الى امبراطور بيزنطة - أو طاغية الروم كما يقول - التي يدعو فيها الى اعتناق الإسلام⁽³⁾ .

هذا السعي الدائم الى نشر الإسلام مع التمسك المستمر بفريضة الجهاد المقدس قد ميز حكم هذا الملك العظيم ، وقد قضى معظم مدته بافريقية ، وهو منشغل بتوطيد السلطان الفاطمي بعد أن كادت تؤدي به ثورة أبي يزيد الخارجية . ولئن ظفر المنصور بأبي يزيد سنة 947/336 ، فإن تبعات فتنه قد استمرت حتى خلافة المعز ، إذ كانت القبائل البربرية ، وخاصة زناته ومغراوة ، تتمرد بين الفينة والفينة على الحكم الشيعي مستندة الى السلطة الأموية بالأندلس التي كانت تحوكم الدساس وتشجع الثورات ضد الفاطميين ، انطلاقاً من

(1) البيليوغرافيا القرمطية : رقم 19 .

(2) فهرست دي سلان (De Slane) : رقم 191 .

(3) انظر فصل الدشراوي : جزيرة قريظش ... وفصل ماريوس كانار : المصادر ... ص . 289 . وانظر كذلك أتعاض الحنفاء للمقريري ص . 251 : نص الرسالة الى القرمطي .

قواعدها بالمغرب الأقصى ، مثل طنجة وسبتة اللتين عجز القائد جوهر على افتكاكهما . وكانت سياسة خلفاء قرطبة ترمي الى اقامة قبائل زناته حاجزاً في المغرب بينهم وبين مرامي المعزّ التوسّعية . والمعزّ من جهته لم يكن يخفي عداوته للأمويّين ، أو المروانيّين كما تقول الدعاية الرسميّة ، ويرى أنّ سلطانهم غير شرعيّ ، بل هو ثمرة اغتصابين : أوّلاً ، اغتصاب معاوية للحكم من عليّ بن أبي طالب الخليفة الشرعيّ ، ثم انتزاع السلالة المروانية للحكم من السلالة السفيانيّة⁽¹⁾ .

وقد خصّص فرحات الدشراوي صفحات طويلة من رسالته لتحليل أسس هذا الخلاف بين الفاطميين وأمويّ الأندلس ، وتفصيل نتائجه السياسيّة والعسكريّة : فهو مثلاً يعزو الهدنة التي وقعت سنة 8/346- 957 بين المعزّ وقسطنطين إمبراطور بيزنطة لمدّة خمسة أعوام ، يعزوها الى رغبة المعزّ في توجيه كافّة قوّته وعزمه ضدّ الغاصبين الأندلسيّين والتفرّغ لقتالهم ، ولا يشكّ هذا الباحث كذلك في أنّ المعزّ كان يرسل الدعاة السريّين الى الأندلس ليحدثوا القلاقل والفتن تمهيداً لحملة فاطميّة واسعة على الجزيرة .

غير أنّ المنافسة بين الدولتين ، في انتظار هذه المجابهة ، وجدت مجالاً فسيحاً بأرض المغرب ، فاتخذت من قبائل البربر وسائط لها في القتال ، فكان الأمويون كما أسلفنا يستخدمون قبائل زناته ، وبخاصّة الفرع المعروف منها بقوّة الشكيمة ، وهم بنو خزر من مغراوة . أمّا الفاطميّون ، فيعتمدون ، علاوة على أنصارهم الأوّلين من كتامة ، على قبيلة صنهاجة المعروفة بشدّة عداوتها لزناته الرّحل ، ومعلوم أنّ صنهاجة كانت من القبائل المستقرّة ، خصوصاً بعد تأسيس مدينة أشير بالمغرب الأوسط (جنوب عاصمة الجزائر الحاليّة) .

(1) الدشراوي : الخلافة الفاطميّة . . . ص. 225 . انظر أيضاً : المعزّ لدين الله ص. 322 وما يليها .

وبمجرد أن وصل شاعرنا الى برّ العدو ، وجد نفسه في خضمّ هذا التنافس فانضمّ مباشرة الى حزب الفاطميين كما يظهر من مدحته لجوهر ، وهي أول قصائده المغربية :

37/10 أراك بمرآة الإمامة كأسمها على كور عئس والإمام المرشحاً

فعبارة « مرآة الامامة » لا تدع مجالاً للشك في أنه قطع الصلة بالأمويين فأخذ يردّد الشعارات الفاطمية ويتبنّى عداوة صاحب افريقية ضدّ خلفاء قرطبة ، كما سيظهر من شعره الذي ينظمه في المعزّ .

لكنّ المعزّ لم يقصر عداوته على الأمويين المروانيين بالأندلس ، بل كان يوجّه أنظاره أيضاً الى العباسيين لأنهم ، في نظر الأئمة ، ظالمون غاصبون للحكم مثل بني أمية ، ولا بدّ يوماً من إرغامهم على ارجاع الحقّ الى أصحابه الشرعيين : أبناء فاطمة . لذلك لا نراه يصرف نظره عن شؤون المشرق ، كما تدلّ عليه مراسلاته مع الأخشيديين بمصر اثر احتلال نفقور فقّاس الأمبراطور البيزنطي لجزيرة قريطش : فقد فكّر في تجهيز أسطول مشترك بين المصريين والافريقيين لمحاولة استرجاع الجزيرة⁽¹⁾ .

غير أن صدى الأحداث الشرقية لا يبرز في القصائد المعزية الأولى ، بل يركّز ابن هانيء اهتمامه ، أي حملاته الكلامية ، على المروانيين بالأندلس : هم العدو الذي يجب أن يقهر ويمحق ، أما العباسيون فيبقى ذكرهم خافتاً الى ما بعد سنة 962/351 ، أي بعد الهزائم النكراء التي يلحقها الروم بسيف الدولة الحمداني على حدود الخلافة العباسية العاجزة المقهورة ، فعندئذ لا تتوانى الدعاية الفاطمية - وبالتالي الشاعر - في مقابلة انتصارات الأسطول الفاطمي في صقلية وجنوب ايطاليا بنكبات العباسيين وأمرائهم في شمال الشام والحوض الشرقي من البحر الأبيض ، فيقول شاعرنا مشيراً إلى صدّ الأمبراطور

(1) الدشراوي : الدولة الفاطمية . . ص . 247-244 . انظر أيضاً له : جزيرة قريطش . . .

البزنطي - الدمستق - عن صقلية ومعرضاً بخمود العباسيين .

53/40 إِنَّ التي رام الدمستق حربها لَّه فيها صارم مسلول
54 لا أرضها حلب ، ولا ساحاتها مصر ، ولا عرض الخليج النيل

ويزداد هذا التهجم على بني العباس قوة عندما يستيقن المعز بتوطيد أمره على المغرب ، فيولي نظره شطر بغداد ، ولا سيما بعد وفاة كافور الأخشيدي أمير مصر سنة 968/357 . فلذلك ، اعتماداً على ما ورد في المدائح المعزية من تهجم على العباسيين ومجادلة لهم في شرعية الامامة ، يمكننا أن ندفع النظريتين المختلفتين - وإن كانتا كلاهما خاطئتين - اللتين فُسِّر بهما بعض الدارسين انتقال الخلافة الفاطمية من إفريقية الى مصر : تقول النظرية الأولى أَنَّ هذا التحوّل أنما كان نوعاً من الهروب من عداوة القيروانيين المتمسكين بسنتهم ، الناقمين على البدع النشيعية ، الى أصقاع كان الشيع فيها معروفاً مقبولاً⁽¹⁾ . ويقول الرأي الثاني إِنَّ المعز لم يقرّر تحويل الخلافة الى القاهرة إلا لمجابهة فرق القرامطة التي عاثت فساداً بأرض الشام وتمردت على الجيوش الفاطمية هناك فقتلت قائده الكتامي جعفر بن فلاح⁽²⁾ . فهذان رأيان خاطئان في نظرنا : ذلك أن المعز لم ينقطع تفكيره في اكتساح الشرق والإطاحة بالدولة العباسية . ولا غرابة في ذلك ، ما دام الأئمة الفاطميون يعتقدون أنهم هم وارثو الأرض وسادة الكون ، وأن كلّ سلطة لا تنبثق من وحيهم أنما هي سلطة مسروقة مغتصبة يجب الإطاحة بها . ولئن لم يشرع في حملته الشرقية الآ سنة 969/358 ، فلأنه كان مضطراً قبل ذلك الى توثيق قواعده الخلفية وتحصينها من دسائس الأمويين وفتن القبائل الزناتية وتحركات الأسطول الرومي ، فاستخدم لهذا الغرض كبار قواده من عبيد صقالبة مثل جوهر ، أو بربر صنهاجيين مثل زيري بن مناد ، أو عرب مثل بني حمدون بالمسيلة أو الكلبيين

(1) حسين مؤنس : مقدمة رياض النفوس . ص . 17-16 . ولنلاحظ عرضاً أن الحملات على المشرق بدأت من عهد عبيد الله ، أي منذ السنوات الأولى من انتصاب الدولة بالقيروان .

(2) الدشراوي : الخلافة . . . ص . 266 .

بصقلية . وهذا الحذر من أعداء الخلف هو الذي حرّك الأسطول الفاطمي ضدّ البيزنطيين ، فأنزل بهم هزيمة رمطة بالجنوب الشرقي من صقلية ، ثمّ كارثة الخليج أو مضيق مسينا سنة 965/354 ، وكان الدمستق فاتحه منذ سنة 957/346 في إبرام صلح دائم⁽¹⁾ ، وربما كانت مهادنة الروم في صالح الفاطميين إذ تمكّنهم من التفرّغ لمآربهم الشرقية ولكنّ تمسّك المعزّ بفريضة الجهاد ، كما أسلفنا ، حملته على رفض العروض البيزنطية⁽²⁾ وعلى مواصلة قتالهم برّاً وبحراً . وأنا لنجد في مدائح ابن هانيء صدى لهذه المشاغل عند الخليفة : التصديّ للنفوذ الأندلسيّ بشمال أفريقيا ، ودفع الخطر الرومي عن قلورية في جنوب إيطاليا أو « الأرض الكبيرة » كما يقول المؤرّخون ، وعن جزيرة صقلية ، وأخيراً استنكار الركود العبّاسيّ ازاء انتصارات الأباطرة المقدونيين في شمال الشام والجزيرة .

وكان القائد الصقليّ جوهر هو المكلف عادة بالحملات المغربية ضدّ عملاء الأمويين والثوار البرابرة . وفيما بين سنة 969/358 و 971/360 ، بينما كان جوهر منشغلاً بفتح مصر وتأسيس القاهرة وبسط النفوذ الفاطمي على وادي النيل وربوع الشام ، قامت ثورة جديدة في مغراوة ، يقودها أبو خزر ، فاضطّرّ المعزّ الى ملاحقته النائر بنفسه ففاد حملة ضدّ زناته حتى جبال الأوراس ، ولا يظهر من كلام ابن هانيء أنّ الشاعر رافق الخليفة في هذه الحملة ، وسكوته هذا يدعونا الى التساؤل عن حقيقة العلاقة التي كانت تربطه بالمعزّ : فلئن صرح أنّه كان الشاعر الرسميّ للدولة الفاطمية ، المعلي لكلمتها ، المشيد بأحقّيتها لخلافة المسلمين كما يظهر من الشعارات الشيعية التي تطفح بها مدائحه ، فهو فيما يبدو ، لم يكن ملازماً للخليفة ، ولا معاشياً له في بلاطه ولا حتى في عاصمته المنصورية : ذلك أن شعره لا يتعرّض قطّ للأحداث والحالات التي قد تقع في القصر أو عند أفراد الأسرة الحاكمة ، من مرض

(1) نفس المصدر ص 243 .

(2) انظر القاضي النعمان : ك . المجالس والمسايرات ، 367 و 444 .

يطراً على أحد الأمراء ، أو زفافٍ يحمل أميرة الى بعلها ، أو وفاة عظيم . ولا يخلو الأمر من غرابة إذا اعتبرنا أن اثنين من إخوة المعزّ ماتوا في الفترة التي قضاها الشاعر بإفريقية . الأخوان هما طاهر والحسين اللذان مدحهما بالقصيدة الخامسة عشرة ، والأخت يسميها المقرئ ⁽¹⁾ سمورة . فصرنا نتساءل هل كان للمعز بلاط ، بالمعنى الذي نفهمه من عبارة « بلاط المأمون » أو « بلاط سيف الدولة » أي حلقة يتوسطها الخليفة بين كبراء دولته وشعرائه ومغنييه وعلمائه ، ويقع أثناءها الانشاد والسماع والمطارحات الأدبية ، ويستطيع الشعراء بفضلها أن يطلعوا على ما ينتاب حياة القصر من حوادث سارة أو أليمة ، تافهة أو جسيمة .

بل لعلّ سكوت الشاعر عن حياة الخليفة الخاصة يحملنا على تصديق الصورة التي يقدمها لنا عن المعزّ مترجموه : وهي صورة العاهل الوقور الرّصين الذي لا يضيع الوقت في توافه المجالس وثرثرة الحلقات ⁽²⁾ ، فلا يترك التواضع - بل التزهّد - الذي فطر عليه الا عندما تضطرّه الاحتفالات الرسمية الى إظهار أبهة الملك ، في الأعياد مثلاً ، أو عند قبول رسل الملوك أو استقبال قوّاده المظفرين . وحتى هذه المواقف الرسمية لم تحظ بوصف مدقّق عند ابن هانئ ، بل يشير إليها اشارات قليلة سريعة . فكأنّ الخليفة يعتبر أنّ هذا الجانب الرسمي من حياته أعظم قدراً من أن يدعو اليه الشعراء فيجعله على مرتبة المساجلات والمطارحات .

وعلى ذكر الشعراء ، هل يصحّ أن نستعمل هذا الجمع ؟ أو ، بعبارة أخرى ، هل كان عند المعزّ شعراء آخرون غير صاحبنا ؟ صحيح أن المصادر تذكر جماعة ، منهم الفزاري ، والإيادي وابن القتّار ، ولكنها لا تترجم لهم ، ولا تنقل من شعرهم الا التزّو القليل . وحتى المصادر الإسماعيلية ككتاب « عيون الأخبار » للداعي إدريس ، لئن ذكرت شاعراً مثل جعفر بن منصور

(1) اتعاظ الخفاء 133 .

(2) المجالس والمساربات 94 ، 442 ، 457 و 514 .

اليمن⁽¹⁾، فهي لا تتعرض لعلاقته بالإمام . وصحيح أيضاً أن شاعرنا يتذمر أحياناً من بعض المنافسات ، ولكن لم يصلنا شيء من شعر هؤلاء في المعز ، إن كانوا مدحوه حقاً ، كما لم نجد في كامل ديوان ابن هانيء تصريحاً باسم واحد من هؤلاء الحسدة المنافسين .

فإن خلت المدائح المعزّية من كل إشارة الى حياة المعزّ وإلى حياة الشاعر بجوار المعز ، لم نستغرب الصعوبات التي تعترض سبيل كلّ من يحاول تصنيف ترجمة صحيحة لابن هانيء . فالغموض الذي يكتنف ميلاده وظروف وفاته هو الغموض الذي يكتنف علاقاته مع مدوحيه .

أميرا الزاب : جعفر ويحيى ابنا حمدون

نجد ذكراً لهذين الأخوين في المصادر التالية ، علاوة على مصادر ترجمة المعزّ الفاطمي :

- 1 - ابن حيّان : (1076/469) : المقتبس ص . 32 - 34 .
- 2 - ابن الأثير : الحلة السيرة : ترجمة رقم 111 .
- 3 - ابن خلّكان : وفيات : ترجمة رقم 133 .
- 4 - ابن سعيد 1286/685 : المغرب : ترجمة رقم 409 .
- 5 - ابن خلدون : ج . 4 ص . 32 من طبعة بولاق .
- ج . 16 - 21 ، ص . 176 من طبعة بيروت .
- 6 - ليفي بروفنسال : اسبانيا الإسلامية ج . 2 ص . 187 .
- 7 - ماريوس كانار : أسرة بني حمدون . . . ص . 33 - 49 .
- 8 - فرحات الدشراوي : الخلافة الفاطمية بالمغرب ص 238 - 240 .

كان جعفر بن حمدون والي المعزّ على المسيلة ومنطقة الزاب بالمغرب

(1) حوليات 1979/17 ص 69 .

الأوسط . وكان يَمْنِي الأصل ، كما تدلّ عليه نسبة « الجذامي » في اسمه : فهو جعفر بن علي بن حمدون بن سمالك الجذاميّ الأندلسي . وقد أكثر ابن هانئ من الاشارة بهذا النسب القحطانيّ الذي يشترك فيه مع أمراء المسيلة ، فنراه يجعل مثلاً من جعفر أصلاً جامعاً لكلّ الخصال اليمينية : [مقارب]

46/50 فلو نُسِبَت يَمْنُ كُلُّهَا اليك ، لقلنا لها : لا جرّم وربّما عزا العطف الذي لقيه عنده الى هذا الاشتراك في النسب : [طويل]

37/63 وكم لك عندي من يد يمينيّة لها حَسَبٌ في المكرمات عتيق

جذّ الأسرة يدعى عبد الحميد ، ولكن النطق الاسباني صغّره فصار « حمدون » كما وقع في « خلدون » و « عبدون » وغيرهما . وكان له ابنان : محمد وعلي . ويظهر أنّه قدم من الشام فاستقرّ بمنطقة البيرة ، فلعلّه سليل إحدى الأسر الشاميّة التي هاجرت الى الأندلس بعد فتحها فعمّرت مدن الجنوب الإسباني وقراه . ولا نستبعد كذلك أن يكون حمدون هذا داعياً من دعاة الفاطميّين ، استقرّ باحدى « الكورات المجنّدة » التي توزّعها أجناد حمص وقنسرين ودمشق ، فاختر كورة البيرة لما كان يتوقعه فيها من قبول العناصر اليمينية للشعارات الشيعة ، وكانت الدعايات المارقة تجد أرضاً خصبة في هذه المناطق ، بدليل الفتن العديدة التي أثارها فيها الأحياء اليمينية .

ويَدْعُمُ رأينا في انتساب حمدون الى الدعوة الفاطميّة ، ما تذكره المصادر من أنّه استقرّ مدّة بمدينة بجاية بالمغرب الأوسط ، أي على مقربة من مواطن كتامة . ومعلوم أن كتامة هم الأنصار الأوّلون للداعي أبي عبد الله الشيعي . بل يذهب الدشراوي في رسالته⁽¹⁾ ، مستنداً الى كتاب افتتاح الدعوة للقاضي النعمان⁽²⁾ الى أن حمدونا هو الذي أوصل أبا عبد الله الى كتامة ، بعد

(1) الدشراوي : الخلافة ... ص. 60 .

(2) افتتاح الدعوة ، ص 68-70 .

أن تلقى أمراً بذلك من مركز الدعوة الفاطمية بسلمية بالشام ، مما يؤكد في نظره أنه كان على اتصال وثيق بزعماء الدعوة في المشرق .

ويرى ماريوس كانار⁽¹⁾ أن هذه المهمة كانت من نصيب محمد بن حمدون ، أحد أنصار الداعي الحلواني الأولين : فهو الذي ربط الصلة بين أبي عبد الله والكتاميين ، في حين أن علي بن حمدون ، الابن الثاني ، دخل في خدمة المهدي بمجرد وصوله الى سجلماسة وبقي معه حتى انتقاله مظفراً الى رقادة .

ومهما يكن من أمر ، فلا شك في أن الأسرة الحمدونية قديمة التشيع : فقد خدم حمدون - أو ابنه - الخليفة الأول عبيد الله المهدي . ثم نجد علي بن حمدون في خدمة الخليفة الثاني محمد القائم منذ أن كان ولياً للعهد مكلفاً ببسط النفوذ الفاطمي بالمغرب الأوسط . فأسس معه سنة 926/315 مدينة حصينة سماها باسمه : « المحمدية » . ولكنها عرفت فيما بعد باسم « المسيلة »⁽²⁾ . وكان الغرض من انشاء هذه القاعدة أن تمكن الحكام الفاطميين من مراقبة سهول « شط الحضنة » وجبال « المعاضيد » في آن واحد ، ثم أن تكون محتشداً للعتاد الحربي والمؤن اللازمة في حالة حصار أو حرب طويلة المدى، وقد استفاد الحكم الفاطمي منها فعلاً : فبفضل ما أذخره علي بن حمدون بالمسيلة من سلاح وعتاد ، تمكن الخليفة الثالث المنصور من محاصرة أبي يزيد صاحب الحمار بجبل « كيانه » حيث كان اعتصم في آخر أيامه ، ثم من القضاء عليه نهائياً .

وقتل علي بن حمدون سنة 945/334 أثناء معركة دارت بين الجيوش الفاطمية وأنصار أبي يزيد بقيادة أبي أيوب ابن صاحب الحمار . فخلفه على

(1) م. كانار : حياة . . . ص. 109 تنبيه عدد 203 . ولنلاحظ أن القاضي النعمان يتحدث عن أبي عبد الله (محمد) الأندلسي ، لا عن حمدون نفسه ، مما يدعم نظرية ماريوس كانار .

(2) انظر فصل بول ماسيرا عن المسيلة .

امارة المسيلة والزاب ابنه جعفر بن علي بن حمدون يساعده على شؤون الولاية أخوه يحيى بن علي . وكان جعفر ويحيى ابنا عليّ قد نشأ ببلاد القائم ثم المنصور تحت رعاية الحاجب جوذر الأبوية⁽¹⁾ . فالعلاقة بين الحمدونيين والأسرة الفاطمية كانت اذن جدّ وثيقة . بل يقول ابن خلدون⁽²⁾ إنّ أمّ معزّ ، أي المعزّ ، كانت قد أرضعت جعفرأ ، فكان أخصاً للخليفة الرابع بالرضاع . ولا يعني هذا أنّهما كانا نذيين تربين أي أنّهما أرضعتهما معاً في نفس الفترة : فالمعزّ ولد سنة 931/319 كما أسلفنا ، أمّا جعفر ، فلا يمكن أن تكون سنّه ، لمّا خلف أباه على اماره الزاب سنة 945/334 ، دون الخامسة والعشرين على أقلّ تقدير ، فيكون مولده حينئذ حوالي سنة 921/310 ، أي قبل ميلاد المعزّ بعشر سنوات .

ولمّا ولي المعزّ الخلافة أقرّ جعفرأ على ولاية الزاب . وتقول المصادر إنّّه أظهر له من العطف الدائم والرفق المتواصل ما لم يكن جعفر به دائماً جديراً : مثلاً كان يسمح له باستبقاء القسط الأوفر من أموال الجباية ، فلا يدفع الى خزينة الدولة إلاّ المقادير القليلة⁽³⁾ ممّا يحركّ غيره الولاة الآخرين وتذمّروهم من هذا الامتياز . فكانوا يترشّحون لتعويض جعفر ويلتزمون بدفع مبلغ سبعين ألف دينار سنوياً إلى بيت المال . فتضافرت هذه الاحتجاجات مع التّهم الموجّهة الى جعفر في إغضائه عن فتنة زناته ومحركيها الأمويين ، حتى إنّ الحاجب جوذر اقترح على الخليفة أن يعزله . لكنّ المعزّ أبى أن يسحب ثقته من أخيه بالمراضعة ، بل دعا جوذرا الى المزيد من التسامح معه ، وهو الذي ربّاه مع الأمراء في قصور الخلافة⁽⁴⁾ .

(1) الدشرابي : الدولة ... ص. 238 .

(2) ابن خلدون : تاريخ ج . 4 ص 82 (بولاق) . وقد حرّفت الجملة في طبعة بيروت الرديئة فصارت لا تفهم . وانظر ترجمة دي سلان ج 2 ص 553 .

(3) الدشرابي : الدولة ... ص 239 .

(4) م . كاتار : حياة ... ص. 197 ، 198 ، 200 . نبيه رقم 435 و 438 .

ولعلَّ تَقَلُّبات جعفر بن حمدون في ولائه للمعزَّ كانت ناتجة أساساً عن العداوة التي كان يضمها للأسرة الصنهاجية ورئيسها زيري بن مناد ثم بلقين ابن زيري ، وهذه المنافسة بين بني حمدون وبني زيري صورة وصدى للخصومة القديمة بين زناته الرُّحْل وصنهاجة المستقرين . وقد حاول المعزَّ مراراً عديدة أن يصلح بينهما ، ولكنَّ جهوده لم تفلح ، فالعداوة متأصلة بين القائدين ، ثمَّ أنَّ الانتصارات المتكررة التي أحرزها زيري وابنه في حملاتهما على القبائل المتمردة كانت تحزَّ في نفس جعفر لأنها تقوِّي مركز الصنهاجيين بالخلافة وتطمس نجم بني حمدون . وبلغت العداوة أوجها يوم أن قهر زيري القائد الزناتي محمد بن الخير ، فأرغمه على الانتحار وحمل رأسه إلى المعزَّ⁽¹⁾ . فقطع جعفر ولاءه للمعزَّ ورفض أن يمثل أمامه بالمنصورة⁽²⁾ وانضمَّ إلى زناته وتحالف معهم وساعدهم على الانتقام من زيري بن مناد ، فقتلوه بدوره وقطعوا رأسه ، وركب جعفر البحر مع أهله وأمتعته حاملاً رأس الأمير الصنهاجي إلى قرطبة حيث حظي من الخليفة الأمويِّ الحكم الثاني بالترحاب والقبول .

ولم يتعرَّض ابن هانئ قطَّ إلى خذلان جعفر للمعزَّ ولا إلى المنافسة بينه وبين الصنهاجيين . وبهذا الصدد ، نلاحظ أنَّ الشاعر لا يذكر القواد البربريين بخير ولا بشرَّ ، إلَّا إذا كانوا ، مثل بني خزر ، أعداء معروفين مشهورين للحكم الفاطمي . في حين أنَّه لا يقتصد في الإشادة بحملات بني حمدون على الحدود الغربية من المغرب الأوسط ، ولعلَّه رافق يحيى بن حمدون في بعض هذه الغزوات كما يظهر من مدائحه فيه . وبصفة عامة يبدو أنه كان يتمتع عند أمراء المسيلة بحظوة كبيرة صبغت علاقته بهم بنوع من المعاشرة والتعاطف والمودة التي لا نجد لها مثيلاً في علاقته مع الخليفة . وسيعترف الشاعر بصنيع الأخوين ، ويراعي لهما الحَبْوَ والتبجيل ، فلا يُظهر لهما العداوة

(1) اللدراوي : الخلافة . . . ص . 237 .

(2) ليثي يوفنسال : إسبانيا ج . 2 ص . 188 .

ولا حتى الاستنكار بعد قطعهما ولاء المعز، مع أن إيمانه بالعقيدة الشيعية، ومنصبه الرسمي في بلاط الخليفة كانا يحتمان عليه التظاهر على الأقل بدم الأخوين واستكبار خيانتهم. بل غاية ما نجده عنده من صدى هذه الأحداث، هو هجاء غامض لكاتب عند جعفر يدعى الوهراني كان متهماً بالتجسس لفائدة الأمويين والسعي لكسب أمير المسيلة للحزب العرواني.

وقد يعزى هذا الوفاء للأخوين، رغم شقهما عصا الطاعة في وجه المعز، إلى اشتراكه معهما في النسب البيني ثم الأندلسي. هذا الالتقاء في «الأندلسية» لم يغب عن الفتح بن خاقان في المطمح إذ يقول: «... وأزعجته الأندلس، فخرج على غير اختيار، ... إلى أن وصل إلى الزاب واتصل بجعفر ابن الأندلسية، مأوى تلك الجنسية»⁽¹⁾. فالذي نفهمه من هذه الإشارة: «مأوى تلك الجنسية» أن بلاط الأخوين كان بمثابة الملجأ للأندلسيين النازحين عن وطنهم، وأن ابن هانيء، عند هجرته من اشبيلية، لم يجد المؤازرة والرعاية إلا عند «مواطنيه» الحمدوثيين، والمواطنة هنا مزدوجة: فهم مثله يمتنوا الأصل، وهم مثله أصيلو كورة البيرة.

جواهر الصقلي

في خصوص هذا القائد، انظر، إلى جانب المصادر السالفة الذكر:

- 1- ابن خلّكان: وفيات، ترجمة رقم 141 (145 طبعة بيروت).
- الداعي إدريس (1468/872): عيون الأخبار، جزء 6، ورقة 56.
- 2- علي إبراهيم حسن: تاريخ جواهر الصقلي.
- 3- فرحات الدشراوي: الخلافة الفاطمية... ص 222: حملة المغرب. ص 250: فتح مصر. ص 367: الصقالبة.

(1) مطمح الأنفس ص. 84. وانظر نفح الطيب طبعة عبد الحميد ج. 5 ص. 173.

لعلّ هذا القائد الكبير كان من أصل صقلبيّ ، والصقالية كما هو معلوم ، هم قاطنو أوروبا الوسطى من بلغار وبولنديين وروس ، وكانوا منذ القدم عرضة للأسر والاسترقاق من قوّاد الاغريق والرومان ، حتّى أنّ اللفظة اللاتينية Slavus التي تعيّن الشخص الصقلبيّ قد ولّدت لفظ Sclavus التي تعني العبد ، ومنها انتقلت الى الفرنسية في صورة Esclave في المعنى المطلق للعبودية⁽¹⁾ .

ويسمّيه ابن حمّاد في تاريخه «جوهـر الروميّ» . والمعنيون بالروم عند المؤلفين العرب هم البيزنطيون ، سكّان امبراطوريّة القسطنطينيّة أو روما الشرقية ، ويقال لها أيضاً الامبراطوريّة المقدونيّة أو الاغريقيّة ، فلذلك ترجم فوندرهايدن عبارة ابن حمّاد بـ «جوهـر الاغريقيّ»⁽²⁾ . فنسبة الرومي قد تعني إذن أصلاً بيزنطياً ، أو أيضاً صقلبياً ، إذ أن قسماً من جزيرة صقلية بقي الى القرن الرابع/العاشـر خاضعاً لنفوذ الأباطرة البيزنطيين ، فلذلك لا نستغرب نسبة «الصقلبيّ» التي علقت باسم جوهـر .

ويدعى أيضاً «جوهـر الصقلبيّ» ، دلالة على أنّه كان من العبيد الذين أسروا صغاراً فنشأوا في بلاط الخلفاء كثيرهم من الفتيان الذين قادوا الجيوش العباسيّة أو الفاطميّة . ويدعّم هذه النسبة الى الرقيق لفظ «عبد» الذي تلصقه به بعض المصادر ، والذي نقشه هو بنفسه الى جانب اسمه واسم مولاه المعزّ على منبر الجامع الأزهر حين فرغ من تشييده بالعاصمة المصريّة الجديدة : القاهرة .

وفي مصادر أخرى ، يعرف بـ «جوهـر مولى المعزّ» ، وقد تدلّ عبارة «مولى» على أنّه تخلّص من الرقّ بفضل خدمته الطويلة للدولة الفاطميّة فارتقى الى مرتبة الرجل الحرّ . وتشهد سيرة الاستاذ جوذر بأنّ المعزّ كان يمتّع بحقوق المسلمين الأحرار من نبيغ من فتيانه وأحسن الخدمة ، وربما تنافى هذا

A. Dauzat : Dictionnaire étymologique : esclave .

(1) انظر :

(2) أخبار بني عبيد ... ص 40 .

التسامح مع بعض تراتيب الفقه الإسلامي فأثار شيئاً من الاحتراز عند قاضيه النعمان بن محمد⁽¹⁾ .

أما لقباً « جواهر الكاتب » و « جواهر الوزير » ، فقد يشعران بأنه تقلد خطة إدارية عند المعز . فقد وردت عبارة « الكاتب » مقترنة بعبارة « عبد » في العهد الذي قرأه جواهر على المصريين باسم الخليفة : « هذا كتاب من جواهر الكاتب ، عبد أمير المؤمنين المعز لدين الله ، صلوات الله عليه ، لجماعة أهل مصر . . . »⁽²⁾ . أما منصب الوزارة بمعناه الديواني فلم يحدث عند الفاطميين إلا بعد انتقالهم إلى مصر . ولعل عبارة الوزير لا تفيد إلا معناها الأصلي ، معنى المؤازرة والمساعدة ، كمساعدة هارون « وزير » موسى عليه السلام لشقيقه ، أو المعنى المتولد عن علو المنزلة ، وقد رأينا مخطوط تونس 1 يلقب أحد الغلمان الذين تغزل بهم شاعرنا بلقب « الوزير » .

ولكن الخصال العسكرية هي التي أعلت مكانة جواهر عند المعز . فبمجرد ارتفاعه إلى الخلافة ، كلفه بالحملة المغربية الكبرى ، فتغلب على « خليفة » سبلماسة ابن واسول سنة 958/347 ، ثم فتح مدينة فاس بعد حصار طويل ، وأسر أميرها وأمير تاهرت ، وبذلك أرجع المغرب الأقصى كله - ما عدا سبتة وطنجة - إلى الولاء الفاطمي . وفي هذه الفترة بالذات اتصل به ابن هانيء فامتدحه معلناً ولاءه للفاطميين . وتقول الأخبار إن مكافأة القائد العظيم للشاعر كانت ضئيلة جداً . فلعله كان ، مثل معظم العسكريين ، لا يتذوق الشعر والأدب .

ثم كلفه بأعداد الحملة على مصر ، فنهيا لها جواهر طيلة ثلاث سنوات ، من سنة 966/355 إلى مستهل سنة 969/358 ، وذلك بتجنيد الأنصار من قبائل كتامة وصنهاجة ، وجمع أموال الجباية في قرى المغربيين الأوسط والأقصى

(1) إم. كانار : حياة . . . ص 57 (تنبيه 42) وص 185 (تنبيه 411) .

الدشراوي : الخلافة . . . ص 370 .

(2) المقرئزي : اتعاظ . . . ص 148 .

والأرياف⁽¹⁾، وحين فرغ من هذا الاعداد المادّي جمّع جيشه بناحية من أحواز المنصورية وربّته وجهّزه - وكان ، حسب قول الشاعر ، يعدّ ثمانين ألف مقاتل - حتى تهيّأ له الانطلاق نحو الاسكندرية يوم 14 ربيع الأول سنة 5/358 فيفري 969 .

ولما تمّ له النصر ، أظهر من الخبرة الإدارية والمهارة السياسية ما لا يقلّ عن خصاله الحربيّة ، فأمضى عقداً باسم الخليفة مع السفراء المصريين التزم بموجبه بأن لا يدخل تحويراً على الشعائر الدينيّة ، وكأنّه شعر بأن هذه هي نقطة الخلاف بين الشيعة وجمهور السّنة . كما أعلن عن إعفاء السكّان من الضرائب التعسّفيّة التي كان فرضها الاخشيدون ، وأخذ يتألّف القلوب ويكسب الأنصار بإغداق الأموال الكثيرة والتلطف في المعاملة ، حتى رجعت الطمأنينة إلى المصريين واستتبّ الأمن ورجع الرّخاء ، فصار الشاعر يقارن بين جوهر في سياسته الحكيمة والنيل في إحيائه لأرض مصر : [طويل]

85/27 فان يك في مصر ظمأ لمؤرّد فقد جاءهم نيل سوى النيل يهرّع
بل يدعي أن مصرأ لم تعد في حاجة إلى فيض النيل ما دام هذا السائس
الماهر يُنعشها ويحييها : [طويل]

68/22 . . . وما ضرّ مصر حين ألفت قيادها اليك ، أمدّ النيل أم غاله جزر ؟
ويظهر أنّ جوهرأ كان يكبر المعزّ بنحو خمسة عشر عاماً ، إذ نفهم من عبارة المقرئزي التي نقلها عن ابن زولاق أنه ولد في مستهلّ القرن الرابع⁽²⁾ .
هذا وإن المدائح التي وسمت في الديوان باسم هذا القائد لا تتجاوز

(1) هـ . ر . ادريس : بنو زيري ، ج . 1 ص . 29 .

الدشراوي : الخلافة . . . ص . 255 .

كانار : حياة . . . تنبيه 402 و 467 .

(2) اتعاظ . . . ص . 154 .

القصيدتين ، ولكنّ الشاعر أشاد بجوهر في غيرهما ، فكان كلما نظم قصيدة في المعزّ وتعرّض فيها الى انتصارات الجيش الفاطميّ بالمغرب أو المشرق ، مدح جوهرأ وأعظم خصاله ورفع من شأنه ، وعبر عن إعجاب به صادق وتقدير له عظيم .

وإنّا ، اذ نلاحظ هذا الصدق في عاطفة الشاعر نحو جوهر، نستغرب كلّ الاستغراب النغمة المعاكسة التي نجدها في القصيدتين اللتين مدح بهما ابن هانئ والي برقة أفلح الناشب .

أفلح الناشب

هذا الممدوح يعرف في مقدّمات القصائد بـ « قاضي برقة » ، ولكن المصادر المعاصرة للمعزّ كسيرة الاستاذ جوذر، وكذلك المتأخّرة كالمؤنس لابن أبي دينار تدعوهُ « والي برقة » . وينسبه الشيخ الطاهر أحمد الزاوي الى أصل بربري كتاميّ ، ولكنّه اشتبه عليه الأمر بين أفلح هذا ، وشخص كتاميّ كان المهدي عبيد الله قد عيّنه على قضاء رقّادة⁽¹⁾ .

ولا تذكر مصادرنا من أخباره وصفاته إلّا الأنفة والكبرياء ، فقد استنكف من الانحناء أمام جوهر لدى مروره ببرقة في طريقه الى مصر . وكان الخليفة ، إكراماً لقائده العظيم ، قد أمر الولاة والقوّاد وحتى أمراء الأسرة الحاكمة بتقبيل ركاب القائد اجلالاً له وتبجيلاً . فحاول أفلح أن يستعفي من هذه السّجدة وعرض على جوهر تعويضاً قدره خمسون ألف دينار ، ولكنّ القائد أبي فاضطرّ الوالي مكرهاً الى الانحناء والتقبيل⁽²⁾ .

(1) ط . أ . الزاوي : تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، القاهرة 1954 ص . 172 . وانظر : حياة جوذر . . . ص . 141 تنبيه 305 والسيّ هو أفلح بن هارون الملوسي (انظر : عيون الاخبار للداعي إدريس ، جزء 5/ 193) .

(2) الفلقشتدي : صبح الأعشى ، ج . 345/3 حيث يبلغ التعويض المقترح مائة ألف دينار . وانظر كذلك ابن أبي الضياف : اتحاف ج 1 ص 127 . والتنبيه 305 من حياة جوذر .

والديوان لا يَسِمُ باسم أفلح الا القصيدة الخامسة والخمسين ، ولكننا
 بينا فيما مضى من الصفحات أنّ هناك قصيدة أخرى - الخامسة - وُسِّمت باسم
 الشيباني ولكنها في نظرنا قيلت في أفلح : ذلك أنّ القصيدتين تشتركان في
 الاشادة بانتصارات أفلح في الصعيد المصري بين أسوان والواحات : [كامل]
 48/55 وسمّث الى الواحات خيلك ضُمرّاً حتى انتهت قُدماً إلى أسوان

هذا ما يقوله الشاعر متوجّهاً صراحة إلى أفلح . وقد طرق هذا المعنى
 نفسه في القصيدة الخامسة المنسوبة خطأ إلى الشيباني : [بسيط]

ألست صاحب أعمال الصعيد بها قُدماً ، وقائد أهل الخيم والطنب ؟ 10/5

هذا وإن قصائده في الشيباني لا تشير الى هذه الحروب في مصر . ثم
 إنّ المصادر الشيعة تذكر تحركات الأسطول والجيش الفاطمي انطلاقاً من
 بركة⁽¹⁾ . فلا مجال إذن للشك في أنّ القصيدتين قد نظمتا في أفلح الناشب .
 وربما كانت صلة الشاعر به قديمة متينة لم تقتصر على ملاقاته أثناء توقفه ببركة
 في ركب المعز .

يلحّ ابن هانئ على العمليّات الحربيّة التي قادها أفلح بالصعيد
 وبالبحيرة - ويعني بالبحيرة ما يسمّى اليوم بالـ «دلتا»⁽²⁾ - وكانت تقطن هذه
 المنطقة الساحليّة منذ العهد الأموي قبيلة بني قرّة ، فيجد فرصة للتلاعب بلفظ
 القرّ ومقابلته بالنار الجهنميّة التي أنزلها بهم مدوحه : [كامل]

44/55 ما قرّ أعين آل قرّة مذ سُقوا بك ما سُقوه من الحميم الأنبي

ويؤكد أن أفلح أجلاهم عن مواطنهم بالدلتا والبوادي :

46/55 أخلى البحيرة منهم والبيد ما خسف الصعيد بشدّة الرجفان

(1) سيرة الأستاذ جوفز ص 180 ، تنبيه 101 من النصّ العربي . وانظر : عيون الأخبار ، 101 - 100/6 .

(2) أو : بحيرة الإسكندرية (ياقوت) أو : خلجان النيل (ابن حوقل) .

ولكنه قبل هذا ، أبدى رأياً غريباً ، مفاده أن فضل الفتح يرجع إلى
أفلق :

39/55 إِنَّا وجدنا فتح مصرٍ آخرأ لكَ ذكرُهُ في سالف الأزمان

ونحن إذ نستغرب هذا القول ، نتساءل عن هذا التعريض الواضح ، ولا نخاله الا تعريضاً بجوهر صاحب الفتح وبطله : فكيف قلب الشاعر ظهر المجنّ فصار ينتقص قائداً كان بالأمس يشيد بانتصاراته؟ وهل كان مدح أفلق يحوجه حقاً إلى مثل هذا التراجع ؟ على أن عبارة « سالف الأزمان » قد تعني أن أفلق شارك في تحرّك القائم وليّ العهد نحو مصر ، ومهد بذلك لفتح جوهر على أن اسمه لم يرد عند المؤرخين في حملتي 301 و306 .

لكنّ الشاعر يعدل بين الرجلين في المدحة الأولى ، أي القصيدة الخامسة ، فيرفع شأن أفلق دون أن يحطّ من قدر جوهر ، فيعتبره صنواً للقائد المظفر ، شريكاً له في مبرة الفتح ، بل ساعداً أيمن له وعضداً مؤازراً في القيادة وتدبير الحرب : [بسيط]

33/5 ان لا تَقْدُ عُظْمَ ذا الجيش اللّهام فقد شاركت قائده في الدرّ والحلب

34 فالناس غيرك أتباع له حوّل وأنت ثانيه في العليا من الرتب

35 أيّدتَه عضداً فيما يحاوله وكتما واحداً في الرأي والأدب

وحتى إزاء هذا الاعتدال ، نتساءل : ما الداعي الى تسلية والي برقة بهذه العبارات المشجّعة ؟ أكان يشتكي سوء حظّه ويرى أنه مهضوم الجانب ؟ فان صحّ هذا الاعتبار ، اتّضح لدينا سبب امتعاضه من جوهر واستنكافه من تقبيل ركابه رغم أمر الخليفة ، وقد قلنا إنّ الأنفة وحدها والكبرياء لا تفسّران محاولته للتخلّص من هذه السجدة المشينة .

وتزداد حيرتنا عندما نراه يعود في القصيدة الثانية إلى تعداد فضائل أفلق ، ولكن مع ترك الاعتدال والمحايدة ، بل يتحرّز لأفلق وينكر فضل غيره - وهذا الغير لا يكون الا جوهرأ ، وان كان لا يسمّيه - ويعلن أن والي برقة

هو الذي مهّد للفتح بفضل قربه من مصر واستعداده الدائم لمجابهة كل التحركات فيها ، وخوضه معارك أخضعت جيشها وأهلها لارادته : [كامل]

40/55 فبعزمك أنهذت قُوى أركانها وبقربك أمتدت الى الإذعان

41 وطأت بالغارات مركب عزّها والجيش حتى ذلّ للركبان

42 فإليك يُنسب حيث كنت ، وإنما فخر الصليّ لقادح النيران

فان كان أفلح هو الذي يقدح النار ويضرهما ، وجوهر هو الذي يتفع بدفئها ، فكانَ الشاعر يثّم القائد باغتصاب حقّ أفلح ، بل ينتقد قرار المعزّ بإسناد الحملة اليه ، مع أن والي برقة كان أولى بها ، لأنّه أقرب إلى ميدانها .

فكيف نفسّر تصاعد اللهجة بين المدحتين ؟ وكيف أصبح الشاعر في الثانية يتبنّى ادّعاءات ممدوحه بعد أن كان في الأولى يكتفي بالتسوية بينه وبين جوهر ؟ لعلّه نظم القصيدة رقم 55 أثناء مُقام ثان برقة ، بعد توديعه للمعزّ على أبواب مصر ؟ فيكون قد استمع من جديد إلى تذرّات مضيّفه في شأن أحقيته بقيادة الحملة ، فرأى أن يخفّف من خيبته فأظهر الدخول في حزيه ، خصوصاً وأنه أصبح في مأمن من غضب المعزّ أو من انتقام جوهر ، وكلاهما منصرف عن شؤون افريقيّة والمغرب الى فاتحة عهد جديد بالقاهرة ؟ وهذا الافتراض لا يرضينا لأنه ينسب إلى الشاعر تقلّباً في المودّة وخيانة للعشرة لم نعهدهما فيه ، بدليل ما رأيناه من وفائه لجعفر بن حمدون رغم خذلانه للمعزّ . ولكننا نضطرّ إلى مثل هذا التأويل حتى نتجاوز مرحلة الملاحظة والوصف إلى التفسير والتعليل . ولتفسير أعرج أحبّ إلينا من سكوت المحترز المحتار .

خلال هذه الاقامة الثانية ، يكتشف الشاعر خصالاً في الأمير لم ينبها إليها في المدحة السّابقة : الورع والتقوى مثلاً ، ثم صدق تشييعه ، وسعة علمه بأحكام الدين ، مُتملّئة في إقامة مجالس المناظرة وتنظيم حلقات الجدل ، ممّا قد يفسّر عندنا ما ينسب إليه في بعض المصادر من تقلّد قضاء برقة : [كامل]

13/55 قومٌ إذا ماج البريةُ والتقى خصمان في المعبود يختصمان
تركوا سيوفَ الهند في أعمادها وتقلّدوا سيفاً من القرآن

وتطلّعنَا القصيدة الخامسة على أعمال عسكرية لأفلح في جبال الأوراس
والمغرب الأقصى ، ولكن المصادر التاريخية وكتب التراجم لم تذكر هذه
الأعمال فيما نقلته من أخبار أفلح القليلة : [بسيط]

11/5 تشوّق المشرق الأقصى اليك ، وكم تركت في الغرب من ماثورة عجب
12 وكم تخلف في أوراس من سير سارت بذكرك في الأسماح والكتب

فالبيتان غريان ، خصوصاً إذا قارنهما بالقصيدة اللاحقة التي سكنت
تماماً عن هذه البطولات المغربية ، ولكنهما في الظاهر غير محولين عن قصيدة
أخرى ولا مشوهين ، بل يبدوان في محلّهما المعقول من القصيدة ، وإذا
تذكرنا ما نفيناه أولاً من نسبة المدحة الى ممدوح آخر غير أفلح ، تبين أن هذه
الإشارة نموذج آخر من غوامض شعر ابن هانيء .

وفي ختام حديثنا عن أفلح ، يمكن أن نربط به ممدوحاً آخر ذكرته مخطوطة
تونس 1 وسمّته « محمد ابن قاضي برقة » بدون أن تذكر له وظيفة ولا صفة ،
والقطعة التي وسمت باسمه تتضمن عشرين بيتاً لا غناء فيها ، ولا وضوح ولا
تدقيق ، ممّا يحملنا على الشك في صحّة نسبتها إلى ابن هانيء ، أو على
الاعتقاد بأنّها مشوّهة مقطوعة عن أصلها⁽¹⁾ .

أبو الفرج محمد بن عمر الشيباني

من المظنون أن هذا الممدوح هو أحد القواد الفاطميين المكلفين بحفظ
الأمن أو باستخلاص الجباية على الحدود الغربية من المغرب الأوسط . ولعلّ

(1) المقطوعة 68 من إضافات تونس 1 . انظر الحوليات 1969 ص 105 .

المنطقة التي كانت تحت رعايته هي منطقة تاهرت : ذلك أنّ أحياء من شيبان - وهي بطن من قبيلة بكر بن وائل - كانت قد استوطنت مقاطعة تاهرت منذ الفتح الإسلامي . ثم أنّ الشاعر يشيد بمقاومة هذا الممدوح للاباضية ، ومعلوم أنّ تاهرت كانت عاصمة للدولة الرستمية الخارجية حتى انتصاب الفاطميين بالمغرب .

خصّص ابن هانيء ست مدائح لهذا الشخص دون أن يذكره مرة واحدة باسمه . ولكنه في كلّ قصيدة يشيد بأصله البكريّ ، فيذكر بأمجاد بكر القديمة ، مثل قتلهم لكليب أبان حرب البسوس حفظاً لحرمة الجوار :
[كامل]

69/4 لولا الوفاء بعهدهم لم يفتكوا بكليب تغلب بين أيدي تغلبا
حتى وإن كان الجار المظلوم ناقة مسنة : [بسيط]

35/66 الضاربين كليبا فوق مفرقه بالمشرفي، على ناب من الإبل
ويتهج الشاعر أحيانا بحسن الوفاق واتحاد الشمل بين ربيعة - وهي
الفصيلة التي ينتسب إليها البكريون والشيانيون - والحيّ اليمنيّ - أي الأزدي -
الذي ينتسب إليه هو : [بسيط]

1/33 أبلغ ربيعة عن ذي الحيّ من يمن أنا نؤلف شملاً ليس يفترق
ولا ندرى أيّ شمل يعنيه . فالعصبية بين ربيعة والقبائل اليمنية لم تقل
خطورة في القديم عن العصبية بين ربيعة ومضر .

ونجده في قصائد أخرى يشيد بتشجيع الممدوح ووفائه للأئمة [بسيط]
39/60 لله من علوي الرأي منتسب الى العلوي، وائلّي الأصل مُريّ
وهنا تقف معرفتنا بهذا الممدوح ، الذي سكنت عنه جميع مصادرنا ،
بالرغم من الأعمال البطولية التي قام بها - حسب ما يذكره الشاعر - في المغرب

الأقصى بالخصوص لإعلاء كلمة الفاطميين ، وبسط نفوذهم على الأصقاع
النائية وتوفير مداخيل الجباية حتى صارت قناطر من الذهب مقنطرة بعد أن
كانت « أواقِي » قليلة :

41/60 مَنْ أَصْلَحَ الْمَغْرِبَ الْأَقْصَى بِلَا أَدَبٍ غَيْرِ التَّشِيعِ وَالسِّدِينِ الْحَنِيفِي
70 ... كَوَفَّتْ عَنْ ذَلِكَ الثَّغْرَ الْمَخُوفَ فَقَدْ تَرَكْتَهُ بِالْعَوَالِي جَدَّ مَكْفِي
75 ... وَفَرَّتْ أَمْوَالُهُ إِذْ ضَعُنَ فَاجْتَبَيْتَ مِنْهَا الْقَنَاطِيرُ مِنْ بَعْدِ الْأَوَاقِي

ومن الغريب أن هذه العمليّات لم يذكرها له الشاعر إلا في قصيدة واحدة
من المدائح السّت ، وهي القصيدة الستون ، وفيها وحدها أيضاً يشيد بمناهضة
الممدوح للخوارج - الشراة كما يقول - وتحزبه للفاطميين ، متخذاً من ذي
الفقر⁽¹⁾ ، سيف الرسول (صلعم) ، ثم عليّ ، ثم الأئمة ، رمزاً للتشيع لال
البيت :

66/60 اللَّهُ مَا تَنْتَظِي مِنْ ذِي الْفَقَارِ وَمَا تَشَدُّ مِنْ عَضْدِ الرَّايِ الْإِمَامِي
67 |لَمْ يَجْهَلُوا مَا تُلَاقِي فِي التَّشِيعِ مِنْ تَحْرِيطِ شَارِيَةٍ أَوْ بَأْسِ شَارِي
68 وَمَا تُذَلِّلُ مِنْ أَهْلِ الْعِنَادِ لَهُمْ وَمَا تَدَارِي مِنْ الدِّينِ الْأَبَاضِي

والواقع أنه يعني نفس الشخص بدون شك ، لأن المدائح السّت تتفق
كلّها في الاشارة بنسبه البكري .

وأغرب من هذا الاختصاص في القصيدة الستين ، ما نجده في
مستهلّها - وأيضاً في استهلال القصيدة الرابعة - من نسيب مخلوط بالمعاني
الحريّة ، ممّا يجعل القارئ يقف محتاراً ويتساءل : أينسب الشاعر بحبيته
بأسلوب الحماسة على عادة شعراء الصنعة اللفظيّة الذين درجوا على تشبيه
الحظ بالسهم وبريق الثغر بلمعان السيوف ، أم يصف الممدوح بأوصاف

(1) انظر فصل « ذو الفقر » في دائرة المعارف الإسلامية . وقد وصف القاضي النعمان هذا السيف
عند المعزّ في كتاب المجالس والمسائرات 114-115 .

مشتركة بين الرجولة والأنوثة ؟ وإلا ، فكيف نفهم تشبيهه له بالغزال الذي لم يعهد لبس السلاح ؟ [كامل]

28/4 أو لَمْ يكن ذا الخشْفُ يألف وجرة فالיום يألف ذا القنا المتأشبا ؟

ودعوته الى وضع السلاح فإنّه لا يليق بالغزلان : [بسيط]

2/60 ضع السلاح ! فهل حَدَّثَتْ عن رشٍ في مشرفي صقيل أو رُدِينِي ؟

هذا الامتزاج المتواصل بين معاني الحرب ومعاني الغزل لا يسمح قطّ بإدراك مقاصد الشاعر ، ويحملنا على افتراض وقوع التشويش أو الانتحال في مقدّمة المدحتين ، خصوصاً وأن المدائح الأخرى استهلّت بنسبٍ تقليديّ لا لبس فيه .

ولا مانع أيضاً من أن نعزو هذا المزج الى شيء من الشذوذ الجنسيّ إما عند الممدوح ، وإما عند الشاعر . فإن كان الممدوح هو المبتلى بهذا الانحراف ، فلعلّ الشاعر يصف في هذين الاستهلالين ، الغلام الذي يهواه الشيباني ، ويتخذ لذلك طوقاً ملتوية لا يتبيّنها إلّا العارف بحقيقة الأمر . وإن كان الشذوذ من جانب المادح ، فقد يتأكّد لدينا آنذاك ما سبق أن افترضناه في شأن ميوله الدفينة ، اثر حديثنا عن المقطوعات الإضافيّة التي اكتشفناها في مخطوطة تونس 1 ، كما يتدعّم الرأي القائل بأنّ مقتله وقع بسبب مشربة متبوعة بعردة على صبيّ .

أما الصفات التي يمدح بها الشيباني ، فهي الى جانب التشيع الصادق والحزم في الدفاع عن سياسة الأئمة : الكرم وقوّة الشاعريّة ، والفصاحة الأصلية . فالكرم يتمثّل في إهداء سيف الى الشاعر : [كامل]

58/4 إن يكرُم السيف الذي قلَّدتني من عزّها فلقد تخيّر منكبا

فيؤكد الشاعر أنه أهل لمثل هذه الهدية : [كامل]

33/20 لي منهم سيفٌ إذا جرّدته يوماً ، ضربتُ به رقابَ الأعصر

أما قدرته على نظم الشعر ، فمتأتية عن فصاحة بدويّة أصيلة تلقن أصولها في الصحاري تحت الخيام ، فسلم من رطانة المرضعات الأعجميّات : [بسيط]

20/60 ثقفتُ منه أديباً شاعراً لسيّئ شتى الأعاريض محذور الأحاجي

28 ... قريب عهد بأعراب الجزيرة لم ينطق بداراً ولم يُنسب إلى عيّ

36 ... واستأثرت عربّيات الخيام به ولم يوكل إلى أيدي السراي

ولا ندري هل كان لهذا الممدوح حاضرة يقيم بها ، أو كان الشاعر يلاقيه بعاصمة الخلافة ، إذ يبدو من خلال بعض الأبيات أن ابن هانيء كان يرسل إليه المدحة مكتوبة ، ولا ينشدها بين يديه حسب المألوف : [كامل]

60/4 لو كنت حيث ترى لساني ناطقاً لرأيْتُ شقشقة وقرماً مُصعباً

هذا كلّ ما نعرفه عن أبي الفرج الشيباني : قائد فاطمي من أصل بكريّ ، حارب الخوارج بالمغرب الأوسط ، وأهدى سيفاً الى الشاعر . فهذه عناصر ضئيلة الغناء لا تكفي لايخراج هذه الشخصية من غموضها .

أبو عبد الله حسين بن المهذّب الكاتب

مدح الشاعر هذا الشخص بقطعة وجيزة ، وقد ذكر جامع الديوان ظروف نظمها فقال ان الشاعر رآه هذا الكاتب في ديوانه فألفاه منشغلاً بتوقيع دفاتره ، فانسحب معتذراً . فأرسل إليه أبو عبد الله رقعة منظومة يأسف فيها لخروجه ، فردّ عليها ابن هانيء بهذه الأبيات على نفس الوزن والرويّ ، فهي إذن تندرج في نوع المطارحات الشعرية والمساجلات الأدبية .

يبدأ الشاعر بتعظيم فصاحة الممدوح وقدرته على الارتجال ، ويكبر فيه

1/48 يا ذا البديهة في المقال ، أما كَفْتُ بَدَهاْتُ هذا النقض والإبرام ؟

2 حكم يجلي غيب كل ملّة كالشمس تكشف جنح كل ظلام

3 ولذا تراك عيوننا وقلوبنا مثل الشهاب على سواء الهام

ثمّ يشيد بتفوّقه في نظم الشعر ، ويدعوه متفكّها الى الرفق بالشعراء المحترفين الذين قد لا يبلغون شأوه :

6/48 ... فاترك لأهل الشعر معنى واحداً ممّا تثير هواجس الأوهام

9 ... تمشي البلاغة خلفكم وأمامكم ويطيب ما تطؤون بالأقدام

11 ... من أين أنكر فضلكم ولو انني كأبي عبادة أو أبي تمام ؟

ولعلّ التشبّه بالبحثري وأبي تمام يدلّنا على اختيارات ابن هانيء الشعرية ، إذا ما قارناه بتعلّقه بالبداوة كما رأيناه في مدائحه للشيباني . على أنّنا سنعود الى موضوع التأثيرات الأدبية في تكوينه عندما ندرس القصيدة الحادية والعشرين التي تعرّض فيها الى ديوان المتنبي .

أما شخصيّة الممدوح ، فهي غير مجهولة تماماً مثل شخصيّة الشيباني : فالديوان وابن الأبار وسيرة الأستاذ جوذر والمقريري⁽¹⁾ تتفق على أنّه صاحب خزينة الخليفة أو صاحب مخازنه . ولئن اتّفقت هذه المصادر على وظيفته ، فهي لم تتفق على تحديد اسمه وكنيته ، فيدعوه المقريري تارة « أبو جعفر حسين » وتارة « محمد بن حسين » . ويكنيه ابن الأبار أبا جعفر ، والديوان أبا عبد الله حسين . ورغم هذا التضارب ، نظنّ أنّه شخص واحد ، دون أن نستطيع البتّ في حقيقة اسمه . فالكنى والأسماء العربية تخضع عادة

(1) ما . كاتار : حياة ... ص . 174 .

ابن الأبار : الحلة ... ج 1 ص . 296 .

المقريري : اتعاظ ... ص . 138 ، 188 و 196 .

لنوع من الارتباط المستمد من الأمثلة الدينية أو التاريخية ، كمثل الرسول (صلعم) الذي يكتى أبا القاسم ، فصار المحمدون يكتون بأبي القاسم ، مثل شاعرنا أبي القاسم محمد بن هانيء . وأحياناً يكتى « محمد » بـ « أبي عبد الله » اقتداءً بوالد الرسول ، وكذلك فعل العلويون بأسماء أئمتهم : علي والحسن والحسين ، فقابلوا « علي » بـ « أبي الحسن » (أو أبي الحسين) وقرنوا « الحسن » « بأبي علي » . وربما اتخذت أسماء الأنبياء الأولين والصحابة الراشدين لمثل هذه المزوجة ، ولا سيما عند الأسر الحاكمة : فالموحدون اختاروا « يوسف ويعقوب » ، والحفصيون « يحيى وزكريا » و« عمر وحفص » ، وغيرهم اختار « ابراهيم واسحاق » .

لكن هذه سنة قد تتبع وقد تُترك ، فلا حتمية فيها ، ولا ضرورة إذن أن يكتى هذا الممدوح « أبا علي » لأن اسمه الحسين ، ولا أن يسمى محمداً لأن كنيته أبو عبد الله .

أحمد بن زائدة الكاتب

كاتب آخر مدحه ابن هانيء ، ولكنه لم يذكر في الديوان المطبوع ، وإنما نجد اسمه في مخطوط تونس¹ مقترناً بمدحة نظمها فيه الشاعر، وببضعة أبيات ضمن مراسلة شعرية وقعت بينهما⁽¹⁾ ، ولا نعرف عنه شيئاً سوى أنه مثل كل القحطانيين كريم اليد فصيح اللسان : [منسرح]

- 19/65 ... الضاربُ الأسدُ في بآدلهَا والطاعن الخيل في فوائلهَا
20 والرائدُ الرادة العصاة إذا زالت عرى الهام عن معاقلها
31 ... ينفجر الموت من صوارمها والعسجد النضر من أناملها
35 ... كلتا يمينيك يا ابن ذي يمن تكرمأ عم من فواضلها

(1) انظر الحوليات ، 1969 ، ص. 97 و 1972 ، ص 90 .

الوهراني كاتب جعفر بن حمدون

لم يكن هذا الشخص من ممدوحى ابن هانئ ، بل هو مهجوه الوحيد ، وإنما ذكرناه مع الممدوحين لأن أهاجى الشاعر لا تعدو هذه القطعة الوحيدة ، فلم نر وجهاً لتخصيص باب منفرد للهجاء . والسبب الثاني هو أن غرضنا كما قلنا في مستهل هذا الفصل ، أن نجمع الارشادات والمعلومات الكفيلة بإيضاح مراحل حياة الشاعر ، وذلك من خلال علاقته واتصالاته بالأشخاص المذكورين في الديوان وفي كتب التاريخ والتراجم . فوضع الوهراني مع جوهر أو المعزّ ناتج إذن عن شيء من التجاوز الاضطراري .

وللسبب نفسه لا نهتمّ هنا بالقصائد التي لا صلة لها قطّ بأشخاص معيّنين ، كالقطعة الغزليّة والقطعة الخمرية (عدد 34 و49) والقطعة التهكميّة في وصف الأكل (عدد 56) ونرجى الحديث عنها إلى دراستنا لأغراض ابن هانئ وفنّه الشعري .

في هذه القصيدة ، يتهم ابن هانئ هذا الكاتب بالسعي لإبعاد جعفر عن الولاء الفاطميّ وكسبه للمروانيّين بقرطبة ، ويمزج بين سعيه الخبيث في بلاط بني حمدون والفتن التي يثيرها الأمويّون في المغرب بواسطة أحلافهم من زناة : [خفيف]

- 30/29 إِنَّ فِي مَغْرِبِ الْخِلَافَةِ دَاءٌ لَيْسَ يَبْرِئُهُ غَيْرُ أُمِّ الْحَتُوفِ
31 إِنَّ فِيهِ لَشُعْبَةٌ مِنْ بَنِي مَرْ وَأَنْ تَنْبِي عَنْ كُلِّ أَمْرٍ مَخُوفِ
32 إِنَّ فِي صَدْرِ أَحْمَدٍ لَبْنِي أَحَدٌ مَدَّ قَلْباً يَهْمِي بِسَمِّ مَدُوفِ
33 مِتَخَلٍّ مِنْ اثْنَتَيْنِ بَرِيءٌ : مِنْ إِمَامٍ عَدَلٍ وَدِينٍ حَنِيفِ

أحمد هو الوهراني المهجّو ، وكنيته هي أبو جعفر ، وفي أحد الأبيات ،

يفغل الشاعر الفاء من جعفر، فيكنّيه استهزاء «أبا الجعر» أي أبا التغوط، مكلفاً نفسه عناء وجهداً وتلاعباً بالأسماء والكنى، في سبيل هذه التورية الكنيّة. ويزداد الطين بلة إذا انتبهنا الى أن مولاه والي الزاب يكنّى أبا أحمد ويسمى جعفرأ. أمّا بنو أحمد، فهم الفاطميون آل بيت الرسول أحمد، أي محمّد (صلعم). ونساءل بعد هذا عن مدى تناسب هذه الترهات اللفظية مع خطورة المآخذ التي يؤاخذ بها المهجّو؟

ويبدو أن القصيدة متأخرة عن زمن إقامة الشاعر بالمسيلة، ذلك أن الخطاب فيها موجّه أيضاً الى المعز، إذ يدعوه الشاعر الى الثبّت والتحرّي :

34/29 ليس مستكثرأ لمثلك أن يفـ رق بين الشريف والمشروف
35 يا معزّ الهدى، كفاني أني لك طودُ على أعاديك موف

فهل يدعوه الى الرفق بجعفر، والحذر من السعايات ضدّه؟ أم يدعوه الى تفضيل أمير المسيلة على بلقين بن زيري في صورة الاستخلاف على أفريقية والمغرب بعد الانتقال الى مصر؟ لا يمكن لنا أن نوضّح قصد الشاعر، وغاية ما نفترضه، هو أن القصيدة قد تكون نظمت في الفترة الافريقيّة بالقيروان، وقبل تراجع بني حمدون عن الولاء الفاطميّ.

وللوهراني عيوب أخرى يحصيها له الشاعر في هذه الأبيات : منها دمامة الخلقة والعِيّ والفهاهة، مع خبث النوايا وقبح الطويّة :

14/29 إنّ لفظاً تلوكه لشبيبةُ بك في منظر الجفاء الجليف
15 كاذبُ الزعم مستحيل المعاني فاسد النظم فاسد التأليف
16 أنت لا تغتدي لتدبير ملك إنما تغتدي لرغم الأنوف

✱

وهكذا نرى أن بحثنا في علاقة الشاعر بهؤلاء الأشخاص أفضى بنا الى نتائج متفاوتة : فالمعلومات الأكثر دقة - إذا أمكن أن نستعمل عبارة الدقة في خصوص شعر ابن هانيء - تتعلّق بممدوحيه الرئيسيين : المعزّ وجعفر بن

حمدون ، ولا غرابة في ذلك ، فالخليفة ووالي الزاب شخصان تاريخيان لا تخلو المصادر من أخبارهما . وكذلك أفضى بنا التأويل الكثير لمدحتي أفلح الناشب الى اكتشاف خصومة دفينّة بين هذا الأمير وقائد مظفر لا نخاله إلّا جوهرأ فاتح مصر . أما مدائح الشيباني ، فلم توصلنا ، على كثرتها ، الى معلومات صحيحة ملموسة في شأن هذا القائد المجهول ، فخاب بذلك أملنا في أن نفيد المؤرّخين بترجمة سالحة لحياته ولخدماته في سبيل الدولة الشيعيّة بالمغرب .

ترجمة ابن هانيء

ولد أبو القاسم محمد بن هانيء بالأندلس ولذلك علقت به نسبة الأندلسي ، لكنَّ الفترة الأندلسية من حياته تكاد تكون مجهولة تماماً . فالمعلومات النزرية التي تفيدنا بها المصادر تتضارب غالباً ، ولنضرب مثلاً على اختلافها مسقط رأسه :

فابن الأبار في التكملة⁽¹⁾ ينسبه الى البيرة ، دون أن يقول إنه ولد بها . ويقول ابن خلكان⁽²⁾ إنه ولد باشبيلية : أما لسان الدين بن الخطيب ، فلئن جعل مولده بقرية من أحواز اشبيلية تدعى « سكون » فإنه يدعوه « الإلبيري » ، لا الإشبيلي كأنه يعني أنه عاش حياته الأولى بالبيرة وبها تكون : ولعل صاحب الاحاطة⁽³⁾ أراد أن يقربه الى غرناطة مدينته المحببة . وكذلك ابن سعيد المغربي⁽⁴⁾ يسميه الالبيري ويردف هذه النسبة بـ « الغرناطي » ، موضحاً أن البيرة قرية محاذية لغرناطة ، ولكنَّ غرناطة غلبتها حتى صارت هي عاصمة الكورة التي تسمى « كورة البيرة » .

(1) ترجمة رقم 350 .

(2) الوفيات ، ترجمة رقم 640 .

(3) ج 2 ، ص . 212 .

(4) رايات المبرزين ، ترجمة رقم 77 .

واسم البيرة تولّد عن اسم روماني عتيق « البيبَاريس » ، ولكنّ القرية اندرست ابتداء من القرن الثاني / الثامن فعوّضتها غراناطا / غرناطة⁽¹⁾.

أما مترجموه المعاصرون ، فيجعلون ولادته باشبيلية في الأغلب . ولا مانع عندنا من أن نعتبر مع لسان الدين أنّه ولد بأشبيلية ثم انتقل مع أسرته الى البيرة فنشأ بها .

أسرته : هانيء أبوه

لا نعرف شيئاً عن أسرة الشاعر ، سوى بعض المعلومات الغامضة عن أبيه هانيء . فيقول ابن الأثير مثلاً إنّّه ولد بالمهدية ثم هاجر الى الأندلس . فهل كانت هجرته لرزق يصيبه ، أم لخدمة الدعوة الفاطمية كما يقول بعض الدارسين المعاصرين⁽²⁾ ؟

يمكن أولاً أن نحتز في شأن مولده بالمهدية بالذات : فهذه المدينة قد أسسها المهدي عبيد الله بين سنة 912/300 و 915/303 ، ولكنها لم تعمر بالسكان إلّا عندما صارت العاصمة الرسمية للدولة عوضاً عن رقادة ، وذلك في سنة 921/308 . فإن كان هانيء ولد بالمهدية ، فلا يكون تاريخ ميلاده إلّا سنة 300 على الأبعد أو 308 على الأقرب . وبما أنّ ابنه محمداً قد ولد سنة 932/320 كما سنبيّن - ولا عبرة هنا بمن آخر ميلاده الى سنة 937/326 - فإن سنّ الوالد تكون عند ميلاد الطفل بين اثني عشر وعشرين عاماً ، وهذا مستبعد كثيراً . فلذلك نقول : لعلّ هانيء هذا ولد بإفريقية ، في أحواز ما سيصبح عاصمة العبيديين ، ولكنه ولد على كل حال قبل سنة 912/300 .

أمّا نسبته الى الدعوة الشيعية وتعليل هجرته الى الأندلس باعتزامه العمل على كسب الأنصار للأئمة ، فليس في المصادر القديمة ما يدعّمهما ، وليس

(1) انظر فصل البيرة بدائرة المعارف الإسلامية الطبعة الجديدة .

(2) الدشراوي : فصل « ابن هانيء » في دائرة المعارف الإسلامية ، الطبعة الجديدة .

فيها كذلك ما ينفيهما قطعاً . ولا مانع من أن نعدّه واحداً من الدعاة الكثيرين الذين تكوّنوا بدار الدعوة في القيروان ، ثم عبروا البحر الى أرض الأمويين ليزرعوا بذور المذهب الشيعي بها ويمهّدوا مذهباً للحملة العسكرية التي لم ينقطع الائمة الفاطميون عن التفكير فيها . ولعلّ في غموض ملامح هانيء هذا ، ما يشجّع على اعتباره داعية سرّياً أو جاسوساً : أليس من صفات الدعاة الضرورية أن يتحرّكوا ويعملوا ويستخبروا ثم يُخبروا في كنف التستّر والكتتمان ؟ وسنعود الى هذا الموضوع أثناء حديثنا عن ولاء ابن هانيء للشيعة .

وتقول المصادر إنّ الوالد ، بمجرد وصوله الى الأندلس استقرّ بإشبيلية ، ولعلّه اختار هذه المدينة الكبيرة لما عرفت به من استعداد لتقبّل الدعوات المناهضة للحكم الأمويّ ولستيّته المتشدّدة . ونزول هانيء بإشبيلية أولاً ربما حمل المترجمين على أن يجعلوا ميلاد الابن بها ، افتراضاً منهم أن إقامة الأسرة بها كانت نهائية أو دامت على الأقلّ زمناً كافياً لإنجاب الأولاد . والواقع أنّ هانثاً ، حسب ما نفهم من قول ابن الأثير على اقتضائه ، قد اضطرب بين مدن كثيرة قبل أن يحطّ الرحال بإلبيرة : « . . . ثم استوطن أبوه البيرة ، وخرج هو منها . . . » ولعلّ هذا الكلام يمنع أن تكون إلبيرة هي مسقط رأس الشاعر ، إذ لا يمكن أن يكون تركها عند حلول أبيه بها لأوّل مرّة .

ومهما يكن من أمر ، فإنّ أخبار هانيء تنقطع بإلبيرة ، فلا يعود له بعدها ذكر .

الأصل المهلبّي

وتنسب المصادر هانثاً الى أصل مهلبّي ، فتقول إنه سليل أسرة القائد الأموي الكبير المهلب بن أبي صفرة (702/83) الذي اشتهر بقتاله للخوارج في الشام والعراق . ولا نستبعد مثل هذه النسبة لأنّ ولاية أفريقية كان حكمها

للعباسيين واليان من أحفاد المهلب : يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب [من سنة 772/155 إلى سنة 787/171] وأخوه روح بن حاتم [787/171 إلى 791/174]. ثم أنّ المهلبيين يتسبون الى أصل يمني، إذ هم من الأزدي. وكذلك الشاعر، يُدعى ابن هانيء الإلبيري الأزدي، وكثيراً ما يفتخر بنسبه الأزدي اليمني، فيقول مثلاً مفتخراً بشعره : [طويل]

يَمَانِيَّةٌ فِي نَجْرِهَا أَزْدِيَّةٌ أَفْصَلُهَا نَظْماً وَأَحْكَمُهَا رَظْفاً 60/31

وإن كان يسكت عن نسبه المهلبي، وهذا مفهوم، لأن هذه الأسرة خدمت الدولتين المنافستين للشيعة. ثم إن هذا الانتساب الى القائد الأموي لم ينفعه كثيراً بالأندلس، ولم يشفع له حين أطردوه من إشبيلية. ولكن أباه استمر بدون شك هذا النسب بالأندلس فاستعمله ذريعة للوصول الى مآربه المذهبية: فالسلالة المهلبية ممثلة بها، خصوصاً في كورة البيرة التي استوطنها هانيء، وكثير من الفتن كان يحدثها المهلبيون⁽¹⁾.

تاريخ ميلاد الشاعر

تنضارب المصادر في شأن سنة ميلاد الشاعر أيضاً. ذلك أن المترجمين يهتمون عادة بالوفيات فلا يسجلون إلا تواريخ الوفاة، فنضطر حينئذ الى عملية طرح لمعرفة تاريخ الولادة، على شرط أن نكون على علم بسن الشخص عند وفاته.

في خصوص وفاة شاعرنا، تكاد المصادر تجمع على أنها وقعت سنة 973/362. وينفرد ابن الأثير بذكر سنة 972/361، قائلاً إنه نقل هذا التاريخ عن قراصة الذهب لابن رشيق. وينبغي أن نرفض هذا التاريخ لسببين على الأقل :

(1) ابن عذاري : البيان ... ج 2، ص. 137 (في ثورة أميرين مهلبيين). وانظر كذلك دوزي : تاريخ مسلمي إسبانيا ج 2 ص 110.

1 - لأن ابن خلّكان ، وقد اعتمد أيضاً على القراصة ، عثر فيها على تاريخ 973/362 .

2 - لأن وفاة الشاعر تُقترَن عند جميع المترجمين والمؤرخين ، بِسَفَر المعزّ إلى القاهرة ، وهذا الانتقال عن أفريقية وقع في شهر صفر من سنة 362 / نوفمبر 972 .

ثمّ يمكن أن نضيف أن قراصة الذهب في صورتها التي وصلت إلينا ، لا تذكر تاريخاً لوفاة . فلعلّ ابن الأبار وابن خلّكان قد وهما أو أطلعا على نسخة من كتيّب ابن رشتيق غير التي بين أيدينا .

وكذلك ينفرد الصفدي في الوافي بالوفيات⁽¹⁾ بتاريخ 976/365 : وهذا وهم ، ولعلّه خلط بين وفاة المعزّ ووفاة الشاعر ، كما خلط في اسم الشاعر إذ سمّاه محمد بن ابراهيم بن هانيء ، وهو شاعر مصري متأخّر⁽²⁾ .

فلذلك نميل الى قبول التاريخ الذي ضبطه ابن خلّكان بليلة 23 رجب 362/29 أبريل 973 ، فيكون الشاعر قد لقي حتفه منذ ألف عام تقريباً⁽³⁾ .

هذا تاريخ الوفاة . أما سنّه عند مقتله ، فإنّ صاحب الوفيات يعيّنهما بـ 36 عاماً أو 42 عاماً ، ولا يؤثّر إحداهما على الأخرى . فإذا قبلنا المقدار الأوّل ، تكون ولادة الشاعر سنة 937/326 . وإذا رجّحنا العدد الثاني ، فمولده يتقدّم الى سنة 932/320 . ولقد نبّهنا آنفاً الى أننا نرفض التاريخ الأوّل ، وأنّا نعتبر صاحبنا من مواليد سنة 932/320 . وهذه مستنداتنا :

1 - تتفق المصادر على أنه ترك بلاده الأندلس وهجر الى العدوّة في سنّ السابعة والعشرين .

(1) ترجمة رقم 240 .

(2) وكذلك يسمّيه مخطوط باريس بهذا الاسم . وانظر خريدة العماد الأصفهاني : شعراء مصر ج 1 ، ص . 248 .

(3) هذه الرسالة قدّمت للمناقشة في ماي 1973 .

2 - كما تتفق على أن أول من لقي بالمغرب من الممدوحين هو جوهر القائد فمدحه بالقصيدة الحاثية العاشرة .

3 - وتجمع كتب التاريخ على أن حملة جوهر بالمغرب الأقصى بدأت سنة 958/347 .

فلقاء الشاعر مع جوهر وقع إذن سنة 347 . ولما كانت سنة آنذاك سبعة وعشرين عاما ، فواضح أنه ولد سنة 320 ، لا بعدها .

وربما أضفنا حجة أدبية إلى هذه الحجة التاريخية : وهي أن مدحة جوهر هذه تنم عن اقتدار عند الشاعر وصنعة لا يمكن أن يجتمعا في شاب في العشرين .

تكوّن الشاعر ونشأته

يقول معظم المترجمين إنه تلقى تكوينه بإشبيلية . ويفرد ابن الأثير فيذكر قرطبة . ولكنهم جميعاً لا يذكرون أحداً من الشيوخ الذين تتلمذ لهم ، فيتعذر علينا حينئذ أن نحدد التأثيرات التي طبعت تكوينه ، والعلوم التي تلقاها ، علاوة على جهلنا بالمدة التي قضاها بحلقات الدرس .

وحتى إن تناولنا فهرسة أبي بكر بن الخير (1179/575) ، وهو كتاب نفيس لأنه دليل على أن الأندلس قد استقبلت ثقافياً عن الشرق ، بما يذكره من جموع العلماء والأدباء الأندلسيين الذين زحرت بهم عواصم البلاد ، فالنظر في قائماته لا يوصلنا إلى نتائج صحيحة ثابتة ، بل يقف بنا عند الافتراض الواسع البعيد .

وفصل ابن الخطيب تكوينه بعض التفصيل ، فأشار إلى تبخره في اللغة وبصره بالشعر ، وأضاف أنه برع أيضاً في « فك المعنى » . ونظن أنه بهذه العبارة يشير إلى أحد أمرين :

إمّا علم التنجيم وما يتبعه من تنبؤ كاذب بالمستقبل . فإن كان هذا قصد الكاتب الغرناطي ، فلعلّه مزج خطأ بين التنجيم وعلم الفلك : ذلك أن ابن هانيء واسع الدراية بمنازل الكواكب وصورها ، تشهد بذلك تشبيهاته الكثيرة بالنجوم ، وبالمخصوص القصيدة الحادية والثلاثون التي استهلّها بوصف مطوّل للكواكب فصار الرواة لفرط إعجابهم بها يسمّونها « القصيدة الفلكيّة » ويتناقلونها ويستنسخونها .

وإمّا حلّ الألبان والأحاجي الشعريّة ، وفعلاً ، نجد نموذجين من هذه الرياضة الأدبيّة في مخطوط تونس¹، ضمن مطارحات بينه وبين أحمد بن زائدة الكاتب⁽¹⁾ .

ويشهد الديوان أيضاً بتكوين أدبيّ واسع عميق ، فالإشارات المدقّقة الى كبار شعراء الجاهليّة وصدر الإسلام وتأثره الواضح بجزالة القدماء ومتانتهم ، كل هذا يدلّ على أنّه تعلّم أصول مهنته بالممارسة الطويلة لشعر السابقين ولا سيّما شعراء البادية .

ولكنه يهتمّ أيضاً بـ « المحدثين » ، كما يظهر من القصيدة رقم 21 التي تناول بها ديوان أبي الطيب المتنبي ، فصرّح بأنّه مسك شرحاً لهذا الديوان ، وأنّه قضى الليالي الطوال في درسه وتصويب أخطائه : [بسيط]

أَصُمُّ أَعْمَى وَلِكِنِّي سَهَرْتُ لَهُ حَتَّى زَدَدْتُ إِلَيْهِ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ 13/21
بل أطلّ البحث والتصويب فطلّ بذلك مسكه للكتاب حتى طالبه صاحبه بإرجاعه بدون تراخٍ .

هذا ، وربّما استتجنا - في فصل لاحق - من هذا الانتشار السريع لشعر المتنبي بالمغرب والأندلس بعض الملاحظات في شأن تأثير ابن هانيء بمعاصره الكبير .

(1) حوليات 1972 ، المقطوعة 4 والمقطوعة 13 .

ونستشف أيضاً من الديوان تشبّعاً بأصول الثقافة العربيّة الاسلاميّة من قرآن ، وسنن ، وأمثال وأخبار المغازي والآيام . فمن التأثير بالقرآن مثلاً هذا النقل للآية 51 من سورة يوسف : [كامل]

24/25 (يا مشرفي اسجد له من بينهم) يا باطل أزھق ، يا حقيقة خضجصبي!

أو هذه الإشارة إلى قصّة العجل (سورة الاعراف آية 148): [كامل]

69/53 لكنكم كنتم كاهل العجل لم يحفظ لموسى فيهم هارون

أما المعاني الشيعيّة والشعارات الاسماعيليّة التي يطفح بها شعره وتكيّف بها نظراته الى الحوادث التاريخيّة التي تبعت وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتفسّر ميله الى التأويل الباطنيّ للأشياء ، فلا ندري هل تلقّنها بالاندلس أثناء تكوّنه الأوّل في أسرته أو في حلقات سرّيّة ، أم بأفريقيّة حين دخل في خدمة المعزّ؟ على أننا سنحاول الإدلاء برأي عند دراسة أغراضه المذهبيّة في الفصل الثامن من هذا الكتاب .

أسباب تركه الأندلس

ترك الشاعر اشبيلية وانتقل الى العدوّة ، في هجرة شبيهة بهروب الطريد ولجوء الخائف . وهنا أيضاً لا يتفق مترجموه : فمنهم من يعزو هذه الهجرة الى تألب أهل اشبيلية عليه بسبب مجونه وارتكابه المحرّمات . ومنهم من يجعلها نتيجة لغضب العلماء ورجال الدين عليه لتطاوله على الدين في الفعل والقول ، فيقول الفتح بن خاقان انه سلك مسلك المعريّ ، مع أن أبا العلاء ولد بعد وفاة الشاعر بعام . ولكنّ صاحب المطمح لا يقصد تقريباً الا مشابهة في الافكار المادّيّة وفي العبث بالدين ورجاله . وذلك ما يعبر عنه ابن خلكان حين ينسبه الى أفكار الفلاسفة . وكذلك يفعل الذهبي في الترجمة الوجيزة

التي خصّصها له⁽¹⁾ . ولا يذكر الذهبيّ - ولا غيره - أنه أطرّد بسبب تحزّبه للشيعة ، خلافاً لما فهمه زاهد عليّ من كلامه⁽²⁾ . ولكن ، ليس من المستبعد عند الأندلسيين في تشدّدهم السنيّ وسيطرة الفقهاء على الحياة الفكرية وخوفهم الدائم من اقتحام « المشاركة » - هكذا كانوا يسمّون الفاطميين توكيداً على أنّ مذهبهم دخيل أجنيّ عن المغرب - لأرضهم ، ليس مستبعداً أن يتألّبوا على من يضيق ذرعاً بترمتهم وبالكبت المذهبيّ السائد ، فيطرق في شعره بعض الأغراض الفلسفية أو يتهاون في سلوكه اليوميّ بالفرائض الدينية أو يتحرّر من بعض أحكامهم الأخلاقية . وسنرى أنهم آستجازوا قتل من شهد عليه بترك الصلوات أو بشتّم عائشة . فلا بدع ، إذا كان هذا شأن ابن هانيء معهم ، أن ينسبوه الى التشيع أو الى الكفر ، وأن يستنكروا من « والي اشبيلية » أو « ملكها » عطفه عليه وحمايته له فيضطرّ الى التخلّي عنه .

هذا الأمير الذي حظي الشاعر بصدافته لا نعرف اسمه ، فالمصادر تدعوه « صاحب » اشبيلية أو « ملكها » أو « واليها » دون أن تسمّيه . ولا شك أن لقب « ملك » وهمّ من المترجمين . فأخر « ملك » على اشبيلية ، مستقل عن خلافة قرطبة ، هو محمد بن ابراهيم بن الحجاج الذي قهره عبد الرحمان التاصر بعيد تولّيه الحكم ، فأرجع اشبيلية وكورتها الى الحظيرة الأموية . وكان ذلك في مستهلّ القرن الرابع / العاشر . فهذا الأمير لا يمكن الا أن يكون والياً على المدينة من قبل الخليفة الناصر . وقد طلبنا أسماء الولاة على المدينة ، فظفرنا بقائمة فيهم⁽³⁾ ، ولكنها توقفت عند سنة 317 ، فيها عين الناصر أحمد ابن محمّد الزجالي ، ولكنه لم يدم فيها الا ثلاث سنوات ، اذ توفي سنة 320 . فلا يمكن أن يكون الزجالي هذا ، المتوفّي يوم ولد شاعرنا ، هو صاحبه الذي لحقه بسببه الأذى .

(1) تاريخ الاسلام ، ورقة 301 .

(2) مقدّمة تبين المعاني ، ص 20 .

(3) لبني - يروفسال وقارثيا قوميت : أخبار مجهولة المؤلف ... ص 83 .

على أن المصادر تظلم هذا الوالي المجهول اذ تظهره في مظهر الخاذل لصديقه مداراة للرأي العام . ونرى نحن أنه بالعكس أسدى اليه النصيح حين اقترح عليه أن يحتجب مدة ريثما يُنسى خبره . فليس هذا كلام من يبغى القطيعة عن غضب ، بل كلام من يؤدّ بقاء الصلة بين الشاعر وبينه .

غير أن صاحبنا أثر الانسحاب التام . ولا ندري أكانت له وجهة معينة يوم قرّر مغادرة اشبيلية ، كأن يكون عازماً مبدئياً على عرض خدماته على الفاطميين ؟ أم كان يتأهب للاضطراب في البلاد بدون قصد ؟ وما دما لا نعرف شيئاً من أفكاره ومعتقداته في الفترة الأندلسية ، وذلك بسبب فقدان شعره هناك فقداناً تاماً ، فإنه يتعذّر علينا أن نزعّم مثلاً أنه كان يدين بالعقيدة الشيعية أصلاً، وأن طرد الأندلسيين له كان فرصة له سانحة للالتحاق بمركز الدعوة التي ينتمي اليها . ولو كان قصد المنصورية رأساً ، لجزمنا بتشيّعه القديم ، لكنه لم يتّصل بالمعزّ الا بعد خمس سنوات تقريباً قضاها عند بني حمدون . وحتى هؤلاء ، لا نجزم بأن اتّصّاله بهم كان بدافع مذهبيّ ، بل لعلّه كان فقط بدافع المواطنة كما قال ابن خاقان وكما رأينا في الفصل السابق .

وبالمثل لا نتجاسر على الجزم بأنّه كان خلواً من كل عقيدة وأن انتقاله الى العدو كان فقط للارتزاق والبحث عن ممدوحين جدد ، كما هو شأن معظم الشعراء المرتزقين بشعرهم ، من النابغة والأعشى المتنقلّين بين المناذرة والغساسنة ، الى المتنبي بين حلب والفسطاط وشيراز ، الى ابن رشيق وابن شرف والحصري بين افريقية وصقلية والأندلس والمغرب .

وللسبب نفسه ، أي ضياع شعره الأندلسي ، يتعذّر علينا أن نبشّر في أمر آتھامهم له باتباع آراء الفلاسفة في شعره ، وهذه الآراء إن وجدت في شعره الذي وصلنا ، فهي خافتة لا تلفت الانتباه .

أما العريضة والفساد والمجون ، فهذه أمور ممكنة ، يدعّمها ما عثرنا عليه

في مخطوطة تونس 1 من مقطوعات تخرج عن مألوف الأخلاق والعادات⁽¹⁾ ، وكذلك ما تبقى في ديوانه المطبوع من مقطوعات غزلية - مثلاً النسيب الغريب في قصيدتي الشيباني - وخمرية . كما تدعّمها الأقوال التي قيلت في ظروف قتله . فهذه قرائن متضافرة تجعلنا لا نستبعد صورة الشاعر المنحرف الذي ضاقت به البلاد ولفظه أهلها ، فاتّجه الى أفق مجهول ليستأنف حياة جديدة .

ابن هانيء بالمغرب وإفريقية

أول ممدوح للشاعر بأرض المغرب هو جوهر ، ولا ندري متى لقيه بالضبط ولكنه لقيه بين سنة 347 ، التاريخ الأدنى لوصوله الى العدو ، وسنة 348 ، تاريخ فراغ جوهر من حملته المغربية الكبرى التي قادها حتى الحدود الجنوبية بالتافيلالت ، وتوجّها بفتح فاس في 20 رمضان 24/348 نوفمبر 959⁽²⁾ .

ولا شكّ عندنا أن الشاعر نظم مدحته فيه بعد سقوط عاصمة الأدارسة : ذلك أنه يذكر الأسرى في قيودهم : ومن بينهم ، الى جانب « خليفة » سجلماسة ابن واسول ، ورؤساء مكناسة من بني موسى ، يذكر « جذامياً طويلاً نجاده » لا نخاله الا أحمد بن أبي بكر بن سهل أمير فاس ، وقد أسره جوهر وأطبق عليه في قفص مع ابن واسول وأرسلهما الى المعز بالمنصورية⁽³⁾ : [طويل] .

40/10 وكان الجذامي الطويل نجاده بهيماً مدى أعصاره فتوضّحاً
43 ... أقول له في موتي الأسر غانياً تجاذبه الأغلال والقيّد مقمّحاً

(1) انظر الفصل الأول ، ص 24 - 27 .

(2) الدشراوي : الخلافة ... ص . 232 .

(3) الدشراوي : أسر ابن واسول ... ص . 295 . وانظر : الناصري السلاوي : ك .

الاستقصاء ، 1/199 .

44 لَئِنْ حَمَلْتُ شَيْئًا بَغِيكَ فَادِحًا يُعُولُ ، لَقَدْ حُمِلْتُ مَا كَانَ أَفْذَحًا

فإن كان أول اتصال له بجوهر ، أي أول عمل يعمله وأول رزق يكتسبه ، وقع في رمضان 348 ، لا قبل هذا التاريخ ، فقيم قضى وقته منذ نزوله ببرّ العدو ، أي منذ عام أو بعض عام ؟ أفي البحث عن الممدوحين وطرق أبواب الأمراء والوجهاء كما فعل المتنبي قبل وصوله الى سيف الدولة ؟ ولكنّ أبا الطيب خلّف لنا مدائحه في هؤلاء الأمراء الصغار ، أمّا ابن هانئ ، فلا توجد في ديوانه قصيدة سابقة لهذه التي مدح بها جوهرًا ، وذلك بإجماع النسخ وإجماع المترجمين . لا شكّ عندنا أنّه بقي طوال هذه المدة ينتظر الفرصة ، وقد سنحت له مع جوهر ، ولكنّ جوهرًا لم يكافئه بما يرى هو أنّه له أهل ، فأعطاه مائتي درهم فقط ، فتقول المصادر أنّه قال : أليس بهذا البلد أكرم من هذا ؟ فأشاروا عليه بالجعفرين . . .

والجعفران قد يكونان أميرى المسيلة جعفر ويحيى ، سمّيا الجعفرين على عادة العرب في تخفيف الاسمين المتلازمين بثنية أحدهما ، فيختارونه لسبقه على الآخر ، أو لسهولة النطق به أو لشهرته⁽¹⁾ : فالجعفران أسهل نطقاً من اليحييين ، وجعفر على كل حال أسبق سنّاً ورتبة ، وكذلك الحسان للحسن والحسين ابني علي وفاطمة ، وقد انتشر هذا المثنى بتأثير الشيعة حتى صار اسماً مفرداً : حسنين ، في مصر خاصّة . وكذلك العُمران ، ابن الخطاب وابن عبد العزيز حسب رواية ، وأبو بكر وعمر في أخرى ، وهنا غلب عمر أبا بكر لأنّه أيسر نطقاً وأقصر . وفي غير الأعلام ، يُلتجأ الى صفة مشتركة بين الاسمين المقصودين ، فنشئ كذلك : الجديدان صفة مشتركة لليل والنهار ، وكذلك الأنس والجَنّ يدعيان الثقّلين ، الخ . . .

فإن كان ناصحوه يعنون بالجعفرين الأخوين ابني حمدون ، فهذا دليل على أنّهما شاركا في حملة جوهر ، وبالتالي يكون أول اتصال بين الشاعر وأمير

(1) انظر ما يقوله ابن السكيت في « الثمران » ، ص 144 من كـ . اصلاح المنطق .

الزباب، لا بالمسيلة كما أدعى آبن سعيد في رواية سخرية، ولكن بالمغرب ، في ساحة الوغى ان صحَّ التعبير . وربما استصحب الأمير شاعرنا رأساً الى الزباب حين قفل راجعاً الى ولايته .

وربما عتوا بالجعفرين جعفر بن حمدون وجعفر بن فلاح الكتامي ، ولكن الشاعر ، كما رأينا ، لم يمدح هذا القائد البربري ولا غيره من زعماء البرابر ، فالديوان يخلو من كل إشارة اليهم ، وحتى البيتان اللذان وسما باسم جعفر بن فلاح لا تصح نسبتهما الى ابن هانيء . فقد يعني هذا السكوت أن صاحبنا قدم من مسقط رأسه ، وهو متشبع بالازدراء الذي يكنه العنصر العربي للسكان الأصليين للمغرب . وربما غذى هذا التعالي عنده انتسابه أولاً الى الأسرة المهلبية المجيدة ، ثم نشأته بالاندلس بلد الحضارة ورفاة العيش ، وزاد حدة فيما بعد عندما أصبح من خاصة الأميرين الأندلسيين بالمسيلة وتبني عداوتهما للصنهاجيين .

بقي الشاعر اذن قرابة عام ينتظر الممدوح الممكن بأرض المغرب ، والإمكانات والحق يقال ، كانت إذ ذاك محدودة : فقد طهر جوهر الجهة من الأمراء المستقلين كابن واسول أمير سجلماسة ، وأجلى الأدارسة عن فاس « فاعتصموا بقلعة النسر بسببة آخر معاقلم فكانوا يشاهدون منها عاجزين مقهورين صراع القوتين اللتين تتقاسمان المغرب آنذاك : بنو أمية والفاطميون »⁽¹⁾ . ولما كان شاعرنا ، بهروبه من الأندلس قد انسلخ ان صحَّ التعبير ، من الولاء الأموي ، فإنه لم يبق أمامه ، ممن يعرض عليهم خدمته ، إلا الخليفة الفاطمي أو من والاه .

تساءلنا منذ قليل : لماذا لم يتجه رأساً الى المنصورية ؟ ونتابع الآن الاحتجاج فنقول : لماذا لم يخطر ببال جوهر ولا أحد من حاشيته استخدام نزوح الشاعر الى الأرض الفاطمية ، في عملية دعائية لصالح المعز ، وذلك

(1) ج. مارسى : افريقية في القرون الوسطى ، ص. 125 .

بتلويْن مَقْدَمِهِ بَلَوْن اللجوء السياسي من بلد يُكَبِت فيه الفكر وتُقَيِّد الحرية الى بلد يُعْظَم فيه المفكِّرون ويُجَلُّون ؟ فيصْبِحُ صاحبُنَا « لاجئاً سياسياً » هارباً من الطغيان مستنجداً بالأئمة العادلين ، ويصير كسب الأنصار للعقيدة الشيعية أمراً تلقائياً طبعياً لا يحتاج الى تجهيز جيوش ولا حتى تنظيم برهان ؟

ولكنَّ عملية كهذه تشترط ضمناً أن يكون الشخص المستغيث مشهوراً ذائع الصيت ، فلجوء الخامل الذكر واستنجد المجهول النكرة لا يصلح لتحريك الجماهير وانتزاع استنكارها وتحبيذها بحسب حاجيات الدعاية المذهبية .

فيترتَّب عن فكرتنا هذه أنَّ ابنَ هانئ لم يكن آنذاك معروفاً بدرجة تحمل القائد والحاشية على التقرب به الى المعزِّ واستثمار نزوحه لفائدة الدعوة الفاطمية . ونجد تدعيماً لافتراضنا هذا ، في ضالَّة المكافأة التي قابل بها جوهر مدحته : فهي دليل ، لا على شخِّ فيه ، ولا على قلة بصر بالأدب والشعر - وإن كان ذلك لا يستغرب من عبدٍ صقلِّيٍّ أو روميٍّ الأصل - بل على خمول الشاعر في برِّ العدو .

استقرَّ الشاعر عند بني حمدون بالمسيلة . وقد أصبحت القاعدة التي كان أسسها القائم بأمر الله وعليّ بن حمدون ، عاصمة عامرة بالسكان مزدهرة بالصنائع فيقول ابن خلدون : « ... واستجدّوا بها دولة وسلطاناً وبنوا القصور والمنتزهات ، واستفحل بها ملكهم ، وقصدهم بها العلماء والشعراء وكان فيمن قصدهم ابن هانئ شاعر الأندلس »⁽¹⁾ .

ويظهر أنَّ شهرة البلاط الحمدونيّ تجاوزت المغرب وإفريقية وبلغت المشرق ، فطمح بعض شعرائه الى رفد أمير المسيلة ، كالصنوبري (945/334) الشاعر الشاميّ مثلاً ، فقد وجّه اليه من حلب قصيدة⁽²⁾ يشيد فيها بمجده

(1) تاريخ ، ج 16 - 21 (بيروت) ص . 175 .

(2) الصنوبري : ديوان ، القصيدة 25 ، ص 28 .

وكرمه ، فأرسل اليه جعفر ، على مسالك ثابتة حسب قول ابن شرف⁽¹⁾ مكافأة
بألف دينار .

ويشهد شعر ابن هانيء نفسه بازدهار العاصمة الحمدونية وكثرة حدائقها
وطيب هوائها ، فيتجاسر على تشبيهها ببغداد : [كامل] .

35/6 وَرَأَيْتُ حَوْلِي وَفَدَ كُلِّ قَبِيلَةٍ حَتَّى تَوَهَّمْتُ الْعِرَاقَ الزَّابَا
36 أَرْضاً وَطِئْتُ الدَّرَّ رَضَاضاً بِهَا وَالْمِسْكَ تُرْباً ، وَالرِّيَاضَ جَنَابَا
37 وَسَمِعْتُ فِيهَا كُلَّ خُطْبَةٍ فَيُصَلِّ حَتَّى حَسِبْتُ مَلُوكَهَا أَعْرَابَا

هذه المهابة الملكية لا ينفرد بها جعفر ، فليحیی أيضاً بلاط تقصده
الوفود : [طويل]

15/52 وَتَعُدُّوْا عَلَى يَحْيَى الْوَفُودُ بِبَابِهِ كَمَا ابْتَدَرَتْ أُمُّ الْحَظِيمِ الْمَوَاسِمُ

وسرعان ما أصبح الشاعر من خاصّة الأميرين ، فنراه مثلاً يتدخل لتهدئة
الجوّ بينهما اذا ما ضاق الأصغر بسيطرة الأكبر ، ولا سيما بعد وفاة والدتهما ،
فيدعوهما الى المحافظة على الوثام حتى يقوياً على الخصوم ولا يشمت بهما
الأعداء . ونراه أيضاً يشارك الأميرين ، وخصوصاً يحيى ، في مجالس الشراب
والغناء ، ممّا يشعر بأن الحياة بالمسيلة أشبه في طيب العيش ولينه بالرقة
الأندلسيّة منها بالخشونة البربريّة أو التقشف الذي طبع بلاط الخليفة .

ويشيد بحروب الأخوين ، وبالحملات التي يقودانها أو يقودها ابراهيم
ابن جعفر لاستخلاص الضرائب أو لقمع الفتن ، ولعلّها كانت تحركات بسيطة
محدودة؛ ولكنه يغالي في تعظيمها دون أن يمدّنا بالتدقيق اللازم ، فتصير في
شعره انتصارات باهرة ، ويجعلها انتصاراً لسياسة المعزّ ومذهب الأئمة ، كأنه
بدأ ينظر الى المنصوريّة ويسعى نحو غايته النهائية : الدخول في خدمة
المعزّ في منصب الشاعر الرسمي .

(1) ابن شرف : مسائل . . . ص . 36 .

ولكنّ دعوة الخليفة أبطلت ، فلم تأت إلا بعد خمسة أعوام ، وقد علّنا فيما سبق تحديدنا لدخول ابن هانيء في خدمة الخليفة بسنة 964/353 . وقد مهّد لهذا المنصب بالمدحتين 9 و 11 ، نظمهما بالمسيلة وأرسلهما الى المعزّ . ويظهر من كلام ابن خلّكان أن شهرة الشاعر وصلت الى مسمعه بعد هذه المدة الطويلة ، فأبدى اهتمامه به وطلب من الأميرين أن يجهّزا اليه ، فبادرا بارساله وأرفقاه بهدايا كثيرة⁽¹⁾ . وفي هذا تدعيم لما ارتأيناه ، من أن صيت الشاعر عند خروجه من وطنه لم يكن من الذبوع بحيث يلفت إليه الانتباه ويفتح أمامه الأبواب .

أما صدى حياته بالقيروان/ المنصورية ، فخافت خفوتاً غريباً ، حتى إننا نشك في استيطانه بعاصمة الخلافة ، فهو لا يذكرها قط في شعره ، ولا العواصم الأخرى . والإشارة الوحيدة الى القيروان أو المنصورية نجدها في التوطئة النثرية التي تسبق القصيدة 53 في الديوان ، على ان النسخ تتضارب ، فمنها من يقول ان القصيدة أنشدت بالقيروان ومنها من يقول بالمنصورية .

وكذلك لا ذكر لظروفه المادّية : كيف كان يعيش ؟ وبم كان يعيش ؟ وأين كان يعيش ؟ هنا أيضاً ترشدنا التوطئة التي أشرنا اليها فتقول أنّ الخليفة كافأه على هذه القصيدة 53 بقصر يساوي كذا من آلاف الدنانير ، فطلب الشاعر عندئذ الأثاث ، فأردفه بأثاث يساوي بضعة آلاف دينار ، فعاد الشاعر وطلب الحشم والجواري ، فأمر له بخدم ، فبلغ المجموع خمسة عشر ألف دينار . لكنّ الصبغة الخرافية ظاهرة على هذا الخبر ، ولا نخال الشاعر في أوّل لقاء له مع المعزّ يتجاسر على مثل هذه المساومة السخيفة . ثم ان الخبر لم يذكر قط مكافأة مآلية نقدية ، مع أن مخطوط تونس 1 يشعرنا بوجود جارية قارة ، بدليل أن الأمير تميم ابن الخليفة سعى لدى أبيه ليقطّع عنه هذا الراتب ، وربما دلّت أيضاً على وجود هذه الجارية علاقة ابن هانيء بصاحب الخزينة الحسين بن المهذب .

(1) وفيات . . . ترجمة رقم 640 .

ومثلما يسكت عن مسكنه هو ، يسكت عن مساكن الخليفة والأمراء فلا تراه يذكر القصر ولا البلاط ، ولا يصف المسجد ولا المتزهات . حتى « دار البحر »، ذلكم القصر الذي بهر الشاعر الأيادي⁽¹⁾ بتنسيق بركه وغرفته، وتدقق المياه به ، وعلو شرفاته ، لا نجد له ذكراً في شعره . وإزاء هذا السكوت عن الأماكن الرسمية والخاصة ، صرنا نشك في إقامته المستمرة بالعاصمة الإفريقية ، فلعله كان يقطن بالزباب على الدوام كما يشعر به قوله عند توديعه للمعز على عتبات مصر ورجوعه على أعقابها لأخذ عياله وأمواله : [طويل]

18/47 ولولا قَطينَ في قَصيٍّ من التَّوى لما كان لي في الزَّابِ من مُتَلَوِّمٍ

ولعلّ وظيفته كشاعر مختص بالخليفة تحتم عليه الاقتصار على المظاهر الرسمية من حياة المعز ، كاستقباله للسفراء والمبعوثين وتحوّله الى صلاة الجمعة وخروجه في المواسم والأعياد مكلّلاً بالتاج الفاطميّ تحت المظلة الواسعة التي كانت أيضاً من شارات الملك .

وقد حاول الشاعر التحلّل من هذا الجانب الرسميّ من وظيفته كما تشهد بذلك المقطوعات الخمرية أو الغزلية التي نجدها في ديوانه مدرجة ضمن المدائح أو مستقلة ، فتاق الى التعبير عن ذاته ، بالتغرّل بالغلّمان أو وصف مجالس الشراب ، والتمس الأصدقاء الجدد والخلان كما يظهر من مطارحاته مع أحمد بن زائدة . ولكن هذه المحاولات « الغنائية » الذاتية بقيت محدودة ، حسب ما يظهر من الديوان المطبوع ، أو لعلّها طرحت من معظم النسخ ، فلم نجد صداها إلا في مخطوط تونس¹ . فكانَ وظيفة الشاعر الرسميّ بما يتبعها من جدّ مفروض مفتعل ووقار وتقشّف ظاهريّ لم تسمح له بالنظم في غير الأغراض المذهبية السياسية التي تعلي كلمة الأئمة وتظهر شرعية حكمهم . بهذا التحديد والاقتصار ، نبرّر التفاوت الظاهر بين مجموع انتاجه بالمسيلة في خمس سنوات ومجموع انتاجه بعاصمة الخلافة في تسع .

(1) انظر وصف الأيادي لهذا القصر في الحوّلّات ... 1973 ص... 104 .

تشيع ابن هانيء

يؤكد الشاعر في إحدى مدائحه للمعز أن تشيعه القديم عرّضه لعداوة الأمويين ، فحاولوا منعه من الالتحاق به ، ولو نجحوا ، لأسكتوا صوته وتعدّز عليه مدح الإمام : [طويل]

- 46 ولو عَليَّقْتُهُ مِنْ أُمَيْةَ أُحْبِلُ لَجُبْتُ سَنَامَ مَنْ الشَّعْرِ تَامِكُ
47 ولَمَّا التَّقْتُ أَسْيَافُهَا وَرِمَاحُهَا شِرَاعاً ، وَقَدْ سُدَّتْ عَلَيَّ الْمَسَالِكُ
48 أَجَزْتُ عَلَيْهَا عَابِراً وَتَرَكْتُهَا كَأَنَّ الْمَنَابِيَا تَحْتَ جَنِي أَرَائِكُ
49 وَمَا نَقَمُوا إِلَّا قَدِيمَ تَشِيعِي فَتَجَنَّى هِزْبِراً شَدُّهُ الْمَتَدَارِكُ

هذا الصراع البطولي الذي يدّعيه ابن هانيء مع مطارديه الأندلسيين صورة من المبالغات الشعرية المعهودة . ولكن ، هل يغالي حين يلحّ على « قديم تشيعه » ؟

لقد عبرنا فيما سبق من الصفحات عن تحفظنا في قضية تشيع هانيء وأسرته ، لفقدان الوثائق التي تسمح بإبداء رأي صحيح مدعم ، وخاصة لضياح كامل شعر محمد بن هانيء في الفترة الأندلسية . ولكن ، يمكن أن نعود إلى الموضوع فنضيف إليه ، على ذكر هذه الأبيات ، بعض العناصر التي قد ترجّح انتساب الشاعر إلى الدعوة الفاطمية منذ شبابه وحتى صباه .

فالمرجّح الأول هو ، كما رأينا ، وسطه العائلي ، والصورة الغامضة التي نقلت إلينا عن أبيه هانيء : فهل كان حقاً واحداً من الدعاة الكثرين الذين عملوا بالأندلس على إحلال الحكم الشيعي ؟ الحقيقة أن الفتن الشيعية أو المنتسبة إلى الشيعة سبقت مقدم هانيء إلى الأندلس بأحقاب . فمنذ أواسط القرن الثاني / الثامن تمرّدت بعض العناصر اليمينية المنتسبة إلى كبار الأسر العربية ، مثل الثائرين المهلبيين اللذين ذكرهما ابن عذاري ، أو أحفاد الصحابي الشيعي عمار بن ياسر ، أو أحفاد زعيم الأنصار سعد بن عبادة .

حتى العنصر البربري أراد أن يحذو حذو العناصر العربية ، فطلب الحكم وتمرد على الأمويين ، مثل ذلك الثائر الذي استثمر اسم أمه - فاطمة - فلفق لنفسه نسباً علوياً فاطمياً - وكان بربرياً من مكناسة - فجابه حكام قرطبة طيلة عشر سنوات (150-160/767-776) . وكثير من هذه التحركات كانت تقع بكورة البيرة ، تلك التي سينزل بها هانيء ، أثناء أو بعد سفرائه المكتمة بين عواصم الأندلس⁽¹⁾ . ولم تسلم اشبيلية من هذه الفتن ، فقد تغلبت عليها أسرة بني الحجاج ، وهم أيضاً يمتنون لخميون ، ولم يصلح أمر المدينة الا عندما تولّى عبد الرحمان الناصر .

هؤلاء الثوار كانوا بالطبع يستثمرون لصالحهم النزاع بين الدولتين الكبيرتين : فالتمرد على حكم بني أمية يستجد بصاحب افريقية ويتظاهر بالولاء للشيعه ، وكذلك فعل عمر بن حفصون حين تملك بويشر واعتصم بها ، فقد أرسل إلى المهدي عبيد الله يطلب مساعدته⁽²⁾ . وفي الجانب المقابل ، كان المارقون على الحكم العبيدي يستجدون بحكام قرطبة ، كما فعل أبو يزيد إذ أوفد إلى الخليفة الناصر جمعاً من أعيان القيروان فيهم ابن لأبي العرب صاحب كتاب طبقات علماء افريقية⁽³⁾ .

وحين أخذ عبد الرحمان الناصر ثم الحكم المستنصر الأمور بيد من حديد فقمّعا الفتن بكل شدّة ، انقلبت الحركات العلوية الى دعوة سرّية داخل المدن ، فكان الأعوان والجواسيس يجوبون البلاد ويرفعون التقارير عن الحالة الاجتماعية وأفكار الناس وأحوال المعيشة ، إلى صاحب افريقية ، وقد نسب الفيلسوف ابن مسرة (931/319) إلى الدعوة الفاطمية وقيل أنّه تعلّم المبادئ

(1) ابن عذارى : البيان . . . ج 1 ص. 54-56 / وانظر كذلك : محمود علي مكّي : التشيع في

الأندلس ص. 17 وليفي - برونسال : اسبانيا الاسلامية ، ج 1 ص. 85-88 .

(2) ليفي - برونسال : اسبانيا الاسلامية ، ج 1 ص. 380 .

(3) ابن عذارى : البيان . . . ج. 2 ، ص. 213 .

الاسماعيلية أثناء إقامته بالقيروان فتعهد بنشرها في الأوساط الأدبية والثقافية في الأندلس . وكذلك نسبوا الرحالة ابن حوقل (977/367) الى التجسس لفائدة الفاطميين⁽¹⁾ .

فكان خلفاء قرطبة معذورين اذن في اتخاذهم التدابير المشددة ضد كل من اشتبه أمره ، فرمي بالدعوة الى الشيعة أو حتى بالاستقلال في الرأي والسلوك ، ولكنهم أفرطوا في القمع والتنكيل ، فصاروا يحكمون بالقتل على كل من انفرد برأي أو خرج عن المالكية السائدة ، حسب شهادة المقدسي (988/378) الذي زار الأندلس في منتصف القرن الرابع : « ... أما في الأندلس فمذهب مالك وقراءة نافع . وهم يقولون : لانعرف الا كتاب الله وموطأ مالك ، فان ظهوروا على حنفي أو شافعي نفوه ، وان عثروا على معتزلي أو شيعي ونحوهما ، ربما قتلوه »⁽²⁾ .

ولم يغال المقدسي في تعليقه ، فقد أطلق الخلفاء أيدي القضاة لمقاومة الزيغ بحق وبغير حق ، أو ، على الأحرى ، أطلق القضاة أيدي الحكام ، لأن الخطر مزدوج : فالحكام عرضة للحملة المسلحة على الخلافة الأموية ، وقد تعهد الفاطميون بازالتها ومحاسبة أصحابها على اغتصابهم للحكم وعلى ما ارتكبه أسلافهم من جرائم ضد آل البيت . ومن جهة أخرى يتعرض الفقهاء الى خطر حلول مذهب « المشاركة » وإحلال طقوس وعقائد مارقة مبتدعة خارجة عن السنة والجماعة . فلذلك نجد القضاة الأندلسيين يصدرون أحكاماً قاسية على أشخاص مظلون فيهم ، دون أن تثبت عليهم تهمة الكفر أو التشيع : فهذا شخص يمني أيضاً ، يدعي ابن حاتم الأزدي ، يحكم عليه بالقتل لأنه شهد عليه بشتم عائشة والشيخين ، ولعله كان شيعياً لأن سب أصحاب الجمل أو أصحاب السقيفة من خصائص غلاة العلويين ، كما أن سب أبي تراب (علي بن أبي طالب) من خصائص الأمويين . وهذا متهم آخر ، يدعى أبا

(1) ر. برونشفيك : مظهر من ... ص. 149 .

(2) أحسن التقاسيم : ص. 40 .

الخير ، شهد عليه بتبني آراء « المشاركة » ، وبشرب الخمر أيضاً ، وترك صلاة الجماعة ، وأخيراً بالقول مثل المعتزلة بتخليد الكافر في النار ، حتى وإن كان مسلماً ، هذا المسكين يقتل أيضاً لتراكم هذه الذنوب عليه⁽¹⁾ .

والمرجح الثاني لتشيع ابن هاني منذ صغره ، لعلمنا نستنتج مما كنا نستغربه قبل قليل : وهو ضياع شعره في الفترة الأندلسية ، فإن تهمتي التحلل الأخلاقي والتحرر العقائدي ، ان ثبتتا ، لا تكفيان لتعليل هذا الضياع التام ، كأن هذا الشعر محي محو من ذاكرة الناس ، فلم يبق منه شيء ، حتى النماذج لتدعيم تهمة المروق والانحراف . ولا تكفيان كذلك لتبرير طرده من وطنه ، مع ما كان يحظى به من مؤازرة أمير اشبيلية له وعطفه عليه . فالأولى حينئذ أن نفترض وجود ذنب أعظم من هذين ، مثل شروع الشاعر في مقاومة السلطان الأموي أو في نشر المبادئ الفاطمية . فهذه تهمة أخطر بكثير من العريضة والأخذ بأقوال الماديين ، لفتت اليه انتباه الحكام والقضاة ، فأصبح مهدداً في حرّيته وربما في حياته ، واضطرّ الوالي الى مداراة الفقهاء فنصحه بالانسحاب . ونعترف بأن هذا التحليل الجديد لأسباب هروبه لا يفسر كذلك ضياع شعره الاشبيلي ، اللهم إلا إذا افترضنا أيضاً أن هروبه السريع لم يسمح له بجمع شعره ، فضاع بعده ، أو قرّر هو أن يضرب عنه صفحاً .

أما المرجح الثالث ، فلتتمسه من المعاني والشعارات الشيعية التي نجدها في أول قصيدة له بالمغرب ، ونعني مدحة جوهر ، فالشاعر يستعمل الألقاب التي أشاعتها الدعاية الرسمية في شأن الخليفة : فهو الإمام ، وهو أمير المؤمنين ، وخليفة الهدى الخ ... ، ويقارن جوهرأ ، في وفائه للإمام وخدمته له ، بالحواريين في علاقتهم بالأنبياء ، بل يدعو الناس الى اتباع الطريق التي سطرها لهم هذا الحواري : [طويل]

(1) هذه الأمثلة مستمدة من مخطوط « نوازل الأحكام ... » لابن سهل الجبائي (1093/486) ، ورقة 191 ب و 193 أ . وقد استثمرها الدشراوي في فصله : محاولة ... ص. 97 .

- 18/10 أُرِيكَ بِهِ نَهْجَ الْخِلَافَةِ مَهِيَعًا بَيِّنُ، وَأَعْلَامَ الْخِلَافَةِ وَضَحًا
24 ... رَأَاهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ كَعَهْدِهِ لَدَيْهِ، وَلَمْ تَنْزُحْ بِهِ الدَّارُ مَتْرَحًا
25 لَا فُلَحَ مِنْهُمْ مَنْ تَزَكَّى وَقَادَهُ حَوَارِيُّ أَمْلَاكِ تَزَكَّى وَأَفْلَحَا

وأنه لمن المستبعد أن يكون الشاعر قد تكلف هذا الولاء الشيعي في الحين والحال ، تزلّفاً إلى القائد ، ومن ورائه ، الى الخليفة . ولا ندعي مع هذا أنه عند نزوله بأرض المغرب ، كان متشبعاً بكلّ هذه الأغراض الإسماعيلية ، فهذا لا يتفق مع ما سنراه في شعره اللاحق من تطوّر نحو المماثلة التامة لشعارات الدعاية الفاطمية . ولكن نتخذ موقفاً وسطاً فنقول : لعله كان تعرّف ، منذ الفترة الإشبيلية ، على التيارات الشيعية التي كانت تجتاح الأندلس وتغشى العصر كلّه ، فمال إليها واكتسب شيئاً من المعلومات عن العقائد الإسماعيلية فتبناها وبلورها في قصيدته الأولى التي أرادها كما قلنا فاتحة حياة جديدة .

وتزداد المعاني الشيعية عنده قوة ، حتّى تبلغ أوجها في الفترة الافريقية ، حين يصبح الشاعر الرسمي ، فيعلي كلمة الدولة ، ويشيد بمجد الأئمة وبأحقّيتهم بخلافة المسلمين ، وينهال شتماً على الدولتين الغاصبتين ، الأموية والعباسية ، بل يمتدّ لسانه حتى الى الشيخين أبي بكر وعمر فيرميهاما بالتواطؤ مع أعداء عليّ في حادثة السقيفة لانتزاع حقه المشروع ، ويلقي عليهم مسؤولية المآسي التي لحقت عليّاً وذريته فيما بعد ، فلا يتحرّج من جعل أبي بكر - التيمي - سبباً ، بقبوله الخلافة ، في قتل عليّ بمسجد الكوفة ثمّ في مجزرة الطفّ ب كربلاء : [طويل]

- 144/47 وَأَوَّلَى بِلَوْمٍ مِنْ أُمَيَّةَ كُلِّهَا وَإِنْ جَلَّ أَمْرٌ مِنْ مَلَامٍ وَلَوْمْ
145 أَنَاسُ هُمْ الدَّاءُ الدَّفِينُ الَّذِي سَرَى إِلَى رِمَمٍ بِالطَّفِّ مِنْكُمْ وَأَعْظَمِ
147 ... هُمْ رَشَحُوا نَيْمًا لِإِرْثِ نَبِيِّهِمْ وَمَا كَانَ تَيْمِيٍّ إِلَيْهِ بِمَنْتَمِ
153 ... بِأَسْيَافِ ذَاكَ الْبَغْيِ أَوَّلَ سَلَّهَا أَصِيبَ عَلِيٍّ ، لَا بِسَيْفِ ابْنِ مُلْجَمِ

وفي هذه الحملة القاسية على أحبّ الخلفاء الراشدين الى الأمة

الاسلامية ، دليل على أن ابن هانيء أصبح يأمن غائلة الحكام الأمويين وعسف قضائهم . فشتان بين تعسف هو اليوم وما استحق به ابن حاتم المسكين القتل ! وفيها أيضاً صورة للطريقة التي يقابل بها الشيعة شتم الأمويين يومياً لعللي بن أبي طالب فوق منابرهم ، تلك العادة الفظيعة التي ابتكرها معاوية بالشام ، فكانت تنقص من إعجاب أنصارهم بهم⁽¹⁾ .

ونلاحظ في المدائح المعزّيات مغالاة الشاعر - والدعاية الرسمية كذلك - في تقديس الإمام . فالأوصاف التي يصف بها المعزّ ، والمقارنات والتشابه والافتراضات ، كل هذا يبلغ حدّ التآليه ، أي ، في نظر السّنة ، حدّ الكفر والشرك بالله . في حين أنه في نظر الشيعة اعتراف بالصفات الشرعية في الأئمة : فلئن نعته بـ «الواحد القهار» فلاّنه مستأثر وحده دون غيره يارث جدّه الرسول (صلى الله عليه وسلم) وخلافة المسلمين ، قاهر عن قريب للدولتين الغاصبتين . وإن غلبت إرادته الأقدار ، فلاّنه يتمتّع بمؤازرة خاصّة من الله تجعل كلمته هي العليا ، وبهداية منه تعصمه من الزلل ، فالأئمة هم هداة شعوبهم ورعاياهم الذين أشار اليهم الله عزّ وجلّ بقوله : ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾⁽²⁾ : [كامل]

- 1/24 ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنّ الواحد القهار
- 2 وكأنّما أنت النبيّ محمّد وكأنّما أنصارك الأنصار
- 3 أنت الذي كانت تُبشّرنا به في كتبها الأخبار والأخبار
- 4 هذا إمام المتقين ، ومن به قد دُوّخ الطغيان والكفار
- 5 هذا الذي تُرجى النجاة بحبّه وبه يُحطّ الإصر والأوزار

فاذا كانوا هداة مهديّين ، فتشبههم بالأنبياء المعصومين معقول مشروع ، وكذلك تشبه أتباعهم بالأنصار الذين نصرُوا محمّداً (صلى الله عليه وسلم) وآووه بالمدينة - ولعلّه اقتصر على الأنصار ولم يذكر المهاجرين لأنّه يمّتي الأصل

(1) ابن عذاري : البيان ... ج . 2 ، ص . 40 .

(2) الرعد ، 7 .

أزديّ مثل أهل يثرب ، ولأنّ المهاجرين فيهم الشيوخ وأصحاب الجمل - وكما يشفع الأنبياء للمؤمنين يوم الحساب ، فهذا يشفع لأتباعه فتحيهم محبته عذاب النار .

هذا، وإنّ مثل هذا التحليل الباطني لعقائد الشيعة ونظرياتهم من خلال مدائح الشاعر لا يقف بنا عند حدّ ، وسنجد في القول في الفصل الثامن حين نتناول المعاني الإسماعيلية في شعره .

ولا عبرة ، والحال هذه ، بما يقوله بعض الدارسين المعاصرين في شأن تشييعه : من أنّ هذه المغالاة في تقديس الأئمة صورة من تزلفه الى المعزّ حتى ينال رفته ، فبقدر ما يغلو في المدح ، يكثر العطاء⁽¹⁾ . فهذا تسرّع في الاستنتاج وقصر في النظر ، إذ لو قارن أصحاب هذا القول شعر ابن هانيء بشعر تميم بن المعزّ في أخيه العزيز مثلاً ، أو قابلوه بكلام القاضي النعمان في الأئمة عامة وفي المعزّ بصفة خاصّة ، لرأوا أن الغلو أمر عاديّ طبيعيّ في كتابات الشيعة ، ولما نسبوا صاحبنا الى التشيع الكاذب . أم لعلهم كانوا ينسبون تميماً والقاضي الى السعي وراء المال ؟

ولو كان تشييعه ظرفياً محلياً ، أي مرتبطاً بمدائح المعزّ لا غير وبما يُرجى إثرها من جوائز ، لما وجدناه أيضاً في مدائح الشيباني وبنو حمدون وأفلح الناشب ، ولاكتفى الشاعر في مدحه لهؤلاء ، بالإشادة بالصفات التقليدية من شجاعة وسماحة وحلم وغيرها .

فتشييع ابن هانيء صحيح صادق . لعله لم يكن على مثل هذه القوة في أوّل الأمر ، فتوطّد وتعمّق بتعرّف الشاعر الى الخليفة ومعاشرته له ، ولكن لا شكّ في أنه خلو من الطمع : فالشاعر قلماً يشير الى عطاء المعزّ ، خلافاً للمتنبّي مثلاً في مخاطبته لممدوحه ، بل يعتبر أن أعظم مكافأة هي بالذات مدح الإمام ، لانه

(1) حسن إبراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعزّ لدين الله ، ص . 226 .

بمدحه إياه يقوم بواجب مفروض ، واجب « الطاعة » ، والطاعة لا يكافأ عنها ،
أو قل انها تحمل مكافأتها في طيأتها كأريحية الساحة أو برد اليقين : [كامل]

90/1 دَانُوا بِأَن مَدِيحَهُمْ لَكَ طَاعَةٌ فَرَضُ ، فَلَيْسَ لَهُمْ عَلَيْكَ جَزَاءُ

ثم ان القرب من الإمام يكفيه كل مكافاة ، وكذلك اتفاق معانيه مع معاني
القرآن لأن الله مدح أيضاً الإمام : [طويل]

67/23 بَلَّغْتُ بِكَ الْعَلِيَّ ، فَلَمْ أَدُنْ مَادِحاً لَأَسْأَلَ ، لَكُنِّي دَنَوْتُ لِأَشْكُرَا
68 وَصَدَّقَ فِيكَ اللَّهُ مَا أَنَا قَائِلٌ فَلَسْتُ أَبَالِي مَنْ أَقْلَ وَأَكْثَرَا

فالتشيع عند ابن هانيء ليس إذن صادراً عن تعليمات رسمية تتكيف كل
يوم بحسب التطورات السياسية ومقتضيات الساعة ، مثل سوانح الصحف
الحزبية أو الحكومية ، أو مثل خطب المنابر في صلاة الجمعة ، بل هو منبثق عن
اعتقاد راسخ بصحة الدعوة وصواب المذهب وعدل الأئمة في سياستهم . وأن
اعتقاده هذا ليتجاوز شخصه فيغمر الأعيان والأشياء المتصلة به ، فهذا سيفه
مثلاً ، أصبح مماثلاً له في العقيدة ، بل يغلبه في التفاني : [بسيط]

لي صَارِمٌ ، وهو شيعي كحامليه يكادُ يَسْبِقُ كَرَاتِي إِلَى الْبَطْلِ
إذا المعزّ ، معزّ الدين ، سُلْطُهُ لم يرتقب بالمَنَايَا مُدَّةَ الْأَجَلِ⁽¹⁾

ولعلّ هذين البيتين « ملحّة » من الشاعر لا تحتاج منا الى مثل هذا
التقدير ، ولكننا نتجاوز من خلالها التكلّف وبرودة الفكرة إلى الحميّة الواضحة
والتحمّس الظاهر للمذهب .

هذا، وإذا احتجنا الى دليل آخر على صدق انتساب ابن هانيء الى
الدعوة ، فلنذكر أسف المعزّ عليه حين نُعي اليه . فهل كان يرثيه ويؤيّته لو فهم
أن تشيعه ظرفي محليّ ؟ وهل يغيب عنه تملق المنافق وكذب المتزلف ؟

(1) تبين المعاني ... ص . 648 .

تضارب الأقوال في ظروف وفاته

لئن اتفقت المصادر على أنَّ موت الشاعر كان مباغتاً ، فإنها لا تتفق على ظروفه وأسبابه : أكان اغتيالاً ، أم موتاً طبيعياً ، أم قتلًا في خصومة ، أم حادثاً طارئاً غير متوقع ؟ وكذلك الأمر فيما يخص تاريخ الوفاة ، فلا ثبات فيه بين مصدر وآخر .

يكتفي ابن الأثير مثلاً بالقول : « وتوفي بركة في طريقه إلى مصر » فاستعمل فعل « توفي » الذي يشعر بالموت الطبيعي وينفي فكرة القتل أو الاغتيال . أما ابن الأثير ، فيميل إلى الاغتيال في خطة مدبرة : « فلمَّا وصل (المعز) إلى بركة ، ومعه محمد بن هانيء الشاعر الأندلسي ، قتل غيلة ، فرؤي ملقى على جانب البحر قتيلًا لا يُدرى من قتله . . . »⁽¹⁾ . ويذكر ياقوت وابن خلكان افتراضات ثلاثة : أولاً ، الموت المباغت في حادث مفاجيء : خرج الشاعر سكران من بيت مضيقه فضل طريقه في الليل وغلبه النوم فنام على قارعة الطريق فمات للبرد الشديد . ثم الخصومة العنيفة اثر مشربة وعريضة فيقتل الشاعر في المعركة بين السكاري . وأخيراً الاغتيال : وجد الشاعر في ضيعة مخنوقاً بتكة سراويله . ويأخذ ابن الخطيب بالافتراض الأول فيرى أن البرد الشديد هو الذي قتل الشاعر السكران . أما ابن سعيد ، فيصرح بأنه قتل في « مشربة على صبي » وكذلك تقول مقدّمة مخطوط تونس 1 .

ولقائل أن يقول أنَّ هذه الظروف الفظيعة من سكر وعريضة واعتداء بالفاحشة على صبي ، قد اختلقها مؤلفون سنيون ليلحقوا العار بشاعر الفاطميين الرسمي ، فينالوا من خلال شخصه ، من هيبة هذه الدولة المكروهة التي طالما ادّعت الطهارة والنسك والقداسة ، ويظهروا فسادها ونفاقها من فساد شاعرها ، لا سيما وأنَّ المعز كان ينوي مكابرة شعراء الشرق به . وهذا ما يقوله فعلاً ناشر

(1) الكامل ، ج 7 ، ص . 45 .

الديوان زاهد عليّ - وهو إسماعيلي - في محاولته لتبرئة الشاعر من هذه الوصمات⁽¹⁾.

ولكن قد تكون التهمة صحيحة مستندة الى أحداث ثابتة وصفات واقعة : فإذا اعتبرنا مثلاً ما نُسب اليه من مجون في شبابه بالأندلس ، وما احتفظ به الديوان من مقطوعات خمريّة ومن غزل بالمدكر ، وإذا صدّقنا ما نقلته بعض المصادر من تنافسه مع الأمير تميم على غلام منحرف ، واعتبرنا من جهة أخرى أن جوّ الفرح والتفاؤل بحياة جديدة ، الذي صاحب انتقال المعزّ إلى عاصمته الجديدة، قد يدعوا بعض أنصاره ، والشعراء على الأقل ، الى خلع العذار ، أصبح من الممكن أن الشاعر تعاطى اللهو جزافاً في إحدى ليالي إقامته ببرقة ، فكانت نتيجة الافراط في الشراب خصاماً واعتداءً وعنفاً وقتلاً .

بل نجد من المترجمين من ينسب قتله الى تميم أصلاً بسبب الغيرة من الشاعر لاستثثاره بالغلام : فيقول الدواداري في كتابه عن الدولة الفاطميّة ، بعد أن يورد الأبيات الثلاثة التي يبرّر فيها ابن هانيء تفضيله للذكران على النسوة : « . . . أراد بقوله غلاماً كان الأمير تميم يهواه ، فتحيل عليه حتى وجد في بعض الأودية مخنوقاً بتكته . . . »⁽²⁾ ويضيف : « وقيل إنّه حسده لجودة شعره ، فقتله لذلك » . فهذه فكرة جديدة وسبب آخر من أسباب قتله : الغيرة الأدبيّة أو التنافس المهنيّ . وواضح أن كلام الدواداري يدعّم فكرة القتل اغتيالاً ، ويبعد فكرة الموت الطبيعيّ أو الحادث المفاجيء . ولكنه يأتي بعنصر جديد في حياة الشاعر الغامضة ، فيزيد الغموض كثافة . هذا العنصر الجديد هو تنافسه مع وليّ العهد ، وقد كان من المتوقع أن يصبح خليفة بعد أبيه ، أي أن يصير ممدوحاً لابن هانيء ، لولا أن عزّله المعزّ لفساد سلوكه وانحرافه وتواطئه مع العناصر المناهضة لأبيه ، وبالاخصّوص مع أولاد القائم .

(1) تبين . . . ص. 22 من المقدّمة .

(2) الدواداري : كنز الدرر/ 6 : الدرة المضية . . . ص. 254 .

وربما استغربنا أن ينسب تميم الى مثل هذا الخبث وهذه الشراسة ، وقد عهدناه في شعره رجلاً رقيق العاطفة مغرمًا بالطبيعة والأزهار والمياه ، ميلاً الى الدعة والعيش الهادي . ولكن قد يُخفي الشعراء أيضاً حقيقة نفسياتهم ، بدليل ما اكتشفناه من مجهول صفات شاعرنا ابن هاني ، مما لا يتضح قط من كبرى قصائده في المعز وفي غيره من الممدوحين . وخلاصة القول أن قتل ابن هاني يمكن أن يكون قد وقع بإيعاز من تميم ، بسبب غيرة بينهما وتنافس ، سواء كانت غيرة غرامية أو أدبية .

وعليه ، فلا سبيل الى تبني فكرة زاهد علي الذي يعتبر قتله اغتيالاً سياسياً دبره أعداء الدولة التي رفع ابن هاني شعارها ، أي حكام قرطبة : فالأمويون أبعد الناس ، في هذا الظرف ، أي أبان انتقال المعز - والشاعر بالتالي - الى المشرق ، عن أن يفكرؤا في قتله ، هذا إذا صح أن شعره أفلقهم حقاً حتى صاروا يخشونه على سلطانهم . ولو عزموا على قتله ، لفعلوا ذلك أو حاولوه من قبل ، أي قبل أن يتباعد الخطر عن شواطئهم بتحول الفاطميين الى القاهرة . وإنما اعتمد الناشر الاسماعيلي ، في دفاعه البار عن الشاعر - وهو اسماعيلي مثله - على الأبيات التي ادعى فيها تشييعاً قديماً وعداء من الأمويين كاد يحول بينه وبين المعز ، فصدق هذا الزعم ، ونسب الفعلة الى بني أمية ، فأصبح ابن هاني مقتولاً ، لا في مجلس عربية ، بل في ساحة الشرف ، ضحية لدفاعه عن المذهب الشيعي .

ولو كان لفكرة الاغتيال السياسي من احدى الدولتين المنافستين أو حتى من فلول الخوارج ، نصيب من الرجحان ، لما أغفلها الرواة والمترجمون .

أما تاريخ مقتله ، فينبغي أن نقبل التاريخ الذي ذكره ياقوت وابن خلكان : يوم الاربعاء 23 رجب 362/29 أبريل 973 ، وربما نقلاه عن تاريخ القيروان لابن شداد ، أو عن نسخة مجهولة من قراصة الذهب لابن رشيقي . ونرجحه لأن المعز ترك «سردانية» قرب القيروان في صفر، ووصل الى القاهرة في رمضان، فمن

الراجح أنه حلّ ببرقة في رجب . وبناء على هذا ، ينبغي رفض تاريخ 972/361 الذي ذكره ابن الخطيب .

وكانت سنّهُ عند الوفاة اثنين وأربعين عاماً ، على ما ضبطته غالب المصادر ، وقد حدّدها بعض المترجمين بستّة وثلاثين عاماً ، وسبق أن بيّنا خطأ هذا التقدير ، لأنّه يترتّب عنه أنّ مولد الشاعر كان سنة 937/326 ، وأنّ هجرته الى المغرب في سنّ السابعة والعشرين وقعت سنة 964/353 ، ونعلم أنه في هذا التاريخ ، كان قد دخل بعد في خدمة المعزّ ، فلا شكّ إذن أنّه عند موته كان قد تجاوز الأربعين .

برقة⁽¹⁾ اسم قديم لقرية المرح التي تقع اليوم على بعد مائة ميل تقريباً من بنغازي الحاليّة ، عاصمة الولاية الشرقيّة من ليبيا . وقد سمّيت المقاطعة كلّها باسم عاصمتها على شاكلة كثير من البلدان الإسلاميّة ولا سيما بإفريقيا الشماليّة : فتونس تعني البلاد وعاصمتها ، وكذلك الجزائر . وكذلك مرّاكش عند من سمّى المغرب الأقصى باسم عاصمتها المرابطيّة ثمّ الموحدية . أمّا « مصر » ، فقد كانت تعني قديماً الفسطاط ، وتدلّ اليوم على القاهرة العاصمة وعلى وادي النيل كلّهُ .

وفي خصوص وجهة الشاعر عندما لقي حتفه بهذه الصفة الفظيعة ، فإنّ المترجمين لا يتفقون : فهذا مثلاً ابن تغري بردي يقول أنّه دخل الى القاهرة في ركب المعزّ : « . . . إلى أن قتل ببرقة في عوده الى المغرب من مصر ، بعد أن مدح المعزّ العبيديّ بغرر المدائح . وكان عوده الى المغرب لأخذ عياله ، وعوده بهم إلى مصر . وكان موته في رجب »⁽²⁾ . ولكن سبق للمؤرّخ المصري أن قال قبل هذا ان المعزّ دخل القاهرة يوم 8 رمضان ، فلم ينتبه إلى هذا الخلف : أن يعود الشاعر من القاهرة في رجب ، والخليفة لمّا يصلها بعد .

(1) انظر فصلي « برقة » و « بنغازي » بدائرة المعارف الإسلاميّة ، الطبعة الجديدة .

(2) النجوم الزاهرة ، ج . 4 ، ص . 67 .

لكننا لا نرفض مبدئياً هذا الخبر ، إذ نجد في إحدى مقطوعات مخطوط تونس 1 المجهولة ، ما قد يَدَعُمُهُ . تقول مقدّمة القطعة : « وقال أوّل دخوله مصر . . . »⁽¹⁾ . فهل يعني دخول مصر « الإقليم » أم دخول مصر العاصمة ؟ فإذا كان المعنى هو الإقليم المصري ، فقد نفهم من التوثقة أنّ الشاعر اجتاز الحدود - أو ما يُعتبر حدّاً - بين برقة ومصر مع الخليفة ثمّ قفل راجعاً الى برقة في طريق العودة الى افريقية أو الزاب . فتبطل بذلك امكانية اقامته بالقاهرة ، ولو لمدة يوم واحد ، لأنها لا تتفق مع دخول المعزّ إليها في رمضان ومقتله هو في رجب ببرقة . ولا شكّ أن الأمر يتّضح بصورة أو بأخرى لو علمنا بالتدقيق تاريخ مغادرة المعزّ لبرقة .

أمّا الأبيات التي تلي هذه الإشارة الى دخوله مصر ، فيقول فيها :
[متقارب]

- | | |
|-----------------------------------|------------------------------------|
| 1 أقولُ لذي قامَةٍ كالقُضيبِ | وَحَضِرَ تبارك من خَصَرَةٍ |
| 2 ووجهٍ يباري سَنَاهُ المُدَامِ | يُصَبُّ من الكوب في القَبْرَةِ (؟) |
| 3 ألا فاغضُضِ الطرف يا ذا الفتى | فللهِ طرفُكَ ما أَسْحَرَهُ! |
| 4 لقد لعبت بي صروف الزمان | كلعب الفتى والفتى بالكُرَةِ |
| 5 وطُيرتُ شرقاً إلى غَرْبِهَا | كطير العواصف بالزنبرة |
| 6 ويُعجبني أنني شاعرٌ | وقولُ البريّة ما أشعره! |
| 7 ولو رهئُوني وكتّبي معاً | مع الشعر والظرف والمِجْبَرَةِ |
| 8 على قُوت يومٍ لَرَدُّوا الرهانَ | وأرَمُوا الى فضةٍ مُحَضَّرَةِ |
| 9 حرامٌ حرامٌ زمانُ الفقيرِ | حرام حرامه ما أقذره |
| 10 إذا كان عيش الفتى ضيقاً | فخيرٌ من العيشَةِ المَقْبَرَةِ |

الأبيات الثلاثة الأولى نسيب عاديّ على طريقة ابن هانئ في الصنعة

(1) الحوَلِيَّات ، 1972 ، ص. 85 .

والتكلّف . أما السبعة الباقية فأمرها غريب لأنّها أولاً تشكو الفقر بل الفاقة وفقدان القوت اليوميّ . وهذا عجيب في خصوص الشاعر الرسميّ للدولة أصبحت تملك الغرب والشرق معاً: فمن أين يأتيه الفقر في هذا العزّ وهذه الأبهة الملكيّة ، وهو في ركب المعزّ ؟

ثمّ لأنّ الشاعر يصف عبث الزمان به فيقول إنّ الصروف تطيّره « شرقاً إلى غربها » ، فهذا الاتجاه غريب إذ من المتوقع ، وهو داخل الى مصر من برقة ، أن يقول ، ان صحّ أن الزمان عبث به ، « غرباً إلى شرقها » . وفي البيت الرابع ، يشبّه نفسه بالكرة التي يتقاذفها الصبيان ، ونحن نستغرب مثل هذا التشبيه لأنّه لا مثيل له في شعره الآخر ، وان كنا نعرف أن القدماء عرفوا الكرة وشبّوها بلبعتها⁽¹⁾ . وأخيراً نتعجّب من انتقاله المفاجيء من النسيب التقليديّ الى شكوى الزمان .

فلهذه الأسباب كنّا محمولين على اعتبارها منحولة الى ابن هانيء ، أو منسوبة إليه خطأً ، فقلنا : لعلّ صاحبها هو ابن هانيء « الحفيد » ، وهو شاعر مصريّ عاش في القرن السادس / الثاني عشر ، وذكره العماد الأصفهاني في خريدته وسماه الحفيد لأنه يصعد في نسبه إلى صاحبنا . وكنّا نرفضها بالرغم من ورودها في نسخة تونس 1 - ونعلم قيمة هذه المخطوطة وانفرادها بشعر له كثير - لولا ان وجدنا في نفع الطيب⁽²⁾ اشارة تدعّم نسبتها الى شاعرنا : وفحوى هذه الحكاية الطريفة أن ملك السهلة ابن رزين الأندلسي⁽³⁾ كان يستمع إلى قراءة من ديوان ابن هانيء ، وكان قارئه جاهلاً بالشعر ، فُتغّر في قراءة أحد الأبيات وتلعثم بصورة جعلت الحاضرين يضحكون منه . وهذا

(1) انظر بيت المسيّب بن علس في المفضليّة رقم 11 في وصف سرعة ناقته :

مَرِحَتْ يَدَاهَا لِلثَّجَاءِ كَأَنَّمَا تَكْسِرُو بِكَفِّي لَاعِبٍ فِي صَاعٍ

(2) طبعة بيروت ، ج 3 ص . 407 ، حكاية رقم 198 .

(3) عن ملوك السهلة بني رزين ، انظر : ابن الأبار : الحلة ، ج . 2 ، ترجمة رقم 129 . وهـ .

بيريس : الشعر الأندلسي ... الفهرس .

البيت هو التاسع من المقطوعة ، ولم يذكر منه المقرَّب إلا الشطر الأوَّل : حرام
حرام زمان الفقير . . .

فهل يعني هذا أن المقطوعة لابن هانيء حقاً ؟ لا شك أن وجودها ضمن
الديوان في القرن الخامس / الحادي عشر يبعث على التريث في اتهامها .
فلنقل حيثُذ أنها من شعر ابن هانيء ، ولكنها لم تنظم في مصر كما تدَّعيه
مقدِّمتها ، بل في أوائل قدومه إلى المغرب ، أوروبَّما حتى في الفترة الأندلسية
من حياته : فأبياتها أردأ مبني ومعنى من أن تكون ثمرة كهولته . وحتى ان قبلنا
نسبتها إليه ، فإن البيت الخامس في خلطه بين الشرق والمغرب يقف عرضةً
في سبيل فهم صحيح وتفسير مقنع .

وبعد هذا ، يمكن أيضاً أن نعتبرها قطعة موضوعة ، من جنس الأبيات
السخيفة التي نسبت إليه إبان دخوله على جعفر بن حمدون وأثناء لقائه المزعوم
مع المتنبِّي بالقرب من مدينة قابس : ولا غرابة أن تكون صورة الشاعر الشيعي
قد بدأت تشوّه عند الرواة السنيين وتتخذ أخباره صبغة الفكاهة بسبب انتسابه
إلى الدعوة الممقوتة .

ونعود إلى أقوال المترجمين في نوايا الشاعر ، واتجاهه : يقول ابن
الخطيب ومن بعده ، ابن العماد ، أن ابن هانيء ، عند مقتله ، كان راجعاً من
افريقية ، بعد ان رافق المعزّ حتى برقة . وهذا رأي لا يقبل كذلك لأن الشاعر
حلَّ ببرقة معُ الخليفة في رجب ، فما كان ليترك ركبهُ قبل أن يرحل عنها إلى
القاهرة . وحتى ان فعل ، فإنَّ الوقت أقصر من أن يسمح له بالرجوع إلى
افريقية وجمع ماله وأخذ عياله والوصول من جديد إلى برقة قبل التاريخ
المشؤوم : 23 رجب . فالثلاثة وعشرون يوماً لا تكفي لقطع هذه المسافة ذهاباً
وإياباً ، وقد قطعها المعزّ في أربعة أشهر ، إذ انطلق من سردانية في صفر ،
فوصل إلى برقة في رجب . وقبله ، كان جيش جوهر بقي خمسة أشهر في
طريقه من المنصورة إلى الفسطاط : من منتصف ربيع الأول 358 إلى منتصف

رمضان⁽¹⁾ . فحتى ان طرحنا مدّة السير من برقة إلى الفسطاط ، واعتبرنا أن الجيش الفاتح لم يكن يجذّ السير ، فإنّ الوصول إلى برقة لا يكون في أقلّ من أربعة أشهر . وعلى كل حال ، فإنّ الرحالة القدماء يقدّرون هذه المسافة بأربعين مرحلة على الأقلّ⁽²⁾ .

فلذلك يتعيّن أن نأخذ برأي ابن خلّكان ، الذي يتّفق خبر ابن شدّاد بعض التنقيح : فقد قال صاحب تاريخ القيروان أنّ الشاعر قتل وهو لا يزال في حاشية المعزّ ببرقة . أما صاحب الوفيات ، فيرى أنّه لقي حتفه بعد أن ودّع المعزّ ، أي بعد أن استأنف الخليفة طريقه نحو الاسكندرية . وهذا ما شعرنا به أيضاً قصيدته الأخيرة التي أرسلها الى المعزّ بعد توديعه ، ولا شكّ أنها بلغت الخليفة بعد مقتل الشاعر ، وفيها يعتذر على تركه الركب للرجوع إلى الزاب بسبب العيال ، ويتعهد بالحقاق به في أقرب الأجل لاستئناف الأشادة بخصال الإمام : [طويل]

186/4: ولولا فطين في قصي من السوى	لما كان لي في الزاب من ملوم
187 وفي ذملان العيس كلنا ماري	إذا أزلت بي من أمون وعيهم
188 فمنها اذا عدتك شيعه رحلي	ومنها إذا أمتك شيعه مقدي
192 ... وعندي ، على بُعد المزار ونأيه	قصائد تترى كالجمان المنظم

ولكن الأقدار حالت دون الشاعر والخليفة ، وأبت عليه أن يحقق وعده : فلا هو التحق بعدها بالمعزّ ولا قصائده .

(1) المقرئزي ، اتعاط ، ص. 139 .

(2) الاصطخري : المسالك ، ص. 37 .

الإشارات التاريخية في الديوان

نريد في هذا الفصل والفصل الذي يليه ، أن نتناول قصائد ابن هانيء بالتحليل والدرس فنستخرج منها ما يمكن استخراجه من معلومات ، خاصة أو عامة ، وارشادات تاريخية أو حضارية ، تهّم الفترة التي خدم فيها الشاعر المعزّ لدين الله الفاطمي . وقد سبق أن قمنا باستقراء مماثل في الفصل السابق ، إلا أننا ركّزناه على المعلومات التي تبرز أهم أحداث حياة ابن هانيء . ولذلك نهتمّ الآن خاصة بالإشارات المتعلقة بحياة الخليفة مثلاً ، في سياسته وحروبه وما وقع في مدّته ، من وقائع هامة أو بسيطة ، بالقدر الذي يسمح به فهمنا للشعر وإمكانية ربطه بما أثبتّه التاريخ .

وفي مرحلة ثانية ، نقوم بنفس الاستقراء في خصوص القصائد السابقة للمدائح المعزّيات . وقد سمحنا لنفسنا بهذه المخالفة للترتيب الزمني ، فاهتممنا أولاً بالقصائد الإفريقية ، وذلك لما تمتاز به مدائح المعزّ من إمكانيات الاستثمار بالمقارنة مع بقية القصائد ، بما فيها مدائح بني حمدون .

الحياة بالبلاط المعزّي

تساءلنا ، في الفصول السابقة ، عن حقيقة علاقة الشاعر بالخليفة ، وشككنا في أن يكون ملازماً للبلاط ، وشككنا حتى في وجود بلاط بالصورة

المعهودة ، أي صورة مجلس يعقده الملك أو الأمير في قصره ، ويختلف اليه جمع من خاصّة دولته وشعرائه وعلمائه ، ويتوزّع الاهتمام فيه بين إنشاد الشعر ، وسماع الغناء ، ومناقشة المسائل العلميّة ، وحتى قضاء الوقت في الطرائف والملح ، وتكثر فيه من ناحية أخرى المنافسات والتحاسد ويسعى كل واحد لكسب الحظوة على حساب غيره ثم المحافظة عليها والاحتياط من الخصوم والحساد .

والقصائد المعزّية لا تفيدنا في هذا الصدد بمعلومات كثيرة ، لا عن الحياة العامّة بالمنصوريّة ولا عن الحياة الداخليّة بالقصر . وليس هذا السكوت ذنب الشاعر وحده ، فحتى سيرة الأستاذ جوذر ، وكتاب المجالس والمسائرات للقاضي النعمان لا تفيدنا بشيء شاف كاف ، فصرنا نميلُ إلى الاعتقاد بأنّه لم تكن بالمنصوريّة حياة بلاط ، وأن القصر لم يكن يضمّ غير أهله ، وربّما علّنا هذا الانغلاق برغبة الخلفاء الفاطميّين الشديدة في أن لا يُعطوا لرعاياهم من حياتهم الخاصّة إلّا صورة الجذّ والوقار ، بله التقشف والتبتّل ، تلك الصورة التي يقدّمها لنا المقرئ من المعزّ وهو يستقبل جمعاً من أنصاره الكتاميّين : يَفْعُ الاستقبال في غرفة عارية ، يضيئها قنديل ضئيل ، ولا أثاث لها إلا البُسط مطروحة على الأرض ومكتب صغير يجلس الخليفة وراءه في جبة عاديّة ، وعلى المكتب كتب وسجّلات غَطَّتْهُ حتّى تبعثرت على أرض الغرفة . فلا يشكّ الناظر في أنّ المعزّ لا همّ له إلّا النظر في شؤون الدولة والدعوة ، يقضي في معالجتها الليل والنهار ، وربّما ساعدته على ذلك زوجته ، فهي معه بالغرفة ولكنها قعدت وراء حجاب عند دخول الكتاميّين . ويتوجّه الخليفة الى أنصاره بكلام بليغ ، فيحذّره من اتّباع الشهوات ، ولا سيّما شهوة الجسد ، ويحثّهم على الاكتفاء بزوجته واحدة حتى يحافظوا على طهارة النسب الذي منه انحدرت سلالتهم ، وتسلمّ جسومهم من الأمراض والأدواء . ويُفهم من كلامه ، وكلّه بمسمع من زوجته ، أنّه يربط سلامتهم الجسديّة والأخلاقيّة بغايات الدولة القريبة في مصر ومقاصدها العسكريّة في الشرق ، فإذا انحلت

أخلاقهم بكثرة التسرّي واختلط الدم في أولادهم وأحفادهم ، وسكنوا إلى الحياة اللينة وركنوا إلى الدعة والأمن ، انخرمت قوّتهم الحربيّة وضعفت عصبيّتهم، وقلّ غناؤهم في تحقيق مآرب الأئمة ، ذلك ما يصرّح به لهم : « ... والزموا الواحدة التي تكون لكم ، ولا تشروهوا الى التكاثر منهن ، والرغبة فيهنّ ، فيتنصّص عيشكم، وتعود المضرة عليكم ، وتنهكوا أبدانكم ، وتذهب قوّتكم ، وتضعف نحايزكم (طبائكم وأصولكم) . فحسب الرجل الواحد الواحدة ! ونحن محتاجون إلى نصرتكم بأبدانكم وعقولكم ، واعلموا أنكم اذا لزمتم ما أمركم به ، رجوت أن يقرب الله علينا أمر المشرق كما قرب أمر المغرب بكم »⁽¹⁾ .

ونحن ، اذ نتبسّط في مظاهر التقشف الفاطميّ بافريقيّة ، لا نزعّم أن الخلفاء كانوا يقضون كامل أوقاتهم على هذه الشاكلة التي وصفها المقرئ بل نجد في مدائح الشاعر ، شيئاً من الوصف للاحتفالات والمواكب التي يبرز فيها المعزّ إلى الناس، في أبهة وبهجة ، تحفّ به الخيل المطهّمة ويعلمو رأسه التاج المرصّع ومن فوقه المظلة الفاطميّة يرفعها الحاجب المكلف بها لبقّي الخليفة من حرّ الشمس . وهي مواكب الأعياد والجُمع ، بين القصر والمسجد . ولكنّ الغريب أن المؤرّخين ، الفاطميّين وغير الفاطميّين ، لم يصفوا هذه المواكب ، حتى القاضي النعمان ، لم يبسط في كتاب « دعائم الإسلام » ، وهو حصيلة الفقه الفاطميّ ، مراسم الاحتفالات الفاطميّة الخاصّة بالفترة الافريقيّة ، ولا حتّى الاحتفال بذكرى غدیر خمّ يوم 18 ذي الحجة ، وهو عيد سيصبح له شأن عظيم في الفترة المصريّة . فالمظنون عندنا أنّ سكوت الرواة عن مظاهر الحياة الخاصّة وحتى العامّة ، يُبرّر كما قلنا بانعدام الظواهر التي تدعو إلى الوصف والتبسّط ، فلا شك أنّ الأئمة الأربعة ، وهم مُنشِؤو الدولة وموطّدو أركانها لم يكن لهم من الفراغ والدعة ما يدعوهوم إلى إنشاء البلاط العامر وفتح المجالس الزاخرة : فأنّى للقائم أو المنصور أو المعزّ

(1) انظر النصّ كاملاً في ص. 137 من اتعاظ الحنفاء .

أن يجمعوا الشعراء أو يسمعوا المغنّين ، وهم دوماً بين حملة بيزنطية وتسرب أمويّ وقتنة خارجيّة ؟

ولا ننسى بعد هذا ، أنهم كانوا محاطين بكرهه أهل افريقية لهم ، أو على الأقلّ بالاحتراز والتحفظ ، إذ رفض أهل القيروان ادّعاءاتهم في الولاية على كافّة المسلمين ، وتحويراتهم لطقوس الدين ، فاعتبروهم مارقين عن السنة والجماعة ، دخلاء على المغرب وعاداته ، فأطلقوا عليهم اسم « المشاركة » تحفظاً وربّما أزدراءً . وفي هذا الصدد ، نجد في كتب الصالحين والزهاد ، كرياض النفوس للمالكي (1061/453) ومعالم الايمان للدّبّاغ (1297/696) ، أمثلة كثيرة من مقاومة القيروانيين ، السلبية أو الفعلية للنفوذ الفاطميّ وطقوسهم المستحدثة بالأرض التي طبعها سحنون (954/240) بصلايته ورباطة جأشه .

فمن المقاومة بالرفّض ، امتناع المؤذن القيرواني « عروس » عن النداء بعبارة « حيّ على خير العمل » التي يتضمّنُها الأذان الشيعيّ ، فيقول المالكي : « ... » وفيها (في سنة 919/307) قُتل عروس المؤذن الرجل الصالح . كان رضي الله عنه يؤذّن بمسجد عبّاس صاحب سحنون ، وكان اسمه منيب ، وسبب قتله أنّه شهد بعض المشاركة أنّه لم يقل في أذانه : حيّ على خير العمل . فقطّعت لسانه وقُتل بالرماح بعد أن طيف به بالقيروان ، ولسانه بين عينيه . . . »⁽¹⁾ .

وكذلك تمسّك الفقهاء في تقدير موعد الصوم والإفطار برؤية الأهلة ، ورفضهم للطريقة الحسابية التي عمل بها الفاطميّون ، رغم أنها أضمنّ للتقدير الصحيح وأنفى للخطأ الناتج عن تعذّر الرؤية ، مثلما يؤكّده الداعي علم الإسلام صاحب المجالس المستنصرية : « ... دخول الصوم والخروج منه (يكونان) بالرؤية والحساب جميعاً ، إنّهما كالظاهر والباطن ، إذا أشكل الأمر

(1) رياض النفوس ، مخطوط القاهرة رقم 116 ، ورقة 72 أ ، وج 152/2 من طبعة البكوش ، دار الغرب الإسلامي .

في أحدهما التمس في الآخر . . . فالهلال كالظاهر لأنه مشاهد ، والحساب كالباطن لأنه معقول . . . فان وافق الحساب الرؤية فقد اتفق الظاهر والباطن ، وزال الاشكال . . . وان وفى الحساب ، ولم يطلع الهلال علم أنه قد غم أو وقع في نظره إخلال . . . »⁽¹⁾ . ويؤكد ذلك الداعي هبة الله الشيرازي في « المجالس المؤيدية ، بالحجج العقلية والنقلية » ، فمن النقلية والعقلية معاً تأويله الآية ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ . . . ﴾ بأن الله يشير إلى النصارى ، والنصارى لم يكن صومهم متعلقاً بالرؤية بل بالحساب⁽²⁾ .

ولكن الفقهاء تمسكوا بالرؤية فتمرضوا للنقمة والانتقام ، فيروي لنا المالكي في كثير من الاستفتاءات ما نزل بأحدهم :
« وفيها (سنة 341) صُلب محمد بن الجبلي قاضي مدينة برقة .
والسبب في ذلك أنه أتاه عامل برقة المعروف بابن كافي فقال له : ان غدا العيد . فقال له : إن رؤي الهلال الليلة ، كان ما قلت ، وان لم ير ، لم أفرخ لأنه لا يمكنني أن أفطر الناس في يوم من رمضان وأتقّذ ذنوب الخلق . فقال له : بهذا وصل كتاب مولانا . فالتمس الناس الهلال تلك الليلة فلم يروه . فأصبح العامل إلى القاضي بالطبول والبندود وهيئة العيد . فقال له : لا والله لا أخرج ولا أخطب ولا أصلي ولا أفطر الناس في يوم من رمضان ولو عُلق بيدي . فمضى العامل فجعل من خطب وصلى ، وكتب بما جرى الى مولاه . . . (فاستقدمه الى القيروان) فنصب له صارياً عند الباب الآخر من أبواب الجامع الذي يلي درب المهر وعُلق بيده إليه في الشمس ، فأقام كذلك صاحياً في شدة الحر يومه ذلك . فلما كان بالعشي مات رحمه الله . وكان يطلب من يسقيه الماء في ذلك الحال ، فلا يجسر أحد من الناس (على)

(1) المجالس المستنصرية نشر محمد كامل حسين ، ص 128-129 من المتن وص . 216 من التعليقات .

(2) البقرة ، 183 . وانظر ما يقوله محمد حسن الأعظمي في كتابه : « الحقائق الخفية . . . » الرؤية والحساب ، وتعليل صوم رمضان كاملاً ، وكذلك عن التقيوم « المصري » الفاطمي .

سقيهِ . . . ثُمَّ صلبوه على خشبة بباب أبي الربيع رحمه الله» (1).

أما المقاومة بالتحرك ، فظهر في إفتائهم بشرعية الانضمام الى ثورة أبي يزيد على الحكم المشرقي « فقتال هؤلاء القوم أفضل من قتال المشركين » ويمضي المالكي في سرد كرامات أبي الفضل الممسي الفقيه فينقل لنا فتواه في وجوب الخروج مع أبي يزيد « لأن الخوارج من أهل القبلة لا يزول عنهم اسم الإسلام ، ولو زنوا وسرقوا ، وبنو عبيد ليسوا كذلك ، لأنهم مجوس زال عنهم اسم المسلمين فلا تتوارثوا معهم ولا تنتسبوا . . . » (2).

وفعلاً حمل كثير من صلحاء القيروان السلاح مع الخوارج ، فاختاروا بين الشرين أخفهما ، راجين من الله أن يُظهرهم على المشاركة أولاً ، ثم أن يسلط على أبي يزيد من يقهره بدوره . هذه هي السياسة التي صرح بها أبو إسحاق السبائي عند خروجه إلى الوادي المالح حيث سيستشهد مع أربعة وثمانين من أهل القيروان : « . . . فعلياً أن نخرج مع هذا الذي من أهل القبلة لقتال من على غير القبلة ، وهم بنو عدو الله . فان ظفرنا بهم لم ندخل تحت طاعة أبي يزيد لأنه خارجي ، والله عز وجل يسلط عليه إماماً عادلاً فيُخرجه من بين أظهرنا ويقطع أمره عنا » (3).

وقد حفظ المنصور ثم المعز على أهل القيروان خذلانهم وتحالفهم مع صاحب الحمار ، بل من الدارسين من يعزو انتقال المعز إلى القاهرة ، إلى هذه العداوة الدائمة بين القيروان والدولة الشيعية . وفي هذا التعليل شيء من الصحة ، وإن كان السبب الرئيسي في نظرنا هو عزم المعز على الاستيلاء على الشرق العباسي . ولكن لا نشك في أنه كان يضيق بتحفظ القيروانيين ، فلم يكن هذا الجو ملائماً لازدهار حياة البلاط ولا للإكثار من مظاهر الأبهة والسؤدد

(1) رياض النفوس ، ورقة 192 ب ج 404/2 من طبعة البكوش دار الغرب الإسلامي .

(2) نفس المرجع ، 297/2 .

(3) نفس المرجع ، 339/2 .

إزاء الرعيّة ، لا سيّما وأنّ الدعوة الفاطميّة أتت مستنكرة للترف العبّاسيّ عازمة على إبطال اللهو والانحلال وتعويضه ببساطة السلف الصالح والصدر الأوّل .
فلذلك لا نجد صدى للآبهة الملكيّة في فترتهم المغربيّة . أمّا في مصر ، فقد لان لهم القياد ، واتّسع سلطانهم ، ونقص زهدهم ، فلذلك تَبَسَّطوا في المراسم الملوكيّة وحياة البلاط وتفخيم الموابك والاحتفالات⁽¹⁾ .

ولئن تعرّض الشاعر الى بعض هذه المظاهر من الحياة العامّة ، فإنّه يحيطها بضبابٍ من الإبهام لا يَسمح قطُّ بوضعها في إطار جغرافي وتاريخيّ معيّن ، فلا آسم المدن يدقّقه ، لا القيروان ولا المنصوريّة ولا المهديّة ، ولا برقة التي مدح صاحبها ، ولا حتى المسيلة التي قضى بها خمس سنوات .

فإذا استثنينا الزاب والمغرب الأقصى اللذين يذكّرنا أحياناً ، وجبال الأوراس التي ذكرت مرّة واحدة ، واعتبرنا في الجانب المقابل إفراطه في التمثيل بجبال جزيرة العرب ، وقرى الحجاز وأودية نجد ، حُقّ لنا أن نتساءل : هل كان صاحب الديوان مغربيّاً إفريقيّاً ؟

وكذلك الأمر في خصوص الأشخاص ، فإنّه لا يذكر إلا الممدوحين المعروفين كالمعزّ وبني حمدون وأفلح الناشب وجوهر . أمّا الآخرون ، من كبار رجال الدولة كالقاضي النعمان ، وجوذر الحاجب ، وأمراء صقلية الكلبيين ، وخصوصاً الأمراء الصنهاجيين البرابرة ، فلا يذكر اسمهم ولو مرّة واحدة ، لا تصرّيحاً في القصائد ولا تلميحاً في توطئاتها . وقد فسّرنا إعراضه عن رؤساء صنهاجة بأحد أمرين : إمّا تَبَيّنه لعداوة بني حمدون لهم ، وأمّا نَحْوُهُ العربيّة اليمنيّة التي تحمله على احتقار العنصر البربريّ مهما علت مكانته ، مثلما يدفعه تعصُّبه للتقاليد العربيّة في الشعر إلى أن لا يشبه بناءً شامخاً إلا برضوى وككبك وحصناً منيعاً إلا بالأبلق . ولعلّه بعد هذا كان متأثراً

(1) ما . كاتار : المراسم الفاطميّة ص . 417 .

هو أيضاً بجو الضيق والفتور الذي يميّز العلاقة بين الخليفة ورعاياه⁽¹⁾ .

ولنتظر على كل حال في هذه الاشارات ، مهما كان غموضها وقلة غنائها .

الاحتفالات العمومية وظهور الخليفة فيها

يشير الشاعر مثلاً إلى الاحتفالات الخاصة بشهر رمضان ، ولكن بدون تفصيل : [كامل]

92/1 يفديك شهرُ صيامنا وقيامنا ثم الشهورُ له بذاك فداء

ونجد اشارة مماثلة الى شهر الصيام في القصيدة الاولى التي أنشدها أمام المعز ، ولعلّ لقاءها كان فعلاً في رمضان : [كامل]

82/53 قرصانٍ من صومٍ وشكرٍ خليفة هذا بهذا عنَدنا مَقْرُونُ

وفي قصائد أخرى ، نجد إشارة الى عيد الفطر كأنّ للعيد موكباً يتضمّن فيما يتضمّن إنشاداً للشعر : [خفيف]

25/35 لَيْسَ الْعِيدُ مِنْهُ مَا يَلْبَسُ الْإِيْمَانُ مِنْ نَضْلِ سَيْفِهِ الْبَرّاقِ

26 وَجَلَّ الْفِطْرُ مِنْهُ عَنْ نَبْرِي أَبْيَضِ الْوَجْهِ أَبْيَضِ الْأَخْلَاقِ

وكذلك عيد الإضحى فرصة لمدح الخليفة ووصف الاحتفال الرسمي الذي يحضره المعز مع بطانته : [كامل]

22/41 فِي مَوْسِمِ التَّخْرِ السَّيِّعِ يَرُوقُنِي فَأَغْضُ طَرْفاً عَنْ سَنَاءِ كَلِيلَا

23 وَالْجَوُّ يَعْثُرُ بِالْأَسْتَةِ وَالطَّبِي وَالْأَرْضُ وَاجِفَةٌ تَمِيلُ مَمِيلَا

24 وَالْخَافِقَاتُ عَلَى الْوَشِيحِ كَأَنَّمَا حَاوَلْنَ عِنْدَ الْمُعْصِرَاتِ دُحُولاً⁽²⁾

(1) ما . كانار : حياة . . . ص . 14-15 .

(2) السنيع : الجميل اللطيف ، والظي : السيوف . والوشيح : قضبان الرماح . والمعصرات : السحب . والدحل : الثأر .

المظلة

هذه المظلة الممتدة الأطراف ، التي تصاحب الخليفة في كل تنقلاته الرسمية وكأنها من لوازم الملك كالتاج والصولجان عند غيره ، يصفها ابن هانئ في شيء من التبسط ، فيشبهها في امتدادها وسعة دائرتها بالسحابة ، ولعله يلمح إلى الغمامة التي ورد في السيرة النبوية أنها كانت تلازم محمداً (صلى الله عليه وسلم) في أسفاره : [خفيف]

30/35 وَغَمَامٍ فِي ظِلِّ الْوَيْةِ النَّضْرِ ، فِيمَنْ رَاجِفٍ وَمِنْ خُفَاقِ

هذه الغمامة منسوجة من الذهب بخيوط مضاعفة ، مرصعة بالجواهر ، تشبه في علوها القباب التي تُصَب على الطعائن فوق مطابهن : [كامل]

27/41 وَعَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ غَمَامَةٌ نَشَأَتْ تُظِلُّ تَاجَهُ تَظْلِيلًا

28 نَهَضَتْ بِثِقَلِ الدَّرِّ ضَوْعَفَ نَسْجُهَا فَجَرَتْ عَلَيْهِ عَسْجَدًا مَحْلُولًا

32 ... رُفِعَتْ لَهُ فِيهَا قَبَابٌ لَمْ تَكُنْ ظُفْعًا بِأَجْرَاعِ الْجَمَى وَحُمُولًا

وعليها نقشت صور حمام في أيكته ، فكلما تحركت أضلاع المظلة خفقت أجنحة بنات الهديل كأنها تستعد للانطلاق في الجو :

33 أَيْكِيَةُ الذَّهَبِ الْمُرْصَعِ رَفَرَتْ فِيهَا حَمَامٌ مَا دَعَوْنَ هَدِيلًا

34 وَتُبَاشِرُ الْفَلَكَ الْأَيْسَرُ كَأَنَّمَا تَبْنِي بِهِنَّ إِلَى السَّمَاءِ رَحِيلًا

الخيل

للشاعر اهتمام خاص بالخيل ، لأن الخليفة حسب زعمه ، مَيَّال إليها عطوف عليها ، عليم بأنواعها وشياتها . فكثيراً ما يلجأ إلى تشبيه أفراس المعز بالغواني الحسان : [كامل]

39/41 وَكَأَنَّمَا الْجُرْدُ الْجَنَائِبُ خُرَّدٌ سَفَرَتْ تَشْوَقُ مُتِمِّمًا مُتَبَوِّلاً

ويشيد بمحبة الخليفة للخيـل ، فهو الذي يتخيـر لكل فرس اسماً أو لقباً ، وبيني له مقصورةً شبيهة بالقصر في العلـو : [مقارب]

32/58 وَلَمَّا تَخَيَّرَ أَنْسَابَهَا تَخَيَّرَ أَسْمَاءَهَا وَالْكُئْيَ
33 وَلَيْسَ لَهَا مِنْ مَقَاصِيرِهِ سَوَى الْأُطْمِ الشَّاهِقِ الْمُبْتَنَى

ولا بدع أن يكون الخليفة شديد الشغف بالخيـل ، وبالتالي أن يتوسـع ابن هانئ في وصفها والإشادة بها : أليست هي دواب الحرب قبل غيرها ؟
فلذلك نراه يصفها أيضاً في حالة الشدة والجهاد : [طويل]

30/37 لَهُ الْمُقَرَّبَاتُ الْجُرْدُ يُنْعِلُهَا دَمًا إِذَا قَرَعَتْ هَامَ الْكُمَاةِ السَّنَابِكُ
31 يُرِيْقُ عَلَيْهَا اللَّؤْلُؤُ الرُّطْبُ مَاءَهُ وَيَسْكُبُ فِيهَا ذَائِبُ التَّبَرِّ سَابِكُ

ولا شك أن محبة الشاعر لها ليست وليدة عطف الخليفة عليها : فهو يحبها لذاتها محبة صادقة ولا يتزلف إلى المعز بوصفها ، ودلينا على ذلك أنه خصص لها أربعين بيتاً من القصيدة 23 التي وصف فيها هدايا جوهر الى المعز من مصر . تضمنت الهدية مجموعة من عتاق الخيل ، فأخذ الشاعر في تعداد محاسنها ، وتدقيق ألوانها ، وتفنن في اختيار اللفظ والصورة حتى برز المشهد تحفة فنية رائعة . وسنعود الى هذا الوصف حين ندرس فن ابن هانئ ، وبالخصوص تأثير المراثيات في أفقه الشعري .

السيف ذو الفقار

في هذه المواكب يتقلد الخليفة سيفه ، ويدعوه الشاعر « ذا الفقار » مسaireً للاعتقاد الشيعي في أن سيف الأئمة انما هو سيف الرسول (صلى الله عليه وسلم) الذي « لم يضرب به غير رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وعلي

وصيه ، بإعطائه إياه له ، فلم يُعطِه أحدًا قطُ غيرَه ⁽¹⁾ . وقد اغتصبه العباسيون فاسترجعه أبناء فاطمة في ظروف عجيبة رواها لنا القاضي النعمان . ثم توارثه الأئمة أباً عن جدٍ يخرجون به إلى الأعداء فيهزمونهم ، ولا سيما المنصور في وقعة « الخصوص » أو « الحريق » ضدَّ صاحب الحمار . يصف النعمان بطولات السيف وجهاد المنصور فيقول على لسان أحد الشهود : « وكان يوماً شديداً ، وقد أخذ العدو علينا مضايق الجبال ، وأحدقوا بنا من كلِّ جانب ، وهو (المنصور) بيننا صلى الله عليه وآله ، يقدُّمنا ، وهذا السيفُ في يده وقد انتضاه ، فاذا رفع يده به وحمل على ناحية من نواحي العدو ، انهزموا بين يديه كأنما غشيتهم صاعقة من السماء » .

فلا غرو أن يكون هذا السيف « على قصره وقلة قدره في العين » عظيم الشأن عند الفاطميين ودعاتهم ، وذلك « لاختصاص الله عز وجل به رسول الله صلى الله عليه وآله ، واختصاص عليٍّ بالكرامة التي أكرمه بها ، والحجة التي اختصه بفضلها ، والعلم الذي أودعه إياه ، لأنَّ السيفَ في الظاهر آلة الغلبة باليد ، والعلم في الباطن آلة الغلبة باللسان والحجة » .

وهكذا صار ذو الفقار ، بانتقاله من الرسول إلى عليٍّ ، رمزاً لانتقال الإمامة الدينية والزمنية ، ووراثه العلم الباطن ، « فاختصَّ عليّاً صلوات الله عليه بما لم يختصَّ به غيره ⁽²⁾ » .

وقد رويَتْ في شأن صنعه الأول أعاجيب أخرى ، ذكر بعضاً منها الأميني في موسوعة الغدير . وكذلك فصلوا مآتيه ومناقبه وبلاءه في بدرٍ حتى أنَّ صوتاً سماوياً - وقيل جبريل نفسه - صرخ :

لا سيف إلا ذو الفقار ، ولا فتى إلا عليٍّ

(1) القاضي النعمان : المجالس والمسائرات 114-115 .

(2) القاضي النعمان : المرجع المذكور .

فصار هذا البيت نشيداً ينشد في الوقائع وشعاراً ينقشه الصياقل على ما يصنعونه من سيوف ، تفاؤلاً وتبركاً⁽¹⁾ .

واكتسب ذو الفقار صفةً قدسيةً لأنه رمز مادي للوصية ، أي لإمامة عليّ ، كما أنّ حديث الغدير هو الإعلان المعنوي عليها ، واقترن اسمه في ذاكرة الشيعة باسم وارثه وصاحبه ، علي بن أبي طالب .

وعلى مرّ الزمان ، انتقل اسم « ذو الفقار » من الحديد إلى البشر ، فصار يطلق على الأشخاص ، خصوصاً عند شيعة القارة الهندية ، كما صار اسم الحسين - الحسن والحسين - يعين الرجل الواحد ، في مصر مثلاً .

ولا يفوت الشاعر أن يشيد بسيف المعزّ ، ويلحّ على كونه موروثاً عن النبي (صلى الله عليه وسلم) : [كامل]

69/41 لك حُسْنُهُ مَقْلُدًا وَبِهَاؤُهُ مُتَّكِبًا ، وَمَضَاؤُهُ مَسْلُولًا
74 ... سَمَاءُ جَدُّكَ ذَا الْفَقَارِ ، وَأَنَا سَمَاءُ مَنْ عَادَيْتَ : عَزْزًا يَلَا

على أنه يطلق اسم ذي الفقار على كل سيف مسلول في خدمة الأئمة ، كما رأينا في مدحه للشيباني⁽²⁾ : [بسيط]

66/60 لِلَّهِ مَا تَنْتَضِي مِنْ ذِي الْفَقَارِ وَمَا تَشُدُّ مِنْ عَضْدِ الرَّأْيِ الْإِمَامِي

التاج

لا يصف ابن هانيء بالتدقيق تاج الخليفة ، وإن كان ذكره غير ما مرّة ، في صورة تشعر بأنه إكليل بارز لامع يرى من بعيد ويبعث مرآه الرعب في قلوب

(1) عبد الرحمان زكي : النقوش الزخرفية والكتابات على السيوف الإسلامية ، صحيفة المعهد الإسلامي بمديرية ، 1957 ، ص 203 .

(2) انظر الفصل الثالث ، ص 98 .

الأعداء من بني أمية : [كامل]

41/9 بُهِتُوا فَهُمْ يَتَوَهَّمُونَكَ بَارِزاً وَالتَّاجَ مُؤْتَلِقاً عَلَيْكَ لَمُوحاً

وبالرغم من أن ابن حمّاد⁽¹⁾ يزعم أنّ المعزّ هو أوّل من تتوّج من ملوك بني عبيد ، فانا نظنّ ، مع ماريوس كانار⁽²⁾ ، أنّه لم يكن تاجاً بالمعنى المعروف ، أي غطاء مصنوعاً من معدن نفيس مرصّع بالحجارة الكريمة ، بل كانت عبارة «التاج» تُطلق على عمامة الخليفة مشدودةً حول الرأس بطريقة خاصّة به . فلو كان تاجاً فخماً ، كما سيصير عند فاطميّ مصر ، لما أغفله الشاعر ولتبسّط في وصفه كما فعل بالمظلة . بل بالعكس نراه يذكره ، في قصيدة أخرى ، بكيفيّة تُشعر بأنها العمامة لا غير : ذلك أنّ الخليفة ، حين بلغه انتصار أسطوله ، قبل الأرض سجوداً لله وحمداً ، فتعفّر وجهه و«النظم والإكليل» ، أي نظام العمامة وكيفيّة شدّها : [كامل]

13/40 ... وَسُجُودَهُ حَتَّى التَّقَى عَفْرَ الثَّرَى وَجَبِيئُهُ وَالنُّظْمُ وَالْإِكْلِيلُ

فلا شكّ أنهم اصطالحوا على عمامة الخليفة فسمّوها تاجاً نظراً لامتيازها بلون خاصّ وقماش خاصّ ، وربّما لترصيعها فيما بعد بالجواهر . وكذلك اصطالحوا على العمامة التي اختصّ بها بعض حجاب قصورهم ، فسمّوها الحنك لأنها كانت تدار على الحنك ، وسمّوا صاحبها الأستاذ المُحنك⁽³⁾ .

العرش

تتضمّن المواكب الرسميّة مجلساً عمومياً يظهر الخليفة أثناءه لرعيّته ؛ وقد تبسّط في وصفه مؤرّخو مصر خاصّة ، ممّا يدلّ على أنّه لم يكن بافريقيّة

(1) أخبار بني عبيد 45 . وانظر : صبح الأعشى 468/3 و 480 .

(2) المراسم الفاطميّة ... 390, Cérémonial 392- .

(3) المقرئزي : خطط 67/4 . وانظر : صبح الأعشى 477/3

على نفس الأهمية ؛ وهو يخضع ، حسب ما ورد في وصف المقريري⁽¹⁾ ، لترتيب مضبوط ونظام مقرر يقصد منه بعث الهيبة والخشوع في نفوس العامة : فالخليفة يجلس على عرشه ، دون أن يراه الحاضرون ، فإذا استوى على مقعده في كامل عدته ، جذب الحجاب الستائر كلها دفعة واحدة ، فيبرز الإمام آنذاك لرعاياه المبهورين في عظمتها الكاملة .

يحدثنا الشاعر عن الستائر التي تحجب المعز ثم ترفع سدولها فجأة فتنتطق ، وهي العجماء ، بجلالة الإمام : [كامل]

57/41 وَلَحِظْتُ مَبْرَكَ الْمُعَلَّى رَاجِعاً مِنْ تَحْتِ عَقْدِ الرَّائِثَيْنِ مُهَوَّلاً
58 مُسْدُولٍ سِتْرِ جَلَالَةٍ أَنْطَقَتْهُ فَرَقَعَتْ عَنْ حُكْمِ الْيَانِ سُدُولاً

في الحقيقة ، لا يتحدث عن « عرش » ، بل يذكر « منبر » ، فهل يعني أنّ هذه الجلسات العمومية كانت تقع بالجامع ؟ أم يستعمل عبارة « منبر » في معنى لغويّ بحت ، وهو المقعد والموقف المرتفع شيئاً ما عن الأرض ليسهل على الخطيب إبلاغ صوته ؟ لا ندري ، وإن كانت الأبيات الموالية ترجّح أنّ المقصود هو المسجد الجامع : فالشاعر يشيد بتقوى الإمام وجهاده وعطفه على الحجيج : [كامل]

59/41 وَقَضَيْتُ حَجَّ الْعَامِ مُؤْتَفِئاً ، وَقَدْ وَدَعْتُ عَاماً لِلْجِهَادِ مُحِيلاً

إنّ عبارة الشاعر في هذا البيت شديدة الغموض في الحقيقة : فقول « قضيت حجّ العام » لا يدع في الظاهر مجالاً للشك في أن المعز حجّ إلى مكة ورجع منها بعد إتمام المناسك ، وعبارة « مؤتفئاً » تشعر بأنه قضى هذا الفرض ابتداءً ، أي لأول مرة⁽²⁾ . ولكن ، من جهة أخرى ، لم يذكر المؤرخون قطّ أنّ المعز قد حجّ إلى البيت ، بل يستنتج من كتيب للمقريري عدّد فيه « من

(1) خطط ، 2 / 215- 216 .

(2) التفت الشيء واستأنف : أخذ أوّلَهُ وابتدأهُ (اللسان : أنف) .

حجّ من الخلفاء والملوك»⁽¹⁾ أنّ الخلفاء الفاطميين لم يحجّ منهم أحد ، سواء في الفترة المغربية أو المصرية . ولو كان المعزّ راجعاً من المناسك ، لما اكتفى شاعره بهذه الإشارة الغامضة للإشادة بهذا الفعل المبارك . فماذا يعني إذن ؟

لعلّ الخليفة استقبلَ وفدًا من الحجيج فأغدق عليهم النعم ، أو شفع لهم ، كما يقول الشاعر ، فرفع عنهم مظلمة :

وَشَفَعْتُ فِي وَفْدِ الْحَجِيجِ كَأَنَّمَا نَفَلْتُهُمْ إِخْلَاصَكَ الْمَقْبُولَا 60/41

ولكن ، أي شفاعة وأي مظلمة يعني ، أيقصد القانون الذي كان أصدره المهدي عبيد الله سنة 921/309 موجباً على كلّ من يقصد الحجّ مهما كان منطلقه ، أن يمرّ بالعاصمة (المهدية) ليدفع الضرائب الموظّفة عليه في كل ولاية يمرّ بها ؟ وقد كان هذا القرار ، حسب ما يذكره ابن عذاري⁽²⁾ ، سبباً من أسباب النقمة على العبيديين ، لأنه يضاعف المسافة ويطيل السفر على الحجيج . فهل أبطل المعزّ العملَ به ؟ ولكن ما بال المؤرّخين لا يذكرون له هذه المكرمة ؟

أم هل يشير إلى توسّل والدته المعزّ الى ابنها في أن لا يحرك جيوشه نحو مصر قبل أن تقوم هي بواجب الحجّ ، ثم رغبته اليه أن يؤجّل الحملة الى ما بعد وفاة كافور ، اعترافاً له بما حباها به من حسن القبول عندما مرّت بأرضه في طريقها الى مكّة ؟ لا يسعنا ، في كلّ هذا ، إلّا التساؤل ، نظراً لغموض عبارة الشاعر ، بل ولاستغلاقها لأنها لا تتفق في الحقيقة مع أيّ من هذه الافتراضات .

ومن هذه المكرمات التي صنعها المعزّ بالمسجد ، يذكر الشاعر أيضاً

(1) ص 12 من مقدّمة كتاب « الذهب المسبوك » .

(2) ابن عذاري : بيان . . ج 1 ، ص 186 .

عفوه على « الناكثين » ، ولعلّه يعني بعض الثائرين الذين وقعوا في قبضته :

61/41 وَصَدَرَتْ تَحْجُو الثَّائِكِينَ مَوَاهِباً هَزَّتْ قَزُولاً لِلْسَّمَاحِ فَعُولاً

ولكنّه حسب المألوف ، لا يذكر أسماءهم ، ولا ظروف نكثهم .

مدى حظوة الشاعر لدى المعزّ

نعود الآن إلى البحث عن مرتبة ابن هانئ بين شعراء الدولة ، وذلك على ضوء ما يتقدّم به الى الخليفة من شكاوى وتذمّرات من الحساد ، على غرار ما يشكوه المتنبي في بلاط سيف الدولة .

لا يوضح لنا أسماء هؤلاء الحساد ، ولا سبب حسدهم ، وإنما نفهم أنهم يرمونه بالتزلف الكاذب الى الخليفة طمعاً في عطائه وبذلك الطمع يفسّرون غلوّه في المدح . ويدفع الشاعر التهمة فيؤكد أنه صادق في مدحه لا يحدوه حرص ولا طمع : [طويل]

63/3 أَرَانِي إِذَا مَا قُلْتُ بَيْتاً تَنَكَّرَتْ وَجُوهٌ كَمَا غَشَى الصَّخَائِفَ تَتْرِبُ
64 أَفِي كُلِّ عَصْرِ قُلْتُ فِيهِ قَصِيدَةٌ عَلِيٌّ لِأَهْلِ الْجَهْلِ نَوْمٌ وَتَتْرِبُ؟
65 وَمَا غَاظَ حُسَايَ سِوَى الصِّدْقِ وَحْدَهُ وَمَا مِنْ سَجَايَا مِثْلِي الْإِفْكَ وَالْحُبُوبُ
66 وَمَا قَصَّدَ مِثْلِي فِي الْقَصِيدِ ضَرَاعَةً وَلَا مِنْ خِلَالِي فِيهِ جِرْصٌ وَتَرْغِيبُ

وقد نسبت سعاية من هذا النوع إلى وليّ العهد تميم ، وعُلمت بغيرة الأمير الشاعر من حظوة ابن هانئ عند أبيه . ولكن ، لا يمكن أن نعدّ تيمماً من الطامعين في جوائز الخليفة ، فنحشره في زمرة هؤلاء الحساد الذين يشكوهم ابن هانئ . فالأرجح أنه يتذمّر من بقية شعراء القصر ، وإن كنا نجهل أسماءهم : فهو يحثّ الخليفة على أن يحكم بينه وبينهم حكماً عادلاً ، فيحلّه المحلّ اللائق به وهو محلّ ربّ القريض ، دون أن يطالبه ، مثل المتنبي ، « بكتبهم » لازالة حسدهم :

68/3 أَيْنَ مَوْضِعِي فِيهِمْ لِيَفْخَرَ غَالِبٌ بَيْنَ بَسِيَمَاهُ ، وَيُدْخَرَ مَغْلُوبٌ
69 وَقَدْ أَكْثَرُوا ، فَأَحْكُمَ حُكُومَةً فَيُصَلِّ لِيُعْرِفَ رَبُّ فِي الْقَرِيضِ وَمَرْبُوبُ!

فمن هم هؤلاء الشعراء الذين كالوا له الاتهام في بلاط الخليفة ؟ ان المصادر لا تذكر لنا شيئاً عن هذا التنافس . ولا شك أن الشعراء كانوا كثيرين بالقيروان في مدة المعز ، وأن منهم من تجاسر على مدح الإمام الشيعي بالرغم من استنكار الفقهاء والصلحاء . ولكن لم يصلنا شيء من شعرهم ، إما لأنهم كانوا مغمورين لم تثبت قصائدهم أمام تعاقب الأزمان والعصور ، وإما لأن دواوينهم أُتلفت بعد تراجع بني زيري عن الولاة الفاطمي سنة 1015/407 ورجوعهم الى مذهب السنة . وبقيت لدينا أسماء بدون آثار ، مثل ابن القنار الذي ذكره المالكي⁽¹⁾ ضمن مادحي الأئمة ، وكان معاصراً لشاعر آخر عرف بهجائه لهم ، اسمه سهل بن إبراهيم الوراق⁽²⁾ ، أو ، ان وصلتنا منهم أشعار ، فهي مطهرة من المعاني الاسماعيلية مقتصرة على وصف الخيل أو القصور ، مثل المقطوعات التي احتفظ بها الحصري من شعر علي بن محمد الأيادي وهو شاعر عاصر المعز والتحق به بالقاهرة ومات بعده⁽³⁾ . ولعل موقف هؤلاء الشعراء ازاء الفاطميين كان صورة من موقف أهل القيروان ، في تقسّمهم بين قبول النفوذ الفاطمي ومقاومته .

أما الشعراء الآخرون ، الذين توسّع المالكي ثم الدبّاغ في نقل أخبارهم ، فهم أقرب إلى الفقهاء منهم إلى الشعراء المحترفين فتظهر مشاركتهم في الشعر السياسي المذهبيّ عرضيّة . من هؤلاء ، أبو القاسم الفزاري الذي لم يرو له صاحب الرياض إلا الشعر المناهض للشيعه ،

(1) رياض النفوس 495/2 .

(2) حوليات 1973 ص 142 . وانظر رسالة بويحيى : الحياة الأدبية ... 144 حيث وضع الوراق سهواً في الفترة الصنهاجية .

(3) زهر الأدب / 1003 . وانظر : ح . ح ، عبد الوهاب : الأدب ... 96 وبويحيى : المرجع المذكور 89 . وانظر شعر الإيادي في الحوليات 1972 وكذلك فصل « الإيادي » في ملحق دائرة المعارف الإسلامية .

وبخاصة رثاءه للفقيه الممسي الذي لقي حتفه في صفوف أبي يزيد بوقعة الوادي المالح سنة 944/333 ، ثم مقطوعتين في هجاء العبيدين ، وكأنَّ المالكي أهمل عن قصد « القصيدة الفزارية » التي مدح بها المنصور بعد ظهوره على صاحب الحمار ، ليكفر بدون شك عن هجائه السابق للأئمة⁽¹⁾ . وهي ، على طولها ، لا تتضمن مدحاً كثيراً ، فالقسم الأول منها ، وهو الأطول - 33 بيتاً من 63 - خصَّصه الفزاري لذكر فرسان العرب وكرماتهم وحلمائهم والتذكير بمآثرهم تمهيداً لطلب العفو الذي تقدّم به في القسم الثاني . وقد عفا عنه المنصور حسب ما يرويه المخطوط ، بالرغم من معارضة بعض بطانته ، كمحمد بن عبد الله الأبروطي⁽²⁾ ، وهو شاعر شيعي حاول أن يثني الخليفة عن الصفح ، فذكره بأهاجي الفزاري في آل البيت : [مقارب] أَيْمَشِي الْفَزَارِي فَرَّقَ التُّرَابَ وَأَظْفَارُهُ فَيْكُمُ دَامِيَات ؟ ولكن هذا الشاعر مجهول لدينا ، وكذلك راوي شعره في المخطوط ، وهو ينقل عن مؤرّخ يدعى العتقي⁽³⁾ .

أما علي الايادي التونسي ، فقد عرف بمدحه للقائم الخليفة الفاطمي الثاني ، وقد روى لنا ابن رشيّق خبراً مفاده أنّ شعراء القيروان (ولا يذكر صاحب العملة أسماءهم)⁽⁴⁾ قد هجوا ابن هانيء عند قدومه الى عاصمة الخلافة ، فقليل له : هلاًّ أجبتهم ؟ فترقّع عنهم جميعاً ، الآ عن الايادي فقال : لو هجاني الإيادي لهجوته . فرفعه بهذا الجواب الماهر على غيره ، لذلك لم يشأ الايادي أن يهجوّه . وعلى كل حال ، لا نظنّ أنّه كان من بين

(1) نشرنا القصيدة الفزارية في الحواريّات 1972 ص 110 ، وانظر فصل « الفزاري » في ملحق دائرة المعارف الإسلامية .

(2) أو الأبرقطي . انظر الحواريّات 10 ص 154 وعدد 17 ص 56 .

(3) حواريّات ، 1972 ، ص 110 وعن العتقي ، انظر : عمر السعيد : مقدّمة العيون والحدائق ص

35 ومحمد كامل حسين : في أدب مصر الفاطمية ، ص 110 هامش ١ .

(4) العملة ، ص 111 .

الشعراء الذين يشكو منهم ابن هانيء ، لأنه كان اذ ذاك طاعناً في السن ، وربّما انقطع عن قول الشعر ، رغم لحاقه بالمعزّ عن سنّ تناهز المائة . ولئن مدح المعزّ ، فإنّ مدحه لم يصلنا منه الا قطعته المشهورة في وصف « دار البحر » أي قصر الخلفاء بالمنصورية .

ويذكر الدبّاغ شاعراً فقيهاً آخر اسمه « ابن الراس »⁽¹⁾ ، ولكنه يؤرّخ وفاته - وكذلك وفاة الفزاري - بسنة 956/345 ، أي قبل وصول ابن هانيء الى القيروان بشماني سنوات . ونجد أيضاً في بعض المصادر أبياتاً من أرجوزة تنسب الى شاعر شيعي يدعى المروزي ، أو المروروذي أو المرودي ، ويبدو أنّه ابن المروزي القاضي الشيعي الذي عرف بتنكيله بفقهاء السنة بالقيروان⁽²⁾ . ولم تذكر المصادر أن المروزي الشاعر كانت له صلة بابن هانيء .

فلا يمكن اذن أن يكون هؤلاء الشعراء من حسّاد صاحبنا ومنافسيه في بلاط المعزّ . فلا يسعنا اذن الا أن نسجّل له هذا التذمّر دون أن نتأكّد من صحّة مزاعمه ، لجهلنا بهويّة مبغضيه .

ولعلّ توجّهه الى المعزّ حتى يفصل بينه وبينهم يدلّ على أنّ الخليفة كان يغالب أحياناً نقشفه الطبيعي فيرضى بالاستماع الى مدح شعرائه ، نزولاً منه عند رغبتهم أو اقتناعاً بأهمية الشعر في نشر الدعوة الفاطمية وإعلاء كلمة الأئمّة ، كما يظهر من عزمه على مباهاة المشاركة بشاعره ابن هانيء . ويمكن أن يكون صاحبنا تجاسر على تقديم شكواه أثناء جلسة من هذا النوع فطالب بتقديمه على غيره ، محتجّاً بمتانة شعره اذا ما قورنت بقوافيهم الباردة :

[طويل]

67/37 تُسِيءُ قَوَافِيهَا ، وَجُودُكَ مُحِسِّنٌ وَتُشِيدُ إِزْنَانًا ، وَمَجْدُكَ ضَاحِكٌ

(1) معالم ، ج . 3 ، ص 68 .

(2) الطالبي : تراجم أغليّة ، ص 516 (فهرس) . وانظر الحوليّات 1972 ص 110 .

وهو ، إذ يقيم هذه المقابلة ، يلاحظ أن جوائزهم تفوق جائزته هو ، وأنه يرضى رغم ذلك بنصيبه ، لأنه لا أمل له في الدنيا إلا البقاء بجانب الخليفة ، حتى وإن سهل عليه تحصيل رزقه في بقاع أخرى من الأرض :

68/37 وَتُجْدَى وَأُكْدَى ، وَالْمَنَادِيحُ جَمَّةٌ فَمَالِي غَنِيَّ الْبَالِ ، وَهِيَ الصُّعَالُكُ ؟
71 ... وَمَا سَرَّنِي تَأْمِيلُ غَيْرِ خَلِيفَةٍ وَأُنِّي لِلأَرْضِ الْعَرِيضَةِ مَالِكُ

ولعل في هذا البيت الأخير شيئاً من التهديد بالتحوّل الى ممدوحين آخرين ، كما فعل المتنبي مع سيف الدولة .

ومهما يكن من أمر هؤلاء الحساد وموقف الخليفة من شعرائه فواضح أنه لبى رغبة صاحبنا فقدّمه على غيره وجعله شاعره الأول : بذلك يشهد تأيينه الوجيز له حين نُعي اليه .

حروب المعز في شعر ابن هانئ

نجد في مدائح المعز صدى واسعاً للحروب التي تخوضها الجيوش الفاطمية ، وهي حروب داخلية وخارجية . فالداخلية هي الحملات التي يجهزها المعز داخل الامبراطورية ، أي في حدود الخلافة ، بالمغرب الأوسط مثلاً ، لاختضاع القبائل المستعصية ، أو بالمغرب الأقصى للقضاء على الدويلات المستقلة أو المتحالفة مع الأمويين . أما الخارجية فهي التي تستهدف القضاء على الخلافة العباسية ويسط نفوذ الشيعة على المشرق ، كما تجابه النفوذ الرومي البيزنطي في البحر الأبيض المتوسط وجنوب إيطاليا (الأرض الكبيرة) وجزيرة صقلية .

في هذه الأغراض الحربية ، يظهر ابن هانئ شاعراً متحزباً حقيقة ، مقتنعاً بالمبادئ الاسماعيليّة ، عاملاً على نشرها بشعره كما تنشرها الجيوش الفاطمية بالسلح ، مسخراً فنه ولسانه لخدمة الأئمة ، ورثة الحكم الذي وهبه

الله لجذهم محمد صلى الله عليه وسلم .

وتشيعة هذا هو الذي يَحْمِلُهُ على اعتبار جميع خصوم المعز كفرة مشركين ، مهما كانت نحلتهم . حتى الأمويون والعباسيون كفار مارقون ، اذ لا يبقى على ايمانه من قاوم الامام المعصوم ولم يعترف بحقه في الاستثاردون غيره بحكم المسلمين . لذلك نراه يحث المعز على مواصلة الزحف نحو الشرق بعد احتلال جوهر لمصر : [كامل]

39/30 فَأَلَى الْعِرَاقِ ! وَذَرِ لِمَنْ قَدَّمْتَهُ مِصْرًا ، فَهَذَا مُلْكُ مِصْرٍ قَدْ صَفَا !
ويتنبأ للمعز بنصر قريب في العراق يحلّه محلّ الغاصبين ببغداد (الزوراء) فيقف الشاعر بين يديه منشدًا مشيدًا :

56/30 وَخَطَبْتُ بِالزُّورَاءِ أُخْرَى مِثْلَهَا وَوَقَفْتُ بَيْنَ يَدَيْكَ هَذَا أَلْمَوْقَا
وقبلها تنبأ كذلك لجوهر بالغلبة ، لا على مصر فحسب ، بل على كامل الشرق حتى خراسان : [طويل]

76/27 وَلَمَّا حُتَّتِ الْجَيْشَ لَاحَ لِأَهْلِهِ طَرِيقٌ إِلَى أَقْصَى خُرَاسَانَ مَهْيَعًا
ولا شك أنه ، اذ يتنبأ بهذه الانتصارات المرجوة ، يصدر عن رأي الخليفة فيعلن عن هذه البرامج العسكرية القريبة ، كما لو كان شعره صحيفة ناطقة بمقاصد الدولة ، الظاهرة والخفية .

العمليات بالمغرب

يتوسّع ابن هانئ في استعراض الحملات التي يقودها جوهر ، أو أمراء الزاب وحتى الخليفة نفسه ، ضدّ القبائل البربرية التي يحركها حكام قرطبة ضدّ الحكم الفاطميّ بالمغرب . ففي أوّل مدحة له بأرض العدو يروي في شيء من التفصيل، العمليات التي قادها جوهر ضدّ بني موسى بن أبي العافية المكناسيين . فقد قهرهم وأرجعهم الى الجادة ، أي الى الولاء الفاطميّ ، ولكنه

عفا عنهم ، وسمح لهم بمغادرة المغرب والالتحاق بالأمويين : هذا مانفهمه
من عبارة « سيف » (بالكسر) التي تعني الساحل والشاطئ : [طويل]

56/10 وَفِي آلِ مُوسَى قَدْ شَتَّتْ وَقَائِعًا أَهْبَتْ لَهُمْ تِلْكَ الزَّعَارِعَ لُقْحَا
59 ... صَفَحَتْ عَنِ الْجَانِبَيْنِ مَنَّا وَرَافَةً وَكُنْتُ حَرِيًّا أَنْ تَعُنَّ وَتَصْفَحَا
60 وَقَدْ أَرْمَعُوا عَنْ ذَلِكَ السَّيْفِ رِحْلَةً فَمَلَكْتُ أَوْلَاهُمْ عِنَانًا مُسْرَحًا

ويفصل كذلك حملة جوهر على ابن واسول ، وظفره به وبابنه ، أما الوالد
فقد أسره جوهر وأرسله في قفص الى المنصورية كما قلنا :

33/10 وَأَذْرَكْتُ سَوْلًا فِي آبِنِ وَاسُولٍ عَثْوَةً وَرَحَزَحْتُ مِنْهُ يَذْبُلًا فَتَزَحَزَحَا
43 ... أَقُولُ لَهُ فِي مُوثِقِ الْأَسْرِ غَانِيًا تُجَاذِبُهُ الْأَغْلَالُ وَالْقَيْدُ مُقَمَّمَا:
44 لَيْتُنْ حَمَلْتُ أَشْيَاعَ بَغِيكَ فَادِحَا يَقُولُ ، لَقَدْ حُمِلْتُ مَا كَانَ أَفْدَحَا

أما الابن ، فقد كان أشدَّ شكيمة من والده ، فقتله جوهر ، لكن لهجة
الشاعر في حديثه عن هذا الشابَّ البطل ، أقرب الى الرثاء منها الى التشفي ،
كَانَ عاطفته الرقيقة غلبت الى حين متطلبات المدح ، فلم يُخَفِّ شفقته على
هذا الجذع الباسق الذي قُطِعَ فجأة :

45/10 وَلَا كَأَنِّيهِ أَذْكِي شَهَابًا بِمَعْرَكٍ وَأَجْمَعَ فِي ثَنِي الْعِنَانِ وَأَطْمَحَا
46 مَرَّتْ لَكَ فِي الْهَيْجَاءِ مَاءَ شَبَابِهِ يَدٌ فَجَرَّتْ مِنْهُ جَدَاوِلُ سُبْحَا
47 وَأَتَكَلَّفَتْهُ مِنْهُ الْقَضِيبُ تَهَضَّرَتْ أَعَالِيهِ ، وَالرَّوْضُ الْمُفَوِّصُ صَوَحَا
48 لَعَمْرِي لَيْتُنْ أَلْحَقْتُهُ أَهْلَ وَدِهِ لَقَدْ كَانَ أَوْحَاهُمْ إِلَى مَا زَقِيَ الرَّحَا⁽¹⁾

ولن يعود الى مثل هذه الرافة في حديثه عن مقتل محمد بن خزر الثائر
الزناتي ، بل تطفح القصيدة بمعاني التشفي والسخرية ، ذلك أن الشاعر الذي
كان لا يتمالك عن الرحمة والتأسف أمام مشهد شاب قصف شبابه وأريق منه

(1) تَهَضَّرَتْ : انكسرت وتدلَّت . صَوَحَ : يبس . الأوحى : الأسرع .

ماء الحياة، تعلّم اليوم كبت عواطفه بعد اثني عشر عاماً قضاه في الأجواء الرسمية، فصار لا ينطق إلا بما يعجب ممدوحه، أو أصبح إيمانه بالمبادئ الشيعة على درجة من العمق والقوة بحيث يرى في كل خصم للدولة خصماً له. ولعلّ هذا التحول في الانتماء هو الذي يبرّر اختلاف اللهجة بين عرضه لمقتل ابن أمير سجلماسة سنة 959/347، وعرضه لنهاية محمد بن خزر سنة 970/359: فالشفقة هناك صارت هنا تشفياً، والعطف على القضيبي المقطوع أصبح الآن استهزاء وتهكماً، حتى شجاعة القائد الشيخ وإبائوه الذي جعله يخير الانتحار على ذلّ الأسر، لا يرى فيهما ابن هانيء إلا لجاجة وتمادياً على الغي، وكذلك تأثيره القوي في قبيلة زناتة لأنها ترى في ثورته رمزاً لتعلقها بالحرية. هذه السلطة الروحية لابن خزر على أتباعه لا يعتبرها إلا جهالة منهم وسفهاً، وكل مناهضة للفاطميين إنما هي مناهضة للدين والإيمان والهدى، وهكذا يصبح كل خصم لهم كافراً مشركاً مارقاً: [بسيط]

22/43 لَقَدْ قَصَمْتُ مِنْ ابْنِ الْخَزَرِ طَاغِيَةً صَعَبَ الْمَقَادَةِ أَبَاءَ عَلَى الْجَدَلِ
23 إِذْ لَا يَزَالُ مُطَاعاً فِي عَشِيرَتِهِ تَلْقَى إِلَيْهِ أُمُورَ الزَّيْغِ وَالْبَجَلِ
26 ... مِنْ جَاجِدِي الدِّينِ وَالْحَقِّ الْمُنِيرِ وَمِنْ عَادِي الْأَيْمَةِ، وَالْكَفَّارِ بِالرُّسُلِ

ويصوّر في مشهد فظيع، ما آل إليه هذا الناصر الأبيّ: قطعوا رأسه ونصبوها في سنان رمح وأرسلوها إلى المعزّ بالمنصورية، ويدقّق ابن هانيء وصفه لملاح هذه الرأس الميتة ويبتكر الصور القاسية فيشبهه انحسار الشفتين عن الأسنان بالابتسامة المرة، ويمثّل حركة الرأس فوق الرمح الذي يحملها باهتزاز الرقص، ولكنه رقص بلا توقيع كما كان الابتسام بلا سرور:

28/43 أَتَاكَ يَغْلُوهُ مِنْ عِضْيَانِهِ خَفَرٌ حَتَّى كَأَنَّ بِهِ ضَرْباً مِنَ الْخَجَلِ
29 يُدِيرُهُ الرُّمْحُ مُهْتَزّاً بِلَا طَرَبٍ إِلَى الْكَثَائِبِ، مُفْتَرّاً بِلَا جَدَلٍ
31 ... كَأَنَّمَا غَضُّ جَفْنَيْهِ الْأَزُومُ عَلَى صَدْرِ الْقَنَاءِ أَوْ اسْتَحْيَى مِنَ الْعَدَلِ

بهذا التصوير القاسي الفظيع، وإن كان ذا قيمة فنيّة لا تنكر، يبرهن ابن

هانئ على تحوُّله النهائي إلى الولاء الشيعي ، وتبنيَّه لعداوتهم بقدر ما تبنيَّ مبادئهم ، فهذا التفتُّن في الوصف ، هذا الاغراق في التشفي ، لا يفسران فقط بضرورات الخدمة والتقرُّب إلى الممدوحين بل فيهما أكثر من ذلك : فيهما الانتماء إلى الدعوة، والتحرُّب الكامل لها، وتسخير كل الطاقات لخدمتها.

فتح مصر

تعرَّض ابن هانئ للحملة على مصر ، وانتصار جوهر السريع على فلول الاخشيديين وإدارته الحكيمة للبلاد في انتظار قدوم المعزِّ إليها ، في ثلاث قصائد على الأقل ، اثنتان منها في مدح الخليفة ولكنهما تعظمان شأن جوهر ، والثالثة في الاشادة بجوهر مباشرة .

تشعرنا مدحة جوهر - القصيدة رقم 27 - بأنَّ الشاعر قد ساير الجيش الفاتح على مرحلة من مراحل طريقه إلى مصر ، ذلك لأنَّه يصف هذا الجيش العرمرم وصفَ معايَنة ، لا وصف سماع أو تخيُّل ، بل يعلمنا أنَّه التحق بعسكر القائد ليلاً على شاطئ البحر ، بعد أن انطلق الجيش من رقادة⁽¹⁾ ، فبات ليلته مع الجيش ، دون أن ينام لأنَّ الجلبة والضجيج منعا عنه الكرى : [طويل]

13/27 فَلَمَّا تَدَارَكْتُ السَّرَادِقَ فِي الدَّجَى عَشَوْتُ إِلَيْهِ ، وَالْمَشَاعِلُ تُرْفَعُ
14 فَتَخَرَّقُ جَنَبَ الْمُزْنِ ، وَالْمُزْنُ ذَالِحٌ وَتَوْقُدُ مَوْجَ الْيَمِّ ، وَالْيَمُّ أَسْفَعُ
15 فَبِتْ وَبَاتَ الْجَيْشُ جَمًّا سَمِيرُهُ يُورِّقُنِي ، وَالْجِنُّ فِي الْبُعْدِ هُجُعُ

وفي الصباح الباكر يتحرَّك المعسكر بعدته وعديده - ثمانون ألفاً في قول الشاعر - فتلمع السيوف وترعد أبواق المنادين وتصلصل الأسلحة ، ويرز جوهر في جمع غفير من القواد والخدم على الخيول المطهَّمة ، كأنَّه ملك في حاشيته ، تتبعه خيمته العالية الشامخة كأنها قصر منيف ، وقد لبس الحلة التي

(1) ابن خلكان : وفیات ، ترجمة رقم 141 . ونقول بعض المصادر بأنَّ الانطلاق كان من قرية تدعى « سردانية » (انظر ص 134 وص 138) .

كسائه إياها المعز عند توديعه له :

- 31/27 تَحْفُ بِهِ الْقَوَادُ ، وَالْأَمْرُ أَمْرُهُ وَيَقْدُمُهُ زِيَّ الْخِلَافَةِ أَجْمَعُ
35 ... وَبَيْنَ يَدَيْهِ خَيْلُهُ بِسُرُوجِهِ تَقَادُ ، عَلَيْهِنَ النُّصَارُ الْمُرْصَعُ
36 وَأَعْلَامُهُ مَنُشُورَةٌ وَقَبَابُهُ وَحُجَابُهُ تَدْعَى لِأَمْرِ فَتُسْرِعُ
41 ... وَسَلَّ سُيُوفُ الْهِنْدِ حَوْلَ سَرِيرِهِ ثَمَانُونَ أَلْفًا : دَارِعٌ وَمُقَنَّنٌ
43 ... وَتَضَحُّبُهُ دَارُ الْمَقَامَةِ حَيْثُمَا أَنَاخُ ، وَشَمْلُ الْمُسْلِمِينَ الْمُجْمَعُ
44 بُرُودُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بُرُودُهُ كَسَاهُ الرِّضَى مِنْهُمْ مَا لَيْسَ يُخْلَعُ

بهذه التفاصيل عن قوّة الجيش الفاتح ، يشعرنا ابن هانئ بقوّة الدولة الفاطمية وثروتها الماديّة ، فيدعم ما يدّعيه المؤرّخون عن ازدهارها الاقتصادي والمالي ، الذي تمثل في تلك الرّجحي من الذهب الخالص التي سبكها المعز وحملها معه الى القاهرة .

ويعود الى وصف الجيش الفاتح في مدحة المعز - القصيدة 46 - ويذكر من جديد تشييعه له ، معتذراً على اضطرابه الى الرجوع ، مؤكداً أنّه ، لولا هذه العوائق - العائليّة ؟ - لرافقه الى النهاية : [طويل]

- 12/46 فَشَيَّعْتُ جَيْشَ النَّصْرِ تَشْيِيعَ مُزْمِعٍ وَوَدَّعْتُهُ تَوْدِيعَ غَيْرِ مُصَارِمٍ
13 وَقَدْ كَذْتُ لَا أَلُوِي عَلَى مَنْ تَرَكْتُهُ وَلَكِنْ عَذَابِي مَا ثَنَى مِنْ عَزَائِمِي
14 وَلَوْ أَنَّنِي اسْتَثَارْتُ بِالْإِذْنِ وَحَدُهُ لَسِرْتُ ، وَلَمْ أَحْضِلْ بِلَوْمَةٍ لِأَيِّمٍ

وقد صدرت هذه القصيدة في الديوان بتوطئة يفهم منها ان المعز هو الذي رافق الجيش في طريقه الى الفتح ، وتبّنى الفكرة بعض المؤرّخين كالمقريزي والقلقشندي⁽¹⁾ والمستشرق هـ. ماسي في دراسته للقصيدة 22 اذ يقول : « ... القصيدة 46 التي يشيد فيها ابن هانئ بـرجوع المعز الى

(1) اتعاظ ... ص 162 - صبح ... : ج 3 ، ص 345 .

المنصورية بعد تشييعه للجيش المتجه الى مصر»⁽¹⁾. والرأي عندنا أن التشيع كان من الشاعر ، لا من الخليفة ، وانما وقع الخطأ لالتباس ضمير الغائب: «وقال يمدح الخليفة ، وهو (المعز أو الشاعر على السواء) بالمنصورية بعد رجوعه (رجوع الشاعر) من معسكر جوهر ، ويصف القائد ويعتذر له عن المواصله » . فقراءتنا هذه أوفق لمضمون القصيدتين 27 و 46 ، وان كنا لا نستبعد أن يؤدي الخليفة زيارة أو أكثر الى معسكر جيشه في طور إعداد الحملة ، كما يقول ابن خلكان بصريح العبارة⁽²⁾ .

ومما يدعّم قراءتنا لهذه التوطئة وفهمنا لها على الأساس الذي بسطناه ، أن الشاعر ، في الأبيات الأخيرة منها ، يحمل تحيات الجيش الى الخليفة ، ويقدم اليه انطباعاته المتفائلة عن الجند ، كأنه مراسل حربي يرفع تقريره الى رئيسه . فما حاجة المعز بتحيات الجيش أو بهذه الانطباعات ، ان كان هو الذي شيع جوهرأ ؟

48/46 وَأَنِّي قَدْ حُمِلْتُ مِنْهُمْ نَصَائِحًا كَرَائِمَ تُهْدَى عَنْ نُفُوسٍ كَرَائِمِ
49 إِلَيْكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ حَمَلَتْهَا وَدَائِعَ كَالْأَمْوَالِ تَحْتَ الْخَوَاتِمِ
50 شَهِدْتُ بِمَا أَبْصَرْتُهُ وَعَلِمْتُهُ شَهَادَةً بَرًّا لَا شَهَادَةَ آثِمِ

ونكتشف من خلال كلام الشاعر في هذه القصيدة ، أن الفاطميين مهدوا للحملة العسكرية بحملة دعائية واسعة النطاق ، استعملوا فيها الإغراء المادي لكسب الأنصار و « شراء الضمائر » كما نقول اليوم ، فكان الذهب الفاطمي هو الذي غلب الاخشيديين ، « والعطايا الجسام » هي التي تفسر سهولة الانتصار ، وركود أنصار الاخشيد وسكوت العباسيين وحماتهم من بني بويه ، اذ ليست المناوشات التي قادها أفلح الناشب أو جعفر بن فلاح بكافية لاضعاف الخصم بصورة تمنعه من كل مقاومة :

(1) قصيدة ابن هانيء في فتح مصر ، ص 121 .

(2) الوفيات ، ترجمة رقم 141 .

39/46 وَمَا غَالَ جَيْشُ الشَّرْقِ قَبْلَكَ غَائِلٌ وَلَا سَيْمًا بَعْدَ الْعَطَايَا الْجَسَائِمِ
40 وَبَعْدَ صِلَاتٍ مَا رَأَى النَّاسُ مِثْلَهَا وَلَا حُدُوثًا فِي السَّالِفِ الْمُتَقَادِمِ

ويظهر أن هذه « السياسة » كانت طبيعية معهودة ، إذ لا يتحرّج الشاعر من ذكرها ، بل نراه يُشيد بها ، ويجعلها من مزايا جوهر .

أما القصيدة 22، فقد نظمت بعد الفتح، إذ يتعرّض فيها ابن هانيء الى سياسة جوهر في المصريين: حكم عادل، لا ظلم فيه للناس ولا انتزاع للضياغ والمكاسب ، ولا ضرائب جائرة تثقل كاهل الرعية ، بل استقامة ونزاهة وعدل ، وهي الخصال التي ورثها جوهر عن الخليفة ، فأصبح أهل مصر مبتهجين بالحكم الجديد مرتاحين اليه بعد أن ذاقوا الأهوال من فساد الاخشيديين ونهمهم وظلمهم ، وعادت الطمأنينة الى النفوس وذهب الخوف من القلوب ، حتى صار الناس لا يترقبون فيضان النيل بنفس اللفهه ، لأن جوهرأ وحده بمثابة النيل المنعش والغيث النافع : [طويل]

68/22 وَمَا ضَرَّ مِصْرًا حِينَ أَلْقَتْ قِيَادَهَا إِلَيْكَ، أَمَدُ النَّيْلِ أَمْ غَالَهُ جَزْرُ؟
71 ... غَدَا جَوْهَرٌ فِيهَا عَمَامَةٌ رَحْمَةً يَبْقَى جَانِبَيْهَا كُلُّ حَادِثَةٍ تَعْرِو
78 ... سَنَنْتَ لَهُ فِيهِمْ مِنَ الْعَذْلِ سُنَّةً هِيَ الْآيَةُ الْمُجَلَّى بِبُرْهَانِهَا السِّحْرِ⁽¹⁾
80 ... وَأَوْصَيْتُهُ فِيهِمْ بِرِفْقِكَ، مُرَدِّفًا بِجُودِكَ، مَقْصُودًا بِهِ عَهْدُكَ الْبَرُّ
84 ... بِذَا لَا ضِيَاعَ حَلَّلُوا حُرْمَاتِهَا وَأَقْطَاعَهَا، فَاسْتُصْفِيَ السَّهْلُ وَالْوَعْرُ

في البيت 80 اشارة الى العهد الذي قطعه جوهر باسم المعز للمصريين ليضمن حرّيتهم في الطقوس الدينية وفي أموالهم وتصرفاتهم . وقد قرئت هذه الوثيقة الطويلة على المنابر في كافة قرى مصر ومدنها⁽²⁾ .

ويعود مرّة أخرى الى ذكر مصر في القصيدة 43 التي نظمها سنة

(1) اشارة الى سحرة فرعون ولقائهم مع موسى عليه السلام .

(2) المقرئزي : اتعاظ ... ص 148 - 153 (نصّ العهد) .

971/360 ، بعد ظفر المعز بثائر مغراوي آخر يدعى أيضاً ابن خزر . وفحوى الإشارة أن « ملك مصر قد صفّا » وأن الأمن استتبّ بالمغرب بسقوط آخر رأس من رؤوس زناتة ، فالوقت حان اذن ليقضي الخليفة فريضة الحجّ : [بسيط] 63/43

فَرَعْتُ لِلْحَجِّ مِنْ شُغْلِ الْهَيَاجِ فَلَوْ سَأَلْتُ مَكَّةَ ، قَالَتْ : هَيْتَ فَارْتَحِلْ !

وفي هذه الدعوة تدعيم لما أولنا به البيت 59 من القصيدة 41 اذ قلنا ان المعزّ لم يحجّ قط ولا أحد من الخلفاء الفاطميين ⁽¹⁾ .

على أن تحريضه للخليفة على الحجّ لا يصدر في نظرنا عن تقوى وورع شديدين ، وإنما يتخذ الحج ذريعة لحثّ المعزّ على مواصلة الزحف بالشرق للقضاء على الغاصبين العباسيين ، اذ لا حجّ الا بعد الاستقرار بمصر ، والاستقرار بمصر هو الذي يسمح بتحقيق المآرب الشرقية .

ولا يفوتنا أخيراً أن نشير الى القصيدة 23 التي وصف فيها هدايا جوهر التي بعث بها الى الخليفة من مصر ، وأطال خاصة في وصف الخيل ، وقد تحدّثنا عن هذه القصيدة ، وسنعود اليها في الحديث عن القسم الوصفيّ .

تعيين عبد الله بن المعزّ على ولاية افريقية والمغرب ؟

في هذه القصيدة 43 بالذات ، يلفت انتباهنا أمر لا علاقة له بمصر ، وهو أن الشاعر يتجهج بتعيين ابن المعزّ الثاني ، الأمير عبد الله ، في وظيفة كئنا نظنّ أنها ولاية العهد ، فيؤكّد أنّ السلطان الفاطميّ تدعّمت أركانه بهذا التعيين وأمن كلّ خطر :

65/43 فَقَدْ تَوَطَّدَ أَمْرُ الْمُلْكِ فِيهِ ، وَقَدْ نَدَبْتُ نَذْباً إِلَيْهِ غَيْرَ مُتَكِلٍ
66 لَمَّا شَدَّدْتَ بِعَبْدِ اللَّهِ عُرْوَتَهُ أَعَزَّزْتُ مِنْهُ مَصُونِ الْعِرْضِ لَمْ يَذِلْ

(1) انظر أعلاه ص 154 .

هكذا كنّا نظرنّ ، وبعد البحث تبينّ لنا أن تعيين عبد الله ولياً للعهد بعد عزل أخيه الأكبر تميم كان أمراً معروفاً منذ سنتين على الأقلّ ، إذ أعلن عنه بين سنتي 357 و 9/358-968⁽¹⁾ في حين أن هذه القصيدة نظمت سنة 360 إثر القبض على ناثر زناتي آخر ، يدعى أيضاً ابن خزر . فكيف يشيد ابن هانيء بحادث معروف منذ مدة ، مشهور في أنحاء الخلافة ، وكأنّه حدث جديدٌ ينبغي نشره وإذاعته والتعريف به ؟ فلا بدّ أن يكونَ ابتهاجه متعلّقاً بحدثٍ آخر ، غير معروف آنذاك ، أو هو وليد ذلك العام بالذات .

ولمّا كان المعزّ ، في تأخّبه لمغادرة إفريقية ، يبحث عن خليفة له على المغرب كلّهُ ، ففكّر أولاً في تعيين جعفر بن حمدون ، ثمّ لمّا خذله أمير الزاب ، حسب بعض المصادر ، أو لمّا أفرط في الطمع والاستثثار ، حسب مصادر أخرى ، فكّر في القائد الصنهاجي بلقين بن زيري ، قلنا : لعلّه ، في هذه الفترة التي لم يستقرّ اختياره فيها على خلف ، فكّر في تعيين وليّ العهد ، ولو بصفة مؤقتة ريثما يستقرّ له رأي ، أو لعلّه فكّر حقيقةً في اقتسام الخلافة المتوسعة ، بينه وبين ابنه .

لا ننكر أن هذا الافتراض بعيد ، فإنّ المؤرّخين القدماء لم يثيروا إلى هذا الأمر ، أو ، إن هم أشاروا إليه ، ففي غموض شديد ، مثل المقرئ الذي ينقل عن ابن سعيد أنّ بلقين (يوسف) بن زيري قال ان المعزّ « ولىّ عهده » (بعده) ابنه الشاعر تميماً ثمّ عزله ، وولى ابنه عبد الله إفريقية ، ثمّ ولى ابنه بمصر العزيز الذي صحّت له الخلافة بعده » . وحتى ان استنكر ابن سعيد هذا الخبر ، فلا يمنع أنه قد ذكر على كل حال⁽²⁾ . كذلك المختصّون بتاريخ الفاطميين ، مثل الأستاذ الدشراوي ، لم يثيروا هذه القضية . ثمّ اننا راعينا امكانية الخلط بين الأسماء : فقد كان للملوك الصنهاجيين والـ على إفريقية

(1) سيرة جودر ، النصّ المترجم 213 تنبيه 467 .

(2) اتعاظ الحنفاء ج 236/2 .

يدعى عبد الله بن محمد ، ولكن هذا الوالي سَمِيَ سنة 976/365 ، بعد موت الشاعر والمعزّ معاً ، ثم أنّ نسبة القصيدة الى صاحبنا لا شك فيها . فلذلك اضطررنا الى هذا الافتراض ما دام الشاعر يعظّم هذا الحدث ويتفاد به خيراً ، ويرجوه نتائج طيبة عاجلة ، منها قهر بني أمية على يد عبد الله بعد قهره لبني خزر - وهذه ناحية أخرى مجهولة عند المؤرخين ، اذ لم يخبرونا بأن عبد الله بن المعزّ هو الذي قاد بنفسه حملة سنة 971/360 ضدّ زناتة ومغراوة - ثم أنّه لا يَسْتَبْعِدُ - في البيت 78 - أن يكون مقرّ الأمير غير مقرّ الخليفة . أفلا يعني هذا أنّ عبد الله سيصبح خليفةً لأبيه بالمنصورية ، بعد انتقال المعزّ الى القاهرة ؟ وهذه هي الأبيات المشكّلة في القصيدة ، بعد البيتين السالفين :

70/43 وَإِنَّ مُلْكاً أَقْرَ اللَّهُ قُبَّتَهُ بِابْنِ الْإِمَامِ لَمَلِكٌ غَيْرُ مُتَنَقِّلِ
75 ... فَالْفَتْحُ مِنْ أَوَّلِ الثُّغَمَى بِهِ وَلَهُ عَوَاقِبُ فِي بَنِي مَرْوَانَ عَنْ عَجَلِ
76 بِرِيحِهِ أَرْدَتْ هَيْجَا بَنِي خَزَرٍ وَبِأَسْمِهِ اسْتَظْهَرَتْ فِي الْغَزْوِ وَالْقَطْلِ
78 ... مَهْمَا أَقَامَ، فَذُو النَّجَاحِ الْمُقِيمِ وَإِنْ تَلَكَ رَيْثاً قَبْعَدَ الْمَشْهَدِ الْجَلَلِ
83 ... الْآنَ لَذْتُ لَنَا مِصْرَ وَسَاكِنُهَا وَلِلْسَوَابِحِ وَالْمَهْرِئَةِ الدُّمْلِ

فإن صحّ افتراضنا⁽¹⁾ نكون قد توصلنا ، أخيراً وبعد لأي ، الى استخراج معلومات مجهولة جديدة من هذا الشعر المبهم الغامض ، وبرهناً ، بعد غيرنا ، على أنّ النصوص الأدبية قد تخدم التاريخ ، بل إن الأدب والتاريخ متداخِلان متكاملان متماسكان .

الحرب ضدّ بيزنطة

كان فقهاء القيروان يعتبرون جزيرة صقلية وولاية قلورية بجنوب ايطاليا « دار جهاد »⁽²⁾ وفيها كانت تدور الحرب بين الفاطميين والنصارى البيزنطيين .

(1) لقد فصلنا عناصر القضية في فصل نشرناه بمجلة الدراسات التونسية ، عدد 85-87 ص 7 .

(2) الدشراوي : جزيرة اقریطش ... ص 309 .

وتتعلّق اشارات الشاعر بوقعتين هامّتين دارت رحاهما بصقلية ومجاز مسينا سنة 965/354 ، وكلّلتا بنصر عظيم للفاطميّين . وصورة الأحداث ، كما يرويها ابن الأثير وغيره ، ممّن جمع نصوصهم ميكال أماري في تأريخه لصقلية ، وكما يفصلها شلومبرجي في دراسته الضخمة عن الامبراطور البيزنطي نففور فّقاس⁽¹⁾ ، هي هذه :

استولت الجيوش الفاطمية بقيادة الأمراء الكلبيين ، على مدينة طبرمين (طاورمينا حالياً) بالجنوب الشرقي من صقلية سنة 962/351 ، ومنها أخذت تغزو جنوب ايطاليا ، فاستقرّت بجهة ريو (عاصمة ولاية قلورية أو كلابريا اليوم) ، ثم أخذ الأمير الحسن بن عمّار الكلبي في محاصرة قلعة رمطة (رميطا) التي تبعد بتسعة أميال غربيّ مسينا ، وكانت رمطة آخر معقل مسيحيّ ، غير خاضعة للكلبيين وللسلطان الفاطميّ ، فاستنجد أهلها بالدمستق نففور ، فجّهز أسطولاً بقيادة عمّه منويل فّقاس ونزلت الأمداد الرومية بالساحل فحاصرت بدورها المسلمين وسدّت عنهم المنافذ ، فالتحم الجيشان في قتال شديد ، فقتل منويل ، ففتّ قتله في عزم جنوده ، ففترّقوا وتبعهم المسلمون فحاصروا عدداً كبيراً منهم بشعب لا مخرج منه وقتلوهم تقتيلاً ذريعاً . والتحق الآخرون بمراكبهم فطلبوا المدد وجنّدوا العساكر من قلورية وجهات ايطاليا الأخرى وعادوا الى القتال ، فاعترض الأسطول الفاطميّ مراكب الروم ، وتحول القتال الى معركة بحرية بين المراكب المجهّزة بمدافع النفط ، فأحرق النفاطون المسلمون كثيراً من المراكب البيزنطية ، ولأذ باقي الأسطول الروميّ بالفرار . وتمّ هذا النصر ، ويدعى وقعة المجاز عند المؤرّخين ، سنة 965/354 .

فأشاد به الشاعر في قصيدتين على الأقلّ : ففي القصيدة 40 ، يصوّر لنا

(1) ص 442 .

الخليفة ساجداً لله مقبلاً التراب معقراً خذّه ، عند بلوغ بُشرى النصر اليه :
[كامل]

13/40 لِيَلِهَ عَيْنَا مَنْ رَأَى إِحْبَاتَهُ لَمَّا أَتَاهُ بِرِيدُهَا الْإِجْفِيلُ
14 وَسُجُودُهُ حَتَّى أَلْتَقَى عَفْرُ الثَّرَى وَجَبِيئُهُ وَالنُّظْمُ وَالْإِكْلِيلُ

وفي القصيدة 13 ، يصف الأسطول الفاطمي ، خلافاً لما تدّعيه التوطئة من أنه يذكر سفارة بيزنطية قدّمت لطلب الصلح . والغلط ناتج عن خلط بين هذه السفارة المزعومة والسفارات العديدة التي كان الدماصة يرسلونها في القديم الواحدة تلو الأخرى للتوسّل لدى المعزّ حتّى يكفّ عن غزو بلاد الروم ويرضى بالصلح ولو لمُدّة . فالشاعر يذكّر الدمستق المغلوب اليوم بتصرّفه السالف ، ويُشهد عليه دموعه التي تُبلّل رسائله الى الخليفة ويتشفّى منه بهزيمة المجاز ، ولعلّ هذا التهكم يدلّ على أنّ الامبراطور هو الذي بادر بتقض صلح سابق أو بالكفّ عن تقديم جزية الى المعزّ ، لذلك يصوّره الشاعر نادماً باكياً :

[طويل]

67/13 وَقُلْتُ : أَنَاسِي ذَا الدُّمُسْتَقِ شُكْرَهُ إِذَا جَاءَهُ بِالْمَغْفِرِ مِنْكَ بَرِيدُ
68 وَتَقْبِيلُهُ الثَّرْبَ الَّذِي فَوْقَ خَدِّهِ إِلَى ذَفَرَيْنِهِ مِنْ ثَرَاهُ صَعِيدُ؟
69 تَنَاجِيكَ عَنْهُ الْكُتُبُ وَهِيَ ضَرَاعَةٌ وَيَأْتِيكَ عَنْهُ الْقَوْلُ وَهُوَ سُجُودُ
70 إِذَا أَنْكَرْتَ فِيهَا التَّرَاجِمَ لَفْظُهُ فَأَذْمُعُهُ بَيْنَ السُّطُورِ شُهُودُ
75 ... فَإِنْ هَزَّ أَسْيَافُ الْهَرَقْلِ فَإِنَّهَا إِذَا شِئْتَ أَغْلَالُ لَهُ وَقِيُودُ

الأسطول الحربي - المدافع النفطية أو «النار اليونانية»

ولكنّ أهميّة هذه القصيدة 13 تكمن في الوصف المدقّق لأسطول الحرب ، على ذكر وقعة المجاز . والشاعر ، على عادته ، لا يدقّق التواريخ ، ولا الأماكن ، ولا الأشخاص : حتى الأمراء الكليبيون ، وهم سبب التصر

وصانعوه ، لا يذكرهم بَتَاتًا . ولا يعود كذلك الى ذكر القائد البيزنطي منويل .

غير أن للقصيدة أهمية وثائقية لا تنكر ، اذ تصف لنا هذه المراكب المجهّزة بـ « اللهب اليوناني » ، وهو خليط من النفط والبارود تضم فيه النار ويرسل بواسطة مجانيق ضاغطة على المراكب المعادية ، فيحرقها من شراعها إلى صاريها إلى خشبها .

يهتمّ بالقبة المفوّدة كهودج الحسان ، وهي خيمة عالية تغطّي مجلس قائد السفينة أو موقفه ، ويصف أعلامها الكثيرة التي تبعث الرعب في قلوب الأعداء ، ويمثّل علوها بشموخ الجبال وسرعتها بخفة الطيور ، ولكنها الطيور الجارحة التي تقتنص نفوس الروم :

- | | | |
|--|---|-------|
| لَقَدْ ظَاهَرَتْهَا عُذَّةٌ وَعَدِيدُ | أَمَّا وَالْجَوَارِي الْمُنْشَاتِ الَّتِي سَرَتْ | 30/13 |
| وَلَكِنَّ مَنْ ضُمْتُ عَلَيْهِ أَسْوَدُ | قَبَابٌ كَمَا تُزَجَّى الْقَبَابُ عَلَى الْمَهَا | 31 |
| تُسْشَرُ أَعْلَامُ لَهَا وَبُسُودُ | ... وَمَا رَأَى مَلِكُ الرُّومِ إِلَّا أَطْلَاعَهَا | 35 |
| بِنَاءٍ عَلَى غَيْرِ الْعَرَاءِ مَشِيدُ | ... أَنَاثَتْ بِهَا أَعْلَامُهَا وَسَمَا لَهَا | 38 |
| فَمِنْهَا قِنَانٌ شُمُخٌ وَرِيُودُ | ... مِنَ الرَّاسِيَاتِ الشَّمُّ لَوْلَا انْتِقَالُهَا | 40 |
| فَلَيْسَ لَهَا إِلَّا النُّفُوسَ مَصِيدُ | مِنْ الطَّيْرِ إِلَّا أَنَّهُنَّ جَوَارِحُ | 41 |

ثم يصف اللهب الذي ترسله مجانيقها. وقد عرف هذا الخليط المحترق في القرون الوسطى باسم « النار الاغريقية » لأنّ الغربيين ينسبون اختراعه الى اليونانيين ، أي الروم البيزنطيين، وينكرون أن يكون العرب قد عرفوا هذه الأخلاط المتفرقة ، فيرى شلومبرجي في دراسته عن الامبراطور البيزنطي « أن العرب لم يكتشفوا هذه النار السائلة الا في القرن الثالث عشر أو الثاني عشر على الأكثر ، ولكنهم من ذلك التاريخ ، أخذوا في تحسينها وتطويرها بصفة مطردة »⁽¹⁾ . لكنّ شلمبرجي نفسه يذكر استعمال الفاطميين

(1) ص 461 .

لهذا المزيج أثناء وقعة المجاز ، أي في منتصف القرن العاشر : « . . . وكان البحارة البرابرة يُلقون بأنفسهم في البحر ، وبأيديهم « النار الاغريقية » ، فيسبحون بها حتى يصلوا الى السفن البيزنطية فيحرقونها » . ولعله استقى الخبر من عند ابن الاثير الذي أشار إلى إحراق المسلمين لمراكب الروم أثناء حرب صقلية⁽¹⁾ فأقره ونقص قوله السابق .

هذا السلاح الناري الذي قد يعدّ الصورة الأولية العتيقة من المدافع الحالية قد عُرف واستعمل منذ القرن الثالث/ التاسع : فقد استعمله الأسطول العباسي ضدّ المراكب البيزنطية ، كما يظهر من وصف البحري (897/284) له في مدحه لأمير البحر أحمد بن دينار : [طويل]

وَحَوْلَكَ رُكَّابُونَ لِلْهَوْلِ عَاقَرُوا كُؤُوسَ الرَّدَى مِنْ دَارِعِينَ وَحُسِرِ
تَمِيلُ الْمَنَآيَا حَيْثُ مَالَتْ أَكْفُهُمْ إِذَا أَصْلَتْوَا حَدَّ الْحَدِيدِ الْمَذْكُرِ
إِذَا رَشَقُوا بِالنَّارِ لَمْ يَكْ رَشَقُهُمْ لِيُقْلَعَ إِلَّا عَنْ شِوَاءٍ مُقْتَرٍ⁽²⁾

وقد سميت هذه المراكب ، منذ عهد هارون الرشيد ، أي منذ منتصف القرن الثاني/ الثامن ، « حرّاقات » ، فكان الخلفاء العباسيون يركبونها للتنزّه على نهر دجلة ، ولعلّها كانت مجهزة لإرسال أضواء الزينة والنيران الملونة أثناء الاحتفالات والألعاب المائية ، ويعرّف اللسان هذه الحرّاقات بأنها « سفن مجهزة لقذف النيران » . وهذه النار تعتمد النفط الخام ، وما يتبعه من موادّ مائية - فحمية سهلة الاشتعال ، ويسمّى العاملون عليها « النفاطين » . واستعمل القوادم العباسيون هذه القذائف المحرقة في حصارهم للناظر بابك الخرمي ، سنة 837/222 ، يقذفونها على أسوار القلعة وأبوابها بواسطة المجانيق⁽³⁾ .

(1) أماري ، المكتبة العربية الصقلية ص 266 .

(2) البحري : ديوان ص 983 الأبيات 26- 28 .

(3) ميكال أماري : في نيران الحرب المستعملة . . . ص 7 .

وفي العصور المتأخرة، أضاف العرب، فيما كتبه هـ. رينو عن «فنون الحرب عند العرب»⁽¹⁾، إلى المواد الملتهبة، مواد متفجرة في نسب معينة نقلوها عن أهل الصين: وهذه الأخلاط التي سميت «البارود» هي: الكبريت والفحم وخاصة الملح التري أو ملح البارود، ووظيفة البارود هي تيسير الاشتغال عند القذف. ثم منع الأخلاط النفطية من الانطفاء⁽²⁾. وفعلاً، نرى أن ابن هانئ في وصفه لهذه النيران، يلج على استمرارها مشتعلة حتى على سطح البحر. وهذا الاستمرار على الالتهاب يؤكد المؤلفون القدماء في هذه الفنون مثل مرضي بن علي الطرسوسي (1193/589) الذي يفضل، في كتيب ألفه لصالح الدين الأيوبي، نماذج من الأخلاط البارودية الصالحة لاحتراق مراكب العدو، فيقول مثلاً في صفة «نقط يمشي على الماء يصلح لاحتراق المراكب»: «قطران: جزء

قطران: جزء

كبريت معدني، وهو النفط: جزء.

راتينج: جزء (الراتينج صمغ شجرة الصنوبر).

سندروس: جزء (السندروس صمغ شجرة من فصيلة الصنوبر).

شحم دلفين مسلي مروق: جزء (الدلفين أو الدخس حيوان بحري من

جنس البال إلا أنها دونه ضخامة).

شحم كلى ماعز: مثله.

كبريت أصفر: جزء.

«تسحق ما يجب سحقه. ويرفع القطران على النار إلى الدست شيء.

فإذا غلي القطران يضاف إليه السندروس ويضرب به إلى أن يختلط، ثم يلقى

(1) هـ. رينو: - الفن العسكري عند العرب ...

- النار الأفريقية ... ص 4-5.

(2) انظر فصل «بارود» بدائرة المعارف الإسلامية.

عليه بعد الفراغ الكبريت المعدني الذي كله الزيت القديم ، وترفع ، فإذا احتجت اليه ، تأخذه وتغليه الى أن تعلم أنه قد أخذ الحد فتشعل فيه ناراً ، وترسله على الماء الى ما أردت من المراكب ، فإنه يحرق إحراقاً عظيماً ويمشي على الماء ولا ينطفئ»⁽¹⁾ .

وعبارة « النفط » ان لم يستعملها ابن هانيء ، فقد استعملها الشاعر الصقلي ابن حمديس (1132/527) في مدح للأمراء الصنهاجيين ، مما لا يدع مجالاً للشك في أن بني زيري أيضاً استخدموا السفن المحرقة التي تقذف المواد النفطية على مراكب الروم : [طويل]

وَتَرْمِي بِنَفْطٍ نَارُهُ فِي دُخَانِهِ بِهِ الْمَوْتُ مُحَمَّرٌ يُؤُوبُ بِمُسَوِّدٍ
ويعود ، في مدح آخر للأمير علي بن يحيى ، الى النفط فيصف حرارته الخائفة : [كامل]

تَرْمِي بِنَفْطٍ كَيْفَ يَبْقَى لَفْحُهُ وَالشَّمُّ مِنْهُ مُحَرِّقُ الْأَكْبَادِ؟⁽²⁾
وقبل ابن حمديس ، وقبل ابن هانيء ، أشاد علي الايادي التونسي بأسطول القائم الفاطمي فذكر هذه المراكب ووصف نيرانها : [كامل]

سَجَرُوا جَوَاجِمَ نَارِهَا فَتَقَادَفُوا مِنْهَا بِالسُّنِّ مَآرِجَ مُتَلَهِّبِ⁽³⁾
هذا، وإن وصف ابن هانيء لسفن المعز موافق تماماً ، في هذه الناحية ، لوصف سابقه الايادي أو لاحقه ابن حمديس . فيشعرنا كلامه بأنها سفن ترمي النار من أفواه حديدية ، وهذا الخليط الملتهب لا ينطفئ في الماء فتحمله الأمواج مشتعلاً الى مراكب العدو : [طويل]

(1) كتاب تبصرة أرباب ... نشر كلود كاهين ... ص 125 من الأصل ، ص 146 من النص المترجم .

(2) ميكال أماري : المكتبة ، الملحق ص 17 ، وص 18 .

(3) الحصري ، زهر .. 1004/2 ، وانظر : الحواريات 1973 ، ص 109 . بيت 18 .

- 42/13 مِنْ الْقَادِحَاتِ النَّارُ تُضْرَمُ لِلطَّلَى
 43 إِذَا زَفَرَتْ غِيظًا تَرَامَتْ بِمَارِجٍ
 44 فَأَنْفَاسُهُنَّ الْحَامِيَّاتُ صَوَاعِقُ
 46 ... لَهَا شُعْلُ قَوْقِ الْغِمَارِ كَأَنَّهَا
 47 تُعَانِقُ مَوْجَ الْبَحْرِ حَتَّى كَأَنَّهُ
- فَلَيْسَ لَهَا يَوْمَ اللَّقَاءِ خُمُودُ
 كَمَا شُبَّ مِنْ نَارِ الْجَحِيمِ وَقُودُ
 وَأَفْوَاهُهُنَّ الزَّافِرَاتُ حَدِيدُ
 دِمَاءٍ تَلَقَّتْهَا مَلَاخِيفُ سُودُ
 سَلِيطُ لَهَا فِيهِ الذَّبَالُ عَتِيدُ

وكان الشاعر قد سبق له وصف لهذه النار التي لا يغلبها الماء :

[طويل]

- 38/3 وَسُفْنٍ إِذَا مَا خَاضَتْ الْيَمَّ زَاخِرًا
 39 تُشَبُّ لَهَا حَمَرَاءُ قَانٍ أَوَارَهَا
- جَلَّتْ عَنْ بَيَاضِ النَّصْرِ وَهِيَ غَزَائِبُ
 سَبُوحُ لَهَا ذَيْلٌ عَلَى الْمَاءِ مَسْحُوبُ

ويظهر أن هذه السفن كانت تحركها الرياح أو الأيدي على السواء ، فلئن خلقت بلا أيد ، فالمجاذيف هي أيديها ، وهي ضخمة تحمل في جوفها جنوداً كثيرين ، وهي أيضاً مزدوجة المظهر : فالظهر منها تعلوه الأقمشة النفيسة زمن الاستعراض والزينة ، والجنب تغطيه الدروع الحديدية الواقية من نيران العدو :

- 50/13 فَلَيْسَ لَهَا إِلَّا الرِّيحُ أَعْنَى
 52 ... رَجِيئُهُ مَدَّ الْبَاعِ ، وَهِيَ نَتِيجَةُ
 54 ... لَهَا مِنْ شُفُوفِ الْعُبْقَرِيِّ مَلَابِسُ
 57 ... فَمِنْهَا دُرُوعٌ فَوْقَهَا وَجَوَاشِينُ
- وَلَيْسَ لَهَا إِلَّا الْحَبَابُ كَدِيدُ
 بَغِيرِ شَوَى ، عَذْرَاءُ وَهِيَ وَلُودُ
 مَقْوَفَةٌ فِيهَا الثُّصَارُ جَبِيدُ
 وَمِنْهَا خَفَاتِينَ لَهَا وَبُرُودُ

ودقة وصفه لهذا الأسطول الذي مكن الفاطميين من السيطرة على البحر طيلة خمسين عاماً ، تدلّ على أنه يعرف السفن الحربية معرفة جيدة ، ولعله عاينها معانية دقيقة مطوّلة عند صدورّها الى القتال ، وعند رجوعها مظفرة مزدانة بأعلام النصر . ولكن ممارسته للحرب البيزنطية تقف هنا : فلا نخاله شارك فيها بال سلاح أيضاً ، أو على الأقل بمصاحبة الأسطول في بعض غزواته ، كما فعل المتنبي أثناء مصاحبته لسيف الدولة الحمداني في حرب الثغور الشامية .

الاشارات التاريخية

(تابع)

قصائد المسيلة

قلنا إن القصائد التي نظمها الشاعر بالمسيلة تستعصي عن كل محاولة للترتيب التاريخي . لكنها تمدنا ببعض المعلومات عن الأخوين الأندلسيين في علاقتهما مع الخليفة وفيما بينهما، وعن بلاط المسيلة وما يحدث فيه ، وعن نوع الحياة التي كان يحياها الشاعر مع مدحويه هناك . فهي ، من هذه الوجهة ، أكثر إفادة من القصائد المعزّية التي سيوجّهها ابن هانيء وجهة عقائدية فيشيد فيها بالدعوة الإسماعيلية ويتهجم على أعداء الأئمة .

البلاط الحمدوني

هذه القصائد شعر القاريء بأن جعفر بن حمدون شبه مستقل بإمارته ، إذ له بلاطه وبطانته وحاشيته ، وأن الحياة بالزبب تتسم بالرغد بل بالترف ، كأنما المسيلة عاصمة خلافة لا إمارة ، فوفود الشعراء المادحين والعفاة المستجدين تتزاحم على باب الأميرين ، بل الملكين ، لأن ألقاب الملك تكثر على لسان الشاعر : فهذا جعفر ملك « ما سُدّ الأملأ من قبله »⁽¹⁾ ، وهذا

(1) قصيدة 31 بيت 41 .

يحيى أخوه الأصغر يسود « البرية كلها ، حتى الملوك العباهل »⁽¹⁾ ، وهذا أيضاً نجل جعفر ، إبراهيم ، هو على صغره ملك متوج : [خفيف]

7/38 لا أرى كابن جعفر بن علي ملكاً لابساً جلالة ملك

ونحن لا نغير لهذه الألقاب الملكية أهمية خاصة ، فهي لا تعني أصلاً أن هذا الاستقلال الظاهري هو تحرر بالفعل من التبعية للسلطة الفاطمية ، فلا يغيب عن الشاعر ان الأميرين هما ممثلا الإمام وساعده ونصيراه في هذه المنطقة الوسطى من رقعة نفوذه الواسعة ، وأن جعفر بن حمدون يواصل مع المعز المناصرة التي قدمها لأبيه اسماعيل المنصور : [طويل]

3/63 وكنت يد المنصور منصور هاشم لذا البطش ، إذ أيدي الفوارس سوق

وكيف تغيب عنه حقيقة العلاقة بين الأمير والخليفة ، وقد تمرس بالمبادئ الإسماعيلية منذ وطئ أرض المغرب ، بل ربما منذ شبابه بالأندلس ، كما تدل عليه القصيدة الحاثية التي نظمها في جوهر القائد ، وهي أول مدائحه على الإطلاق . وحتى إن بدا لنا في هذه القصائد شيء من الخفوت في ترديد الشعارات الشيعية المألوفة ، فلا يغرننا ذلك فنقول إن ابن هانيء يؤيد هذا الاستقلال أو يدعو إليه ، بل سنرى انه يدعو جعفرأ بالحاح الى الوفاء للأئمة ويحذره من مكاييد من يزين له التحالف مع خصومهم المروانيين .

كما لا تغرنا عبارة « الملك » ومشتقاتها ، فهي قديمة في معنى السلطة والرئاسة والسؤدد ، دون ان يتعلّق بها معنى المصطلح السياسي . ومنذ الجاهلية كان رؤساء العشائر القويّة يسمّون ملوكاً : حُجّر آكل المزار كان « ملك » كندة وابنه امرؤ القيس كان « الملك الضليل » رغم أنه خُلِعَ عن الملك بمقتل أبيه ، وكليب وائل سمّي « ملك ربيعة » بعد وقعة خزازی⁽²⁾

(1) ق 64 بيت 17 . نذكر أنّ القصائد 61 الى 70 هي التي نشرناها بالحواليات 1969 .

(2) انظر دراستنا عن « أدب أيام العرب » في الحواليات 1981 .

والمناذرة بالحيرة كانوا ملوكاً مقصودين رغم ولائهم المضيق للأكاسرة .

هذا هو مدلول الكلمة عند الشاعر ، وإذا احتجنا الى دليل آخر على بعده عن فكرة الاستقلال ، وجدناه في الأبيات التي تقرن لفظ الملك بلفظ الإمارة سواء بسواء : [طويل]

3/63 ويا مَلِكَ الزاب الرفيعَ عمادُه بقيتَ لجمع المجد، وهو فريق
6 . . . فما أنس لا أنسى الأمير إذا غدا يروُغ بِمَرأى ملكه ويروق

فهذا الملك إنما هو أمير ، وهو تابع لملك أعظم منه ، وولايته إنما هي جزء من الخلافة، والخلافة كالامبراطورية تتركب من ولايات عديدة، على رأس كل واحدة والٍ أو أمير يسميه الشعراء ملكاً . هكذا كان سيف الدولة الحمداني « ملكاً هازماً لنظيره » في نظر المتنبّي ، وكان كافور « الملك الأستاذ » رغم انها تابعا بالنظر لسلطان بغداد .

وبعد ، فلا تمنع هذه الاحترازا من الإقرار بان جعفر بن حمدون كان يتمتع في ولايته بحرية في التصرف - ولا سيما في الشؤون المالية - يحسده عليها بقية الولاة في اقليمهم ، ونجد في سيرة الاستاذ جوذر⁽¹⁾ صدى لتذمراتهم من هذا الامتياز. ولعل هذا الفسحة في أموال الجباية التي يحتفظ بها عوض أن يوصلها إلى القيروان هي التي عمّرت قصره بالشعراء والعلماء وجعلت بلاطه زاخراً بالعلم والفن والأدب كما يقول ابن خلدون⁽²⁾ .

ويشهد شعر صاحبنا بهذا الازدهار الذي جعل المسيلة شبيهة ببغداد :

[كامل]

35/6 ورايتُ حولي وفدَ كلِّ قبيلة حتى توهمتُ العراقَ الزابا
كما يشهد بأن سياسة جعفر في رعاياه عودتهم على الترف والأناقة حتى

(1) سيرة ص 129 - 133 وترجمة كانار ص 197 - 200 .

(2) ك . العبر ، بيروت ج 16 - 21 ص 315 .

صاروا يَسْتَحْشُونُ النسيمَ العليل ، وكأنهم صاروا بغداديين أكثرَ من أهل
بغداد : [طويل]

54/31 تبغْدَدَ منه الزاب حتى رأته يهبُ نسيمُ الروض فيه فيُسْتَجْفى

وعلى ذكر تشبيه الزاب ببغداد قد نتساءل عن الدافع اليه دون غيره،
ونستغرب من شاعر شيعي إسماعيلي أن يجعل عاصمة الدولة المنافسة الزائفة
الغاصبة، معياراً للرفاه والظرف ، إذ بها يشبه كلُّ مستحسن أتيق جميل . ولا
غربة في الحقيقة : ابن هانيء كجميع أدباء المغرب والأندلس يشعر إزاء
الشرق بمرْكَب التلميذ الذي لم يبدُ استاذهُ بعدُ ، ذاك المرْكَب الذي
سيستكرهُ ابن حزم فيؤلف رسالته⁽¹⁾ في فضائل الأندلس ، ثم ابن بسام في
الذخيرة . والذي سيحوِّله الشقندي (1231/629) الى مرْكَب استعلاء على أقطار
المشرق⁽²⁾ . وستبسِّط في هذه التبعية الثقافية عندما نصل إلى خيال الشاعر
وصوره الشعرية .

على أنه يجنح إلى تشبيهات أخرى ، غير المعيار البغدادي ، فيصوِّر
ازدحام الزائرين على باب الأمير بصورة منتزعة من الرصيد الديني : [طويل]
88/62 أرى الناس أفواجاً اليك كأنما من الزاب بعث أو من الزاب محشراً

ولا تقتصر أوصافه لهذه الحياة الناعمة على قصر جعفر بن حمدون : بل
يحيي أيضاً له قصر وبلاط ، رغم أن الشاعر لا يُعلمنا بمقرّ هذا القصر أكان
بالمسيلة أم بمدينة أخرى من الزاب ؟ وكذلك إبراهيم بن جعفر له قصر وزوار
ومادحون ، دون أن نعلم حقيقة وظيفته عند أبيه .

(1) نفح الطيب 164/3 . وانظر فصل شارل بلا بمجلة الأندلس 1954 عدد 19 .

(2) فصل أ . لويّا بمجلة هيسبيريس المغربية / 22 .

حياة اللهو

نجد في هذه القصائد الحمدونية استهلالات أو استطرادات خمريّة تحمل على الظن أن حياة الاميرين لم تكن على التقشف والجَد والاستقامة التي عرفت بها حياة المعزّ . فنرى الشاعر مثلاً يدعويحسّ إلى أخذ نصيبه المشروع من المتعة واللذة ، وقد قضى واجبه في القتال وطلب المعالي فعاد إلى بلاطه غانماً مظفراً : [طويل]

46/18 فرغت من المجد الذي أنت شائد فجرّ ذبول العيش في الزمن النضر!
49 ومازلت تُروي السيف في الرّوع من دمٍ فحقك ان تُروي الثرى من دم الخمر
50 وتنعّم بالبيض الأوانس كالدمى وترفل من دنياك في حلّ خضر
ومن هؤلاء الأوانس البيض جارية أهداها جعفر الى شقيقه فكانت فرصة
للاشادة بالتعاطف الواجب بين الأخوين :

53/18 ... حباك بها من أنت شطر فؤاده
وما شطر شيء بالغني عن الشطر
54 أخوك ، فلا عين رأت مثله أخا
إذا ما احتبى في مجلس النهي والأمر
56 ... فمن ملك سام الى ملك رضى
تمادت ، ومن قصر مُنيف الى قصر

ويوجّه النصائح نفسها الى إبراهيم فيدعوه الى خلع العذار وترك حياة الشباب ، وقد صار أميراً مؤمراً على جواريه وخدمه في هذا القصر الذي بناه له أبوه ، فلينعّم بهنّ وليشرب معهنّ خمرأ صافية كالنجوم : [كامل]

27/57 فاخلع حميداً بينها عُذر الصبا وليد سرّ ضمائر إعلانها
39 ... وتحالها صفراء عارضت الدجى وسرت فنادم كوكباً ندمانها

حتى مدائح الأمير لا تخلو من هذه المعاني النواسية ، ففي إحداها يتخلّص الشاعر من النسيب بسرعة فيدعو إلى عقد مجلسٍ ظريف على خمرة عجوزٍ بلغت من العمر مائة عام : [طويل]

5/28 خَلِيلِي هُبَا نَصْطَبِهَا مَدَامَةً لَهَا فَلَكُ وَتَرُ بِهِ أَنْجُمُ شَفَع
6 تَلِيَّةٌ عَامُ فُضُّ فِيهِ خَتَامُهَا خَلَا قَبْلَهُ التَّسْعُونَ فِي الدَّنِّ وَالتَّسْعُ

وفي أخرى يستطرد إلى وصف خمرة أعتق من هذه يصعد عمرها إلى عهد نوح ، وتسبح لربها إذا ما صوّت في الدَّنِّ : [منسرح]

14/61 وَفَهْوَةٌ مَرْزَةٌ مَعْتَقَةٌ مِنْ عَهْدِ نُوحٍ أَوْ عَهْدِ أَرْفَخْشُدْ
17 . . . تَسْمَعُ فِي دَنْهَا إِذَا هَدَرَتْ قِرَاءَةَ قَسٍّ صَلِيَةٍ مُجْدْ

ولعلّ الأمير كان يحضر هذه المجالس فعلاً او على الأقلّ يهّم بالحضور ، فيدعوه الشاعر إلى الامتناع لأنّ قدره أعلى من ذلك ، والوقار له أوجبٌ : [كامل]

8/2 حَاشِيَتْ قَدْرَكَ مِنْ زِيَارَةِ مَجْلِسٍ وَلَوْ أَنَّ فِيهِ كَوَاكِبَ الْجُوزَاءِ

أحداث البلاط

ونجد في هذه القصائد صدى للأحداث السارة أو الأليمة التي تقع في بلاط الأميرين ، ولكنّه صدى خافت مبهم لا يُعين المؤرّخ على ضبط التواريخ والأماكن والتفاصيل . وهكذا نعلم من المراثي الثلاث أنّ جعفرأصيب في حفيد له مات صغيراً وكان يسمّى عليّاً مثل جدّه الأول ، ثم في أمّه التي التحقت بزوجها مؤسس الأسرة وبالطفل ، ولكن لا ندري كم يفصل بين هذه الوفيات الثلاث . كما نحاط علماً بمرض ألمّ بالأمير فتوجّع له الشاعر في قصيدة وفداه بالنفس . ويتهادى الأخوان النفائس ، جارية من هذا وخيل من ذاك ، فيصف الشاعر الهدية ويشيد باتحاد الشقيقين وتكاتفهما . ويفرغ جعفر

من بناء قصر أبه إبراهيم ، فيرسل الشاعر تحيةً عن بعد ، ولعله كان في
 صحبة يحيى في إحدى غزواته ، ويمني نفسه بالرتبة العالية في هذا القصر
 الجديد : لا يحتاج إلى إذن ، بل يكون هو الذي يأذن لهذا ، ويدفع هذا ،
 ويقدم الشعراء ويؤخرهم : [طويل]

26/ 62 أَلَيْكُنِي إِلَى الْقَصْرِ الْمَشِيدِ تَحِيَّةٌ فَقَدْ حَدَّثَ الرِّكْبَانُ عَنْهُ فَأَكْثَرُوا
 50 . . . إِذَا شِئْتُ لَمْ يَصْعُبْ عَلَيَّ حِجَابُهُ وَلَمْ يَجْئُنِي فِيهِ الرَّئِيسُ الْمَوْقِرُ
 51 أَجْرُ ذِيوَلِ الْعِزِّ بَيْنَ عِرَاصِهِ وَأَنْشُرُ مَا حَاكَ الشَّاءُ الْمُحْبِرُ
 52 فَأَشْفَعُ فِيهِ لِلْوَفودِ إِلَى الشَّاءِ لِي الْإِذْنَ فِيهِ وَالْمَقَامُ الْمَشْهُرُ

لكن هذه الأمنية حسب ما يبدو، حلم بعيد ، فليس للشاعر من الخطوة
 عند الأميرين ما يبيّنه منزلة الحكم بين المادحين ، بل بالعكس نراه يشكو
 الحساد الذين يتقصونه عند جعفر بقلة مدائحه وقصرها فيضطروا إلى الاعتذار
 ويتخلص بحجة لبقة سيستعملها بكثرة عند المعز ، وهي أن القرآن نطق بفضل
 الأئمة فأعجز الشعراء ، وكذلك خصال جعفر ، هي أعظم من أن يحيط بها
 شاعر مهما كان مقولاً مقوهاً : [كامل]

58/6 إِنْني اخْتَصَرْتُ لَكَ الْمَدِيحَ لِأَنَّهُ لَمْ يَشْفِنِي فَجَعَلْتَهُ إِغْشَابًا
 59 وَالذَّنْبُ فِي مَدْحِ رَأَيْتُكَ فَوْقَهُ أَيْ الرِّجَالِ يَقُولُ: فَيْكَ أَصَابًا؟

ونراه أيضاً يشكو الفقر فيطلب الرّفد خلافاً لما يدّعيه من الترفع عن
 الاستجداء ، فكان عطايا الأمير تتأخر بتأخر قصائد الشاعر او تقل بقلتها ،
 وربما طال الانقطاع فطال المنع ، كما وقع للمتنبي مع سيف الدولة . فهل
 كانت معاملة الحمدوني لشاعره مثل معاملة الحمداني ؟ [مقارب]

73/50 وَإِنِّي وَإِنْ تَرَنِّي قَابِضًا جَنَاحِي إِلَيَّ كَظِيمًا وَجَمًّا
 74 أَقَلُّ مِنْ هَفَوَاتِ الْمَزَارِ وَأَبْدِي الْغَنَاءِ وَأَخْفِي الْعَدَمَ
 75 فَإِنِّي مِنَ الْعَرَبِ الْأَكْرَمِينَ وَفِي أَوَّلِ الدَّهْرِ ضَاعَ الْكَرَمُ

ولكن ، رغم هذه الشكوى ، نعتقد ان حياة الشاعر بهذه الولاية الناعمة

كانت هنيئة مريئة ، فأسلوب العيش بها اندلسي أكثر منه مغربيّاً أو إفريقيّاً : أناقة ورفاهية وظرف وترف ، ولعل الشاعر قد ضاق به قليلاً لأنه وجده أشبهً بالعيش في بلاط اشبيلية الذي قد لفظه أو هو مله ، لا سيّما وانه قدّم المغرب بنيّة تسخير طاقته الشعرية لخدمة الدعوة ونُصرة الأئمة ، فإذا به في بلاط يطيب فيه العيش وتهلّأ فيه الحركة وتُنسى المشاكل ، ولعلّه أيضاً أخذَ هنيئة إلى هذه الدعة وركن إلى هذا النعيم ، فحفتت في شعره المعاني المذهبية التي حمّلها قصيدته المغربية الأولى ، أي مدحة جواهر .

الولاء الفاطمي

وهو ، إذا تعرّض إلى ولاء الأخوين للإمامة الفاطمية ، يتلطف فلا يقدّمه في صورة التبعية المحضة ، بل في صورة المؤازرة عن اقتناع بالدعوة ، ويُسْتَمَرُّ نَسَبُ الأميرين الأزديّ فيشبه نصرتهما للمعزّ حفيد الرسول (صلى الله عليه وسلم) بنُصرة أجدادهم من أزد يثرب للنبيّ الهاشمي :
[كامل]

40/6 (ك) سَدَّ الإمامُ بك الثغورَ وقبله هَزَمَ النبيُّ بقومك الأحزابا
أو يجعل من جعفر « السيف اليماني » المسلول في وجه أعداء
الهاشميين : [متقارب]

14/50 رأيتُكَ سيفَ بني هاشم وخيرُ السيوف اليماني الخِدم
أما يحيى فيحمي الثغورَ وثغره باسم : [طويل]

42/52 وإنك عن ثغر الخلافة ذائد وإنك عن ثغر الخلافة باسم
إلا أن الشاعر يعطي الأولوية لجعفر ، فلا يأتي يحيى ، فضلاً عن إبراهيم ، إلا في مرتبة ثانية : فجعفر هو الذي رباه وسن له طرق المعالي ، وإن

يَعْلُ صَيْتَهُ فَبِفَضْلِ التَّكْوِينِ الَّذِي تَلَقَّاهُ مِنْ جَعْفَرٍ : [طويل]

23/63 سننك ليحيى سنّة يُقْتَدَى بها فُتْتُ، ومنه في الأمور لحوقُ
33 ... تفوقُ وتعلو أنت بالله وحده وبأسْمِكَ يعلو قدره ويفوق

ويتبّه الشاعر إلى ما في تأكيد هذه التبعية من انتقاص لمرتبة الأخ الأصغر، فيلجأ إلى الرصيد القرآني ويستخرج منه تشبيهاً للأخوين - في تآزرهما - بهارون وموسى عليهما السلام : [طويل]

64/18 لعمري لقد أَيْدَتْ يوم الوغى به
كما أَيْدَتْ كَفَاكَ بِالْأَنْمُلِ الْعَشْرِ
65 لذلك ناجى الله موسى نبّيه
فنادى أن اشرخ ما يضيق به صدري
66 وهب لي وزيراً من أخي أَسْتَعِينُ به
وأشدُّد به أزري وأشرِّكه في أمري⁽¹⁾

مدى الوفاق بين الأخوين

عبارة « أشرِّكه في أمري » تبعث على التساؤل ، ولا نظنّ أن الشاعر ضمّن بها أبياته لمجرد استفراغ الصورة كما يقول أهل البلاغة ، أو لإظهار معرفته بالقرآن ، بل لعلّ له فيها أرباباً : وهو حتّ جعفر على التخفيف من استئثاره بالحكم وعلى إسناد مزيدٍ من المسؤولية لشقيقه . فان صحّ هذا التخمينُ ، نتساءل : هل نطق الشاعر من تلقاء نفسه أم بطلب من يحيى ؟ فيعني هذا أن الأمير الثاني يتضايق من رتبته الثانوية في الإمارة ومن صعود نجم إبراهيم بن جعفر على حسابه هو وحساب بنيه . يدعونا إلى هذا التخمين إلحاحُ الشاعر على الوفاق الواجب بين الأخوين ، كُتِباً للأعادي وتخييباً للشامتين ، ودعوته

(1) طه ، 25 - 32 وفي رواية أخرى : وَشُدُّ ... وَأَشْرِكُهُ ...

جعفرًا إلى اختبار سواعد أنجال يحيى ، وما سبق لهؤلاء ذكر في شعره :

72/18 فما مثل يحيى من أخ لك تابع
ولا كَبَنِيهِ من جَحَاجِحَةٍ زُهرٍ

ويجند أم الأميرين الميتة فيتضرع لجعفر باسمها حتى لا يفصم الوحدة
التي كانت الفقيدة رمزها ولحمتها : [متقارب]

80/59 فلولا الضريح لناذتُكُما تُعيذُكُما من شَماتِ العَدَى
ويضمن هذه المرة الشاهد المعروف « أَخَاكَ أَخَاكَ إِنَّ مَنْ لَا أَخَا
لَهُ ... »⁽¹⁾ لَحَنَهُ على الاستعانة الدائمة يحيى والتمسك بالآلفة والاتفاق :

83/59 ومهما طلبت دليل الكرام فأنّ الدليل أثتلاف الهوى
84 وانت اليمين فضل بالشمال فما ليد عن يد من غنى
86 ... ومن لا ينادي أخاً باسمه فليس يُخاف ولا يُرتجى

وقد كان يمكن أن يتعرض الشاعر لسخط جعفر ، بسبب دفاعه عن
يحيى ولكنه لا يبالي ، بل يزيد له وفاء فيبرىء ساحته من تهمة لا يوضحها
لنا ، ولعلها وشاية سعى بها بعض الكائدين لدى جعفر حين كان يحيى بعيداً
عن المسيلة : [طويل]

2/69 أخوك الذي تحنو عليك ضلوعه
وما عنده مما علمت له علم
3 سوى أن أحست ما بنفسك نفسه
ودونكُما البيداء والأجبل الشّم

ولعلّ السعاة والمغتائب كانوا يعملون على كسب الأميرين الأندلسيين
للولاء الاموي ويمهدون للقطيعة التي ستتم سنة 971/360 . فقد أخبرتنا سيرة

(1) بقية الشاهد : ... كاع الى الهنجا بغير سلاح .

الاستاذ جوذر⁽¹⁾ بوجود داعية مرواني يُدعى عثمان بن أمين ببلاد جعفر يدبر المكاييد لهذا الغرض. ونحن نعلم من جهة أخرى ان كاتباً لجعفر يدعى الوهراني قد تعرّض لهجاء الشاعر بسبب الخطر الذي كانت دسائسه تهدّد به جعفرأ ، فدعاه إلى الإبقاء على الامير والابتعاد عنه: [خفيف]

- 18/29 أبق لي جعفرأ، ابا جعفر، لا ترم يوميه بالثاد العسوف
20 ... فإذا ما نعت شر نعيب فعلى غير ريعه المألوف
21 لست أخشى الا عليه فكن بأل ————— أرزجي الرؤوف جد رؤوف

فهل سلط هذان الرجلان نيميتهما على يحيى خاصة لأنه لم يستجب لدعايتهما؟ نحن لا نستبعد ذلك ، ولا نستبعد بالخصوص ترّد يحيى واستنكافه من خلع الولاء الفاطمي ، إذ نعلم أنه ، يوم ان قرّر جعفر الانتقال الى قرطبة ، تبعه يحيى على مضض لاثماً نفسه على قطع ولائه لأبناء فاطمة وصرفه الى الأمويين⁽²⁾ ، وانه بادر فور وصوله الى الأندلس بالانقطاع عن جعفر فقبل ولاية البصرة بشمال المغرب الأقصى ، وأنه في نهاية الأمر التحق بالفاطميّين بالقاهرة ورجع ثائبا الى ولائهم .

وإذا احجنا إلى دليل إضافي على موقف الشاعر من يحيى ، وجدناه في المدحة التي دبّجها في أخوي المعز ، الأميرين طاهر والحسين : فقد تضمّنت بالخصوص مدحاً ليحيى ودعوة لهما لاستخدامه وجعله محل ثقتهما لأنه برهن بمآتيه السابقة على وفائه للأئمة : [رمل]

- 47/15 إن يحيى بن عليّ أهل ما جئناه من جزيلات الأيادي
52 ... مثله خاط ثغور الملك في كل دهياء على الملك نادر
53 أي زندي فاقدها! ثم في أي كف! فصلاها بامتداد!

(1) ص 123 من النص العربي ، وص 187 من الترجمة الفرنسية .

(2) الحلة السراء ، ترجمة يحيى بن حمدون ، عدد 111 .

حروب الأخوين

لا يكتفي الشاعر في قصائده الحمدونية ، بذكر الأحداث التي تقع بالبلاد والاشارة إلى ما يحاك فيه من دسائس . فهو يتعرّض أيضاً إلى العمليات الحربية التي ينظمها الأميران، وأحياناً إبراهيم بن جعفر أيضاً، ضد القبائل المتمردة على الحكم الفاطمي أو الممتنعة عن الجباية . هذه الحملات التي تفتح الجبال المنيعه أو الحدود البعيدة يصورها الشاعر في شكل ملاحم عظيمة وانتصارات باهرة ، بحكم ميله المعروف الى التفضيم والغلو ، ولعلها لم تكن في الحقيقة الا تحركات موسميّة عادية . وإشارات الشاعر في هذه القصائد لا غناء فيها للمؤرخ أو الدارس لأنّ الشاعر لا يدقّق ولا يفصل ولا يوضّح ، فلا علم لنا بالزمان ولا بالمكان ولا بالأشخاص ولا بالنتائج المفصلة . لكنّ ابن هانيء يهرّب من التدقيق قصداً لأنه لو دقّق ، لأفقد هذه العمليات ما ادّعاه لها من خطورة وقول ، والمجهول وحده مهول . وهكذا لا نستفيد الا النزر من المعلومات : مثلاً ، انها حملة ضدّ الأعراب ، وقد يعني بهم المارقين من زناته ، وهم بربر رُحّل : [طويل]

21/63 به عرفت تلك الأعاريب قهرها فلا مارق يخشى عليه مروق
22 فقد غدت الأجسام وهي حقائق وعاد زئير الليث وهو شهيق

أو أنها غزوة انتصر فيها يحيى ففرض الأمن بالمغرب الأقصى وأحلّ
الطمأنينة بعد الفوضى : [طويل]

30/8 نحا المغرب الأقصى بسطوة بأسه فغادره زهوا وقد كان مُرتجبا

ولكن في أيّ منطقة من المغرب ؟ وضدّ من ؟ وفي أي وقت ؟ معلومات مسكوت عنها ، والسكوت محير ، خصوصاً وأنّ العمليات بالمغرب لم تكن من صنع يحيى أو جعفر وحده ، بل كان يقودها أيضاً أمير آخر من ممدوحى الشاعر ، نعني أبا الفرج الشيباني الذي ستحدّث عنه بعد قليل . وقد نجد في

القصيد الواحد إشارات يصعب الربط بينها : فهذا مدح لإبراهيم بن جعفر ، يتخلله تعظيم لآبيه ، مصدر كل مكرمة ، ووصف لهزيمة الجحت بالحروريين ثم ذكر لقائد مظفر يُنتظر قفوله من المغرب الأقصى : [طويل]

39/32 رعى الله إبراهيم من ملك حنا

على الملك حانيه وأشفق مشفقة
40 وأوزى بزند الأرقم الصل جعفر

ولم يُعِبه فتق من الأرض يرتقة
43 ... وأغنى الحروريين متقد الثهي

مظاهر عقد الحزم بالحزم موثقة
53 ... وبالمغرب الأقصى قريع كتائب

تخب بمسراه فيرجف مشرقة
54 سيُرضيك منه بالإياب وسعيه

ويجمع شلا شاد مجداً تفرقة

فَتَسْأَلُ : أجعفر الممدوح أم الابن ؟ فان كان إبراهيم ، فكيف يُمدح وهو غائب ؟ وهل هو المعني بالقائد الظافر في المغرب الأقصى ؟ ومن هؤلاء الخوارج الذين قهرهم ؟ ولا نظفر بطائل أمام هذا الإبهام وهذا الالتواء ، خصوصاً وأن التوطئة تضيف : « ... ويهجو الوهراني » ، ولا ذكر للوهراني .

وهناك قصيدة جديدة باهتمام خاص، هي السادسة عشرة التي قلنا انها قد تكون نظمت بالقيروان وأرسلها الشاعر إلى الممدوح، أي جعفر، بالمسيلة، عند وصول نبي النصر الذي حققه على الخوارج بقلعة تدعى كيانة ، وهي تلفت الانتباه لأن لهجة الشاعر فيها قوة والنفس الملحمي فيها أظهر منه في غيرها ، ثم لأن ابن هانيء قلماً يخصص قصيدة كاملة لوقعة معينة .

يستهل القصيدة بتشبيه هذه القلعة بحصن السماأل بن عادياء في الشموخ والمنعة ، فيرضي في آن واحد ميله الى الغلو وتعلقه بالتراث الثقافي

القديم : [طويل]

1/16 بلى ! هذه تيماء والأبلق الفردُ فسل أجَمَاتِ الأسدِ : ما فعل الأسد؟

ويذكر صدى فتحها بالقيروان :

4/16 تؤمُّ أميرَ المؤمنين طوالعاً عليه، طلوعُ الشمسِ يقدمها السعدُ

5 فتوحات ما بين السماء وأرضها لها عند يومِ الفخرِ ألسنةٌ لُدّ

ثم ينسبها الى الحرورية هي أيضاً ، ويحملة تشيعه على اتهام الخوارج بالكفر فانهم لا يصلّون لربهم ولا يعترفون بسلطان ، كما تحمله عنصريته اليمينية على انتقاص عجمتهم البربرية ، فهذه القلعة ما نطقت العربية قط . أما اليوم وقد استقرّ بها جعفر الملك القحطاني فقد حلّت بها الفصاحة والبلاغة مع الأمن والطمأنينة :

8/16 حروريةٌ ما كَبَرُ اللهُ خاطب عليها، ولا حتّى بها ملكاً وفدُ

9 وكانت هي العجماء ، حتى احتبى بها ملوكُ بني قحطان ، والشعر والمجدُ

10 لذاك نراها اليوم آنس من منى وأُفْتِخَ من نجدٍ وما وصلت نجدُ

والشاعر لا يسمّي القلعة باسمها . وإنما ذكر اسم كيانه في توطئات المخطوطات محرّفاً إلى « كنانة » و « كنانة » و « كنانة » و « كنانة » . ولا يمكن أن تكون قلعةً لكثامة ، فالكناميون أنصار للفاطميين منذ أن داخلهم الداعي أبو عبد الله ، وإنما هي كيانه معقل أبي يزيد صاحب الحمار في آخر أيامه . فقد تحصّن بجبال المعاضيد في شمال شط الحضنة وحاصره المنصور هناك وظفر به جريحاً أو قتيلاً . ومما يحقّق عندنا اسم هذه القلعة - وقد تكون لا قلعةً مبنية بل سلسلة من الجبال المنيعه - أن الشاعر ينسبها إلى مخلد وهو صاحب الحمار :

27/16 فمن جَمرةٍ قد أطفئت مَخْلَدِيَّةٍ وأخرى لها بالزباب مُد زَمَنٍ وَقُدْ

ويستعمل لوصف تسليم - او استسلام - الثائر المتحصّن بها تعبيراً يكاد

يكون منقولاً عن قصيدة للشاعر الإياديّ كان وصف فيها استسلام - او تسليم - ابي يزيد للمنصور : فكلاهما استخدم صورة الوليد الذي لفظه مهده⁽¹⁾ ، إلا أنّ الوليد الذي يعنيه ابن هانئ هو على ما يبدو أحد رؤوس زناتة من قبيلة مغراوة ، ولعلّه ، كما يظن ماريوس كانار⁽²⁾ ، محمد بن خزر العدوّ العنيد للفاطميين . وعلى عادته ، لم يذكر الشاعر اسم هذا الثائر المغلوب ، ولكن القرائن المختلفة : العجمة ، اي البربرية ، والانتساب الى المذهب الخارجي ، والاشارة الى ثورة صاحب الحمار ، والالاحاق في طول تمرّدها على الدولة الشيعية - وقد دام حسب قوله ، ستين عاماً - كل هذا يؤيد ما نذهب اليه مع غيرنا : ان العملية قادها جعفر ضد أحد رؤوس زناتة الخارجيين في المنطقة الجبلية التي كان تحصّن بها ابو يزيد واختارها لمناعتها ووعورة مسالكها ، ولكنها خرّت لجعفر كما خرّ سيناء لموسى :

وكانت شجاً للملك ستين حجةً 25/16

وما طيب وصل لم يكن قبله صدّاً
بها النار نار الكُفر شُبّ ضرامُها 26

ولو حُجِبَتْ في الزند لا حَرَقَ الزُّنْدُ
... ولَمَّا تجلّى جعفر صُعقت له 20

وأقبل منها طور سيناء ينهدّ

وعلى ذكر انتقاص الشاعر للبربر بسبب عجمتهم وبعدهم عن الفصاحة وجهلهم بالدين الصحيح في زعمه ، نقول : لعله نقل هذه العقليّة من نشأته الأولى بالأندلس . فقد كان العنصر العربي هناك يترفع على غير العرب كما تشهد بذلك رسالة الشقندي . إلّا أن الشقندي متأخر بالنسبة الى شاعرنا ، وقد

(1) انظر قصيدة الإيادي في الحوليات عدد 10/1973 ص 102 .

(2) الاسرة الحمدونية ص 39 . وقراءة «كبانة» هي التي اختارها فوندرهايدن : ابن حماد ص 51
تنبية 1، وماريوس كانار في ترجمته لسيرة جوذر ص 69 تنبيه 71، وبول ماسيرا في مقاله عن
المسيلة ص 159 .

تفاقت العنصرية إزاء البربر بعد تدخّلات المرابطين ثم الموحدّين لإنقاذ الأندلس رغم أنف أهلها . على أنه من المحتمل أيضاً أن تكون عنصرية ابن هانيء ترجمةً للتنافس السياسي بين ابن الأندلسيّة ، اي جعفر ، وأمير صنهاجة البربريّ، زيري بن مناد ثم ابنه بلقين . وقد سبق ان عَرَضْنَا للرأي الذي يعزو تحوّل المعز عن إفريقية الى العداوة العلنيّة والدينيّة ، بين سكان المغرب البرابرة السنيّين والأسرة الشيعيّة الدخيلة . وفي إفريقيّة بالذات لنا شاهد على هذه الشعبيّة المعكوسة في سلوك الزاهد القيروانيّ البهلول بن راشد (ت 799/183) : فإنه أقام وليمةً حين عِلِمَ أنه عربيّ الأصل لا بربريّ⁽¹⁾ .

والترفع عن العنصر البربريّ لم يمنع جعفرأ من التعاطف مع الزناتيين ، لأنهم أعداء منافسيه الصنهاجيّين ، فنراه يسارع الى العفو عنهم بعد الظفر بهم :

45/16 وما عن أمانٍ يومَ ذاكَ تنزّلوا ولكن أمان العفو أدركهم بعدُ

ونجد في القصيدة الثامنة والعشرين ، وهي أيضاً في مدح جعفر ، اشارات قريبة من هذه التي عرضناها آنفاً ، كأنما الشاعر أعاد فيها عرضه للأحداث ، إلّا أنه هنا يذكر صراحةً بني أمية ، فيؤكد بذلك ان التأثير الزناتيّ المغلوب كان حليف المروانيّين : [طويل]

18/28 ولَمَّا طَغَوْا فِي الْأَرْضِ أَعْصَرَ فِتْنَةً وَكَانَ دَيْبُ الْكُفْرِ فِي الدَّوْلَةِ الْخُلْعُ

19 سَمَوْتَ بِمَجَرٍ جَاذَبَ الشَّمْسَ مَسْلُكاً وَثَارَ وَرَاءَ الْخَافِقِينَ لَهُ نَقْعُ

20 فَالْقَى . بِأَجْرَامٍ عَلَيْهِمْ كَأَنَّمَا تَكَفَّتْ عَلَى أَرْضٍ سَمَاوَاتُهَا السَّبْعُ

21 كَتَابُ شُلْتُ فَايْذَعَرْتُ أَمِيَّةً فَاوْجُهَهَا لِلْخِزْيِ أَثْفِيَّةٌ سَفْعُ⁽²⁾

وانه طغى مدة طويلة فصعد اليه جعفر في جباله الشامخة التي لا تطوّها

(1) محمد الطالبي : تراجم أغليّة ص 30 . وانظر : ادريس : مساهمة ... 143 . وانما فرح

البهلول لأنه سمع أحاديث كثيرة موضوعة تنعى على البربر قلّة دينهم .

(2) تكفّت ، أي تكفّت : انقلبت . ابدعرت : تفرّقت .

إلا الشمس عادة فقهره وكانت بذلك خيبة المروانيين ، الا انه هنا يذكر حصناً مشيداً انجلوا عنه بعد الهزيمة : [طويل]

24/28 تجافوا عن الحصن المشيد بناؤه وضاق بهم عن عزم أجنادهم وسع

والغريب ان المؤرخين لم يشيروا الى هذا الحصن في المنطقة التي وسمت بكيانه ، ولا ذكروا أن الحضور الأموي بلغ الى هذه الناحية من المغرب الأوسط . فهذه من غوامض الإشارات أيضاً ، ولا يسعنا الا الافتراض والتخمين : فإن كانت القلعة في جبال كيانه فلعل الإشارة الى المروانيين تعني فقط عميلهم الزناتي ، ذاك الذي يسميه « عميد الملحدين » ، وهو في آن واحد عميد الأمويين ، او كما نقول اليوم ، « عميلهم » :

27/28 وراح عميد الملحدين عميدهم لأحشائه من حر أنفاسه لدع

وبهزيمته « وخسرانه المبين » تمت خيبة أسياده المروانيين فصار الشاعر يشك في قدرتهم على تسيير الحرب :

31/28 وتلك بنو مروان نعلًا ذليلة لواطىء أقدام وأنت لها شنع
23 ... ألا ليت شعري عنهم ! املوكهم تدبر ملكاً أم إمأوهم اللكع ؟

ويبدو أن الشاعر استسلم الى جعفر :

29/28 تشرفت من اعلامها ودعوته فخر ملبي دعوة ما له سمع

30 فقل لمبين الخسر : كيف رأيت ما أظلك من دوح الكنهيل يا فق

وبالرغم من هذا الانتصار الذي يبرهن على عزيمة صادقة عند جعفر في قتال أعداء الأئمة ، نرى الشاعر يختم القصيدة بتحذيره من كفران النعمة ، أي قطع الولاء للدولة البيضاء :

34/28 أبا أحمد المحمود ! لا تكفرن ما تقلدت ! ولشكر لك المن والصنع !

35 هي الدولة البيضاء ، فالعمو والرضى لمقبل عفواً ، أو السيف والبطل !

وفي هذا الإنذار المخيف ما فيه من لبس : ألعفو لمن يستحقّه ، أيّ لمن تاب بعد التمرد ؟ أم لمن يصغي الى جواسيس الحكم المستنصر ؟ والقتل الذريع الشنيع ؟ ألّمن يهّم بالنقض والخذلان ؟ أمّ للزنانيّ إذا تمادى على غيّه ؟ وقد تنبّه المستشرق ماريوس كانار⁽¹⁾ الى ما في هذين البيتين من صرامة وتهديد ، ورأى أنّهما موجّهان الى جعفر . وقد نشاطره هذا الرأي ، الا انا نظنّ أن القصيدة مثل سابقتها الدالّية قد أرسلت ايضاً من القيروان لأن الشاعر ما كان يتجاسر على مخاطبة الأمير بهذه اللهجة .

ولا ينبغي هذا التحذير ولا هذا الجفاء اعتراف الشاعر بجميل الأسرة الحمدونية والإشادة بعطفها عليه وعلى ذويه ، فقد وجد في الأخوين مواطنين أندلسيين مثله أجاراه وجبرا كسره في وقت انسدت السبل أمامه وعريّ من ريشه : [كامل]

37/25 ابني عليّ ! لا كفرتُ اياديا أغلّيتني في عصر لؤمٍ مُرخص
38 جاورتكم فجبرتكم من أعظمي ووصلتكم من ريشي المتحصص

* * *

وهكذا استثمرنا ما يمكن استثماره من إشارات وتلميحات وتجاسرنا في أحيان كثيرة على الافتراض والتأويل وربط ما غمض من أحداث في رواية الشاعر بما ذكره المؤرخون ، فخرجنا بنتيجة يمكن اعتبارها حقيقة واقعة : وهي أن الشاعر ، رغم تعلّقه بالأسرة الحمدونية وحفظ اليد لها ، لم يبرح يدعوها الى الحفاظ على طاعة الأئمة والولاء للدولة الفاطمية ، وذلك لاعتناقه هو بالمبادئ الشيعة وانتصاره للمذهب .

بقية شعره

درسنا ، عند تعريفنا بالممدوحين ، القصائد التي مدح بها الشاعر أشخاصاً آخرين غير المعز وأمرء المسيلة . هؤلاء الممدوحون المجهولون هم :

- أفلح الناشب والي - او قاضي - برقة .

- ابو الفرج الشيباني الذي لا ذكر له قطّ عند المؤرخين وأصحاب التراجم . وقد افترضنا انه قائد بكري مكلف بحفظ الأمن على الحدود المغربية ، ولعله كان يقيم بجهة تاهرت التي كانت تقطنها عناصر من شيبان⁽¹⁾ .

- أخوا المعز ، طاهر والحسين ، اللذان مدحهما بقصيدة اشاد فيها بفضل يحيى بن حمدون خاصة .

- أحمد بن زائدة « الكاتب » الذي ذكر في مخطوط تونس 1 لا غير .
ويظهر انه قائد ايضاً ، من أصل يمني ايضاً : [منسرح]

34/65 فخرأ بمدحجيك لأ بسالف قد طآن وإن كنت من مقاولها

وكان يقرض الشعر إذ له مطارحة شعرية مع ابن هانيء من نوع « التخريج » ، وهو ان يقترح واحد بيتاً فينظم الآخر أبياتاً في المعنى والوزن والروي ويختتمها بالبيت المقترح ، وكان بيت ابن زائدة في المخطوط :
[طويل]

فلو أن ما أبقيت متي معلق بعود ثمام ، ما تأوّد عودها⁽²⁾

(1) الشاذلي بو يحيى : الحياة الادبية ، ترجمة 93 (ابن ابي الرجال) ص 83 .

(2) حوليات 1972 قطعة 29 .

المقطوعات

ويجرّنا هذا الى دراسة المقطوعات والأبيات المنفردة التي تضمّنها الديوان ، بما في ذلك المقطوعات التي انفرد بها مخطوط تونس 1 . جملة هذه القطع الصغيرة ثمان وأربعون تشمل مائة وأربعين بيتاً ، انفرد مخطوط تونس 1 بستين بيتاً في ثمانين عشرة مقطوعة . وهذه القطع تضمّ البيتين والخمسة أبيات على الأكثر .

وقد استثمرنا هذه الإضافات القصيرة الى القصائد الكبرى الاثنتين والستين ، استثمرناها في ترجمة الشاعر وتحديد ملامح شخصيته ، واكتشفنا منها بالخصوص ميله الى اللهو والعريضة . وقد نستغرب غياب المقطوعات المجونيّة من النسخ التي اعتمدها الناشر الاسماعيلي زاهد علي ، ووجودها في مخطوط تونس¹ . فهل يعني هذا ان هناك نُسخاً « مطهرة » مما يخلّ بسُمة مآدح الأئمة الطاهرين ، وأخرى صريحة كاشفة لا تبالي ان يظهر شاعر الدخلاء العبيديين على حقيقة شذوذه وانحرافه ؟ نحن محمولون على هذا الظنّ إزاء بعض هذه القطع الخاصة بنسخة تونس 1 . ففي واحدة منها يتغرّل بغلام يقول المخطوط انه كان ينافس فيه الأمير تميم بن المعز ، فيتلاعب باسمه « عبد الله » (بن سليمان) فينظمُ حروفه في أوائل سبعة أبيات تقرأ عمودياً فينكشف الاسم المحبوب . وفي أخرى يسخر من مسكين كان ينظف بيوت الخلاء فتحوّل الى مهنة السقاء ، وهي سخرية ثقيلة منحنطة : [طويل]

أيا ابنَ ابي زَمُور الماخذ الذي
تبذل كي يُنسى فلم يك منسياً
تبذل من جام الكنيف بقربة
وكان « طعامياً » فعاد « شرابياً »⁽¹⁾

(1) حوليات 1972 قطعة 107 .

وفي أخرى يثني بعض أصدقائه الشعراء عن الخروج الى مصر مع معشوقة تدعى «رمانة المسك» فيقول : لا حاجة لمصر بهذا البوهيمي ومومسيه : [كامل]

ماذا تؤمل أرض مصر من فتى يغنى بها ، وخريدة يجدى بها
يمني ذوي آدابها وشبابها أن زيد في شعرائها وقحابها⁽¹⁾
وفي أخرى يستهزئ بشخص طويل اللحية فيشبهها بديك معلق :
[بسيط]

انظر إلى لحية الطمشيش بارزة حمراء ضافية دلت على حُبِّه
كأنما سرق الفران جارتَه ديكاً ، فعلقه القاضي على عُقَّة⁽²⁾

وهذه القطعة الأخيرة وردت مع بعض التغيير في تَمَّة اليتيمة⁽³⁾ ونسبها الثعالبي (1037/429) الى ابن هانيء آخر سماه جعفرأ ، مما يدعوننا الى الشك في نسبة هذه المقطوعات التي تختلف اختلافاً بيناً عن بقية شعر صاحبنا ، في مضمونها كما بينا ، وفي شكلها الهزيل الوضع ايضاً . فلعلها أقحمت في شعره ونُسبت خطأ اليه لأن اصحابها يُدْعَوْنَ ايضاً « ابن هانيء » كجعفر هذا الذي قال الثعالبي إنه أندلسي ايضاً . وقد تكون لابن هانيء آخر يدعى محمد (ابن ابراهيم) بن هانيء وكان يعيش بمصر في منتصف القرن السادس / الثاني عشر⁽⁴⁾ . وقد لا يقتصر الانتحال على هذه القطع الضعيفة : فالقطعة التي يقال انه مدح بها جعفر بن فلاح القائد الكتامي ، وهي مذكورة في جميع النسخ : [بسيط]

كانت مساءلة الركبان تخبرنا عن جعفر بن فلاح أطيب الخبر

(1) حوليات 1972 قطعة 12 . وقراءتنا تقريبية نظراً لرداءة الخط في النسخة .

(2) حوليات 1972 قطعة 67 .

(3) ج 1 ص 24 .

(4) العماد الاصفهاني : الخريدة (شعراء مصر) ج 1 ص 248 .

ثم التقينا، فلا والله ما سمعت أذني بأحسن مما قد رأى بصري⁽¹⁾

هذه القطعة أثبتتها بعض رواة الأدب منسوبة الى صاحبنا ، ولكن أثبتوها موسومة لا بالقائد البربري ، بل بشخص يدعى احمد بن سعيد⁽²⁾ . ومنهم من نسبها الى أبي تمام⁽³⁾ .

بل حتى كبريات القصائد قد نُسب بعضها الى غير ابن هانيء ، كالقصيدة السادسة والعشرين الطائية التي عزاها ابن ظافر⁽⁴⁾ الى معاصر شاعرنا ومساكنه في البلاط الفاطمي علي الايادي .

وليست المقطوعات الخاصة بالمخطوط التونسي ضعيفة كلها او منحرفة عن مألوف شعر ابن هانيء مثل هذه النماذج التي أوردناها . بل فيها قطع عادية ، مثل الأبيات المنفردة التي يشهد فيها بخصال ومدوحين معروفين كبني حمدون او أبي الفرج (محمد) الشيباني : [طويل]

ثلاث خصال سدت فيها عشيرتي ومن لم تكن فيه فليس بسيد
فهنّ : إذا واخيت، صرف مودتي وجود يميني، وامنداح محمد⁽⁵⁾

أما المقطوعات المشتركة بين جميع النسخ ، فلا تلفت الانتباه في خصوص الأخلاق أو أسلوب النظم فيها ، اللهم اذا استثنينا مقطوعتين في وصف مجلس لهو على طريقة أبي نواس . إلا أن الوصف شمل في أبياتها الخمسة ، الخمرة والأقداح والساقى والقيان ونجوم السماء : [وافر]

وليلٍ بت أسقاها سلافا معتقة كلون الجلثار

(1) زاهد عليّ : تبين ... 364 .

(2) ابن ابي حجلة : سكران ... ص 392 .

(3) المحيّي : خلاصة الأثر 88/1 .

(4) بدائع البدائة ص 389 .

(5) حوليات ص 83 قطعة 31 .

كَأَنَّ حَبَابَهَا خَرَزَاتُ دُرٍّ عَلَتْ ذَهَباً بِأَقْدَاحِ الثُّضَارِ
بَكَفَتْ مَقْرَظِي يُزْهِى بِرَدْفٍ يَضِيقُ بِحَمَلِهِ وَسُحُ الْإِزَارِ
أَقَمْتُ لَشْرَبِهَا عِبْشاً ، وَعِنْدِي بِنَاتُ اللَّهِو تَعْبَتْ بِالْعُقَارِ
وَنَجْمُ اللَّيْلِ يَرْكُضُ فِي الدِّيَاجِي كَأَنَّ الصَّبْحَ يَطْلُبُهُ بَشَارُ⁽¹⁾

والأخرى في وصف الجَلَنارة بالذات ، وهي من الأرجاز القليلة في الديوان ، وصف حمرتها القانية الدامية ثم ثغرتها الشبيهة بالابتسامة المغرية :

... جَاءَتْ بِمِثْلِ النَّهْدِ فَوْقَ الصَّدْرِ
تَفْتَرُّ عَنْ مِثْلِ اللَّثَاتِ الْحَمْرِ
فِي مِثْلِ طَعْمِ الْوَصْلِ بَعْدَ الْهَجْرِ⁽²⁾

ولكنَّ العَدَدَ الأوفر من هذه المقطوعات خصَّصه الشاعر لوصف السلاح ، وإنَّ له براعة خاصة في الإشعار بمناقب سيفٍ ممدوحٍ وُغْنائه في الحرب ، وكثيراً ما يكون سيف يحيى بن حمدون ، مما يدعو إلى الظن أن هذه الأوصاف إنما هي مطارحات شعريّة وطرائف مجالس : يَصُورُ مثلاً بريق السيف : [طويل]

وَذِي شُطْبٍ قَدْ جَلَّ عَنْ كُلِّ جَوْهَرٍ
فَلَيْسَ لَهُ شَكْلٌ وَلَيْسَ لَهُ جَنْسُ
كَمَا قَابَلْتُ عَيْنَ مَنْ الِيمَ لَجَّةً
وَقَدْ نَحَرَتْهَا مِنْ مَطَالِيعِهَا الشَّمْسُ⁽³⁾

وينسب إلى السلاح عواطفٍ شيعيّة مثل التي لحامله : فهذا « سيف صدق » يرسل بريقاً شبيهاً بدموع الباكين على الحسين : [طويل]

(1) زاهد علي ، ص 334 صادر ص 174 .

(2) زاهد علي ، ص 334 صادر ص 175 .

(3) زاهد علي ص 378 صادر ص 176 .

هو السيف سيفُ الصدق ، أما غِرَارُهُ فَعَضْبٌ ، وأما مَتْنُهُ فصَقِيلٌ
يشيع له الإفرندُ دمعاً كأنما تذكّر يومَ الطفِّ فهو يسيلُ⁽¹⁾

والخلاصة أنَّ هذه المقطوعات ، لئن لم تُسَعِّفنا بمعلومات جديدة عن
أطوار حياة الشاعر أو عن الأشخاص الذين مدحهم ، فإنها على كل حال تنير
جوانب من شخصيته وميوله وأخلاقه كانت تَبْقَى مجهولة لدينا لو اكتفينا بدراسة
القصائد الكبرى « الشريفة » الرسمية .

(1) زاهد على ص 648 صادر ص 307 . ويوم الطف هو يوم كربلاء .

أغراض ابن هاني ومعانيه

المعاني التقليدية

يشمل ديوان ابن هانيء كاملاً ، اي اذا اعتمدنا على طبعة زاهد علي وعلى الاضافات التي سمحت لنا بها مخطوطة تونس 1 ، سبعين قصيدة تتراوح بين احد عشر بيتاً ومائتين ، مجموع الابيات فيها يبلغ 4251 بيتاً . فإذا أضفنا اليها 140 بيتاً من المقطوعات الصغيرة والمنفردة ، بلغ مجموع ديوان هذا الشاعر 4391 بيتاً ، فهو إذن ديوان كبير .

المدح

معظم القصائد السبعين مدائح ، منها ست وعشرون في بني حمدون ، فإذا أضفنا اليها الهجاء الموجّه الى الوهراني ، وهو في الواقع مدح لجعفر ، وكذلك المراثي الثلاث في والدته جعفر وحفيدها ، بلغ شعر المسيلة ثلاثين قصيدة . ومدائح المعز بما فيها مدحة أخويه ثلاث وعشرون ، ومدائح القواد والولاة والكتاب تبلغ ثلاث عشرة قصيدة . والأربع الباقية لا تندرج في الأغراض التي اعتاد شعراء البلاط طرقها : اثنتان تنتسبان الى التمرين والمحاكاة : محاكاة لأبي نواس في رحلة خميرية ولعمرو بن ابي ربيعة في مغامرة

غزليّة ، وأخرى من نوع الوصف الساخر تهكّم بأكل ، والرابعة أقرب الى النقد الأدبيّ اذ تتناول ديوان المتنبي .

وننوي في هذا الفصل والفصلين اللاحقين ان ندرس الاغراض والمعاني التي تتضمّنها هذه القصائد ، فنبدأ بالأغراض التقليدية ، اي تلك التي تعود الشعراء المدّاحون ان يطرقوها، من الاستهلال، الى وصف الراحلة، الى المدح ، ونحلّل داخل كل قسم من هذه الأقسام نماذج من المعاني المطروقة . ونلحق بالمدائح قصائد الرثاء ، فنحلّل معانيها أيضاً . ونختم بالقصائد الأربع المستقلّة ، أي التي لا تذكر ممدوحاً ولا مهجوراً . وغرضنا من هذه الدراسة ان نفق على مدى مساهرة ابن هانيء للقوانين المتبعة واحترامه للتقاليد الموروثة منذ الجاهليّة ، ومدى تخلّصه منها إن كان هناك محاولة للتخلّص ، ومن جهة أخرى ، أن نبرز مميّزاته عن غيره من شعراء المدح : وهي التحزّب للدعوة الشيعيّة والانتصار الدائم للدولة الفاطميّة . وستكون دراسة هذه النواحي العقائديّة المذهبيّة وما يتبعها من مواقف سياسية ، ضدّ الخصوم والأعداء الأمويّين والعباسيّين والروم ، وضدّ المتمرّدين في الداخل ، ستكون مادّة الفصلين المواليين لهذا الفصل السابع .

الاستهلالات

أكثر القصائد تُفتح بمقدّمة غزليّة ، او طلليّة كما يقولون ، من نوع النسب . ولكنّ هناك سبعاً وعشرين قصيدة يدخل فيها الشاعر الى الموضوع مباشرة . والثوب الى الغرض أصبح عادة متبعة ، حتى إنّ المتنبيّ تهكّم بمن يقدّم النسب وجوباً ويفرض على كل مادم ان يكون متيّماً . وقد يفتح شاعرنا القصيدة بتأمّلات حكميّة أو مشاهد وصفيّة ، ولكنّ أكثر المقدمات هي في النسب .

وفي هذا النسب لا يخرج صاحبنا عن المألوف، وأقصى ما يحاوله هو ان

يحذف أحياناً وقفة الاطلاع ، أو الرحلة الى الممدوح ، أو وصف الوحوش ، ولكنه مهما تصرف فإنه يستبقي شيئاً من المقدّمة التقليدية ، كالتوجّع من فراق الحبيبة أو صدودها ، هذه الحبيبة التي تكون يمنيّة أزديّة مثله ، تلومه على التبذير كما كانت صاحبة عروة بن الورد تلومه على البذل : [كامل]

14/41 بكرت تلوم على الندى أزديّة تنمي اليه خضارما وقبولا
وقد تكون الحبيبة يمنيّة طائيّة فيحبّ لحبّها طيئاً كلّها رغم أزديته :
[طويل]

2/3 نوى أبعدت طائيّة ومزارها الا كلّ طائي الى القلب محبوب
كما تكون أيضاً عدنانيّة تترفع عن المحبّ الذي لا يكون مضرّياً مثلها :
[طويل]

5/65 تميميّة لم يعرف الذلّ قومها ولا نكبات الدهر وهي غوائل
10 ... وقد جعلت تبأى علينا بقومها وفي وجهها شغل عن الفخر شاغل

وقد يكتفي بذكر منازل قومها فيعيّن بذلك نسبها دون احتياج الى ذكر القبيلة ، كهذه الغادة التي يحميها فرسان نجد ضد الفتيان الأزديين « صفر العمام » : [طويل]

3/46 فكيف بها نجديّة حال دونها صعاليك نجد في متون الصلادم
فالحبيبة عربيّة بدويّة ، وقومها يترحلون في طلب المرعى لإبلهم ، أو يقطنون مشارف نجد أو سهول اليمامة أو يعتصمون بجبليّ أجأ وسلمى ، وهي محروسة حصينة دونها ترهق النفوس وتسيل الدماء . وقد يستغرب المرء من شاعر نشأ في بيئة أندلسية خضرة نضرة ذات حواضر ومدن ، ووقف أمام ممدوحه على أرض مغربيّة لها هي ايضاً جبالها وسهولها وأوديتها وقراها ، قد يستغرب منه هذا الانصراف بكلّيته الى بيئة بعيدة لم يعرفها وأرض نائية لم

تطأها قدّمَاه . وهو استغراب لا محلّ له ، ما دام الشاعر يستثمر رصيداً ثقافياً موروثاً، وما دام مقلّداً ويعلم أنّه مقلّد، وأنّ هذه الحبيبة وهذه المنازل وهؤلاء الفرسان انما هي سُنَنٌ متبَعَةٌ ومراحل لا بدّ للشاعر المذّاح ان يمرّ بها ، وليس له ، كما قرّر ابن قتيبة ، ان يستبدل الناقة ببرذون فارِهِ ، ولا مسالك الصحراء بأزقة الكوفة ولا المناظر الموحشة بالحدائق العمومية . فلا وجه اذن لِلّوم الشاعر على تركه القيروان او المهدية او حتى الزاب الى نجد البعيد وتفضيله دعداً أو هنداً أو أروى على المحبوبات المغربيات أو الإفريقيّات . فهو كالتلميذ النجيب يحتذي حذو شيوخه الكبار ، وهؤلاء الشيوخ ، كما نرى في الفصل الأخير ، هم أمثال « علقمة الفحل الذي زعموا في الشعر وامرئ القيس المراري » .

والنسب غزل وهميّ وغرام مفتعل ، لذلك يتغيّر اسم هذه المحبوبة ، فلا هي بثينة ولا هي عزة كثير ، بل هي تارة هند العطرة : [طويل]

7/8 مَواطِيءُ هِنْدٍ في ثرى متنفّس تَضَوّع من أردانها وتأزّجا

وأخرى أروى المنiece : [طويل]

20/47 وكم دون أروى من كميّ مُلأَمٍ وشعب شتيت بعدها لم يُلأَم

وهي في الأكثر أسماء الهيفاء العجزاء : [طويل]

8/52 سلوا بأنّة الوادي أأسماء بأنّة بجرعائه أم عانِكُ متراكِمْ؟⁽¹⁾

وأماكن اللقاء والتفرّق هي المعروفة المحفوظة كما قلنا : اللوى وبيرين والمحضّب وتوضح وبرقة ثمهد : [طويل]

11/10 ولله أظعانٌ بِبرقة ثمهد وقد كربت تلك الشموس لتجنّحا

إلا أن الشاعر يستقي عناصرَ تقليده أحياناً من متأخّرين عن علقمة أو

(1) العانك : هضبة الرمل . والجرعاء : الصحراء التي لا نبث فيها .

2/11 ... فحْيَيْتُ مزوَّزَ الخيال كأنه محجَّب أعلى قَبَةِ الملك أبلغُ

وإذا ازوَّرَ الطيف وذاب في جنح الظلام ، عَوَّضَه النسيمُ الذي يحمل
شذاها عن بعد ، أو البرقُ الذي لعلُّه من أْفَقِها انبثقَ ، فزاده شوقاً وتسهيذاً وهيج
فيه ذكرى التي لا تَذْكُرُه : [طويل]

1/32 أَمِنْ أَفَقِها ذاك السَّنا وتألَّقَه؟ يُوْرُقُنا، لو أَنَّ وجدا يُوْرُقُه!⁽¹⁾
2 وما انفكَّ مجتازاً من البرق لامعاً يشوقنا تلقاء من لا يُشَوِّقُه

والتقليد يشمل كذلك المعاني الحاقّة بمفهوم الحبيبة العزيزة في قومها ،
الحصينة في أهلها الممتّعة في خجلها . فهي لا تبدّل حسنّها للناظرين ، ولا
يصل إليها المحبّ إلا بعد جهد ، بل جهاد ، إذ أن حراس هذه الدرة قد
يتنبهون إلى زائر الليل فينكشف أمره فيُضطرّ إلى قتالهم . واقتران المعنى
الغزلي بالمغامرة الحربية صارَ سَنَة متبّعة منذ عمر بن أبي ربيعة كما قلنا ،
وشعراء القرن الأول والثاني كالفرزدق وبيشّار ووضّاح وغيرهم ، ولم يكن
متداولاً عند السابقين من شعراء الجاهليّة والإسلام . وسلوك أبْنِ هانئ، لهذا
المسلك يبرهن على أن تقليده يجاوز الفحول الأولين الى فطاحل الفترة
الأموية، شأنه في ذلك شأن معاصريه ، المتنبي وأبي فراس . فهو يغامر مثلهم
إذن أو يستعدّ للمغامرة : [كامل]

7/41 سَأرُوعُ من ضَمَّتْ جِمالُكُمُ وإن غَدَتِ الأسنّة دون ذلك غيلا

وقد لا تكفيه المغامرة في استهلال القصيدة ، فينظم مطوّلة في وصف
رحلة ليلية كرائية عمر ، إلّا أن الفتى المخزوميّ ينجو من حراس الحيّ
بالهروب السريع في زِيّ امرأة . أما صاحبنا فيجابه ويبارز فيصرعُ واحداً من
مطارديه : [طويل]

(1) الدعاء على البرق بالوجد المؤرّق يبدو سخيفاً ، وهو يعني في نظرنا : فليبقِ البرق مسهّداً طوال
الليل لامعاً ، كناية عن مقدّم الصباح الذي يرجوه كل ذي أرق .

31/49 فبادرتُ سيفي حينَ بادرَ سيفه فثارَ الى ماضٍ وثرْتُ الى خَلْدِمْ
 32 ونَبَهَ أَقْصَى الحَيِّ أَنِي وترَتهُم وقد علَّ صدرَ السيفِ من ماجِدٍ عَمَمٍ
 وهي قتلة أديبة لا غير ، باعتراف الشاعر نفسه إذ يقول : هذا مجرّد
 تقليد واني لم أزهِقَ أيّ نفس⁽¹⁾ .

على أنا نعثر أحياناً على فكرة طريفة تضفي على هذا التقليد الجاف
 وهذه الصحراء الفاحلة شيئاً من الرواء ، كتحصّره على الشجرة المنفردة التي
 كان يأوي إلى ظلّها وسَترها : [كامل]

12/1 لله إِحدى الدُوحِ فاردة، ولا لله محنيةٌ ولا جرعاء!
 13 باتت تشي، لا الرياحُ تهزّها دوني، ولا أنفاسي الصعداءُ
 وكذلك وصف المرأة لا يخرج عن المألوف من قوانين الحسن عند
 شعراء العربية : فهي قضيب بان يتشّي فوق كتيب يتهَيّل : [طويل]

9/8 إذا هَزَّ عَظْفِهَا قِوَامَ مَهْفَافٍ تداعى كتيب خلفها فترجرجا
 ومن العين الفاترة واللحظ المريض تنطلق نبال مُقَصِّدة قاتلة : [بسيط]
 6/12 ذوات نبل ضعاف، وهي قاتلةٌ وقد يصيبُ كمياً سهمٌ رُعْدِيدٌ
 هذه الدمية لبسَ الحسنَ صدرُها وشابهت لطافةَ الخيزران ساقها ، ولكن
 نغزها المنضد العطر لا يسمح بالقبلة إلّا لعود الأراك : [كامل]

3/44 صَنَمٌ تردّي الحسنَ منه مقرطٌ ومشى على البرديّ منه مخلخل
 4 ووراء ما يحوي اللشامُ مُقْبِلٌ رتل، بمسواك الأراك مُقْبِلُ

ووصفه لمحاسن المرأة محتشم عادة ، رغم ما تنمّ عنه المقطوعات في
 الغلمان وقيان المجالس . يذكر ثدياً قد نهّد ، فلا يعدو التلميح ويجمع

(1) تبين المعاني ... 708 .

المشهد في حركة الضمّ والعناق حتى لا تكون منّا حملقةً مُريّةً في هذا النهْد
[طويل]

15/49 أميلُ بها مَيَلُ النزيفَةِ مسنِداً إلى الصدر منها ناعِمَ الصدر قد نَجَمُ

ولعلّ المَقام لا يسمح بالإباحية ، فإذا تحرّر الشاعر المَداح ، فبمقدار
وبإجازة من فحول السابقين كالنابغة في مشهد المتجرّدة وامرء القيس حين
يجر ثوباً وينسى آخر . على أن صاحبنا قد يسفّ ويسمج ، حتى أمام المعزّ
مولاه : يريد أن يلمح الى العراك اللذيذ الذي يكون مقدّمة الظفر بالحبيبة
فيورّطه خياله الحربيّ وغلّوه فيقابل بين براز الوغى وبراز الفراش ويحشد ألفاظ
القتال حيث يُنتظر كلام الوصال : [طويل]

10/37 تكون لنا عند اللقاءِ مواقفٌ ولكنها فوق الحشايا معارك

11 ننازل من دون النحور أسنةً إذا انتصب فيها الثُدَيُّ الفوالِك

ولا نختم حديثنا عن استهلالات الشاعر دون أن نذكر توفيقه أحياناً في
استخدام صورة الطبيعة الحيّة التي تواسي الشاعر المتيمّ فتحنو عليه كما رأينا
في ذكره « للدوحة الفاردة » . فالشجرة المرتعشة هناك والحمامة النائحة هنا
تشاركان الشاعر كأنهما تشعّران بحاله : [طويل]

12/3 وما راغِبني إلا ابنُ ورقاء هاتِفٌ بعينيه جمر من ضلوعيّ مشبوب

15 ... ألا أيّها الباكي على غير أيّكه كلانا فريدٌ بالسّماوة مغلوبٌ

وصف الراحلة - التخلّص الى المدح

اعتاد مقصّد القصيد - حسب « القانون » الذي قرّره ابن قتيبة - أن يدرج
بين الوقفة الطلليّة والمدح ، وصفاً لمطيّته وتعداداً لمتاعب السفر الى الممدوح
كيما يقيم عليه الحجة ، كما قال ، ويوجب عليه العطية . هذا القسم من
استهلال القصيدة لا نجده إلا في مدحتين من شعر ابن هانئ ، الأولى في

جعفر بن حمدون ، والثانية في المعز . في الأولى ، يفرق الشاعر في « التبدي » فيحشر في أربعة أبيات أغرب المفردات المتعلقة بالناقة وبالصحراء : قوة القوائم مع الضمور وحكمة الجلد ، واستقامة العنق مع علو السنام ، والقدرة على قطع الفيافي في الحر الشديد الذي يلمع سراه وفي الليل البهيم الذي يهابه حتى القطا : [منسرح]

- 27/61 وعمرس بازل مفتلة خرقاء ضامر جلعذ
28 قوداء عيرانة مضبرة تجوب حزن الأكام والفدند
29 في مهمه يلمع السراب به كمثل ماء بقيعة يورد
30 وصلك فيها هجير به سرى الليل، وسرب القطا قد هجد
31 حتى أنخت المطي باركة بساحة من ذرى أبي أحمد⁽¹⁾

وفي الثانية يختصر الوصف فيضمه الى التخلص، في بيت واحد ، وكأنه تذكير بالمعاني المطروقة عادة ، فيكفي الاسم للإيحاء بقوة الناقة وبامتداد الغلاة ، وتكفي صورة الحج إلى البيت الحرام للإيحاء بالارتياح بعد التعب الشديد : [كامل]

- 12/9 حجت بنا حرم الإمام نجائب ترمي إليه بنا السهوب الفيحا⁽²⁾

وهذان مثالان من احترامه للقانون القديم ومن ميله الى التحرر منه . ولكن وصف الناقة لا ينحصر في قسم الرحلة الى الممدوح ، بل نجده في نوع آخر من الرحلات : ترحل الخليل في الصباح الباكر يحملون معهم المحبوبة ، أو اضطراب الشاعر في الأرض وراء الذكريات العذبة ، على ناقته ذات العضلات المفتولة كقوى الحبل او على بعيره الصلب العنق : [سريع]
12/36 ... من ذات أعضاء إذا هجرت قتل، وذئ أجرنه خلقي والمطية تكون أيضاً فرساً ، بل إن الفرس أحب إليه من الناقة . فهو

(1) أبو أحمد كنية الممدوح .

(2) الفيح (فيح) ج أفصح وفيحاء : الواسعة المترامية .

يحسن وصف الخيل ويتبسّط فيه ويكثر منه . وربما دلّ هذا التفضيل على أن معرفته بالخيل أوثق لأنّه مارسها فعلاً ، أمّا معرفته بالإبل فعن حفظ ورواية ، لا عن ممارسة حقيقة . والفرس قويّ عالي المتن متحفّز للقتال لا يصبر عنه فلذلك يلوك لجأته : [كامل]

12/30 بأقْبُ لا يدع الصهيلَ إلى القنا حتى يلوك خطامَها المتقَصِّفا

هذا الحصان صادق الفراسة يعرف طريقه ليلاً فضلاً عن النهار ، كأنما خلقت فيه القيافة والعيافة ، ويساعده على هذا الاهتمام الثابت سمع لطيف يقظ دقيق كلّما أحسّ بالجرس الخفيّ انتصبت أذناه متنبّهتين متحفّزتين كأنهما تحرسان الراكب من مخاطر الليل : [كامل]

12/36 يسري فأحسب في عَناني قائفاً متفرّساً ، أو زاجراً متعيّفاً

14 ... يرمي الأنيسَ بِمِسْمَعِي وحشيّة قد أوجسا من نبالٍ فتشوّفا

15 فتقدّما ، وتنصّباً ، وتذلّفاً وتلطفاً ، وتشرفاً ، وتحرفاً

16 وتكتفاني ينفضان لي الدجى فإذا أمثت ، ترصدنا فتخوّفا⁽¹⁾

هو دابة حرب ودابة سفر ، فإذا اقترن عنده هذا الحسّ الثابت بقوة البنية والقدرة على العدو والصبر على التعب ، صار دابة طرد أيضاً ، فلذا يعود الشاعر إلى وصف دقّة سمعه في مشهد صيد مُقَحَّم في مقدّمة القصيدة مثل طرديات الشعراء العباسيين ، إلّا أنه في هذه المرة يخصّص لها نحو عشرين بيتاً فيشيد بجمال خلقتها مع قوّتها وهيئتها وسُرعة جريها : [متقارب]

12/58 ففقدنا إلى الوحش أشباهاها ورُعنا المها فوق مثل المها

13 صنعنا لها كلّ رِخو العنان رحيب اللبان سليم الشظي

14 يُرَدُّ إلى بسطة في الإهاب إذا ما اشتكى شجنا في النسا

15 كأنّ قطاً فوق أكفاليها إذا ما سرين يُثرن القطا

(1) نفّض له الطريق : راقبه وتفقّده من عدوّ أو خطر .

16 عواري النواحق شوش العيون ظمأ المفاصل قُب الكلى⁽¹⁾

ويتغنى بقوة بصرها كما تغنى بقوة سمعها ، إلا أنه يلج على حاسة
السمع لأن الأذنين بتحركهما السريع المتلاحق المتغير أكثر إسعافاً للشاعر من
العين للتفتن في الوصف والتعمق في الافتراض ، فإذا كانت العين تتبين ظل
الفارس في الظلام ، فإن الأذن تنفذ إلى نجوى الفؤاد :

17/58 تُديرُ لطحيرِ القذى أعيناً ترى ظلّ فرسانها في الدجى
18 وتحسب اطرافَ آذانها يراعا بُرين لها بالمُدَى
19 فهنّ مؤلّلةٌ حشرةٌ منددةٌ لخفيّ الصدى⁽²⁾
20 تكاد تحسّ اختلاجَ الظنوّ ن بين الضلوع وبين الحشا
21 وتعلم نجوى قلوب العدى، ويسرّ الأجبة يوم النوى

أما عدوها فهو أسرع من البرق الخاطف مع أنه خفيف رفيق كالخاطر
السريع :

22 فابعدُ ميدانها خطوةً وأقرب ما في خطاها المدى
23 ومن رفقها أنّها لا تحسّ ومن عدوها أنّها لا تُرى
24 جرين، من السبق، في حلبة إذا ما جرى البرق فيها، كبا

فلا غرابة ، وخصالها على هذا القدر من النفاسة ، ان تكون الخيل هي
« حصون العرب ومعاقلها » ، كما قالوا في أمثالهم ، وأن يكون سرج الحصان
« أعزّ مكان في الدنيا » حسب قولة المتنبي . ولئن ذكرنا أبا الطيب ، فليس
لاتفاق الشعارين في الفخار بالفرس في عزّه ومنعته فقط ، بل في وصف دقّة
الحواسّ أيضاً ، ونحن لا نستبعد ان يكون شاعرنا اتخذ قصيدة المتنبي الياثية
في مدح كافور مثلاً فاحتذاه في وصف سمع الفرس وبصره ، وان أكّد لنا أنه

(1) الشطى : عظم الركبة . النواحق : عظمان في مجرى الدمع من وجه الفرس . والأقْب من
الخيل الدقيق المفاصل الضامر البطن .
(2) الأذن المؤلّلة : المحددة المنتعجة للنباة . وحشرة : دقيقة مرهقة .

يصعد الى أعلى من المتنبي ، إلى طُفَيْلٍ وصَافٍ الخيل :

- 25/58 إذا أنت عدَدَتْ ما يَمْطَى وقايستَ بين ذوات الشوى
26 فهنَّ نفائسُ ما يَسْتَفَادُ وهنَّ كرائمُ ما يُقْتَنَى
27 ديارِ الأعرَّةِ، لكنها مكرمةٌ عن مَشِيدِ البنا
28 ومن أجل ذلك، لا غيره رأى الغنويُّ بها ما رأى

ولا نعني بهذه المقارنة مع الشعراء المعاصرين له او السابقين ، أنَّ الشاعر في وصفه للخيل انما هو مقلِّدٌ متمرِّنٌ متتلذِّذٌ ، فإنَّ براعة الوصف وطرافة بعض التخيَّلات ، وحسن استخدامهِ لمقولات العرب في الخيل ، كلُّ هذا يعبرُ عن تعلُّق صادق بالخيل ، ومعرفة جيِّدة بصفاتها ، ولنا ان شاء الله عودة الى تفنُّنه في الوصف في الفصل العاشر .

وصف الظواهر الطبيعية : الليل ، النجوم ، البرق ، المطر الخ ...

تتضمَّن الاستهلاكات أيضاً مشاهد وصفيةً يربط فيها الشاعر بين ظواهر الطبيعة وما يدَّعيه لنفسه من همٍّ وتسهيد . فهو يولي البرق مثلاً اهتماماً خاصاً ويربط وصفه بوصف الحبيبة : ضيَّاه من إشراق وجهها او من لمعانِ ثغرها ، وهو إذ يشقُّ ظلامَ السماء يجسِّمُ السحبَ فيعطِيها أشكالاً مختلفةً ، فخصر مرهف هنا وكفل ثقيل هناك ، وثوب مجيَّب تارة وعباءة مفتَّحة اخرى : [طويل]

- 1/8 أَمِنْكَ اجْتِيازُ البرقِ يَلْتاحُ في الدجى
تَبَلَّجَتْ مِنْ شَرْقيِّهِ فَتَبَلَّجَا ؟
2 كَأَنِّي بِهِ لَمَّا شَرَى مِنْكَ وَاضِحاً
تَبَسَّمَ ذَا ظَلَمٍ شَنِيباً مُفْلَجاً⁽¹⁾

(1) شرى البرق : لمع أو تفرَّق .

3 مُطار سنّ يزجي غماما كأنما

يجاذب خَصراً في وشاحك مدمجا

4 يثو إذا ما ناء منك ركأه

برادفة لا تستقل من الوجى

5 كأن يداً شقت خلال غيومه

. جيوباً، او اجتابت قباء مفرجا

ويربط البرق أيضاً بالمطر ، فيستطرد في وصف طويل للسحب المحملة

بالماء المنعش ، الشبيهة في دكتها بالعقبان المنقضة على الفريسة . وعلى

عادة شعراء البادية ، يدعو لأرض الأحبة بالغيث المسجم حتى تفوح رياضهم

بشذى الزهر المنضد : [طويل]

6/10 ولما تهادى نكب البید معرضا وأتاق سجلا للرياض فطفحا

7 تدلّ فيخلت الذكن من عذباته كوايسر فتخا في حفاقيه جئحا

8 لتغد غواديه بمنسرج اللوى مواضع رقراق من الرّي متحا⁽¹⁾

9 سفته فمجث صائك المسك حفلا تسح، وأذرت لؤلؤ النظم نضحا

10 فلم تبقي من تلك الأجارع أجرعاً ولم تبقي من تلك الأباطح أبطحا

ويتفتن الشاعر أحياناً في وصف المشهد الطبيعي فيجمع في لوحة واحدة

المطر الخفيف ومطاردة الريح للسحب ، والعشب المعطر ، والنسيم الرفيق

ولكنه يتكلف الصور والتشبيهات فيخرج عن الطبيعة النابضة الحية الى طبيعة

منظمة مفتعلة ، ولا سيما إذا قفى أبياته بروي نادر مهجور كالطاء : [بسيط]

1/26 الؤلؤ دمع هذا الغيث أم نقط؟ ما كان أحسنه لو كان يلتقط!

2 بين السحاب وبين الريح ملحمة قعاقع، وظبي في الجوّ تخترط

3 كأنه ساخط يرضى على عجل فما يدوم رضى منه ولا سخط

4 أهدى الربيع إلينا روضة أنفاً كما تنفس عن كافوره السقط

(1) أتاق : ملا . السجل : الدلو . والعذبات : أطراف السحاب . والفتح : العقبان والجفاف

بالكسر : الجانب . وماع الماء من بثره : طلبه ومنتج الماء : أخرجه بالدلو .

ولكن ، في هذا المشهد المشحون بالتفاصيل ، المثقل بالتشابه ، نظفر أحياناً بصورة طريفة تخرج عن مألوف الخيال عند شعراء الجاهلية . من ذلك هذه الإشارة إلى البحر في مده وجزره ، وهذا التشبيه للسحاب بالقاضي العبوس :

5/26 غمائمْ في نواحي الجوّ عاكفةً جعدٌ، تحدرُ منها وابلٌ سبطُ
6 كأنّ تهانّها في كلّ ناحية مدُّ من البحر يعلو ثمّ ينهبُ
7 والبرقُ يظهر في للاءِ غرّته قاضي من المزن في أحكامه شططُ
8 وتأخذ الأرض حظّها من هذه المزن ومن وصف الشاعر :

9/26 والأرض تبسط في خدّ الثرى ورقاً كما تُتشرُّ في حافاتِها البُسطُ
والرياح تبعثُ أنفاساً معطرةً مثلَ العبير بماء الورد يُختلطُ
فالشاعر ، رغم إعجابه الصريح بالقدماء وتعلّقه بطرقهم ، يحاول أحياناً ان يتخلّص من القيود التقليدية أو أن يجدّد في الحدود الضيقة التي يسمح بها جنس المديح ، فيُدخل في القصيدة هذه المشاهد الطبيعية مثلاً التي تذكّرنا بشعر ابن الرومي أكثر مما تذكّرنا بالجاهليين ، رغم ما ينزلق إليه الشاعر من ذكر الأماكن والجبال والأسماء المحفوظة في الشعر القديم ، كثير ومنعرج اللوى ، وما كان أغناه عن ذكرها !

ويصف النجوم كذلك ، لأن الشاعر المتيم يقضي ليله الطويل في انتظار الصباح ، فيعدّ النجوم ويرعاها ويرجو أفولها . وشاعرنا لا يخرج عن هذه السّنة ، إلاّ أنّ تعلّقه بالنجوم ليس وليد التقليد فقط ، بل يظهر أنّ له معرفة مدققة بأسمائها ومواقعها وسيرها ، كما تشهد بذلك ، إلى جنب ما أكّده ابن الخطيب⁽¹⁾ ، القصيدة الحادية والثلاثون التي خصّص منها عشرين بيتاً لوصف

(1) إحاطة 212/2 .

الأفلاك فَسُمِّيت « القصيدة الفلكية » وتناولها الرواة ودرسها الدارسون وحفظتها كتب الأدب . وسنقف عندها وقفة درس وتحليل . أما الآن فنكتفي بنموذج بصوّر فيه انتظاره لانجلاء الليل المتطاوّل ، وَلَكِنَّهُ يترك تحليلَ عواطفِهِ ويجنح إلى الصورة البديعية المتكلّفة : [طويل]

13/52 خليلي! هبّا فانصراها على الدجى كئائب، حتى يهزمَ الليلَ هازمٌ
14 وحتى أرى الجوزاء تنثر عِقْدَهَا وتسقط من كف الثريا الخواتم!

المجالس الخمرية

يقم الشاعر ضمن الاستهلال وصفاً لمجلس لهو على الطريقة النواسية وقد عرضنا أنموذجاً من هذا المعنى الذي أصبح هو الآخر سنة متبعة . فالشاعر المولّه يدعو صاحبيه الى طرد الهمّ براح معتقة ، او يتذكّر أيام لهوه في صباه مع الغواني النواعم وهنّ يسقينه خمرة صافية أو شديدة المفعول : [كامل]

5/30 ولئن ذكرت الغانيات فخطرة تعتاد صبا بالحسن مكلفا
6 فلقد هزرت غصونها بشمارها وهصرتهنّ مهفهفا فمهفهفا
8 ... ولقد هزرت الكأس في يد مثلها وصحوت عما رقّ منها أو صفا
9 فرددتها من راحتيه مُزّة، وشربتها من مُقلّتيه قرقفا

ويصف كذلك لوازم الشراب كالأباريق ، فيلمس لها الصورة الظرفية ويتوسّع فيها ويستفرغها : فهي اذ تمُدّ أعناقها كأنها تصغي إلى غناء القيان ، تشبه طباءً أوجست خيفة : [خفيف]

11/35 والأباريق كالطباء العواطي أوجست نبأة الجياد العتاق
12 مصغيات إلى الغناء مطلاً ت عليه، كثيرة الإطراق

وارتفاع أفواها يجلب الى الذهن فكرة الشّم ، وصورة الأنف المتكبّر
تجرّ صورة الرّعف بدم الخمرة :

شكوى الدهر

قد يعوّض شاعرنا ، او يعزّز ، وصفه لمشاق الرحلة الى الممدوح ، بشكوى من صروف الدهر وضربات الزمان . وهذا أيضاً معنى معروف وستة متبعة ، والقصد منه توليد عاطفة الرحمة والشفقة في قلب الممدوح ، ممّا قد يحمله على توفير العطاء . وتختلف شكوى ابن هانيء عن تأملات معاصره المتنبّي ، فليس لها نفس العمق ولا ذاك الطابع الشجي ولا تلك الغنائية الحزينة . ثم إنّ ابا الطيب كان يقتطع لنفسه قسماً من المدحة فيعزل تماماً عن الممدوح ويقضي حق نفسه من التألم والتصبّر والفخر بأنفته وجلده ، فإذا فرغ من بث همومه ، فكر آنذاك في ممدوحه فدخل في المدح . اما ابن هانيء ، فيدمج هذا التشكي ضمن الاستهلال ويربطه بالنسب ، كأن هجران الحبيبة وصدودها او رحيل قومها هي أيضاً من نكبات الدهر وتقلّبات الأيام والليالي :

[طويل]

7/7 أريد لهذا الشمل جمعاً كعهدنا وتأبى خطوط للنوى وحوادث
عبثت زماناً بالليالي وصرفها فها هي بي لو تعلمون عوابث

وتقلّب الدنيا شبيه بتنقل الحسناء في هواها ، فكلاهما لا تثبت على حال ، وشاعرنا يستخدم هذا التمثيل بكثرة ويصعد به شيئاً فشيئاً الى نعي المكارم في هذه الحياة والى تعبّه هو في البحث عن كريم «أعزّ محجّل» فإذا هو الممدوح وحده ، والناس كلهم رعا «جبلّة دهماء» : [كامل]

- 22/1 طويث لي الأيام فوق مكاييد ما تنطوي لي فوقها الأعداء
23 ما كان أحسن من أياديها التي تُولىك! إلا أنها حسناء
24 ما تحسن الدنيا قديم نعيمها: فهي الصّناع ، وكفها الخرقاء
25 تشأى النجّاز عليّ ، وهي بفتكها ضرغامه ، ويلونها جرّاء
26 إنّ المكارم كن سرباً رائداً حتى كئسن كأنهنّ ظبياء
27 وطفقت أسأل عن أعزّ مُحجّل فإذا الأنام جبلة دهماء

28 حَتَّى دُفِعْتُ إِلَى الْمَعَزِّ خَلِيفَةً فَعَلِمْتُ أَنَّ الْمَطْلَبَ الْخُلَفَاءَ

وَلِئِنْ نَدَّتْ مِنْهُ بَعْدَ هَذِهِ الشُّكُورِ نَفَحَاتِ فَخْرِيَّةٍ يُؤَكِّدُ فِيهَا قُوَّةَ جَاشِهِ :

[طویل]

13/11 أَلَا لَا تُتَنَهَّنِي الْخُطُوبُ بِحَادِثٍ فَلَئِنْ هَمَّتْ تَبْرِي الْخُطُوبَ وَتَتَنَحَّ (1)

وَعُلُوِّ هَمَّتِ الَّتِي رَامَتْ النُّجُومَ فَبَلَّغَتْهَا : [كامل]

14/25 لَقِيتُ نِعْمَاءَ الْخُطُوبِ وَبُؤْسَهَا وَسُبِكَتْ سَبِكَ الْجَوْهَرِ الْمُتَخَلِّصِ

15 فَإِذَا سَعَيْتُ إِلَى الْعُلَى لَمْ أَتَشُدَّ وَإِذَا اشْتَرَيْتُ الْحَمْدَ لَمْ أَسْتَخْصِ

16 شَارَفْتُ أَعْنَانَ السَّمَاءِ بِهَمَّتِي وَوَطَّئْتُ بَهْرَامَ النُّجُومِ بِأَخْمَصِي

وَلِئِنْ أَشَادَ أَحْيَانًا بِقَوْمِهِ فَفَخَّرَ بِشَجَاعَتِهِمْ وَفَصَاحَتِهِمْ : [سريع]

17/36 مَعْشَرِي الْمَعْشَرُ قَادُوا الْعُلَى وَالْإِنْسَ وَالْجِنَّ بِلَا رَبِّي

18 فِيهِمْ سَبِيلُ الْمَجْدِ عَادِيَّةٌ قَبْلَ الصِّيَاصِي وَأَبْنَةِ الطَّرِيقِ

20 ... أَهْلُ الْإِكْفِ الْبَيْضِ تُهْدِي الْفَرَى وَالشُّوْلَ فِي الْقَرَبِ وَفِي السَّحْقِ

22 ... هُمْ نَطَقُوا وَالنَّاسَ مِنْ مَرْمَرٍ وَالْدَهْرَ مَكْمُومٌ عَنِ النُّطْقِ (2)

فَإِنَّهُ فِي الْأَغْلَبِ يَبْكِي الشَّبَابَ الرَّاحِلَ وَدَنُو الشَّيْخُوخَةَ ، فَيَصْطَلِحُ الْاسْتِهْلَالَ

بِالْصَّبْغَةِ التَّشَاؤِمِيَّةِ الْمَعْهُودَةِ فِي الشَّعْرِ الْجِكْمِيِّ : [مقارب]

4/58 لَبِسْتُ رِدَاءَ الْمَشِيبِ الْجَدِيدِ وَلَكِنَّهَا جَدَّةٌ لِبَلِي

5 فَأَكْذَيْتُ لَمَّا بَلَغْتَ الْمَدَى وَعُزَّيْتُ لَمَّا لَبِسْتُ الثُّهَى

وهذه الحكم والأقوال الماثورة ترضي كل نفس وتوافق كل مقام لأنها

مستمدة من التجربة الانسانية ، وتداولتها الألسن فصارت من الحقائق التي لا

(1) نتخ (باب ضرب) : اقتلع . ونهنته الحوادث : زجرته عن مراميه .

(2) الصياصي : هي الحصون والغلاع . وابنة الطرق : الطريق المتشعبة . الشول : الإبل وممر

الناس : غضبوا ولعلها : في بربر : في كلام غير مفهوم .

تحتاج الى استدلال ، لذلك يصرفها الشعراء في كل غرض ويطرقونها في الرثاء كما يطرقونها في المدح ، وربما كان القصد منها « رفع » الشعر الى أجواء التأملات العالية دون أن يكون الشاعر بالضرورة في هذا الضنك ولا هذا التعب : [طويل]

- 17/42 نَسَاقُ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى غَيْرِ دَائِمٍ وَنَيْكِي مِنَ الدُّنْيَا عَلَى غَيْرِ طَائِلٍ
18 فَمَا عَاجِلُ نَرْجُوهُ إِلَّا كَأَجَلٍ ، وَلَا أَجَلُ نَخْشَاهُ إِلَّا كَعَاجِلٍ
19 . . . وَمَا النَّاسُ إِلَّا ظَاغِنٌ وَمَوَدَّعٌ ، وَثَاوٍ قَرِيبُ الْجَفْنِ يَبْكِي لِرَاحِلٍ

معاني المدح

قلنا إنَّ أهم المعاني الواردة في مدائح ابن هانئ هي معان مذهبية وشعارات سياسية وحملات على أعداء الفاطميين وخصومهم ، وأرجأنا البحث فيها الى فصل لاحق من هذه الدراسة . أمَّا الآن فنهتمَّ بالمعاني التقليدية التي لا يخلو منها شعر البلاط ، وندرسها للوقوف على مدى تقليد ابن هانئ من جهة ، وعلى مدى تكييف مدائحه بحسب الممدوحين ، أي بحسب قربه منهم وحظوته عندهم ، أو بحسب مرتبتهم في الدولة وسعة نفوذهم .

الكرم

من معاني المدح الواجب طرقها ، الكرم . وهو كرم واسع دائم لا يُحدَّ ولا يحدُّ ، ولا يشبه إلا بالبحر الزاخر والوابل المتهاطل . والشعراء يتبارون في هذا الإطار ويتسابقون وراء الصورة الجديدة والتشبيه النادر والافتراض الغريب ، خصوصاً وأنَّ العادة اقتضت أن لا يذكرُوا عطيةً بعينها ولا مقداراً محدداً من الدراهم والدنانير ، لأنَّ التحديد بمبلغ يجعل لهذا الكرم حدوداً ويُنزله الى مستوى الكمية المحدودة المعروفة ، وهذا لا يليق بالممدوح .

فلذلك يبقى الكرم في أجواء مطلقة سماوية ، ويُجهد الشاعر نفسه لتقريب هذا الجود الضبابي إلى ذهن السامع ، ويتعمّل ويتعب فيجاوز حدّ الذوق أحياناً ويُغرق بدوره ، ولكن في السماجة : [خفيف]

كُلُّ أسرار راحته غمام 21/35
مستهلّ بوابل غيداق

فإذا ما سقاك من ظمأ جا 22
وز حدّ السّقا إلى الإغراق

وإذا لجأ إلى التشبيه المعتاد بالماء الدافق ، تصرّف وغالى فغلب ندى الممدوح على ماء السحب : [بسيط]

تالله لو كانت الأنواء تشبهه 12/26
ما مرّ بؤس على الدنيا ولا قطّ

ورفعه على أمواج البحار مجموعة :
يزري بفيض بحار الأرض لو جمعت 20/26
بئان راحته المغلولب الخمط

هذه أبيات من مدائحه في المعزّ ، وهو ، والحق يقال ، لا يتبسّط في الإشادة بكرم الخليفة مثلما يتبسّط في مدح خلاله الأخرى ، كأنه يتحرّج من الظهور في صورة المستجدي الذي يطلب العطاء في مقابل مدحه ، في حين أنّ مدحه إنّما هو حمد كما يقول ، لأنه تعبير عن ولاء صادق للإمام وأسرته ، وانخراط تلقائي في الحزب الفاطمي ، ولا يليق بالداعية المخلص أن يطلب مكافأة على سعيه وتحركه . ويتورّع شاعرنا عن طلب الرغد صراحة ، ولا يربط كرم صاحبه بحاجات شخصية ولا بعطايا مخصوصة . فلا ذكر مثلاً في القصيدة الثالثة والخمسين ، وهي أوّل قصيدة ألفاها بين يدي الخليفة ، ولا في لاحقاتها ، لذلك القصر المنيف الذي كافأه به المعزّ عند فراغه من الإنشاد ، حسب ما ترويه توطئة القصيدة ، وهي رواية تكاد تكون خيالية . وإنّ نعتراً على بيت فيه شيء من الطلب ، فهو بيت على درجة كبيرة من التعميم : [متقارب]

إلى مثل جدواك تُنضي المطي ومن مثل كفّيك يبرجى الغنى 86/58

أو هو طلب الإنصاف من الحاسدين الذين يريدون إخمداً صوته :

[طويل]

64/37 أرى شعراء الملك تنحّ جانبي وتنبو عن الليث المخاض العوارك
74 ... خمول وإقتار، وفي يدك الغنى فمخياً! فلاني بين هاتين هالك

ونعود الى معنى الكرم لنلاحظ أنّ الشاعر قد يسأّم الصورة المعتادة ،
صورة الغيث والبحر، فيلتبس تشبيهاً جديداً، يكون فيه أيضاً تعظيم لكرم
الممدوح : فالشمس في انتشار ضوئها على أديم الأرض وأرجاء الكون ، لا
تضاهي ندى الممدوح في اتساعه لكل محتاج وشموله لكل عاف : [طويل]

65/31 وما الشمسُ تكسو كل شيء شعاعها بأسفغ عندي من نذاك ولا أضفى

ويعود الى التشبيه بالشمس فيضيف إليه عنصرَي الحرارة والشهرة ،
فلئن أضاءت هي بنورها وأدفاًت، فإنّ نيران قُدور الممدوح أسطع، ولئن مدّت
شعاعها على البسيطة كلّها، فشهرة الممدوح بالكرم أعمّ وأوسع: [طويل]

65/23 ألا أنظر الى الشمس المنيرة في الضحى وما قبضتُ أو تمُدُّ على الثرى
66 فأنقب منها نارُ زُنْدِكَ للقرى وأشهرُ منها ذكرُ جودك في الورى

الحلم

يشمل الحلم خصالاً كثيرة : علو الهمة ، ورباطة الجأش ، وسعة
الصدر ، والترفع عن الدنّايَا ، والتسامح والرصانة والترثّ ، وهو عنصر
رئيسي في مفهوم المروءة العربية أي الصفات الواجبة للمرء ، صفات الرجولة
الحقّ التي تعطي الإنسان ثقة بنفسه وثباتاً شبيهاً بثبات الجبال ، ولذلك كثر
تشبيه الحليم الرصين بالجبل الراسخ الراسي : [كامل]

18/44 والأرض تحمل حلمه فيؤودها حتى تكاد بأهلها تنزلزل .

والصفة المبجلة في الحليم هي العفو عند القدرة ^{على} الانتقام . وهذا
الإغضاء عن الذنوب عند الممدوح صار سنة متبعة عند كلّ الناس : [طويل]

62/47 وانت بدأت الصفح عن كل مذنب وانت سننت العفو عن كل مجرم
64 ... ومن يتقن أن للعفو موضعاً من السيف يصفح عن كثير ويحلّم

وكذلك الحزم ، ينبغي ان يقرن بالتأني والثبّت ، مثلما اقترن الصفح بالمقدرة :

63 وكل أناة في مواطن سؤدد ولا كأناة من قدير محكم
65 ... وما الرأي الا بعد طول تثبت ولا الحزم إلا بعد طول تلوم

وخلال التأني والثبّت والترتّب ضروريّة بالخصوص لصاحب السلطان الواسع الذي يتحكّم في الأموال والأبدان والأرواح ، يحتاج إلى هذه الصفات لاختيار أعوانه وتدريب ملكه ، مثلما يحتاج الى سلاحه ، فالعقل صنو للسيف ونِدْ ، ولا غنى عن هذا ولا ذاك : [كامل]

22/44 ذو الحزم لا يتدبّر الآراء في أعقابها ، ما الرأي إلا الأوّل
23 متقلّد بيض الشفار صوارماً ، منها نهأه ، ورأيه والمنصل

والأناة والحزم صفتان متكاملتان تتضافران ولا تتعارضان . فإن كان الممدوح سريع البت في الأمر المعضل سريع الإنجاز لما قرّر ، فإن حزمه هذا لا يبطل أناته ، كما أن مغريات الدنيا لا تغلب قناعته وترفعه عنها : [طويل]

25/37 إمام رأى الدنيا بمؤخر عينيه فمن كان منها آخذاً فهو تارك
26 إذا شاء لم تملك عليه أناته بواذر عزم للقضاء موالك

ويتصل بالحزم والعزم والرأي الحصيف ، الذكاء النافذ والفهم الدقيق والتقدير البعيد حتى ظنّ الناس أنه يعلم الغيب : [طويل]

60/23 كأنك شاهدت الخفايا سواً فراً وأعجلت وجه الغيب أن يتسّراً
61 فعرفت في اليوم البصيرة في غد وشاركت في الرأي القضاء المقدّراً

ولكنّ هذا التنبؤ بالغيب ليس بمبالغة شعريّة كما سنرى في المعاني

العقائدية ، فالشاعر ينسب الى الخليفة اطلاعاً حقيقياً على خفيات الأمور
يسميه تارة وحيأً وطوراً فراسة .

ولا تتم صفات المروءة بدون خطابة وفصاحة ، فالإمام مدره قول كما هو
مدره غيب ، وكما ورث الوحي عن جدّه فكذا ورث جوامع الكلم :
[كامل]

46/1 ورث المقيم يشرب فالمنبر الـ أعلى له ، والترعة العلياء
47 والخطبة الزهراء فيها الحكمة الـ خراء فيها الحجة البيضاء

البأس والقوة

لم يكن المعز قائد جيوش ولا بطل معارك ، ولئن قاد بعض الحملات
القليلة فإن الشاعر لم يصحبه فيها ، فليس عنده إذن قولٌ يقوله في شجاعة
المعز وخوضه المعركة ، ولكنه يعوض هذا المعنى بمعان أخرى تُشيد بعزمه
وبأسه وبطشه بالأعداء وقوة سلاحه في البر والبحر ، فأسطوله قهر كل أسطول
وملك البحر على الأعداء : [طويل]

87/13 وعزمك يلقي عزم كل مملك كما يتلاقى كائد ومكيد
88 وفلكك يلقي الفلك في اليم من عل كما يتلاقى سيد ومسود

والعدو المكابر لا يُفلى من قبضة المعز مهما عظمت قوته وعلت
حصونه ، ومأله القهر والهزيمة ، فلا مفر له ولا بد لأمه من ثكل محقق . فلا
غربة مع هذا البأس ان يتحكّم المعز في حظوظ الملوك ومصاير الدول :
[بسيط]

1/43 كدأبك ، ابن نبي الله ، لم يزل قتل الملوك ونقل الملك والدول
2 أين الفرار لباغ أنت مدركه لأمه ملء كفيها من الهبل!

3 هيهات يضحى منيع منك ممتعاً ولو تسّم رَوْقُ الأعصمِ الوعل⁽¹⁾

وذلك أنّ جيوش الإمام هي علي أهبة دائمة لخوض معركة في البر والبحر ، فلا السيف يعرف غمّده لأنه دوماً مسلول ، ولا الخيل حُطّت لبودها لأنها دائماً في مسير الى العدو ، ويكفيه إشارة من لحظه حتى تنطلق السفن تمخر عباب اليم ، وتطير السوابق في كوكبات قاهرة ؛ فلا بدع أن صار الملوك يخشونه الى حدّ أنهم يتحاشون مناجاة أنفسهم :

خافوك حتى تفادوا من جوانجهم فما يناجونها من كثرة الوهل 7/43

هذه الشواهد التي سقناها منقولة في معظمها عن مدائحه في المعز . فلنتظر الآن بسرعة في معاني قصائده الحمدونية . في الحقيقة لا تختلف المعاني التقليدية هنا وهناك : فالكرم والجلم والعزم والتدبير الصالح صفات مشتركة بين المعز والأخوين الأندلسيين . فلنكتفِ بنماذج من شعر ابن هانيء في أمراء الزاب . فإذا وصف حلم جعفر ، حصره في خصال أربع : حماية المستجير، ونصرة الحق ، وإغاثة المستضعف ، والوفاء بالوعد : [طويل]

52/63 تعودت عادات من الخير، كلّها بعيد على من أمهنّ سحيق

53 فمنهنّ : منع الجار ، حتى كأنما له في ذرى المزن الكنهور نيق

54 ونصرك للحق الذي أنت أهله وعونك للملهوف ، وهو رهيق

55 وإن سبقت منك المواعد أنجزت وإن أخذ الميثاق فهو وثيق⁽²⁾

ويتبسّط في خصالهم الحربية ، دون أن يتوقّف عند معركة معينة فيصف حوادثها وموقف الممدوح فيها ، ممّا يشعر بأنه قلماً صاحبهم في حملاتهم ، أو بأنّ هذه التحركات لم تكن على مقدار من الضراوة جدٍ بالتسجيل المفصل . لذلك يجنح على عادته الى الغلو فلا يخفّفه بأداة افتراض أو

(1) الروق : القرن والأعصم والوعول : نيس الجبل .

(2) النيق : قمة الجبل .

تقريب : الأمير خافته الأسود الشرسة فمهدت له عريتها أو مرغت وجوها في
التراب أمامه : [كامل]

29/6 فرشت له أيدي الليوث خدورها ورضين ما يأتي وكُن غضابا

ولا ينسى خصائلهم السياسية : هذا جعفر ملكاً يسهر على راحة شعبه
ويحل الأمن بولايته فلا قتل ولا نهب ولا خوف : [كامل]

102/45 فتركت أرض الزاب لا يأسى أب لابن ، ولا تبكي البعول حلائل
110 ... فاذا حللت فكل واد ممرع واذا ظعنت فكل شعب ماجل

حتى يحيى البطل المغوار وقائد الحملات المظفرة ، لا يهمل واجبه
الإداري ، فهو إماماً في حرب وإماماً في مجلس تدبير وتقرير : [طويل]

20/8 ولم تُر يوماً غير عاقد حبة لتدبير ملك ، أو كميأ مدججا

وهناك معنى تختص به مدائح المسيلة ، وقد أشرنا اليه في الفصل
السابق : وهو اشتراك الشاعر مع أبناء الأندلسية في النسب الأزدي اليميني ،
واعتزازه بهذه القرابة التي يحسده عليها العدنانيون ، فربما كادوا له عند
جعفر: [طويل]

26/64 ستنظم لي فيه نزار مكايذا ويحسديني حاف عليه وناعل

ورأينا أنه يتخلص من الحرج إزاء الخليفة ، وهو هاشمي نزاری ،
بجعل أزد هذا الزمان أنصار المعز كما كان أجدادهم أنصار جدّه (صلعم) .

كما استعرضنا الاشارات القليلة التي تُعطينا صورة جزئية من الحياة
بالمسيلة ، مثل ابتناء جعفر قصراً لابنه ابراهيم ، هذا القصر الذي يسميه
الشاعر « إيواناً » تشبيهاً له بإيوان كسرى المعروف بوصف البحري له . يصف
شاعرنا هذا القصر ويفضله بالطبع على إيوان كسرى ، لأن القصر الإيراني
شيده قوم من عبدة النار ، أما هذا ، فشيده جعفر خدام الخلافة الغراء ، ولورآه

أهلُ مزدكٍ لخرّوا له سجّدا : [كامل]

- 4/57 إيوانُ ملك ، لو رأته فارسٌ دُعِرَتْ وخرّ لسمكه إيوانها
5 واستعظمت ما لم يُخلد مثله سابورها قدما ولا ساسانها
6 سجّدت إلى النيران أعصرها ولو بصرت به سجّدت له نيرانها

ويحتذي الشاعر حدو البحري في وصف هذا القصر فيخصّص له نحو خمسة وعشرين بيتاً يفصل فيها تباعاً محاسن قُبته ، وزخارفه ، ومقصوراته الكثيرة وحتى زركشة الأستار في الغرف ، ويرصف في القصيدة الألفاظ الفارسية من أسماء الملوك الساسانيين إلى أسماء الثياب الفاخرة : فهذا سابور وهذا ساسان لم يثبوا مثله ، وهذه القبة البيضاء بطنت وغطيت من خارج بالبرود القويّة النفسية :

- 16/57 علياء موفية على عليائه في حيث أسلم مُقلّة إنسانها
17 بطنائها وشي البرود وعُضبها فكأنما قسوها ظهرانها
18 نيّطت أكاليل بها منظومة فغدا يضاحك دُرّها مرجانها
19 وتعرّضت طرّر الستور كأنها عذبات أوشحة يروق جمانها

فلا غرابة أن يمثّل نفسه بالبحريّ في خاتمة هذه القصيدة الطويلة ويمثّل الممدوح بالفتح بن خاقان الوزير العبّاسيّ :

- 95/57 كنتُ الوليد فلم ينازعه بنو خاقان مكرمة ولا خاقانها

وعلى ذكر هذا التشبيه المتواصل بالإيوان الفارسيّ ، نلاحظ ، مع جورج مارسي ، أن « استخدام مصطلحات معماريّة فارسيّة بإفريقيّة وظهور هذه المصطلحات - مثل إيوان - من جديد بمصر ، قد يحمّلان على التفكير في إمكان وجود سُنّة معمارية فاطمية مطبوعة بطابع حضارة ما بين النهرين »⁽¹⁾ .

(1) كتاب الفن الإسلامي 119/1 Manuel d'art musulman .

وهكذا رأينا أن الشاعر يطرق جُلّ المعاني التقليدية في مدائحه وأن محاولات خروجه عن المألوف قليلةٌ محدودة ، تتناول الشكل في الأغلب ، وأن تقليده قد يتجه الى المتأخرين من الشعراء ، كما يظهر من المشاهد النواسية أو من محاكاته الصريحة للبحرّي في وصف الإيوان .

ولننظر الآن في بقية الأغراض لِنَتَمَسَّ فيها مقدار المسامرة أو الطرافة .

الرثاء

مراثي ابن هاني لا تعدو الثلاث ، كلّها في أسرة بني حمدون . فمرثية الحفيد ، وقد مات في سنّ الخامسة ، لا تتضمّن جديداً بالنظر الى المعاني المطروقة عادة في المراثي : خواطر حكمية حول قِصَر الحياة وحتمة الموت وقساوة الدهر ، ودعوة للناكل أن يتسلّح بالصبر ، ومدح للباقيين ، إذ المرثية موجهة الى الأمير خاصة ، ويبدو أنه تأثر بفقد الطفل أكثر من إبراهيم أبيه . وينقصها ، على هذه الصورة ، قسم معهود في المراثي ، وهو الإشادة بأخلاق الفقيد وصفاته ومآتيه . ولكنّ الحفيد مات صغيراً ولم يظهر منه شيء ذوبال ، فيتجه الشاعر الى الافتراض ويعدّد ما كان يأتيه هذا النجل لو قُدّر له أن يعيش : [رمل]

14/14 مات من لو عاش في سرباله غلب الثور عليه فأتقذ

ولكنّ الدهر خوّان مخاتل غدار ، لو أمهل هذا النجل سنواتٍ أخر ، لَمَا قَدَر عليه :

19 أقصذته يربّ خمسٍ أسهُم لو رمته تربّ عشرٍ لم تكذ

ثم يحثّ الأمير على التصبّر ، فله في ابنه إبراهيم مخايل النجاح وتباشير السيادة التي طُبعت عليها الأسرة مذ أسّس الإمارة الجدّ الأكبر ، علي ابن الأندلسية :

لا ملوم أنت في بعض الأسى غير أن الحرّ أولى بالجلد
61 ... إن إبراهيم مردود إلى زمن غصّ وأيام جُدّد

ولكن أحسن قسم في هذه المراثية الطويلة هو الأمثال التي يضربها الشاعر بمصرع أعظم السلاطين من تبع إلى كسرى ، وأسّن المعمرين مثل لقمان ونسره لبّد ، وقضاء الموت على أمنع الوحوش وأضرى السباع : فالنسر في وكره الشاهق ، والأسد المتجبر في غيضة الكثيفة ، والحيّة المنسابة في مختلة ورواغ ، كلّ هؤلاء لم تردّ عنهم البرائث ولا الأنياب ، وأولئك لم تنفعهم حصون ولا جنود . فكيف بالطفل الأعزل الوديع ؟ ولا يكتفي الشاعر بتعداد هذه الضحايا بل يصورها في قوتها ووداعتها ، ويلج على مناعتها وضراوتها ، في مشاهد مؤثرة يقدّمها بعبارة متكررة : « تلك أو ... » كأنه يدعونا إلى الاعتبار بالمثل المضروب ، فاذا لم يكف ، ضرب لنا مثلاً آخر :

66/14 لو مُعافى من خطوب عُوفِث لِقُوّة بين هِضابٍ ونُجْد

67 ترتبي مرهوبة تحسبها كوكب الليل على الليل رَصْد

68 تلك ، أو مغفرة في حالتي تَأْمَنُ الإنسان إذا الوحشُ شَرَّد . (1)

هذه المشاهد لا تخلو من عمق في النظرة وقوة في العبارة وسعة في التخيل . وهي بتنوعها وتجدها وتلاحقها وتكرّر عبارة التقديم تتصافر على الوصول إلى الغرض المقصود : الاعتبار والتأسي بهذه الأمثال الكثيرة المضروبة بكائنات قوية مسلحة حرة طليقة يصارعها الفناء بدون هوادة . ولا ندعي مع هذا أن لابن هانئ طرافة خاصة في هذا التمثيل ، فقد سبق إليه لبيد العامري وأبو ذؤيب في مراثيهما ، ولكن محاكاته لهذين السابقين العظميين لا تغمطه أجره في محاولة التنويع والتعمق ، وعدم الاكتفاء بالمألوف من عبارات التسلية والحكم البديهيّة .

مراثية الأم الرائية تسبق في نظرنا الثانية المقصورة ، ذلك أن هذه تتضمن

(1) اللقوة : المُقاب الممتنعة في جلها . والمغفرة : الظبية .

كما رأينا قسماً يلحُ فيه الشاعر على وجوب الوفاق بين الأخوين ، وقد خلت
الرائية من هذا المعنى ، فافتراضنا أنَّ بواذر الشقاق بدأت بعد وفاة أمِّ
الأميرين بِمُدَّة .

هذه الرائية تبدأ بتأملات حكمية طويلة : عشرون بيتاً في ذهول الإنسان
عن الحقيقة المرّة ، وهي الموت الواجب ، فالآمال عنده طويلة ، والعمرُ مهما
امتدَّ قصير ، ومسكين هو الإنسان الذي تُقوِّده حاسَّتَان لا تعقلان : السمعُ
الذي لا يُصغي إلى النذرِ ، والبصرُ الذي لا يتعلَّقُ إلا بالأعراض الزائلة : [كامل]

- | | | |
|------|---------------------------|---|
| 1/19 | صدق الفناء وكذَّبَ العمرُ | وجَلَّ العِظَاتُ وبالغِ النذرُ |
| 2 | إنَّا ، وفي آمالٍ أنفيسًا | طوولُ ، وفي أعمارنا قِصرُ |
| 3 | لنرى بأعيننا مصارعنا | لو كانت الأبواب تُعَبِّرُ |
| 4 | مما دهانا أنَّ حاضرنَا | أجفاننا ، والغائبِ الفكرُ |
| 5 | فاذا تدبّرنا جوارحنا | فأكْلُهُنَّ الأذنُ والنَّظَرُ |
| 6 | لو كان للأبواب ممتحنُ | ما عُدَّ منها السمعُ والبصرُ ⁽¹⁾ |

وبعد اتهام الإنسان في غفلته عمّا تنقله إليه الحواس من عبر ، يصوّر
المآل المحتوم في معانٍ مختلفة تتكرّر عند كلِّ راثٍ ، وقد رأينا شيئاً منها في
مرثية الطفل : المنيّة كأس مرّة لا بدّ من تجرّعها ، ولا مردّ للموت فلا رمح
ينفع ولا سيف ، ولا قوّة جُنْدٍ ولا عِزّة سلطان :

- | | | |
|------|-------------------------------------|-------------------------------|
| 9/19 | هل ينفعني عزُّ ذي يَمَنٍ | وحجولُه واليَمَنُ والغُرُرُ؟ |
| 11 | ... ها إنها كأسٌ بشِعْثُ بها | لا ملجأَ منها ولا وَرَرُ |
| 14 | ... فانيذٌ وشيجاً ، وارمِ ذا شُطْبٍ | لا البيضُ نافعةٌ ولا السُمُرُ |

(1) في البيت الأوّل ، قراءة أخرى : جَلَّ العِظَاتُ . وفي الخامس عوّضنا العين بالأذن . وفي بعض
النسخ : السمع والنظرُ ، فكرهنا أن تتكرّر عبارة السمع في بيتين متتاليين ، ولعلّ ذلك هو
الصواب .

حتى الكواكب الزهر تبلى والنجوم الطوالع ، ويفنى الليل والنهار
وتنطفئ السماء بِشُمُوسِهَا وأقمارها :

22/19	تفنى النجوم الزهر طالعةً	والثيران ، الشمس والقمر
23	ولئن تبدت في مطالعها	منظومة ، فلسوف تنتشر
24	ولئن سرى الفلك المدار بها	فلسوف يُسَلِّمُهَا وينفطر

وقد عاد الشاعر الى هذه التأملات في القصيدة الثانية وحاول تجديد
المعاني المعهودة ، فمكّل لسرعة المتقلب وقصر العمر بسماعنا لكلمة « لا » أو
كلمة « ذا » ، فهو لا يدوم إلّا مقدار الثواني القلائل ، وقابل بين حثّ الزمان
لضحاياهم نحو نهايتهم وتباطئه في خطاه ، أي إنه يدعونا الى الجلاء عن هذه
الدنيا بسرعة ولا يحتاج هو الى حثّ الخطي لأنه واثق من الظفر بفريسته : [متقارب]

2/59	فما غرّ نفساً سوى نفسها	وعُمر الفتى من أماني الفتى
3	فأقصر في العين من لفظة	وأسرع في السمع من ذا ولا
6	وَمَنْ لي بمثل سلاح الزمان	فأسطو عليه اذا ما سطا ؟
7	يجدّ بنا وهو رسل العنان	ويُذركنا وهو داني الخطي

وهذه الصورة الأخيرة متعّرة في الحقيقة ، كأنّ التعبير لم يوافق الفكرة ،
فلو قابل مثل المتنبّي بين « السوابق المقرّبات » التي يحتاط بها الانسان من
الموت ، و « خيب الليالي » أي السير البطيء - أو المتأني الواثق بالوصول الى
الغرض - ، لكان أوفق له . إلا أنه أراد غير هذا : الزمان يحثُّنا : ذاك هو
العمر القصير . أمّا هو ، فلا يُسرّع لأنه واصل لا محالة الى الهدف : تلك هي
الحمية .

من المعاني التي افتقدناها في مرثية الحفيد ، الإشادةُ بخصال الميت .
لا يغفلها الشاعر هنا فيعرج على كرم الأمّ ويجمع جمعاً لطيفاً بين السحاب
الذي يشبه غيئه نداها ، والمطر الذي شيع في ذلك اليوم جنازتها :

26/19 شهد الغمام ، وإن سقاك حياً أن الغمام إليك مفتقر
27 كم من يد لك غير واحدة لا الدمع يكفرها ولا المطر

وخصالها قد قسمتها بالقسطاس على جعفر ويحيى ، رفعتها لهما
فتلقاها باليمين . لذلك رحلت رخيّة البال مطمئنة وقد قضت الواجب وتيقنت
أن المجد الذي بناه علي بن حمدون سيتدعم عند النجلين :

41/19 إن التي أحلت عرينهم أضحت بحيث الضيغم الهصر

49 ... قسمت على أبنها مكارمها إن التراث المجد ، لا البدر

50 حتى تولت غير عاتبة لم يبق في الدنيا لها وطر

وبالرغم من ارتياحها لما تركته بعدها من مجد مؤثّل في ابنها ، فإن
الأسف عليها شديد ، يبكها الكون كما يبكيها البشر ، ويعود الشاعر الى
المطر الذي نزل على قبرها يوم الدفن :

37/59 ولما أتينا سقته الدموع فما بات حتى سقاه الحيا

38 وما جاده المزن من غلة ولكن ليبيك الندى بالندى

39 وقد خذ في الشمس أخطوه ولكن سبقنا به في الثرى⁽¹⁾

ويحاول أن يجسم حزن المشيعين لها ويأسهم من الحياة بعدها ، فينتجه
إلى العادة المتبعة في الجاهلية بعقر النوق والأفراس على قبر الفقيد العزيز ،
ولكنه يدعو إلى نحر النفوس بدل الدواب :

31/19 فقفوا تضرّج ثم أنفُسنا لا الصافات الجرذ والعكر⁽²⁾

وربما استغرب فيما بعد هذا الاقتراح أو استقبح ما فيه من غلو وتباك
كاذب ، فعدل في القصيدة الثانية الى نحر القوافي لا غير، أي الإقلاع عن الشاء

(1) الضمير في سقاه وجاده يعود على قبر الفقيد .

(2) المعكرج عكرة : القطيع من الإبل .

والمدح بعد رحيل هذه التي جمعت المحامد والخصال :

49/59 اذا ما نحرّت به أو عقرت فعبد الخوائف ذات البرى

50 ولا ترض إلا بعقر النساء ونحر القوافي ، وإلا فلا⁽¹⁾

مدح الأمهات

ولكن أهم معنى ورد في مرثيتي الأم ، هو المدح البليغ للأمهات عامة الذي أدرجه الشاعر في آخر القصيدة المقصورة . هذه الإشادة بفضل الأمهات فريدة من نوعها في الشعر العربي القديم على ما نعلم ، وهي تصلح أن تكون شعاراً لإعبد الأمهات السنوي ، كما تصلح أن تكون حجة في يد النساء المطالبات بالمساواة مع الرجال ، وحجة أيضاً ضد من يتهم الأدب العربي بعنصريته الرجالية . فالشاعر يجعل للأم نصف الفضل في نسب الولد ، والنصف الآخر للاب . فاذا افتخر الكريم الشريف بنسبه ، فأبه وأبيه يفتخر ، فالأم تدعم الأولاد وتدفعهم نحو المجد وتنشئهم على المكارم ، فهي في هذا صنو للاب وكفاء : [مقارب]

69/59 لأماننا نصف أنسابنا اذا الملك القليل منا انتمى

70 دعائهم أيماننا في الفخار وأكفاء آبائنا في العلى

وهي التي تربي الطفل وتكفله في السلم والحرب ، وهي التي بتوجيهها يتعلم ويسمع ويُبصر ويعتبر فهي المربية الأولى ، وفضلها هذا يجعلها سابقة للاب مقدمة عليه :

71 ألم ترهنّ يُباريننا فيمرقننا ويتلنّ المدى ؟

72 كفّلن لنا بظلال الخيام وأكفلننا بظلال القنا

73 ونغدو فمنهنّ أسماعنا وأبصارنا في حجال المها

(1) الخوائف هي الانيق .

فلا عجب أن يختتم الشاعر هذه الأنشودة الحماسية في فضل الأمهات ،
بتفضيل النساء على الرجال ، على الأقل في بعض منهم ومنهن ، وتعديل
القسمة الضمري :

74 فلو جاز حكيم في الغابرين وعدلت أقسام هذا الوري

75 لسميت بعض النساء الرجال وسميت بعض الرجال النساء

وهكذا ظفرنا من هذه المراثي التقليدية بهذه القطعة المحيرة : فهي
تحيرنا من جهتين : فهي أولاً لا تسمح لنا بأي افتراض في شأن أم الشاعر .
وهو الذي لم يذكر في كامل الديوان أمًا أو أبًا . فهل تذكر أمه هو فربط ذكراها
أو ذكرى موتها بموت أم الأميرين ؟ أم حن إليها في ديارها الأندلسية إن كان هو
هرب وحده الى المغرب ؟

وتحيرنا من جهة ثانية لأننا لا نستبعد أن يكون غرضها سياسياً مذهبياً
حزبياً ، وهو إثبات نسب الفاطميين الذي قدح فيه الخصوم حين قالوا إن عبيد
الله - والشيعة يسمونه عبد الله بدون تصغير - هو ابن تاجر فارسي أو صانع
يهودي ، ولا صلة له قط بالعترة المنتخبة . ثم رفع الإصر على الفاطميين إذ
يلحقون بفاطمة ، لا بعلي ، ومن الناس من يستكف من أن ينسب الى أمه لا
لأبيه . فكأنه ، من خلال هذه الأبيات ، يدعو المعز الى الافتخار بالانتساب
إلى فاطمة ، أم الأسرة الطاهرة، وعدم المبالاة بمن يحاول الغض من الدولة
الفاطمية فينسبها الى « عبيد الله » بصيغة التصغير ويقول الدولة العبيدية ، أو ،
إذا أقر بالنسب الفاطمي ، سماها دولة « الفواطم » بصيغة التانيث .

الهجاء

حللنا في خاتمة الفصل الثالث القصيدة الفائية التي تقول التوطئة إنه
هجا بها الوهرائي ، ورأينا أنها ليست هجاء بقدر ما هي مدح لجعفر
الحمودوني . ولا يوجد في الديوان كله هجاء غيرها ، كأن الشاعر - أو غيره -
طهر الديوان من دنس القذف والسباب ، أو كأن الشاعر لم يهج قط . ولعل

هذا هو الصحيح ، اذا ما اعتبرنا الرواية التي تقول إنه عند مقدّمه إلى إفريقية هجاء شعراؤها فترفع عنهم ولم يعتبر منهم الا الإيادي ، فأحجم هذا الشاعر عن التعرّض له لأنه رفعه على غيره⁽¹⁾ . فلم تقع مهاجمة إذن ، فلذلك خلا الديوان من هذا الصنف .

وتوجد مقطوعة نونية طريفة وصف فيها رجلاً أكلوا بصورة ساخرة مضحكة ، ولا نعرف عن هذا الرجل شيئاً سوى أنه أكل ، وأنه ربما لقّبه الشاعر بالقرب من رقادة في أحد الخانات أو الفنادق، وأنه، على ما يظهر من أنواع الأطعمة التي يلتهمها ، غنيّ موسر . والشاعر يكتفي بالوصف المتندر لحركة شدّقيه ، وقرقرة أسنانه ودويّ بطنه ، في لوحة فنية تدعو الى الاشتمزاز من الرجل ، ولكنها أيضاً تبعث على الاستطراف لخيال الشاعر ولباقة افتراضاته وتساؤلاته المتجاهلة . فهي ، اذ خلت من اسم الرجل ونسبه ، ومن التعرّض الى صفات ونقائص أخلاقية ، ومن الإشارة الى وصمات في سيرته أو نسبه ، لا تعدّ من الهجاء بالمعنى المتعارف . ولكنّا نحللها هنا لما فيها من طرافة ، ولما تبرهن عليه من قدرة على الاستهزاء والتصوير المضحك .

يصور هذا العملاق الشرّ في تحرّك فكّيه الدائم وضجيج أسنانه وحنين بطنه الى المزيد، فكانه في ساحة وغى لا على مائدة ، ويرصف المفردات المناسبة : [بسيط]

- 4/56 تبارك الله ما أمضى أسنّته كأنما كلّ فكّ منه طاحون
5 كأنّ بيتّ سلاح فيه مختزّن مما أعدّته للرسّ للفرّاعين
6 أين الأسنة ، أم أين الصوارم ، أم أين الخناجر ، أم أين السكاكين ؟

والصور المستمدّة من الرصيد القرآني : بطن الحوت الذي ابتلع النبي يونس هو دون بلعومه في الاتساع ، وفلك نوح بما فيه من حيوان لا يشبعه ، ومعدّته تطلب المزيد مثل جهنّم حين يكثر زفيرها :

(1) ابن رشيق : العمدة 111/1 .

7/56 كأنما الحمل المشوي في يده ذو النون في الماء لما عضه النون
 3 ... كأن معدته والزاد يضرهما جهنم قذفت فيها الشياطين
 17 فليس ترويه أمواه الفرات ولا يقوته فلك نوح وهو مشحون

ويتظاهر الشاعر بالهلع من هذا الطاحون الذي لا يبقى على شيء، فيدعو أصحابه إلى المبادرة بالفرار قبل أن يصيروا طعاماً سائغاً لهذه النار المضطربة :

15/56 قوموا بنا ، فلقد ريعت خواطرننا وجاذبتنا الأعنات البراذين
 16 نصحتكم ، فخذوا من شذقه وزرا أو لا ، فانتم سويق فيه مطحون
 18 ... فمثل رقادة في كفّه وسط ونحن مقدونس فيه وطرخون

أغراض الشاعر ومعانيه المعاني العقائدية المذهبية

ولاه الفاطمي

عبرنا في الصفحات السابقة عن اقتناعنا بأن الشاعر كان صادق التشيع وأن ترديده للمعتقدات الإسماعيلية في شعره لم يكن مجرد تزلف للحكام الجدد المنتصبين بإفريقية . وسائرناه في زعمه أن تشيعه قديم وأنه بسببه اضطر إلى ترك بلاده والهجرة إلى بر العدو . وافترضنا أن تشيعه قد يكون موروثاً عن أسرته ، ولا سيما أبيه هانيء الذي تزعم بعض المصادر أنه كان من دعاة الفاطميين بالأندلس .

تدرجه في اعتناق المذهب

ولا ندعي أن ولاء ابن هانيء للفاطميين كان تاماً كاملاً نهائياً من أول أمره . فلعلّه لم يعد الميّل العاطفي حين كان بالأندلس ، ثم قوي وتدعم بعد استقراره في قلب الدعوة بالقيروان - المنصورية ، أو حتى بأطرافها في مقاطعة الزاب أو تاهرت عند ولاة المعز وقواده . وربما استفاد الشاعر بـ « مجالس الدعوة » أو مجالس الحكمة التي كانت تنظم للأولياء والمريدين ، وحتى

للخصوص والمناوئين⁽¹⁾ ، بأشراف كبار الدعاة وبرعاية الإمام نفسه . وقد ترك لنا القاضي النعمان بعض التفاصيل عن هذه المجالس التعليمية الدعائية التي كلفه المنصور بها وأقره المعز عليها فصار يُمدّه بما يحتاج اليه من علوم الظاهر والباطن في شروحه وردوده وحججه⁽²⁾ . وستدعم هذه المجالس في الفترة المصرية من تاريخ الدولة الفاطمية وتصبح لها رسوم معينة وسنن متبعة كما بين لنا المقرئ في خطه⁽³⁾ .

نقول : رُبما استفاد، نفترض ، ولا نجزم بأن الشاعر لقِيَ القاضي ، بل من غريب الأمور أنه لا ذكر لأحدهما عند الآخر ، كأنهما لم يتعارفا قط ولم يجتمعا في بلاط واحد عند إمام واحد .

ولا شك أن ولاء الشاعر للفاطميّين أخذ ينمو شيئا فشيئا مع تمرّسه بالشعارات الشيعية في الأوساط الرسمية بالقيروان والمهدية . بهذا التدرج يشهد اختلاف اللهجة بين القصائد الأولى التي نظمها إثر نزوله بالأرض الإفريقية والقصائد المعزّيات التي تتبى المقولات الإسماعيلية بصورة تامة مطلقة .

موقف أهل السنة من غلو الشاعر في ولائه

قد يستنكر القارئ الذي ليس له خبرة بهذه المقولات ، ما يجده في الديوان من أوصاف وأحكام وأفكار في خصوص الأئمة تصل إلى حدّ التأليه ، وهو غلو لا يبرّر فقط بميل الشاعر الى التفخيم وجريه وراء اللفظ الجزل والعبارة القويّة . فعلاً قد استنكر النقاد القدامى مغالته في مدح المعزّ كأن

(1) المجالس والمسائرات ، 434 : حضور الشاعر ابن واسول أحد هذه المجالس في قيده .

(2) نفس المرجع 360 : استشارة النعمان للمعزّ في خصوص كتابه : الدينار . وانظر ما كتبه الدشراوي : الخلافة ... 410 - 413 عن ازدواجية الوظيفة عند قاضي القضاة .

(3) ج 223/2 - 224 .

يطلق عليه الأسماء والنعوت التي نخصّ بها عادةً الله وحده . هذا ابن شرف يرى في ذلك تطاولاً على الدين : « . . . وكان في دينه في أسفل منزلة : ناهيك من رجل يستعين على صلاح دنياه بفساد آخرته ، لرداءة دينه وضعف يقينه » ، والتهمة كما نرى مزدوجة : مروق عن الجادة لا لاقتناع ، بل لطلب المزيد من رِفد الممدوح ، مع أنّ في معاني الشعر متسعاً لكل راغب : « ولو عقل ما ضاقت عليه معاني الشعر حتى يستعين عليه بالكفر⁽¹⁾ » . وهذا أحد النسخ يفتقد القصيدة 24 - تلك التي يوصف فيها المعزّ بالواحد القهار ، وقد خلت منها مخطوطات كثيرة ، لا سيما النسخ التونسية - من النسخة التي ينقل عنها فيفسر طرحها بما تضمنته من كفر ، ويُدلي بحكم للمؤرخ القيروانيّ ابن شدّاد صاحب كتاب « الجمع والبيان » المفقود ، وهو حكم يُلقي التبعيّة ، لا على الشاعر ، بل على المعزّ ، الذي يشجّع شعراءه على هذا الإفراط ويستزيدهم منه⁽²⁾ .

على أنّ الإنصاف يقتضي منا أن لا ننتقل في الحكم على الشاعر من أرضيّة سنيّة مالكيّة كما فعل ابن شدّاد وابن شرف ، بل علينا أن نضع هذا الشعر في إطاره من العقيدة الإسماعيليّة أولاً ، ومن الخصومة الكلاميّة بين الدولة الفاطميّة وأعدائها في الداخل والخارج ثانياً . فإذا اعتبرنا مثلاً أنّ الإسماعيليّة تنفي الصفات عن الإله مثل المعتزلة⁽³⁾ ، فهمنا لماذا لا يتحرّج شاعرنا ، ولا غيره من الأنصار والدعاة ، من إطلاق بعض الصفات القدسيّة على الإمام ، وهو بشر .

وستحاول في هذا الفصل أن نرفع عن شاعرنا تهمة الكفر هذه ، وأن نبين صدق ولائه للدعوة الفاطميّة . ونتوخّى في هذا الاحتجاج له طريقة المقارنة : نقارن معانيه وأغراضه بالشعارات والمقولات التي تبسطها الكتب

(1) نقلاً عن ابن الخطيب : إحاطة 213/2 .

(2) مقدّمة مخطوط 5 عدد 18624 ، ورقة 7 .

(3) فوييار : نُبذ . . . 9 ، St . Guyard: Fragments .

« النظرية » مثل كتب القاضي النعمان ، وكذلك نقارنها بما يقوله شاعر فاطمي أصلاً ، هو تميم بن المعز .

المعاني المذهبية في شعره المغربي

رأينا أن الشاعر احتج لدى المعز بتشييع قديم جلب اليه نعمة الأمويين ، لاحظنا وجود بعض المقولات الإسماعيلية في شعره الأول بالمغرب ، أي قبل دخوله في خدمة المعز مباشرة ، ودعماً أدعاه وقبلناه ، بهذه المعاني التي أودعها مثلاً أول قصائده بعد هجرته ، وهي مدحة جوهر الحائية : ففيها يستخدم المصطلحات السياسية الرائجة عند الفاطميين كالإمامة ، وإمرة المؤمنين ، والخلافة ، كأنه نسي أنه ترك وراءه منذ قليل خلافة أخرى . وهكذا يستمد جوهر صفاته الناصعة من روح الخلافة المعزية : [طويل] .

13/10 وأبيض من سِرِّ الخِلافةِ واضحٍ تجلّى فكانَ الشمسَ في رُؤُوسِ الضُّحَى
21 ... رآه أمير المؤمنين كعهده لديه، ولم تنزع به الدار منزعاً

فهو حوارِي المعز كما كان قديسو النصارى حوارِي عيسى ، زكته خدمة الإمام وزكت جنوده فضمت لهم الفلاح :

65 لأفلح منهم من تزكى، وقاده حوارِي أملاك تزكى وأفلحاً

هذه العبارات ، بمسحتها الدينية وتضميناتها القرآنية ، قد تؤيد عندنا التصديق بتشيعه القديم . ولكن لا نستبعد منه أيضاً شيئاً من التزلف إلى الخليفة الذي هجر إليه ، والتوسل بالقائد الصقلي حتى يوصله إلى مبتغاه . ونعلم أن جوهرأ خيب ظنه فاضطر الشاعر إلى الانتظار بضع سنوات بالمسيلة ، وربما تباهرت أيضاً ، قبل أن يدعوه المعز إليه .

قصائد المسيلة

المعاني الإسماعيلية في مدائح أمراء الزاب أقل ظهوراً منها في مدحة جوهر . فهل يُعزى هذا الخفوت النسبي إلى الاستقلال الذي يتمتع به جعفر ابن حمدون في إمارته وإلى استنكافه من أن يُذكرَ بتبعيته لصاحب القيروان ؟ هذا ما افترضناه حين حللنا هذه القصائد بالتفصيل في الفصل السادس . ولكن يمكن أن نفترض سبباً آخر : وهو أن الشاعر لم يطلع بعدُ على كافة المقولات الإسماعيلية ، وإنما كان يعرف منها ما يعرفه المناصر المتوسط البعيد . فلذلك يكتفي بذكر ولاء الأميرين للإمام ودورهما في الدفاع عن الدولة : [طويل] .

42/52 وَأَنْكَ عَنْ تُغْرِ الْخِلَافَةَ دَائِدُ وَأَنْكَ عَنْ تُغْرِ الْخِلَافَةَ بِاسِمُ
ويطيب له أن يمثل دور أبناء الأندلسية - وهم أزديون مثله - مع المعز الهاشمي بدور أجدادهم الأنصار مع جدّه محمد (صلعم) : [كامل] .

40/6 سَدَّ الْإِمَامُ بِكَ الثُّغُورَ ، وَقَبْلَهُ هَزَمَ النَّبِيُّ بِقَوْمِكَ الْأَحْزَابَ⁽¹⁾
وإن يذكر التبعية فإنه يخص بها يحيى بن حمدون ، وكأنه شعر أثناء إقامته بالمسيلة بتفاوت الأخوين في الولاء الفاطمي ، وتوقع ما سيكون من انفصال جعفر عن المعز ولجوءه إلى الحَكَم المستنصر بقرطبة . فإذا توجه إلى جعفر لايته وعظم مساندته للخليفة : [كامل] .

55/45 فَأَنْهَضُ بِأَعْبَاءِ الْخِلَافَةِ كُلِّهَا إِنَّ الْمُحْمَلَهُنَّ عَوْدُ بَازِلُ
أما إذا خاطب يحيى ، فالعلاقة بينه وبين المعز علاقة العبد بمولاه : [طويل]

60/61 وَمِثْلُكَ مَنْ أَرْضَى الْخَلِيفَةَ سَعِيَهُ فَإِنْ رَضِيَ الْمَوْلَى فَقَدْ نَصَحَ الْعَبْدُ

(1) الأنصار من أوس وخزرج كانوا أزديين أيضاً .

تشيع السلاح أيضاً

وينسبُ التبعيّة نفسها إلى سيف يحيى : فهو سيفٌ شيعيٌّ يعرفُ إمام الزمان ، كما هو مفروضٌ على كلِّ مُتّسِبٍ إلى العقيدة ، ويكيي الحسين وشهداء الطفّ : [كامل] .

... في كفّ يحيى منه أبيضُ مُرهفٌ عرفَ المعزّ حقيقةً فتشيعاً وجرى الفرندُ بصفحتيّهِ، كأنما ذكرَ القتيلَ بكريلاء فدمعاً⁽¹⁾

ويوالي ذا الفقار سيفَ المعزّ ، كما يوالي صاحبه الإمام : [مخلع] حامله للمعزّ عبداً والسيفُ عبداً لذي الفقار⁽²⁾

وهناك تفسير ثالث يمكن تقديمه لتبرير انحسار المعاني الشيعية بالمسيلة : وهو أنّ معظم قصائد بني حمدون كانت محلّيةً ظرفيّةً ، فهي إمّا تهنئة بإبلاّلٍ من مرض ، أو بالفراغ من تشييد قصر ، أو بالعودة من غزوة مظفّرة ، وإمّا تفجّع على فقيّد في الأسرة ، وإمّا دعوة الى مجلس أنس . ولا تدعو الظروف التي تُشَدُّ فيها الى التحليق في الأجواء العقائدية العليا .

مدائح الشيباني

ما قلناه في خصوص شعر المسيلة يمكن أن نقوله أيضاً في مدائح أبي الفرج الشيباني : هذه القصائد السّتُ لا تحمل هي أيضاً كثيراً من شعارات الدعوة ، باستثناء الياثية التي ورد فيها شيءٌ من الإلحاح على تبعيّة هذا القائد البكريّ للمعزّ ، إلّا أنها تبعيّةٌ قائِدةٌ عسكريّ جرّد سيفه للدفاع عن الدعوة والدولة . وسيفه هو أيضاً شبيهٌ في مضائه بذِي الفقار ، بل يستمدّ قوّته من ذي

(1) تبين المعاني ... ص 396 . والفرندُ يريقُ السيفَ ولمعانه .

(2) تبين المعاني ... ص 262 .

الفقار : [بسيط] .

66/60 لِلَّهِ مَا تَنْتَضِي مِنْ ذِي الْفَقَارِ، وَمَا تَشُدُّ مِنْ عَضْدِ الرَّايِ الْإِمَامِي
وإنَّ نُصْرَةَ الشَّيْبَانِي لِلْأُسْرَةِ الْفَاطِمِيَّةِ نَابِعَةٌ مِنْ تَشْيَعِهِ الصَّادِقِ الَّذِي أَمَدَّهُ
بِالْحَنْكَةِ السِّيَاسِيَّةِ :

40/60 شَيْعِيٌّ أَمْلَاكِ بَكْرٍ إِنْ هُمْ انْتَسَبُوا وَلَسْتُ تَلْقَى أَدِيْباً غَيْرَ شَيْعِيٍّ
41 مَنْ أَصْلَحَ الْمَغْرِبَ الْأَقْصَى بَلَا أَدَبٍ غَيْرِ التَّشْيَعِ وَالِدَيْنِ الْحَنِيفِيَّ
فصار له سلاحان : الحديدُ الباتر والرأي الثاقب :

57/60 رَامَ بِسَهْمَيْنِ: مَبْرِيٍّ يَسْدِدُهُ وَصَائِبٍ عَلَوِيٍّ غَيْرِ مَبْرِيٍّ
وإنَّ ذَكَرَ الشَّاعِرَ لِعَمَلِيَّاتِ الشَّيْبَانِي الْحَرْبِيَّةِ فِي الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى حَمَلْنَا
على افتراض أن هذا القائد ربّما كان واليا للمعزّ على مقاطعة تاهرت ، وقد
ذكرت بعض المصادر أنّ أجناداً من بكر بن وائل ، وشيبان فرع من بكر ،
كانت قد استولت جبهة تاهرت منذ الفتح الإسلامي . فإن صدق ظننا ، وفي
انتظار أن نكتشف يوماً مزيداً من المعلومات عن هذا القائد المجهول ، فلا
مانع من أن نبرّر هنا أيضاً خفوت المعاني الإسماعيلية في القصائد الخمس
الأخرى ، ببعْدِ الشَّيْبَانِيٍّ عَنْ عَاصِمَةِ الْخُلَافَةِ وَتَمَتُّعِهِ هُوَ أَيْضاً بِنَوْعٍ مِنَ
الاستقلال . ولا نستبعد أن يكون أبو الفرج هذا من أوّل ممدوحِي الشَّاعِرِ ،
بين جوهر بفاس ، وبني حمدون بالمسيلة .

مدحة أفلح الناشب النونية

هذه المدحة ، بالعكس ، تطفح بالشعارات الإسماعيلية ، وهي لا
ترجم عن معتقد الممدوح فحسب ، بل عن تحزّب الشاعر أيضاً وقد حوّل
المقدمة التقليدية الى إعلان عن تعلّقه بالحزب الذي ينتمي اليه والي برقة :
[كامل]

12-11/55 حِزْبُ الإمامِ مِنَ الوري حِزْبِي إِذَا عُدُّوا ، وَخُلَصَانُ الْهُدَى خُلَصَانِي
لَا تَبْعُدَنَّ عِصَابَةَ شَيْعِيَّةَ ظَفِرُوا بِبُعْتِهِمْ مِنَ الرَّحْمَانِ

أَمَّا أَفْلَحُ ، فَلَا يَقَاسُ أَيُّ تَابِعٍ لِلْأَثَمَةِ بَوْلَانُهُ هُوَ ، كَمَا لَا تَقَاسُ
سَطُورُ الْمَتْنِ فِي دِقَّتِهَا بِعُنْوَانِ الْكِتَابِ فِي وَضُوحِهِ وَتَمَيُّزِهِ :

83/55 يَا سَيْفَ عَتَرَةِ هَاشِمٍ ، وَسِنَانِهَا وَشَهَابِهَا فِي حَالِكَ الْأَذْجَانِ
85 . . كُلُّ الدَّعَاةِ إِلَى الْهُدَى كَالسَّطْرِ فِي بَطْنِ الْكِتَابِ ، وَأَنْتَ كَالْعُنْوَانِ

ونجد في هذه القصيدة من معاني التقديس للإمام ما لا نجده في مدائح
الشيخاني ولا الأخوين الأندلسيين ، مثل الإصحاح بأن الإمام هو وارث الدنيا
وسيد الإنس والجن :

16 قَدْ شَرَّفَ اللَّهُ الْوَرَى بِزَمَانِهِ حَتَّى الْكَوَاكِبُ وَالْوَرَى سَيَّانِ
17 وَكَفَى بَعْنِ مِيرَاثِهِ الدُّنْيَا وَمَنْ خُلِقَتْ لَهُ ، وَعَبِيدُهُ الثَّقَلَانِ

فهى ، في معانيها المذهبية ، تفوق مدحة جوهر الحائية . فلذلك نميل
إلى تأريخها بما بعد دخول الشاعر القيروان وأطلاعه التام على تعاليم الدعوة .
وقد تكون من آخر ما نظم ، وهو في طريقه إلى مصر للالتحاق بالمعز . وبهذا
يكون الاتصال بالإمام في القيروان هو البرزخ الفاصل بين طورين من حياته :
طور الشاعر المداح المتنقل من أمير إلى آخر ، ولكن في فلك دولة لها مذهبها
وعقيدتها وشعاراتها ، فيظهر في شعره ، إن قليلاً وإن كثيراً ، صدى هذا
المعتقد . وطور الشاعر الرسمي الذي وعى تعاليم الدعوة كل الوعي فجعلها
محور شعره يصدق بها للأنصار والخصوم معاً .

هذا الصدى ، وهذه المقولات هي التي سندرسها الآن .

التأكيد على النسب الفاطمي

انتساب الدولة الى فاطمة الزهراء له أبعاد سياسية : فهو تأكيد بحق ذريتها في إرث جدّهم ، لا الإرث المادّي فحسب ، بل الإرث المعنويّ ، أي إمرة المسلمين الزمنية وإمامة المؤمنين الروحية . وهو أيضاً تأكيد على اختصاصهم وحدهم بهذا الحق ، دون سائر الهاشميين كبنّي العباس ، وحتى دون سائر ذريّة عليّ من غير فاطمة كأتباع محمد بن الحنفية وغيرهم . والشاعر ، لإظهار هذه النسبة الشريفة المخصوصة ، يذكر تارة اسم بنت الرسول بلفظه : [كامل]

27/24 أبناء فاطم، هل لنا في حشرنا لجأ سواكم عاصم ومُجَار؟
ويذكرها تارة أخرى باللقب الذي عُرفت به فيما بعد عند الشيعة ، وهو لقب « البتول » ، أي العذراء المطهرة ، تشبيهاً لها بالصورة التنزيهية التي توصفُ بها مريمُ في القرآن : فكما أنجبت مريمُ عيسى عليه السلام وبقيت مع ذلك عذراء ، أنجبت فاطمة الحسين (والحسن) وبقيت متبيلةً : [طويل]
136/47 أَلَا سَائِلُوا عَنْهُ الْبَتُولَ فَتُخْبِرُوا أَكَانَتْ لَهُ أُمًّا، وَكَانَ لَهَا ابْنًا!
وقد يذكرها بلقب « الزهراء » الذي يشترك في قبوله السنة والشيعة ، ويؤكدُ فخر الأسرة بالانتساب إلى الأمّهات ، على غير عادة العرب . وقد التمسنا في الأبيات التي ختم بها رثاء أمّ بني حمدون وأعلى فيها من شأن الأمّهات وجعلهنّ أكفاءً للآباء ، التمسنا فيها بادرة تبرير لانتساب الدولة إلى فاطمة ، أمّ الأئمة ، بل ربّما علامة فخر بهذه الظاهرة التي قد يُعَدُّها الخصوم منقصةً . وللتأكيد على أنّه لا حياة في الانتساب الى الأمّ ، يعزّز الزهراء بالـ « عواتك » ، أي عواتك بني سليم ، اللاتي اشتركن بزواجهنّ إمّا في بني هاشم أو في بني النّجار ، في [نjab محمد النبي⁽¹⁾ : [طويل] .

(1) في خصوص العواتك الثلاث ، انظر البلاذري : نسب الأشراف 532/1 وأيضاً تعليق زاهد علي على البيت .

24/37 له نسب الزهراء دُنْيَا يَخْصُهُ وسألف ما ضَمَّت عليه العواتكُ
ويختصر المراحل أحياناً فيصبح أبناء فاطمة أبناء النبي مباشرة : [كامل]
79/1 أعززت دينَ الله يا ابنَ نبيِّه فالـيـومَ فيه تَحْمُطُ وإِباءُ
أو يجعل النبي أباً للمعز كما رأينا ، وتارة جداً : [كامل]

46/9 فكأنَّ جدَّك في فوارس هاشمٍ مِنْهُمْ بحيثُ يَرى الحسينَ ذبيحاً
وأحياناً يَنبِي الأسرةَ إلى أبيهم عليّ مباشرةً : [كامل]

5/40 متكشفٌ عن عَزْمَةِ عَلَوِيَّةٍ لِلْكَفْرِ مِنْهَا رَنَةٌ وعويلُ
وحتى الى أبي طالب فيستخدم نسبة « الطالبين » الجامعة : [طويل]
34/22 وردُ حقوقَ الطالبينَ مَنْ زَكَتْ صنائعُهُ في آلِه وزكا الذُخْرُ
أو يتوسط بالحسن والحسين ، فيكتفي عليّاً بأبي السبطين : [طويل]

89/13 فليت أبا السبطينَ ، والترُّبُ دونهُ يرى كيف تُبدي حِكْمَهُ وتُعِيدُ
و « أبو السبطين » كنايةٌ فخارٍ يحتجُّ بها الشاعر ضدَّ بني العباس :
فأبناء عليّ قد أشار إليهم القرآن ونزلت فيهم آيات . أمّا العباس فالمعروف عنه
أنه قاوم النبي وأسير في بدر فرق له محمد (صلى الله عليه وسلم) فأطلقه : [طويل]
17/22 أفي ابنِ أبي السبطينِ ، أم في طليقِكُم تَنَزَّلَتِ الآياتُ والسورُ الغُرُ؟

وقد يجمع النسبتين ، نسبة الأم ونسبة الأب في كُنائَتَيْنِ أُخْرَتَيْنِ :
المصطفى ، وهو محمد ، والمرتضى ، وهو عليّ . ولنلاحظ عَرَضاً أنَّ
الألقاب المستخرجة من مادة الرضا جاريةٌ عند عموم الشيعة : فأحد الأئمة عند
الاثني عشرية يُدعى عليّ الرضا ، وبعض نقباء العلويين ببغداد يُدعون
الشريف الرضي والشريف المرتضى : [مقارب]

59/58 هو الوارثُ الأرضَ عن أبوين : أبُ مصطفى ، وأبُ مُرتضى

وأحياناً يعمم الكناية ، فيُثَمِّي الأسرة مباشرة الى النبوة والوحي : [كامل]

19/41 هذا ابنُ وحيِ الله، تأخُذُ هذِيها عنه الملائكُ بكرةً وأصيلًا
88 ... أبني النبوة، هل نبادرُ غايةً ونقول فيكمُ غيرَ ما قد قيلًا؟

بين المثبت للنسب الفاطمي والقادح فيه

بهذا التنوع في ذكر نسب الفاطميين ، وبهذا الاستظهار المتواصل بقرابة النبيِ المباشرة المخصوصة بهم دون غيرهم ، يرمي الشاعر ، لا إلى إقناع الأنصار ، فهمُ بعدُ مقتنعون ، بل-إلى دفع التهم المختلفة التي أُصِقت بنسب عبيد الله المهديِّ مؤسس الأسرة ، ومنها تكذيب أهل القيروان لانحدارهم من فاطمة ، فاكتفوا بنسبة الدولة الى مؤسسها وقالوا : الدولة العبيديَّة أو دولة بني عبيد ، كما فعل ابن حماد في أحبارهِ .

فهذا ابن شدَّاد الصنهاجي صاحب تاريخ القيروان المفقود ينمي عبيد الله إلى أبٍ يهوديِّ في خاتمة خيرٍ طويل نقله ابن الأثير ثم المقرئزي : « ... وعهد الحسين - ولم يكن له ولدٌ - إلى ابن اليهوديِّ ، وهو عبيد الله ، وعرفه أسرار الدعوة من قولٍ وفعلٍ »⁽¹⁾ . واعترض ابن الأثير على هذا القدح فقال : « ... وهذه الأقوال فيها ما فيها . فيا ليت شعري ، ما الذي حمل أبا عبد الله الشيعيِّ وغيره ممَّن قام في إظهار هذه الدعوة حتى يُخْرِجُوا هذا الأمرَ من أنفسهم ويسلموه الى ولدٍ يهوديِّ ؟ »⁽²⁾ .

وجمع القادرُ العبَّاسيُّ سنة 1011/402 ببغداد لجنة من علماء الأنساب فيها علويُّون معروفون كالشريفين الرضيِّ⁽³⁾ والمرتضى فشهدت له « خوفًا

(1) المقرئزي : اتعاظ 46-57 . وبالنصوص ، تعليقات المرحوم جمال الدين الشيال .

(2) الكامل 129/6 . حوادث سنة 296 . والمقرئزي : اتعاظ ... 57 .

(3) ألا أن الشريف الرضيِّ ، حسب ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة 13/ « امتنع من تسطير خطِّهِ وقال : لا أكتبُ ، وأحافُ دعاةَ صاحبِ مصر » .

وَتَقِيَّةٌ « بَأَنَّ الْحَاكِمَ بِأَمْرِ اللَّهِ الْمُتَنَصِّبِ بِالْقَاهِرَةِ آنَذَاكَ » وَمَنْ تَقَدَّمَ مِنْ سَلْفِهِ
الْأَرْجَاسُ الْأَنْجَاسُ ، أَدْعِيَاءُ خَوَارِجٌ لَا نَسَبَ لَهُمْ فِي وَلَدِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ
(رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) ، وَأَنَّ مَا أَدَّعَوْهُ مِنَ الْإِنْتِسَابِ إِلَيْهِ زُورٌ وَبَاطِلٌ . . . وَأَنَّهُمْ
تَكْفَارٌ فَسَاقٍ زَنَادِقَةٌ ، مُلْحَدُونَ مَعْطَلُونَ ، وَلِلْإِسْلَامِ جَا حِدُونَ ، وَلِمَذْهَبِ الثَّنَوِيَّةِ
وَالْمَجُوسِيَّةِ مَعْتَقِدُونَ ، قَدْ عَطَّلُوا الْحُدُودَ ، وَأَبَاحُوا الْفُرُوجَ ، وَأَحْلَوْا
الْخُمُورَ ، وَسَفَكُوا الدِّمَاءَ ، وَسَبُّوا الْأَنْبِيَاءَ وَلَعَنُوا السَّلَفَ وَأَدَّعَوْا الرِّبَوِيَّةَ « (1) .
وَقَدْ أَكْثَرَ الْقَوْمُ وَبَالِغُوا إِذْ رَمَوْهُمْ بِكُلِّ مَوْبِقَةٍ . وَكَأَنَّهُمْ نَقَلُوا هَذِهِ السَّلْسَلَةَ
الطَوِيلَةَ مِنَ الْأَثَامِ عَنْ ابْنِ شَدَّادٍ فِي كِتَابِهِ الْمَفْقُودِ . وَالْمُؤَرِّخُ الصَّنَهَاجِيُّ قَدْ
يَكُونُ جَمَعَ مَا رَوَّجَتْهُ الْأَوْسَاطُ الْمَالِكِيَّةُ بِالْقَيْرَوَانِ مِنْ تُهْمٍ فِي الْأَسْرَةِ الْعَبِيدِيَّةِ
مِنْذَ انْتِصَابِهَا بِإِفْرِيقِيَّةٍ . ذَلِكَ أَنَّ أَوَّلَ مَنْ أَتَاهُمُ بِالْإِشْرَاقِ وَرَمَاهُمْ بِالزَّنْدَقَةِ
هُوَ ، فِيمَا نَعْلَمُ ، الشَّاعِرُ الْقَيْرَوَانِيُّ أَبُو الْقَاسِمِ الْفَزَارِيُّ (ت 956/345) إِذْ
يَقُولُ : [كامل]

عَبَدُوا مَلُوكَهُمْ ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ نَالُوا بِهِمْ سَبَبَ النِّجَاةِ عُمُومًا
وَتَمَكَّنَ الشَّيْطَانُ مِنْ خَطَوَاتِهِمْ فَأَرَاهُمْ عِوَجَ الضَّلَالِ قَوِيمًا
. . . أَمِنَ الْيَهُودُ؟ أَمِ النَّصَارَى؟ أَمْ هُمْ دَهْرِيَّةٌ جَعَلُوا الْحَدِيثَ قَدِيمًا
. . . أَمْ هُمْ زَنَادِقَةٌ مَعْطَلَةٌ رَأَوْا أَنَّ لَا عَذَابَ غَدًا وَلَا تُعْلِيمًا؟ (2)

وَأَوَّلَ مَنْ أَتَاهُمُ بِانْتِهَاكِ الْحُرْمَاتِ وَشَرَبِ الْخُمُورِ وَاضْطِهَادِ الْأَتَقِيَاءِ
الصَّالِحِينَ شَاعِرُ قَيْرَوَانٍ آخَرٌ مُعَاَصِرٌ لَهُ يُدْعَى «سَهْلُ الْوَرَّاقِ» : [كامل]

مَتَهَمَكَا فِي خُمْرِهِ وَسَمَاعِهِ مَتَرَدِّدَا فِي الْغَيِّ وَالشُّبُهَاتِ
. . . يَا أَبْنَ الْأَرَاذِلِ وَالْمَجُوسِ ، أَيَا أَبْنَ مِنْ هُنَاكَ الْفُرُوجِ وَضَيْعِ الصَّلَوَاتِ
. . . هَذَمَ الْمَسَاجِدَ وَابْتَنَاهَا مَنَزَهَا لِمَضَارِبِ الْعِيدَانِ وَالنَّيَايَاتِ

(1) انعطاف 59 . وابن الأثير 263/7 (حوادث سنة 402) ، على أنه لم ينقل نص المحضر . وإنما

نقله الشيخ عبد الوهاب النجار في الهوامش .

(2) حوليات الجامعة التونسية 1973/10 ص 126 .

وأحلَّ دارَ البحرِ في أغلالِهِ مَنْ كان ذا تقوى وذا صلوات⁽³⁾

فالشبه قويٌّ بين هجاء الشاعرين القيروانيين واحتجاج المحضر البغداديّ . ومهما يكن من أمر ، فإنَّ هذا المحضر لم يحظَ بالقبول عند كثيرٍ من المؤرِّخين . فالمقرِّزيّ المتشيع أعلن عند نقله فقرات ابن شدَّاد « البراءة من عهدة طعنه في نسب عبيد الله » وابن خلدون السَّي لم يصادق على القدح والاتِّهام فقال : « ولا عبرةً بمن أنكر هذا النسب من أهل القيروان وغيرهم ، وبالمحضر الذي ثبت ببغداد أيام القادر »⁽⁴⁾ .

إرثُ الرسولِ إرثُ مادِّي ومعنويّ

بتبنيته للنسب الفاطميّ يجيب الشاعرُ في الواقع الدولتَين المنافستَين القائمَتين ببغداد وقرطبة ، ويجيب بوجه عامّ كلّ الذين يرفضون شرعيّة الوراثة عن رسول الله ، تلك الوراثة المزدوجة في جانبَيْها السياسيّ والروحيّ . أمّا الجانب السياسيّ فسيكون موضوع الفصل التاسع . بقي الجانب المعنويّ . فالإرثُ الروحيّ عن رسول الله ضامنٌ للأئمة « الترة العليا » ، أي الدرجات العليا عند الله : [كامل]

ورث المقيم بيثرب ، فالمنبرُ الـ أعلى له ، والترعةُ العليا⁽²⁾ 46/1

وهو الذي جعلهم مفضلين على جميع البشر : [كامل]

آتاكمُ القدسَ الذي لم يُؤْتِه بشراً ، وأنفَذَ فيكمُ التفضيلاً 90/41

بشهادة القرآن وملائكة السماء : [كامل]

(3) حوليات الجامعة التونسية 1973/10 ص 147 .

(1) تاريخ ابن خلدون 31/4 .

(2) المقيم بيثرب هو رسول الله صلى الله عليه وسلم والمنبر والترعة كناية عن مسجده وقبره حسب زاهد عليّ . وقال آخرون : الترة العليا هي الجنة .

53/9 نَطَقْتُ بِكَ السَّبْعَ الْمِثْنِي أَلْسُنًا فَكَفَيْتُنَا التَّعْرِيفَ وَالتَّصْرِيحًا⁽¹⁾
59 ... شَهِدْتُ بِمَفْخَرِكَ السَّمَاوَاتِ الْعُلَى وَتَنَزَّلَ الْقُرْآنُ فِيكَ مَدِيحًا

وما بعد شهادة القرآن من شهادة ، فهل يسع الشعراء المساكين - مهما بلغت طاقتهم في التعبير - أن يباروا القرآن في تعداد مناقب الأئمة ؟ كلا ! فكلأهم لا يكون إلا تكراراً لشهادة الكتاب : [كامل]

85/53 قد قال فيك الله ما أنا قائل
فكأن كل قصيدة تضمين

وكل محاولة للتجديد في هذا المعنى مألها الفشل : [طويل]

24/3 وهل يستوي وحي من الله مُنْزَلٌ وقافية في الغابرين شُرود؟

فليخجل المتطاولون إذن وليستحوا : ليس في الإمكان أن يحيطوا بصفات الإمام ، ولا أن يزدوا على فضيلة القرآن فيه فضيلة : [كامل]

68/24 جَلَّتْ صفاتك أن تُحدَّ بِمَقُولٍ ما يصنع المصدق والمكثار؟⁽²⁾

69 والله خصصك بالقرآن وفضله واخجلني! ما تبلغ الأشعار؟

ولا يقتصر الشاعر على شهادة القرآن ، بل يستظهر أيضاً ببقية الكتب المقدسة . فجميعها تُشيد بفضل الإمام : [كامل]

104/40 من يشهد القرآن فيه بفضله وتصدق التوراة والإنجيل

الإمام هو محور الخليفة

وقد نستغرب هذا القول في شأن الكتب السماوية ؛ وربما حملناه على

(1) السبع المثنائي من أسماء فاتحة الكتاب . وقد نعي القرآن جملة .

(2) المقول : الفصحى اللبس . واللسان البليغ أيضاً .

المبالغات العادية عند الشعراء ، والغلو اللفظي والمعنوي عند ابن هانيء خاصة . ولكن هذه المعاني كانت رائجة في المجالس الإسماعيلية وربما كانت مدونة في نصوصهم النظرية ، مثل هذا الابتهاال المنسوب الى المعز نفسه : فهو يدعي فيه أنَّ الأنبياء ، بله سائر البشر ، قد خلقهم الله بسببه ، أي بنية خلق الإمام يوماً ما : « ... إلهي ، أوجدت عني خلقك ، وصدرت عني دنياك في الذات والأسماء والصفات ... إلهي ، ظهرت الموجودات كلها بي ، وأخترعت مني كل رسول ونبي ... »⁽¹⁾ .

هذه القداسة التي تجعل الإمام قطب البشرية ومركز الكون ، يترجمها الشاعر في مشاهد فردوسية مما تعود الخيال العربي أن يتصوره ويتمناه ، كالماء الصافي ، والظل الوارف ، والنور الوضاء . ويستخدم عبارات روحية تجريدية كالقبس والمُجاجة والنبوع والشفاء : [كامل]

36-31/1 هُوَ عِلَّةُ الدُّنْيَا ، وَمَنْ خَلَقْتَ لَهُ وَلَعَلَّةٌ مَا ، كَانَتْ الْأَشْيَاءُ
مِنْ صَفْوِ مَاءِ الْوَحْيِ ، وَهُوَ مُجَاجَةٌ مِنْ حَوْضِهِ الْنَّبُوعِ ، وَهُوَ شِفَاءُ
مِنْ أَيْكَةِ الْفَرْدُوسِ ، حَيْثُ تَفْتَحُ ثَمَرَاتُهَا ، وَتَفِيئُ الْأَفْيَاءُ
مِنْ شُعْلَةِ الْقَبْسِ الَّتِي عُرِضَتْ عَلَى مُوسَى ، وَقَدْ حَارَتْ بِهِ الظُّلُمَاءُ
مِنْ مَعْدِنِ التَّقْدِيسِ ، وَهُوَ سُلَالَةٌ مِنْ جَوْهَرِ الْمَلَكُوتِ ، وَهُوَ ضِيَاءُ
مِنْ حَيْثُ يُقْتَبَسُ النَّهَارُ لِمَبْصَرٍ وَتُشَقُّ عَنْ مَكْنُونِهَا الْأَنْبَاءُ

ونحن ، لئن أعجبنا بتطويع الشاعر لُغته لطرق هذه المعاني المجردة التي تشبه الى حد بعيد النصوص الصوفية ، نتساءل عن الجمهور الذي يتقبل مثل هذا الشعر . ولا نخاله إلا جمهور الأنصار العارفين بأسرار الدعوة ، والاتباع المطلعين على علم الباطن . أما الجمهور الواسع الذي يشمل القريب من الدعوة والبعيد ، والعدو والمناصر ، والخصم والمحيد ، فلعل الدعاية الرسمية تحذر أن تخاطبه بهذه الأفكار وهذه الألفاظ ، بل تؤثر الخطاب

(1) نُبْد 48- 49 . St . Guyard : Fragments .

الرصين المعتدل الذي يُطْمِئِنُّ النفوسَ ويُقنِعُ العقولَ . هذا الدور يوكل عادةً إلى القاضي النعمان ، فنراه مثلاً يجادلُ في قضية السجود للأئمة فيشرح معناه ويميزُهُ عن السجود لله ، ويُتَوَخَّعُ الحججُ : « . . . رأينا أوصياءَ الأئمة ، وولاءَ عهدهم ، يقبلون الأرض في سلامهم عليهم بين أيديهم . . . فأتباعُهُم أحقُّ مَنْ اقتدى في ذلك بِهِمْ . . . والرعاعُ والأوباشُ والعوامُ ينكرون ذلك ، ويرونه سجوداً من دون الله لهم . . . وقد سجدَ إخوةُ يوسف وأبواه ليوسف فلم يَعبِ الله ذلك من فعلهم . . . »⁽¹⁾ . ولا يكتفي بهذا القياس على يعقوب وأبنائه ، ولا تكفيه الحجّة المنقولة عن القرآن ، فيضيف في موضع آخر حجّة جديدة⁽²⁾ : أنَّ تقبيل الأرض بين يدي الإمام ليس سجوداً على الحقيقة ، وبهذا الميز تنتفي القضية !

لكنَّ النعمان شبّه في كلامه - ضمناً - الإمام بالنبيّ، ممّا قد يدلّ على أنَّ الدعاية الفاطمية تساوي الأئمة بالرسول . لذلك تتبّع أسمَ الإمام دائماً عبارة : صلى الله عليه وآله ، وهي تصلية لا تختلف عن تصلية رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلّا بحذف عبارة التسليم ، فترد في المخطوطات مختصرة في ثلاثة أحرف عوض أربعة : (صلح) . أما في الوثائق الرسمية فترد تامّة اللفظ ، مثلما نقرؤها في مستهلّ رسالة جوهر إلى أهل مصر بعد الفتح : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من جوهر الكاتب ، عبد أمير المؤمنين ، صلوات الله عليه ، لجماعة أهل مصر . . . »⁽³⁾ . وفي أوّل جمعة أقيمت بالفسطاط في جامع عمرو ، دعا الخطيب بالصلاة على المعز ، ويضيف الشاهد أنّه قرأ الدعاء « من رُقعة » ، كأنَّ جوهرأ هو الذي أنفذ اليه الدعاء مكتوباً : « . . . اللهم صلّ على عبدك ووليّك ، ثمرة النبوة وسليل العترة الهاديّة المهدية ، عبد الله الإمام معدّ أبي تميم المعزّ لدين الله أمير المؤمنين ، كما صلّيت على

(1) ك . الهمّة 105 .

(2) ك . المجالس والمسايرات 58 - 60 .

(3) المفريزي : أتماظ الحنفاء 148 .

آبائهُ الطاهرين ، وأسلافهُ الأئمة الراشدين . . . » (1) .

ولا يفوت شاعرنا طبعاً أن يسجّل هو أيضاً صلاة الله والملائكة على الأئمة : [طويل] .

42/37 تُرَدُّ الى الفردوس منكم أرومةٌ يُصَلِّي عليكم ربُّها والملائكُ
فضلا عن صلاة الناس قاطبةً ، وهي فرض دائم ، وينضاف اليه التسليم : [طويل] .

71/47 فلا برحّت تترى عليكم من الورى صلاةٌ مُصلٍّ أو سلامٌ مسلمٍ
حتى الكائنات الجوامدُ تحبّ الإمام وتشتاق لرؤيته ، إلّا أن الشاعر ينتخب منها الأماكن القدسيّة كمناسك الحجّ وأباطح مكّة : [كامل] .

43/1 هذا الذي عطفت عليه مكّة وشعابها، والركنُ والبطحاء
44 هذا الأغرُّ الأزهرُ المتألقُ المتدفّقُ المتبّليجُ الوضاء

ولقائل أن يلاحظ أن هذا المعنى - وبهذا اللفظ تقريباً - قد طرقه الفرزدق في مدح عليّ زين العابدين الإمام الرابع ، في البيت المشهور :
هذا الذي تعرفُ البطحاء وطأته والبيث يعرفه، والحلّ والحرم⁽²⁾

وطرقه أبو نواس أيضاً في مدح هارون الرشيد :
حتى إذا واجهنّ أقبال الصفا حنّ الحطيّم وأطت الأركان⁽³⁾
وأنّ الشاعرين - وما أبعدهما عن التشيع ! - لم يُعابَا بالبيتين . فنقول :
وبأولى وأخرى ، لا يُعابُ شاعرنا ، وهو شيعي متحرّب يُعلن في كلّ مناسبة

(1) المقريزي : اتعاط الحنفاء 163 .

(2) البيت مفقود من ديوانه في طبعة الصاوي ، مذكور في ملاحق مقدّمة ك . الشعر والشعراء لابن قتيبة التي ترجمها ونشرها Gaudefroy - Demombynes (هامش 19 وملحق 1) .

(3) ديوانه - بيروت 1962 ص 642 . والضمير يعود الى رواحل الخليفة .

تعلّق بالدعوة الفاطمية ويطمح الى دخول قصر الخليفة كما يطمح المؤمن الى الفوز بالجنة ، ويعتبر دخوله في خدمة الإمام وعداً بنيل الفردوس : [كامل] .
 هل لي إلى الفردوس من إذن، وقد
 15/9 شارفت باباً دونها مفتوحاً ؟

قدسية الإمام

الفرق بين شاعرنا والشعراء الآخرين ، مهما غلّوا في المديح ، هو أنه ينسب الى المعز صفات تفوق طينة البشر ، هي أدق من أن تدركها الأفهام وألطف من أن تعيها العقول : [كامل] .
 84/1 قد جالت الأوهامُ فيك، فدَقَّتْ الأَفكارُ عنك، فجَلَّتِ الآلاءُ⁽¹⁾

هي صفات مستمدة من وحي الله وهدايته ، بل هي الصفات التي ينسبها الناس الى المولى سبحانه وتعالى ولا يتحرّج الشيعة من أن ينسبوها الى غير الله . ذلك أنهم ، مثل المعتزلة ، ينفون أن تكون لله الواحد الأحد المتوحد صفات خارجة عن ذاته . وعلى هذا الاساس وصفتهم فتوى بغداد بأنهم « ملحدون معطلون » . فإن كانوا من المعطلة ، أي من نفاة الصفات ، فلا مانع عندهم من أن ينسبوا الى الأئمة صفة الواحد والقهار ، ولا كفر إذن عندهم في هذا البيت الذي جمع للمعز أربعة من الأسماء الحسنى : [كامل]
 19/9 ندعوه متقماً، عزيزاً، قادراً غفّار موبقة الذنوب، صفوحاً

وقد احتاط الشاعر بكلمة « ندعوه » : فالمقولة خاصة بالانصار الْمُقْتَنِعِينَ والأتباع العارفين الذين يرون في الإمام دليلاً على وجود الخالق

(1) وفي هذا المعنى يقول علي الرضا (ت 817/202) الإمام الثامن عند الاثني عشرية : « فَمَنْ ذَا بِلَغْ مَعْرِقَةِ الْإِمَامِ ؟ ... هِيَهَات ! هِيَهَات ! ضَلَّتْ الْعُقُولُ ، وَتَاهَتْ الْحُلُومُ . وَحَارَتْ الْأَبَابُ ! » انظر : أحمد أمين : ضحى الإسلام 216/3 وقد نقل الفقرة عن الكافي للكليني .

وحكْمَتِهِ : [كامل]

واللّٰهُ مدلولٌ عليه بصنعيهِ فينا ، وأنّ على الدليل دليل 113/40

والمعزّ نفسه يشاطر هذا الاعتقاد ، حسبما يظهر من هذه المناجاة التي اكتفى ابن هانيء بتحويل مضمونها الى الشعر : « ... إلهي ، أنا اسمُك ، وموجودُ اسمِكَ ، وأنا البشيرُ اليك ، والدّالُّ عليك ، والدّالُّ على من دلّ عليك ... »⁽¹⁾ .

فالإمام ، وهو الصنعة المخلوقة والحجّة الدّالة في آنٍ واحدٍ - وعبارة « صنعه فينا » لا تدع شكّا في توحيد ابن هانيء للمولى عزّ وجلّ - صار دليلاً بما أودعه الله فيه من علمٍ جمّ وحدسٍ ثاقبٍ يرفع عن بصيرته حُجُب المغيّبات : [طويل] .

20/11 وليست ظهاراً يُحجبُ الغيبُ دونها ولكنها قُدسيّةٌ فيك ترسّخ⁽²⁾

وكشف الحجب ميزة ميّز بها الله الأئمة دون سواهم : [طويل] .
59/3 ولله عِلْمٌ ليس يُحجبُ دونكُم ولكنّه عن سائر الناس محجوبٌ وهي خاصيّة يرثونها كائناً عن كابرٍ ، فالإمام ينظر الى أحد أبنائه ساعة يولد فيعرف فيه فوراً أمارات الإمامة ، ولا يعرف فيه ذلك عن فِرَاسَةٍ فقط أو بالظنّ والحدس ، وإنّما يَعْلَمُهُ بعلمٍ ربّانيّ متنقّل من إمام إلى إمام . وهكذا عِلْمُ المنصور أنّ معداً ابنه سيكون ملكاً فريداً وهو لا يزال في المهد صبياً : [طويل] .

49/22 رأى أن سيّسمى مالك الأرض كلّها فلما رآه قال : ذا الصمّد الوترُ
50 وما ذاك أخذاً بالفِرَاسَةِ وحدها ولا أنّه فيها إلى الظنّ مضطّر
51 ولكنّ موجوداً من الأثر الذي تلقّاه من جبرِ ضنينٍ به جبرُ
52 وكنزاً من العلم الربوبيّ ، إنّه هو العلم حقّاً ، لا القِيافَةُ والزجرُ

(1) بُيُذ ... 170 St. Guyard : Fragments ...

(2) الظهار ظاهر الشيء الذي يلوح للناظر فيحجب عنه الباطن .

علم الإمام

فليس علم الأئمة تنبؤاً ولا فراسةً ولا زجر طير ، إنما هو ملكة فطرهم الله عليها، تولد معهم ، وبها يعلمون ما سيقع من أحداث في مستقبل الزمان ، وخاصة الأحداث التي تهتم آل البيت . على أن بعض الطوائف من الشيعة أبت إلا أن تجسم هذه الملكة في أثر مادي منقول ، فقالوا بـ « الجفر » ، ذلكم الكتاب الذي رواه بعض رؤوس الزيدية عن جعفر الصادق ونسخه على جلد ثور صغير - والجفر هو ولد الشاة والمعزى والبقرة - « وفيه علم ما سيقع لأهل البيت على العموم ولبعض الأشخاص منهم على الخصوص » . ويضيف ابن خلدون أن ذلك العلم « وقع لجعفر ونظارته من رجالانهم عن طريق الكرامة والكشف الذي يقع لمثلهم من الأولياء . . . وقد صح عن جعفر الصادق أنه كان يحذر بعض قرابته بوقائع تكون لهم ، فتصح كما يقول⁽¹⁾ . والقاضي النعمان ، لئن لم يذكر كتاب الجفر بلفظه ، فإنه ذكر شيئاً شبيهاً به ، وهو « قلم » يتوارثه الأئمة يكتبون به أسرارهم ، وبيانه وشرحه تحته⁽²⁾ ، ولم يوضحه القاضي لأنه سر ينبغي أن يبقى مكتوماً ، إلا عن الأئمة . وصيانة العلم عن غير مستحقه ضرورة يتفق عليها النعمان وشاعرنا ، فيقول النعمان نقلاً عن المعز : « إنا لو كشفنا كل شيء لكم ، وأوضحناه لسائركم ، لبطل التفضيل بينكم ، ولنال الفضل مستحقه وغير مستحقه . . ولكن أحذكم لا يرضيه إلا أن يأتي على كل ما عندنا ويحويه ، ولم يجعل الله (عز وجل) ذلك له ولا لغيره دوننا⁽³⁾ . ويقول ابن هانيء : [طويل]

إذا كانت الأبواب يقصر شأوها 177/47
فظلتم لسر الله إن لم يكتم

(1) المقدمة 273 . وانظر فصل « الجفر » في دائرة المعارف الإسلامية .

(2) المجالس والمسايرات 130 .

(3) المجالس والمسايرات 104 و 511 .

هذا العلم لا ينتقل من إمام إلى إمام بالدرس والتحصيل ، بل هو سجية طبيعية وسليقة فطرية : فالمعز مثلاً « لم نعلم له في الطفولة مؤدباً عالماً فنقول : أفاد عنه ، ولا بعد ذلك من جليس ولا مصاحب كذلك يُحسِّن شيئاً فنقول : أفاد منه ، ولا كانت له رحلة ولا طلب »⁽¹⁾ . وهو عند الشاعر عالم عليم بنفح من الله لا يتلقن درس : [طويل]

30/47 غَدَوْا نَاكِسِي أَبْصَارَهُمْ عَنْ خَلِيفَةٍ عَلِيمٍ بِسَرِّ اللَّهِ غَيْرِ مُعَلِّمٍ
31 وَرُوحٌ هُدًى فِي جَسْمٍ نَوْرٌ يُمَدُّهُ شِعَاعٌ مِنَ الْأَعْلَى الَّذِي لَمْ يُجَسِّمْ

ولكن هذا القيس الذي يستمدّه الأئمة من الله قد يحمل « العامة » ، أي أهل السنة ، على اتهامهم بادعاء علم الغيب . ويبدو أن هذا الاستنتاج لم يكن فاشياً عند الخصوم فحسب ، بل عند بعض الموالين للدعوة أيضاً ، فاضطر القاضي النعمان ، وهو الفقيه الرسمي الذي عليه أن يجادل ويُقنع ويشرح ويدفع ، وبجابه الخصوم ، ولا سيما مالكية القيروان أتباع مدرسة سحنون⁽²⁾ ، إلى تنزيه الأئمة عن ادعاء معرفة الغيب ، فيقول نقلاً عن المعز : « نحن عباد من عباد الله مخلوقون مربوبون ، لا علم لنا إلا ما علمنا وصار إلينا عن نبيه جَدَنًا محمد (ص) ، مما أودعه الله إياه وأورثناه ممن بعده وأودعناه ، لا نُحِيطُ من علمه إلا بما شاء »⁽³⁾ .

ويقول في كتاب آخر ، من كلامه هو : « ... إنا لا نقول ما قاله الغلاة الضالون المبطلون الصادقون عن أولياء الله ، الدافعون إمامتهم ، الزاعمون أنهم يعلمون غيب الله ، وما تُخفي صدور عباده »⁽⁴⁾ .

هذا ما يقوله الفقيه المجادل . أما شاعرنا ، فلا حاجة له بمداراة فقهاء

(1) المجالس والمسائرات 148 .

(2) انظر : برنشويك : الفقه الفاطمي 13 ، R . Brunschwig : Fiqh fatimide .

(3) المجالس والمسائرات 523 .

(4) ك . الهمة 53 .

القيروان ، ولا بأستدراجهم الى مذهبه . فلا تحفَظَ عنده ولا اعتدال ، لأنه من جهة رجل متشبع بمبادئ الدعوة مقتنع بشرعيتها وصدقها ، ولأنه من جهة أخرى شاعر فنان شيمته التوسع والتضخيم . فمن معرفته بمقولات الدعوة ، الإشارة الضمنية في الأبيات التالية الى القاعدة الأصولية عند الإسماعيليين في امتناع وجود إمامين في زمن واحد⁽¹⁾ . فإذا قرّر الله نقل الإمامة ، دعا إليه الإمام السابق ، وحوّل إلى اللاحق جميع الصفات والآيات ، كالوصاية على الخليقة جمعاء ، والعلم المكنون ، وتأويل ما نزلت به الكتب السماوية :

[كامل]

104/41 حتى إذا استرعاك أمر عبادي أدنى اليه أباك إسماعيل⁽²⁾

107 . . . وورثته البرهان والنبأ والفرقان والتوراة والإنجيل

108 وعلمت من مكنون علم الله ما لم يؤت جبريلا وميكائيل

ومن خيال الفنان ، تصوير المقام الرفيع الذي يتمتع به المنصور لدى ربه بعد رفعه إليه : فهو يتفياً ظلال الجنان وقد صار مثل إبراهيم خليلاً لرب السماوات :

[كامل]

105/41 من بين حجب النور حيث تبوأ آباؤه ظل الجنان ظليلاً

106 أدى أمانته وزيد من الرضى قرباً ، فجاوزه الإلاه خليلاً

ومن الأمرين معاً ، اعتبار الإمام شافعياً للبشرية وسيطاً بينها وبين ربها :

[كامل]

115/41 لو لم تكن سبب النجاة لأهلها لم يغن إيمان العباد قتيلاً

واعتباره أيضاً سيداً للزمان يتحكم فيه كما يشاء : [كامل]

95/1 لا تسألن عن الزمان ، فإنه في راحتك يدور كيف تشاء

(1) المجالس والمسائرات 468 و 514 هامش 1 .

(2) إسماعيل هو المنصور الخليفة الثالث .

شفاعة الإمام تنال السابقين واللاحقين

ولا يبعد الأئمة ولا يبالغون إن هم قالوا إن آدم خُلِقَ بسببهم : « إن الله تعالى ، لما خلق آدم ، نظر فرأى في ساق العرش مكتوباً : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، أيدهُ بعليٍّ وأورثته به . فقد ذكرنا الله (عز وجل) قبل أن يخلق آدم . . . ولو شئنا أن نقول : إنا كنا مع آدم ، لقلنا »⁽¹⁾ . هذا الرأي ، يترجمه ابن هانئ شعراً فيطبِّقه على المعزّ ويجعله علّة الدنيا وشفيع آدم ويونس عند ربّ العرش : [كامل]

23/53 هذا معدٌ والخلائق كلها هذا المعزّ متوجّأ والدين هذا ضميرُ النشأة الأولى التي بدأ الإلاه ، وغيها المكنون من أجل هذا قلّز المقدور في أم الكتاب ، وكوّن التكوين وبذا تلقى آدم من ربه عفواً ، وفاء ليونس اليقطين

وقد يستغرب المرء هذا الصعود التراجعيّ في الزمن حتى تشمل شفاعة المعزّ آدم والمخلوقات الأولى . والتفسير يكمن في نظرية الإسماعيلية في الخلق . هذه النظرية تقول : ان العالم بأسره ، أي الأرض والسماء ، والأفلاك والبشر ، والزمان والأفاق ، إنّما خلقت لتكون في المستقبل إطاراً لمحمد (صلى الله عليه وسلم) وذريته . فكما لا نستغرب أن يُصنّع المهدّ ويهيأ قبل أن يولد الصبي ، فكذلك ينبغي أن لا نستغرب كون الأئمة علّة لسائر الكائنات التي أوجدها الله قبلهم . وقد بسط زاهد عليّ الشارح الإسماعيليّ لديوان ابن هانئ ، هذه النظرية في شيء من الاقتضاب ، فقال معترفاً بما تبعث عليه هذه المقولة من التعجّب والتساؤل : « لا شك في أن آدم ويونس وموسى كانوا [أي وجدوا] قبل الخليفة المعزّ بزمان طويل ومضت بينه وبينهم

(1) المجالس والمسائرات 210 .

آلاف السنين . فكيف يمكن أن يكون المعزّ وسيلة لهم غُفِرَتْ بها ذنوبهم وانجَلَتْ بها همومهم ؟ » ثم أدلى بالجواب : « إِنَّ مُحَمَّدًا والأئمة من ذرّيته أفضلُ جميع البشر ، وإن نُورَهم خُلِقَ قَبْلَ خَلْقِ العالم ، حتى يقال إِنَّ اللَّهَ تعالى أخذ من بني آدم ميثاقَ ولاية الأئمة » ⁽¹⁾ . فليس يصعب إذن على واحدٍ من الإسماعيلية أن يقبلَ هذا التأثير العكسي من المعزّ في آدم : [متقارب]

67/58 لَادَمَ مِنْ سَرْكُم مَوْضِعُ بِهِ اسْتَوْجَبَ الْعَفْوَ لَمَّا عَصَى

ولا يصعب عليه ، بأولى وأحرى ، أن يفهم كيف تشهد التوراة والإنجيل ، فضلاً عن القرآن ، بعلم المعزّ وكراماته . وإذا ما اقتنع بهذه النظرية وعرف أن الإمام موجود بالقوة ، سابقٌ بوجوده هذا وجودَ الخلائق ، وإن كان وجودها وجوداً بالفعل ، أمكنه بالمثل أن يتصوّر امكانَ بقاء الإمام بعد فناء الخلائق ، أي أن يرث الأرض : [طويل]

58/3 وَأَنْتَ مَعْدُ وَاثْرُ الْأَرْضِ كُلِّهَا فَقَدْ حُمَ مَقْدُورٌ وَقَدْ خُطَّ مَكْتُوبٌ

وَأَنْ يَقْتَنِعَ بِامْتِلَاقِهِ حَقَّ الشَّفَاعَةِ لِلْخَلْقِ كُلِّهِمْ : [كامل]

83/53 فَارْزُقْ عِبَادَكَ مِنْكَ فَضْلَ شَفَاعَةٍ واقْرُبْ بِهِمْ زُلْفَى فَأَنْتَ مَكِينٌ

وبقدرته على تفجير الماء من الصخر وإحياء الموتى مثل موسى وعيسى . غير أن الشاعر يحتاط هنا فيفترض إمكانية هذه المعجزات بحرف الشرط «لو» : [كامل]

52/24 لَوْ تَلَمَّسُونَ الصَّخْرَ لَا تَبْجَسَتْ بِهِ وَتَفْجَرَتْ وَتَدْفَقَتْ أَنْهَارٌ
أَوْ كَانَ مِنْكُمْ لِلرُّفَاتِ مُحَاطِبٌ لَبُّوا وَظَنُّوا أَنَّهُ إِنْشَارٌ

(1) تبیین المعانی - المقدمه 57 .

معرفة الإمام واجبة

هذه الصفات في الإمام تستوجب من الأتباع ، بَلْ من كافة الناس ، أن يعرفوا إمام زمانهم ويطيعوه . ويطبب للشيعة في هذا المضمار أن يستظهروا بالحديث المنسوب الى الرسول صلى الله عليه وسلم : « من مات ولم يعرف إمامَ زمانه مات ميتةً جاهليّة »⁽¹⁾ . ومعرفة الإمام لا تعني فقط رؤيته بالبصر أو معرفة شخصه وتعيينه باسمه ، بل هي أيضاً معرفة كنهه وإدراك صفاته العالية ، ولا يتسنى هذا إلا لمن عرفه بالبصيرة لا بالبصر فقط وأمن به ووالاه « والنفوس لا تنجو من جاهليتها إلا بمعرفة الإمام وولايته »⁽²⁾ . ويلج القاضي النعمان على واجب الطاعة : « ... وإن كانت درجة النبوة فوق درجة الإمامة ، وفضل الأنبياء أعظم من فضل الأئمة ، فإن الطاعة واحدة موصولة قد قرنّها الله تعالى بطاعته » . يقول : موصولة ، أي متصلة متواصلة من الإمام الى الرسول الى الله . وفي المقابل ، فمن لم يطع الإمام فكأنه لم يطع الرسول وبالتالي عصى الله ، فأيمانه باطل والجنة في وجهه موصدة : « ... فلم يقبل الله من مطيع طاعته إلا بطاعة من افترض عليه طاعته من أوليائه ، ولم يدخل في جملة المؤمنين به إلا من سلم لمن أمر بالتسليم اليه من أصفياؤه »⁽³⁾ . ويقول هنا : التسليم ، أي الإيمان التام دون نقاش ظاهر ولا تسؤل باطن . هذا الرضوخ التام لمشيئة الإمام هو الضامن للنجاة ، حسب ما يقرره جعفر الصادق في هذا التعهد : « أما والله فإنكم بتوليكم إيانا ، كلكم من أهل الجنة ، وأنا لضمانون لكم ذلك عن الله »⁽⁴⁾ . وكذا يقول الشاعر : [كامل]

(1) ذكره زاهد عليّ ولم يجل الى كتب الحديث . واطنب الأميني : القدير 360/10 في الاستشهاد له .

(2) زاهد عليّ : تبين . . المقدمة 56 . وانظر : الحبيب الفقي : Les idées philosophiques de l'Ismaélisme, Tunis 1981, 216.

(3) ك . الهمة ، 39 .

(4) القاضي النعمان : ك . المجالس والمسائرات 402 .

5/24 هذا الذي تُرجى النجاة بحبه وبه يُحط الإصر والأوزار
6 هذا الذي تجدي شفاعته غداً حقاً ، وتحمد أن تراه النار

فلا دين لمن لا يحب الإمام ، ومن أبغضه فماله الخسران المبين :

[طويل]

45/22 إمام رأيت الدين مرتبطاً به فطاعته فوز ، وعصيانه خسر

لأن طاعة الإمام هي طاعة الله ، فليس التشابه بين مدح الإمام وحمد
الله مجرد تقارب لفظي : [طويل]

46/22 أرى مدحه كالحمد لله ، إنه قنوت وتسبيح يحط به الوزر

وهذه الطاعة كما قلنا ينبغي أن تكون ظاهرة وباطنة : « ينبغي لكافة
الناس تعظيمهم وإجلالهم في أعيانهم وصُدورهم ، والتذلل والتواضع
لهم . . . واعتقاد ذلك التعظيم والإجلال والهيبة »⁽¹⁾ . . . لذلك صور لنا
الشاعر جنود المعز ، أولئك الأبطال المغاوير ، وهم يمرون أمامه خاشعي
الرؤوس ناكسي الأبصار لا يجسرون على النظر اليه وقد ملئت له قلوبهم
بالمحبة الخاشعة الصامته .

اشترك هذه المعاني عند ابن هاني وتميم بن المعز

لئن اشتركت هذه المعاني المذهبية بين قاضي الدولة الفاطمية وشاعر
المعز ، أي بين الفقيه المنظر المجادل والشاعر الفتان المناصر ، كما رأينا في
بحر هذا الفصل ، فإنها تشترك أيضاً بين ابن هاني وشاعر فاطمي أصلاً ، أي
من الأسرة نفسها ، وهو تميم ابن الخليفة المعز . فهذه أبيات مدح بها أخاه ،
الخليفة العزيز بالله في مصر ، تشبه الى حد بعيد معاني شاعرنا ولغته . فاللغة

(1) القاضي النعمان : ك . الهمة 45 .

صوفيّة : هناك المجاجة ، والظّل والينبوع ، وهنا الروح القدسيّ ، والنور اللطيف ، والجوهر النّير . أمّا المعاني ، فربّما زادت في التقديس على ما يقوله صاحبنا . وهو أمرٌ على جانب من الغرابة لأنّ تميماً كان وليّ عهد المعزّ ومبياً للإمامة فعزل لفائدة أخويه عبد الله ثمّ العزيز ، ورغم ذلك يقول فيمنّ عَوْضُهُ : [بسيط]

روح من القدس في جسمٍ من البشرِ	ما أنتَ دونَ ملوك العالمين سوى
تناهياً جازاً حدّ الشمس والقمرِ	نورٌ لطيفٌ تناهى منك جوهرُهُ
خلق الهيولى ، ويسطّ الأرض والمدرِ	معنى من العلة الأولى التي سبقت
وانت لله فيهم خيرٌ مؤتمرِ	فأنت بالله دون الخلق متصلٌ
وانت خيرتُهُ الغرّاء من مُضِرِ	وانت آيتُهُ من نسلِ مُرسِلِهِ
مثنوى ، وكنّت ملك الأنجم الزهرِ	لو شئت لم ترض بالدنيا وساكنها
بأنها عنك في عجز وفي حصر ⁽¹⁾	ولو تفاظنتِ الألبابُ فيك دَرَّتْ

وشاعرنا ، حتّى وإن همّ بتجاوز الحدود المعقولة ، فهو يخفّف الإمكانية بحرف افتراض ، وكأنّه يشعر بأنّ الغلوّ منه قد يؤخذ مأخذ المروق والكفر : [طويل]

174/47 ولو أنني أجري إلى حيث لا مَدَى من القول ، لم أحرّج ولم أنائم

وفعلاً ، فهو لا يتحرّج من أن يعتبر أنّ حياته الماضية ، أي قبل أن يتصل بالمعزّ ، كانت حياة خاسرة وأنّ إيمانه كان ناقصاً ، بل باطلاً . فانتقاله الى المعزّ فتح بصيرته وأنقذه من الضلال : [بسيط]

20/12 رأيك موضع برهانٍ يبين ، وما	رأيك موضع تكيفٍ وتحديدِ
21 وكان مُنقذٌ نفسي من غمّائِها	فقلّت فيه بعلمٍ لا بتقليدِ
24 ما أجزل الله دُخري قبل رؤيته	ولا انتفعتُ بإيمانٍ وتوحيدِ

الإمام واجب الوجود

بقيت نتيجة حتمية لكل هذه الصفات التي ترفع الإمام عن صف البشر ، وتجعله شافعاً للسابقين واللاحقين ووسيطاً ضرورياً بين العباد وخالقهم : وهي أنّ الإمام واجب الوجود ، مثل العلّة الأولى . والشاعر لا يُغفل هذه المصادرة ، بل يردّها ويحتج لها ببراهين مختلفة . فتارة يترجم الآية الكريمة : ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾⁽¹⁾ بما يؤكد أنه لا بدّ للامة الإسلامية ، بل للبشرية قاطبة ، من إمام ينير السبيل وينهى عن الضلال ، ويعظ ويزجر : [بسيط]

54/44 وليس يُنكرُ من هادٍ لأمتِهِ غَوْلُ المواجهِ للبُغيّا على الجُمَلِ

والمعزّ نفسه يحتجّ بهذه الآية لإثبات وجوب الإمام ولتبرير سلطانه على الأرواح والأبدان ، إلّا أنّه يلحّ على وظيفة الهداية : « إِنّا ندعوهم الى الله وان صُدُّوا عن السبيل ، ونَقُومُهُمْ وإن آثَرُوا المِيل . . . فنحن والله هُذَاتُهُمْ ، في كلّ عصرٍ مَنّا هادٍ لِمَنْ كان في عصره منهم ، والله نحنُ أعلام الحقّ ، ونحن هُذاةُ الخلق »⁽²⁾ .

وتارة يرمزُ الى وظيفة التنسيق بين أجناس البشر باحتياجهم إلى مترجمٍ يشرح كلام هؤلاء لهؤلاء ، ما دامت المشيئة الإلهية تقضي بأن تختلف لغات الناس وتباين ألسنتُهُمْ : [طويل]

178/47 إذا كان تفريقُ اللغاتِ لعلّةٍ فلا بُدّ فيها من وسيطٍ مترجمٍ

ويحتجّ أحياناً بآية كونيّة : فكما أنّ الجبال الرواسي يثقلها تمسك الأرض وتمنعُ التفتّت والتشتّت ، فكذلك الإمام جامعٌ للبشرية ضامنٌ

(1) الرعد ، 7 .

(2) ك . المجالس والمسايرات 118 .

لتوحيدها : [طويل]

179/47 وآية هذا أن دحا الله أرضه ولكنها لم ترس من غير معلّم

عصمة الإمام

هذا الإمام الواجب الوجود هو أيضاً مُطلقُ النفوذ ، له حقّ القتل ، قتل الأفراد لصيانة الجماعة ، وقد ذكّرنا البيت الذي بسط فيه هذه الفكرة ، وهي فكرة لا تختصّ بالعقلية الشيعية ، إذ يُنسب إلى عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أنّه قد يُقدّم على قتل الثلث لإصلاح الثلثين إذا دعت الحاجة إلى مثل هذه الصرامة . إلا أنّ عمرَ وهو صاحب أوّل رسالة في القضاء العادل ، ما كان ليقتل قبل المحاكمة والاستتابة وضمان حقوق المتهّم وربما كان يصفح ويعفو . أمّا الشيعة الإسماعيلية فعندهم أن الانتقاض على الإمام وإنكار أحكامه إثمٌ كُبارٌ لأنّ الإمام لا ينطق عن الهوى وأحكامه لا يعترىها نقصٌ من ظلم أو حقد أو تسرع . والمعزّ نفسه يؤكد للنعمان بأنّه « ممنوع من الظلم والتعدي »⁽¹⁾ . هذا التنزيه عن الظلم هو العصمة التي تنسبها طوائف الشيعة إلى الأئمة الممنوعين من كلّ نقيصة لأنهم يتمتّعون بهداية مسترسلة من الله . فأحكامهم السياسية مثلاً ، من إبرام هدنة مع الإمبراطور البيزنطيّ ، أو رفض الإصغاء إلى مبعوث المنافس الأمويّ ، أو العفو على نائر زنتيّ ، هي في نظر الأتباع قرارات رشيدة حكيمة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها . بنحو هذا المعنى يؤيّد شاعرنا عزّل تميم عن ولاية العهد وتعويضه بأخيه عبد الله : [بسيط]

68/43 ولاختيارك فضلُ الوحي ، إنك لا تأتي المكارم إلا من عليّ فعَل
مستهدياً بدليل الله تتبّعهِ وقادحاً لزناد الحكمة الأولِ

(1) المجالس والمسايرات 433 .

الإمام يُعَيِّنُ بِالنَّصِّ

نفوذ الإمام إذن نفوذ مُطلَقٌ ، لا في الرعايا فحسب ، بل حتّى في الأسرة المالكة . فله أن يرلّي وأن يعزل ، دون اتّباع قاعدة الأسبقية في الولادة . والتعيين يقع بالنّص ، أي بتصريح سرّي أو علنيّ ، منطوق أو مكتوب . وفكرة النّصّ قديمة ترجع الى اعتقادهم بأن الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث الغدير قد نصّ على خلافة عليّ من بعده . فكذاك ينصّ إمام الزمان على خليفته دون انتخاب ولا مشورة ، حتّى الاستشارة الضيقة المحصورة في أفراد الأسرة الحاكمة لا وجود لها⁽¹⁾ .

والحكم الفاطميّ مستمدّ ، كما رأينا في أوّل هذا الفصل ، من شرعية دينية تاريخية ، هي شرعية آل بيت الرسول مؤسس الدولة الإسلامية . والانتماء إلى الرسول يمرّ ضرورة بفاطمة وحدها . فالفاطميّون مخصوصون دون سواهم بالنسب الشريف ، كما يؤكّد المعزّ للنعمان : « وسيلتُنا الى الله جدُّنا محمد صلى الله عليه وسلم أفضلُ الخلقِ عند الله . فمن ذا يتوسّلُ بمثله ؟ أم من ذا يحلّ محلّنا منه ؟ إنّ الله أحلّنا منه محلّاً لم يُشركْ معنا فيه غيرنا . . . فنحنُ صفوته من خلقه ، وأمانؤه على عبادِهِ ، وأئمّتهم ، وأولو الأمر فيهم »⁽²⁾ . والمعزّ هنا يقصد أبناء عمومته العبّاسيّين . أمّا شاعرنا ، فيتجاوز الهاشميّين الى قریش كلّها حتّى يطرح من الحساب ، لا عبدٌ شمس فحسب ، بل تيماً وعدياً رهط أبي بكر وعمر : [متقارب]

61/58 فما لقریش وميراثکم وقد فرغَ الله ممّا قضی ؟

(1) يظهر أن بعض هذه التعيينات قد أحدثت اضطراباً في العائلة الفاطمية وانقساماً . انظر سيرة

الأستاذ جوذر 215 .

(2) المجالس والمسايرات 402 .

يتصل بهذه المعاني العقائدية المذهبية قسمٌ كبيرٌ من شعر صاحبنا يتعلّق
بجهاد المعزّ في سبيل الدين ، مواصلةً لجهاد محمد صلى الله عليه وسلم ضدّ
الكفار . وجهاد المعزّ لا يتّجه إلى النصارى الروم فحسب ، بل الى المنافسين
والمتمرّدين من أهل الإسلام : فخلفاء بغداد ، وخلفاء قرطبة ، والمارقون
الخوارج في المغرب ، كلّهم كفّارٌ في نظر الدعوة وفي شعر الشاعر ، وقتالهم
مشروع بل واجب . وسنعرض لهذا الشعر الحربيّ بالتفصيل في الفصل
الموالي .

معاني الشاعر وأغراضه

المعاني السياسية

يتمثل الجانب الثاني من تشيع ابن هانيء للدولة الفاطمية ، في تحامله العنيف ضد أعداء الفاطميين في الداخل والخارج . وهم ثلاثة أصناف : صنفان ينتميان الى الإسلام ولكنّ مناوأتهم للأسرة الشيعية تجعلهم في صفّ الكفار : هؤلاء هم العباسيون ببغداد والأمويون بالأندلس . وينضمّ الى الأمويين أعداء الداخل ، وهم زعماء القبائل الزناتية الذين لم ينجح الحكم الشيعي في استدراجهم اليه ولا في القضاء النهائي على ثوراتهم المتكررة المتجددة . وهذه القبائل البربرية تدين بالمذهب الخارجي ، وهي مع ذلك تحظى من حكام الأندلس بالدعم الماديّ والسند المعنويّ ، ممّا جعلها في الواقع حليفة لهم . لذلك نعرض لتحامل الشاعر على الثوار الداخلين أثناء درسنا لاحتجاجاته ضد الأمويين .

والصنف الثالث من الأعداء تمثله الامبراطورية البيزنطية التي كسبت قوة جديدة وأحرزت انتصارات في الشام منذ أن اعتلى عرش القسطنطينية الدماسق من الأسرة المقدونية ، فصار خطر الروم على دار الإسلام وشيكاً ملازماً ، لا سيما وأنهم يسعون الى تخليص جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا ، والحوض الغربي من البحر المتوسط ، من النفوذ الفاطمي أي من حكم الإسلام .

فوجب على المعز أن يجاهدهم ، ووجب على الشاعر أن يشيد بهذا الجهاد ، وإن كان في الحقيقة لا يميز بين قتال الروم و قتال الأمويين والعباسيين والبربر المتمردين: فكلهم في نظره كفار وقتالهم جهاد .

ويتفاوت حق الشاعر على هؤلاء الخصوم في الكثرة والعنف . ففي المرتبة الأولى من الكثرة يأتي خلفاء بغداد ، وقد تعرض لهم الشاعر في أربع عشرة قصيدة من القصائد الأربع والعشرين التي مدح بها المعز . ويأتي الأمويون في المرتبة الأولى من عنف اللهجة في عشر قصائد ، ثم البيزنطيون في سبع . الآن التحامل على هؤلاء وهؤلاء يتداخل في القصيدة الواحدة دون ميز أو ترتيب ، فلا يصح أن نضم القصائد الى بعضها بعضاً فنقول : هذه ضد العباسيين فقط ، وهذه ضد الأمويين فقط . وإنما نصنفها بصفة تقريبية معتمدين على نسبة التداول .

التحامل على الأمويين

بمجرد أن حلّ بالمغرب ، أعلن الشاعر ، في مدحة جوهر الحائثة ، وهي أول شعره المغربي ، انتماءه الى الدعوة الفاطمية وتسخير طاقته لإعلاء كلمتها ، فحفّلت القصيدة بالشعارات الإسماعيلية كما رأينا في الفصل الماضي . ولكنها حفّلت أيضاً بالمواقف السياسية : فقد تهجّم فيها على زعماء المتمردين على الحكم الشيعي ، وخاصة ابن واسول وآل موسى بن أبي العافية ، وقد وقعوا في أسر جوهر ، هاجمهم وتشفّى منهم وأشاد بحلم جوهر نحوهم . ولكن هذه الإشارة إلى صفح القائد لا تخلو من غموض : فهم تخميناً أنه سرح آل ابن أبي العافية حين تضرعوا اليه بعد أن سدّ عليهم المنافذ . ويستعمل الشاعر كلمة « سيف » التي قد تُقرأ بمعنيين ونطقيين : السيف بالفتح ويكون معنى الرحلة التي قصدوها هي الانقطاع عن الشغب والابتعاد عن سلاح جوهر . والسيف بالكسر ، أي ساحل البحر ، فيكون المعنى : قصدوا مبارحة المغرب ، ولكن الى أين ؟ إلى الأندلس ؟ وفي هذه

الصورة ، كيف يسمح جوهر لأعداء مولاة أن يلتحقوا بعدوه ؟ : [طويل]

56/10 وفي آل موسى قد شئت وقائعا أهبت لهم تلك الزعازع لققا⁽¹⁾

59 . . صفحت عن الجانبين منا ورافة وكنت حريبا أن تمن وتصفحا

60 وقد أزمعوا عن ذلك السيف رحلة فملكك أولاهم عئانا مسرعا

ونفهم أيضاً أنه أبقى على ابن واسول يطلب من شخص يدعوه «ابن أبي سفيان»، وافترضنا أنه قد يعني عبد الرحمان الناصر. ولكن هنا أيضاً نتساءل: كيف يقبل جوهر شفاعة خصم المعز اللدود في الأسير؟ ثم أن افترضنا مردود يكون الناصر، لا سفيانياً، بل مروانياً:

54/10 رأى ابن أبي سفيان فيها رشاده وعفى على أثر الفساد وأصلحا

55 دعاك الى تأمينه فقبلته ولو لم تداركه بعارفة طحا⁽²⁾

فإن صح تأويلنا لهذه الأبيات ، تبين لنا أن الشاعر قد فهم سريعاً حقيقة الصراع بين الدولتين : فهو صراع بوسائط متناحرة ، الزناتيون من جانب المروانيين ، وصنهاجة وكتامة في حزب الفاطميين . وقد أشرنا الى موقف جعفر بن حمدون أمير المسيلة وما فيه من ريبة بسبب كراهيته لبني زيبري وغيرته من طموحهم وخوفه على منصبه في الدولة ، فكان يداري منافسيهم من زناتة وربما شجعهم في الخفاء .

وتعنف لهجة الشاعر ضد حكام قرطبة في مدائحه للمعز ، خصوصاً في الفترة الأولى ، اذ لا تزال مشاغل الخليفة منصرفاً الى شؤون المغرب ولم تنجبه عزيمته بعد نحو المشرق . ففي القصيدة التاسعة التي افترضنا أنه أرسلها إليه

(1) أهبت : دعوت وحشت . الزعازع : الزلازل والمصائب . واللقح من الإبل : الكثيرة الولادة . والمعنى : أرسلت عليهم المصائب حصبا متواليات .

(2) الضمير في «فيها» يعود على الوقائع التي غلبت هذا الشخص المجهول فأعادته الى رشده . والعارفة هي المنّة والمعروف والطحور الهلاك . وتداركه مضارع مجزوم محذوف إحدى التائين . والآخر بضمّتين : أثر الجرح .

من المسيلة ، يشير الى مصيبة عظيمة نزلت ببني أمية فلبسوا لها أثواب العار والفضيحة : [كامل]

- 40/9 وأُمِيَّةٌ تُخْفِي السُّؤَالَ ، وما لمن أودى به الطوفانُ يذكرُ نوحًا ؟
42 . . . تتجاوَبُ الدنيا عليهم مائِةً فكأنما صَبَحَتْهُمْ تصبيحًا
43 لبسوا معاييهم ورزةً فقيدهم كالإسبابِ على الحدادِ مسوحا

ولكنه يشير أيضاً الى دُعر بني أمية من المعز حتى صاروا يرون خياله في كل مكان :

- 41 بُهِتُوا فهم يتوهمونك بارزاً والتاج مؤثلقاً عليك لُموحا
فلا ندري ما المقصود بالفقيد : مجموع الأعوان والعساكر الذين خسروهم في محاربة المعز ؟⁽¹⁾ أم فرداً عزيزاً كالخليفة الناصر مثلاً ، وقد مات سنة 350 ، وشاعرنا لا يزال في بلاط بني حمدون ؟ ويحملنا على هذا التخريج الثاني تحريضه المعز على انتهاز الفرصة للقضاء عليهم قضاء مبرماً بجنود معززين بالملائكة :

- 44/9 أنفذ قضاء الله في أعدائه لُترَاح من أوتارها وتُريحها
45 بالسَّابقين الأولين يؤمُّهم جبريل يعتنقُ الكمأة مُشبحا

وذكر جبريل لا يأتي هنا اعتباطاً : فالشاعر يمتل قتال المعز للأمويين بقتال الرسول صلى الله عليه وسلم للمشركين يوم بدر . ذلك أنَّ حكام قرطبة لا فرق بينهم وبين أجدادهم الذين قاوموا محمداً ، بل لا فرق بينهم وبين أجدادهم الذين غمَّسوا أيديهم الأثمة في مجزرة كربلاء . وإنَّ هذا الخلط التاريخي بين وقعتين تفصل بينهما قرابة ستين عاماً ، لغلط مقصود : يريد الشاعر به أن يقنع الإمام بأنَّ الظرف مؤاتٍ وأن ساعة الثار لشهداء الطف قد دقت :

(1) قد تفيد صيغة « فعيل » الجمع : « وَالْمَلَأْنِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِير » (التحريم 4) .

حقّد الأمويّين على آل البيت حقّد قديم

وكما يتصرّف في التواريخ يتصرّف أيضاً في حقيقة الوقائع : فقد قصر أنصار الرسول على الهاشميين فقط ، سواء في تذكيره بدر أو في تخيله مشهد كربلاء . وهذا الحصر أيضاً مقصود : فيه يتمكّن من طرح بقية قريش من الحسين ، وخصوصاً بني عبد شمس رهط الأمويّين ، ويؤكد بذلك اختصاص آل البيت وحدهم بالشرعية الخلافة . كما يتمكّن من ضمّ الأمويّين الحاليين إلى أجدادهم ، في شركهم ومقاومتهم للدعوة المحمدية الحنيفة . فكما حسدت العبسمية بني هاشم على حلول النبوة فيهم وتمثتها في أسرهم حتى يحافظوا على امتيازاتهم الاجتماعية والسياسية في قريش⁽¹⁾ فإنّ عبسمية اليوم تحسد الفاطميين على تأسيسهم دولة من آل البيت بافريقية . وهكذا لم يتغيّر شيء في سلوك هؤلاء وأولئك : الكفر والحسد والنفاق من جهة ، والشرعية الواضحة والإخلاص للدين والطهارة والتقوى في الجهة الأخرى . ولكنّ الشاعر ، بوضعه الخصومة الحالية على صعيد الأضغان القديمة ، لا ينتبه إلى أنّ التهمة نفسها قد توجّه إلى أصحابه : فهم أيضاً يحقدون على المروانيين لا بسبب الصراع الحاليّ فقط ، بل بموجب الأضغان المتراكمة منذ بدر . وإنّ تذكيره بمصرع الحسين وبمقاتل الطالبين عامّة ، وإلحاحه على آثام الأمويّين المتواصلة يجرّ إلى أصحابه أيضاً تهمة التآثر بالأحقاد الماضية والمنافسات الجاهلية . ولكن لا عليه : فلئن كان العبسمية من قريش مثل الهاشميين ، فشتان بين الرهطين : هؤلاء مسك صافٍ طاهر ، وأولئك عود قد أريجه وعطر تبخرت ريحه فصار مادة متعفّنة : [طويل]

(1) انظر كلمة العباس عم الرسول لأبي سفيان وهما ينظران إلى جموع المهاجرين والأنصار يوم فتح مكة : إنّها النبوة ! [فصل « جفر » في دائرة المعارف الإسلامية] .

46/11 لعمري لئن كانت قريشاً بزعمها فإننا وجدنا طينة المسك تسنخ⁽¹⁾

ويعود في هذه القصيدة الحادية عشرة ، وهي معاصرة للتاسعة في رأينا ، الى الرزء الجسيم الذي أصاب بني مروان ، فيصف وقعه الشديد عليهم ، ويستخدم الصورة الجاهلية التي تمثل روح الشخص القتيل هدرأ بطائر شؤم يعكف على قبره مؤلولاً حتى يؤخذ بثأره . هذا الطائر الصدي ، أو هذه الهامة كما يسمونها، تصرخ اليوم وتستسقي على قبر مرواني ، لعله قبر الناصر كما أسلفنا :

33/11 لقد سارت الركبان بالنبل الذي يشيب له طفل وينصات أجلخ
34 وضجت له الأصنام ، إن ضجيجها صدى من بني مروان حران يصرخ⁽²⁾

فَكَأَنَّ هَذَا الْمَلِكَ مَاتَ كَمَدًّا بَعْدَ الْهَزَائِمِ الَّتِي أَلْحَقَهَا بِهِ الْمَعَزُ ، وَكَانَ قَوْمُهُ يَطْلُبُونَ النَّارَ ، وَلَكِنْ مَهْلًا ، فَإِنْ أَجْلَهُمْ سَيَحِلُّ عَنْ قَرِيبٍ لِأَنَّ تَحَرُّكَ الْمَعَزِ نَحْوَهُمْ مُشْرُوطٌ بِوَحْيِ مَنْزِلِ إِلَيْهِ :

16/11 فمهلاً عباده ! ما على الله معتب وليس لما يأتي به الوحي منسخ
وها إن أسطوله على أهبة العبور اليهم :

23/11 وَقَدْ وَقَدَ الْأَسْطُولُ وَالْبَحْرُ ، طَالِبِي نَدَى ، مُزِمَعِي هِيَجَاءَ ، هَذَا لَذَا أَخْ

وصمتان في تاريخ بني مروان

هنا نتوقف قليلاً عند لقب « المروانيين » الذي يطيب للشاعر أن يطلقه على الأسرة الأندلسية . فهو لقب تشويهِ عنده لأنه يشير به الى وصمتين في

(1) سنخ (باب فتح) الماء والطيب وغيره : فسد وأنتن .

(2) الأجلخ : الضعيف الفاني من الشيوخ . والصدى هو الهامة أي روح القتيل وحران : عطشان .

وانظر في خصوص إيمان الجاهليين بالهامة والصدى رسالة زميلنا محمد عبد السلام : ص 78

Le thème de la mort, واللسان [صدي] .

حياة هذه الأسرة : الأولى هي عداوة جدّهم الحكم بن العاص للرسول وتهكّمه به في جاهليّته وحتى بعد إسلامه حتى إنّ النبيّ والشيخين من بعد قد نفّوه الى الطائف ومنعوه من البقاء بالمدينة أو بمكّة ، فكان بذلك « لعين » رسول الله ، أي طريده ، وسمّيت سلالته ابتداء من مروان بن الحكم بـ « آل الطريد » . ولم يرجع الحَكَم الى مكة والمدينة إلّا في خلافة عثمان ، فكان إرجاعه منبج التهمة اليه في الميل مع قرابته .

أمّا الوصمة الثانية فتتمثّل في استيلاء الفرع المروانيّ من أسرة عبد شمس على الخلافة بعد معاوية وذريّته : فقد سلب مروان بن الحكم الخلافة من عقب معاوية ، فصارت خلافتهم مسلوبة مرتين : من آل البيت أولاً بعد التحكيم ، ومن الفرع السفينانيّ ثانياً بعد وفاة معاوية الثاني⁽¹⁾ .

ويضيف اليهم نقائص أخرى ، منها الجبنُ وسوء تدبير الملك ، وخرقُ السياسة : يُلقون بجنودهم الى التهلكة إذ يقابلون بها جيش المعزّ الظافر ، وينقلبون بعد الهزيمة خاسئين . ويتساءل الشاعر في تهكّم مُلحٍ عمّن يدبّر دولتهم : الحكّامُ أم الحظايا والسرايى ؟ [طويل]

21/28 كُتائبُ شتى النصرُ رُعنَ أُميّةً فأوجُهاً للبخزيّ أنفيّةً سَفْعُ⁽²⁾
23 ... ألا ليت شعري عنهم ، أملوكُهم تدبّرُ أمراً ، أم إمّاؤُهم اللُكعُ ؟

ولا يتورّع عن الهجاء البذيء : إن تتوالّ عليهم الهزائم فلقلّة تمرّسهم بالحرب ، ولئن تلوّثت ثيابهم بالدم ، فليس من دم الحرب ، لا من طعن ولا من ضرب ، وإنما هي دماء المحيض عند هؤلاء الذكران الجبناء [طويل] :

52/37 ولم تذمّ في حربٍ دروعُ أُميّةٍ ولكنهم فيها الإماء العواركُ⁽³⁾

(1) انظر رسالة الدشراوي : 225 . Le califat fatimide .

(2) الأسفع والسفعاء : الأسود المحروق .

(3) الدروع هنا قد تعني القمصان والغلائل زيادة في التشبيه لهم بالنساء . وَعَرَّكَتِ المرأةُ (باب

نصر) : حاضت .

وهي سخرية مفرطة لا تتناسب مع الواقع التاريخي : فالقوة الأموية لم تكن على هذا الجانب من الوهن ، بدليل أن جوهرأ لم يقدر على افتكاك سبته وطنجة منهم ، وأن الأسطول الأموي لم يسكت عن حملة المراكب الفاطمية ضد المرية سنة 956/345 فقد نزل بشواطئ إفريقية وخرّب وأحرق وسبي .

ثم إن المعز لم يفكر حقيقة في اقتحام الأندلس . فلذلك لا يسعنا إلا اتّهام الغلو الشعري عند صاحبنا حين نسمعه يتندّر بجهل الأمويين بفنون الحرب ويسخر من جنهم :

وما عرفت كسر الجياد أمية 50/37 ولا حملت بزّ القنا وهو شابك
51 ولا جردوا نصلا تُخاف شبّاته ولكن فولاداً غدا وهو آنك⁽¹⁾

أو يعرض بسوء احتياطهم في منع ذخيرتهم الحرية أن تسقط في أيدي الفاطميين : [طويل] .

24/28 تجافوا عن الحصن المشيد بناؤه وضاق بهم عن عزم أجنادهم وُسع
25 وقد نفدت فيه ذخائر ملّكهم وما لم يكن ضراً فأكثره نفع

هذه السخرية الثقيلة لا تغنيا في شيء لأنها تغطي التدقيقات التاريخية والمكانية الواجبة دون أن تعوّضها : فما هذا الحصن الذي تركه الأمويون للفاطميين ؟ ومتى كان جلاء المروانيين عنه ؟ ونفس الغموض يسود إشارته الى « ثغر » مرواني عجزوا عن صونه من الزحف الفاطمي : [طويل]

40/3 لقيت بني مروان جانب ثغرهم وحطّهم من ذلك خسر وتيب

فأي ثغري ؟ ثغر بحري ؟ فيكون في البيت اشارة الى نزول جديد من الأسطول الفاطمي على سواحل الأندلس ، أي تكرار لعملية المرية ؟ أم هو فقط حصن من حصون المغرب الأقصى لم يثبت لحصار الفاطميين ؟

(1) الأُنك هو الرصاص اللين أو القصدير (اللسان) .

وتتكرّر الإشارة الى الثغر بدون توضيح ، وإلى العدو دون تعيينه ، فلا نَعْرِفُ هل يعني المقاومة المسيحية داخل اسبانيا وقد بدأت حملات « الاسترجاع » ، فيكون اتّهام الشاعر موجّهاً الى تقصير الأمويين في الدفاع عن بيضة الإسلام في أرضهم ، أي إخلالهم بفرض الجهاد . يدعوننا إلى هذا التأويل إشادته بانتصارات الجيش الفاطمي ضدّ « الهرقل » أي الإمبراطور البيزنطي ، في القصيدة نفسها التي يتقصص فيها الأمويين :

- 42/3 وقد عجزوا في ثغرهم عن عدوهم بحيث تجول المُقَرَّبَاتُ اليَعَابِيُّ(1)
43 وجيشك يعتاد الهرقل بسيفه ومن دونه اليمّ الغطامط واللوب(2)

أو يشير الى محاولة فاشلة من الأمويين دون أن يدقّق نوعها فيكتفي بالتشبيه الساخر : [بسيط]

24/26 خابت أمية منه بالذي طلبت كما يخيب برأس الأقرع المُشْطُ

الأضغانُ القديمة : السقيفة ، بدر ، كربلاء

هذه الأبيات الهجائية ، الساخرة تارةً والعنيفة غالباً ، تحملنا على الاعتقاد أن عداوة الفاطميين لحكام قرطبة - كما تظهر على لسان شاعرهم الرسمي - لم تكن وليدة الوضع السياسي والعسكري في النصف الأوّل من القرن الرابع ، أي أنها لم تكن تتغذى فقط بالمنافسة السياسية على امتلاك المغرب وفرض الحكم الشيعي على سكّانه . صحيح أنّ للخصومة العقائدية دوراً في هذه الحملات العسكرية والكلامية : صحيح أيضاً أنّ الدعوة الإسماعيلية لا تقبل وجود إمامة منافسة على برّ العدو الشماليّة ، ولكنّ عنف اللهجة عند الشاعر وإشاراته المتواصلة الى آثام بني أمية في حقّ الطالبين

(1) المُقَرَّبَات : الخيل المقرّبة من البيت استعداداً للحرب . واليعوب منها القوي السريع .

(2) الغطامط الكثير الموج ، واللوب ج لوبة : الحرّة أي الأرض الغليظة الصعبة .

تضَعُ هذه العداوة في مرتبة تاريخية قديمة : فهي عداوة عريقة لها جذورٌ في
حادثة الانتزاع في سقيفة بني ساعدة وفي مجزرة كربلاء ، مروراً بوقعة بدر
وبمقتل عليّ في مسجد الكوفة .

فكلّما تحدّث عن شرعية الخلافة تذكّر السقيفة وتوسّع في الحملة، فلم
يُعدّ يتوجّه الى العبشميّة فقط ، بل يضمّ إليهم كافّة قريش : فهم مسؤولون
جميعاً عن هذه السرقة الأصلية ، أي اغتصاب الخلافة من عليّ . ويرفض
الشاعر نظرية شرعية المفضول مع وجود الأفضل التي بها قبل المسلمون ،
وحتى بعض الشيعة منهم ، خلافة أبي بكر - المفضول - رغم وجود الأفضل
أي عليّ ، فيستنكر أن يُعادل الفاضلُ ، أي المكمّل الصفات الموفي بجميع
الشروط ، بالمفضول ، أي الشخص الذي لا شرعية له سوى أنّه اختير وفُضِّل
على غيره ، ويجمع في احتجاجه رفضه لشرعية أبي بكر وتهكّمه بمزاعم بني
أميّة في استحقاق الخلافة : [كامل]

95/41 خَلَدْتُمْ فِي الْعَبْشِمِيَّةِ لَعْنَةً خُلِقَتْ - وَمَا خُلِقُوا لَهَا - تَعْجِلاً
97 . . فِي مَنْ يَظُنُّونَ الْإِمَامَةَ مِنْهُمْ إِنْ حُصِلَتْ أَنْسَابُهُمْ تَحْصِيلاً ؟
98 مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ لَمْ يَنَالُوا سَعِيَهُمْ مِنْ فَاضِلٍ عَدَلُوا بِهِ مَفْضُولاً
ولئن استغرب المرء إقحام العبشميّة في خصومة السقيفة ، ولم يكن لهم
فيها دور بارزٌ ، فالشاعر يجيبه بأنّ بني أميّة متعودون على المكر والخديعة :
مثال احتيالهم ما فعله عمرو بن العاص في وقعة صفّين حين سقط من فرسه ،
واستعدّ عليّ للإجهاز عليه : رفع آنذاك ثوبه وكشف عورته فارتدّ عنه عليّ⁽¹⁾ .
بهذا التذكير يوسّع الشاعر المقارنة بين الفاطميين وبني أميّة : الحياء والجدّ
والوقار والحلم هنا ، والخبث والمكر والخديعة والتوسّل الكاذب ونكرانُ
الجميل هناك : [كامل]

53/53 أَلَقْتُ بِأَيْدِي الذَّلِّ مُلْقَى عَمْرِهَا بِالثُّوبِ إِذْ فَغَرَّتْ لَهُ صِفِّينُ

(1) المنقري : وقعة صفّين 463 .

والخديعة صفة مشتركة عند « بني لؤي » أي قريش قاطبة : فقد اتفقوا جميعاً على نزع الخلافة من الوصي واستخفوا بما قرره له الرسول ، واستهانوا بشهادة مناسك مكة ومشاعرها :

64/53 أبني لؤي ، أين فضل قديمكم ؟ بل أين جلم كالجبال رصين ؟
65 نازعتم حق الوصي ، ودونه حرم ، وحجر مانع ، وحجون
70 ... لو تسألون القبر يوم فرحتم لأجاب إن محمداً محزون

وإذا ذكر كربلاء ، ازدادت لهجته عنفاً فيحرص الفاطميّين على الأخذ بآثار شهادتهم ، بل يلوم الفاطميّين على قبول مبعوثيهم والإجابة عن رسائلهم : فكيف ينسوّن عداوتهم للرسول وقتالهم له في بدر ؟ [طويل]

55/37 أَلَلَّه تَلُّو كَتَبَكُم ، وشيخوها بيدر رميم ، والدماء صواثك ؟⁽¹⁾

تلك العداوة التي لم تصدر عن خلاف في العقيدة كما يتوهم الناس بل عن حسدٍ وغيرة : فقد غبطوكم النبوة وحسدوكم على السلطان الروحي والدنيوي الذي أتاكم به الوحي ، فتأمروا على انتزاع الإمامة منكم :

56/37 هم لحظوكم ، والنبوة فيكم كما لحظ الشيب النساء الفوارك
وها إن الدنيا دالت فعاد إليكم الأمر ، فعليكم الآن بالانتقام من هؤلاء الغاصبين، قتلة الحسين :

58/37 بني هاشم ! قد أنجز الله وعده وأطلع فيكم شمسهُ ، وهي دالك
59 ونادت بشارات الحسين كتائب تُمطي شراعاً في قناها المعارك

وكان من المتوقع أن تخف حدة اللهجة مع تحوّل مشاغل المعز من

(1) أَلَلَّه : أناشدكم الله ، في معنى الاحتجاج ، وفي نسخة : أبى الله . والدم الصااثك : اليابس .

المغرب إلى الشرق العباسي فيحوّل الشاعر سبأه من الأمويين إلى العباسيين .
وفعلأ نلاحظ شيئاً من هذا التبديل في القصائد التي تتعرض لفتح مصر أو
للحرب ضدّ الروم : فالقصائد 22 و 24 و 27 و 40 لم تذكر قطّ بني أمية . ولكنّ
مشاغل اليوم لا تنسيه العداوة الأصلية الراسخة . وهكذا تعود الحملة على
الأمويين على أشدها في آخر مدحٍ للمعزّ ، وهي القصيدة 47 التي بها توجّ ابن
هانيء خدمته للدعوة وختّم حياته . ففيها يبلغ الاحتجاج العقائديّ ذروته
فيجمع الشاعر في لعنة عنيفة موحّدة أصحاب السقيفة وسفاكي كربلاء
ويحرّض المعزّ في حماس لا مثيل له على الانتقام والأخذ بالثأر : [طويل]

127/47 فلا حَمَلْتُ فُرْسَانَ حَرْبٍ جِيادُها إذا لم تَزُرْهُمْ من كُمَيْتٍ وأَدْهَمِ
128 ولا عَذَبَ الماءُ القَرّاحَ لشارِبٍ وفي الأرضِ مروانِيَّةٌ غيرُ أَيْمِ
فقد دَقَّتْ ساعةُ المُحاسبةِ وصارَ للدولةِ الفاطميّةِ أَيّامُها المَجيّدة ،
فليكن لها « يومٌ هاشميٌّ » تقابل به « يوم يزيد » المشؤوم :

129 ألا إنّ يوماً هاشميّاً أَظْلَهُم يُطِيرُ فَرّاشَ الهامِ عن كُلِّ مَجْئِمِ
130 كيوم يزيد ، والسبايا طريّدةً على كُلِّ مَوَارٍ المِلاطِ عَثْمَمِ⁽¹⁾

ويذكر المعزّ بمشاهد الطفّ الفظيعة حتى لا تكلّ عزيمته في الأخذ
بثارات الحسين وبنات الأئمة :

131 وقد غَصَّتْ البيداءُ بالعيسِ ، فوقها كرائمُ أبناءِ النبيِّ المَكْرَمِ
فلا تسامَحْ مع من أعتدى على حرّاماتِ النبيِّ ، ولا رحمةً لمن لم يرحم
نساءَ الحسين وهنّ يصرخن ويتضرّعن حتّى لانت لهنّ قلوبُ المطايا ، ولكنّ
قلوبَ القتلةِ الأمويّين لم تَلنَ :

(1) فراش الهام : الرؤوس والمجثم أصل الرأس ، والعثمم : البعير الشديد ومار ملاطأة تحرّكا واضطربا من تعبٍ وخوفٍ ونحوه .

132 دُعِرْنَ بِأبناء الضَّبَابِ وأعوجِ فأكْبَيْنَ أبناءَ الجَدِيلِ وَشَدَقَمِ⁽¹⁾
... فما في حريمِ بعدها من تحرَجِ ولا هَتَكَ سِتْرِ بعدها بِمُحَرَّمِ

فليقف لهم المعزَّ وقفة الموتور وليستاصل شأفة هؤلاء المجرمين :

135 فإن يتخرَّم خَيْرُ سبطي محمَّدِ فإنَّ وليَّ الشارِ لم يتخرَّمِ
137 ... ألا إنَّ وترأَ فيهمُ غيرُ ضائعِ وطَلَّابِ وتر منكم غيرُ نَوَمِ

ويُهَوِّنُ الأمرُ على المعزَّ : فما أيسرُ القضاءَ عليهم ، لأنهم تعودوا
بعادات الترف والانحلال وبعدوا عن شيم البطولة والجدِّ :

138 فلم يبقَ للمقدارِ إلَّا تعلَّةٌ لديك مداها ، فاحسم الداءَ يُحَسِمِ !
140 ... سيوفٌ كأعمادِ السيوفِ ، ودولةٌ تشيُّ دلالاً كالقضيبِ المنعمِ
141 فتمشون في وشي الدروعِ سوابغاً ويمشون في وشي البرودِ المُنَمَّمِ

وتتوسَّعُ ضغينة الشاعر وتصدُّعُ الى التاريخ الأوَّل فتشمل في لعنةٍ واحدةٍ
سارقي الإمامة يومَ السقيفة ، ولا يستثنى منهم أبا بكر التيمي ، وسفاكي دماءِ
العترة المنتخبة يومَ الطفِّ :

144 وأولى بلوم من أميةَ كلِّها وإن جُلَّ أمرٌ من مَلامِ ولُومِ
145 أناسٌ همُ الداءُ الدفينُ الذي سرى الى رَمَمٍ بالطفِّ مِنْكُمْ وأعظمِ
146 همٌ قدحوا تلكَ الزنادِ التي وَرَّتْ ولو لم تُشَبَّ النارُ لم تَنْضَرِّمْ
147 وهم رَشُّحُوا نَيْماً لإرثِ نَبِيَّهم وما كان تيميَّ إليه بِمُنْتَمِ

ويجعل من هذا الانتزاع الأصلي السببَ المباشر في مقتل عليٍّ : فمن
ذاك البغي الأوَّل انجرتْ كافَّةُ المظالم التي تلاحقت على أبناءِ فاطمة ،

(1) شدقم وجديل فحلان مشهوران من إبل المناذرة . والضباب وأعوج من أسماء الخيل العتيقة عند العرب ، ويقال إنهما فرسان لغني قبيلة طغيل وهو من وضايفي الخيل .

والضعفينة العصبية الجاهلية هي التي طاردهم في بدر وكربلاء ، على السواء :

153 بأسياف ذاك البغي أول سِلْها أصيب عليّ ، لا بسيف ابن ملجم

154 وبالحقد حقد الجاهلية ، إنه إلى الآن لم يظعن ولم يتصرم

155 وبالثار في بذر أريق دماؤكم وقيد اليكم كل أجرد صليد⁽¹⁾

مبررات التحامل ضد بني أمية

لنا أن نتساءل عن أسباب هذا العنف إزاء الأمويين كما تساءل غيرنا من الدارسين . فقد فسره المستشرق كريمر⁽²⁾ بأنه صدى للسياسة الفاطمية نحو الدولتين المنافستين : فالعباسية في نظره لا تشكل خطراً كبيراً على الفاطميين لأن خلفاء بني العباس سجناء محصورون في قصورهم ببغداد ولم يعد لهم وزن سياسي كبير في منتصف القرن الرابع . أما الدولة الأندلسية فقد حافظت على قوتها وهيبتها ، حتى بعد وفاة عبد الرحمان الناصر ، بدليل الحملات العسكرية التي ينظمها خلفه الحكم الثاني في الأطراف المغربية . فلذلك يدعو الشاعر صاحبه الى استئصال الجرثومة الأموية .

ونحن لا نستبعد هذا التفسير ، ولكن نجعله في مرتبة ثانية من اهتمام المعز ، ونقول : إن القضاء النهائي على بني أمية كان ولا يزال في نية الخليفة الفاطمي ، بالرغم من انتقال الدولة الى مصر ، وتحول المشاغل شطر المشرق . ولكن ، فيما يخص شاعرنا ، نحفظ برأينا في أن المبرر الأساسي لهذه الشدة وهذا الحقد القوي هو تراكم الضغائن التي خلقتها فعائل الأمويين ضد آل البيت في قلب كل شيعي ، وبالتالي في قلب شاعرنا ، وقد انضافت إليها عنده أحقاد خصوصية تولدت عن مضايقتهم له بإشيبيلة أو غيرها من مدن

(1) الصليد من الخيل الشديد القوائم .

Von Kremer: Ibn Hāni', Z DMG 24 (2)

الأندلس في زمن الشباب .

ولنذكر بما ذهب اليه بعض الدارسين المعاصرين ، ومنهم زاهد عليّ
ناشر الديوان ، حين عزوا مصرّع الشاعر ببرقة الى أيدٍ أموية ، لأنّ حكام قرطبة
في نظرهم ضاعفوا ذرعاً بحملات الشاعر العنيفة فدبروا له هذه الجريمة
السياسية . وقد دفعنا هذا الرأي أثناء حديثنا عن ظروف موته⁽¹⁾ .

التهجم على العباسيين

لا تقلّ حدة ابن هانيء ازاء العباسيين عنها ازاء بني أمية . وحجة الشاعر
ضدهم - وهي بدون شك حجة الدعوة الفاطمية الرسمية - تتمثل في كونهم
خائنوا التضامن العائلي الذي كان ينبغي أن يجمعهم مع العلويين في الأسرة
الهاشمية . فقد خانوهم باغتصابهم الخلافة بدورهم ، وكانوا توصّلوا إلى
افتكاكها من بني أمية بمساعدة العلويين . وإزاء هذه الخدعة لا يسع الفاطميين
الآ أن يرفضوا القرابة التي تربطهم بأبناء عمّهم العباس . وهذا ما يحتج به
الشاعر عليهم ، ولكنّه لا يستطيع أن يجرد بني العباس من هاشميتهم ، وهذا
الاشتراك في هاشم يقلقه ، فيتمسّ حلاً للتخلّص من هذه الأصرة المقيّنة :
وهو أن يجعلهم في أسفل درك من النسب الهاشمي بالمقارنة مع أبناء فاطمة
وهم في أعلى درجاته : [متقارب]

وإن كان يجمعكم غالب فإن الوشائظ غير الذري⁽²⁾

65/58

ويشعر ابن هانيء بضعف حجّته ، حين جعلهم من الملحّقين أو
المقحّمين أنفسهم في النسب الذي منه انحدر الرسول وأحفاده ، فلذلك

(1) قال بهذا الرأي أحمد أمين : ظهر الإسلام 135/3 . وذكره أبو القاسم محمد كزّو في دراسته عن

« ابن هانيء المغربي » ، (تونس 1967) ولم يأخذ به .

(2) الوشيط في القوم ، وهو وشيطة فيهم : الملحّق بهم الدخيل عليهم .

تخطى هاشماً وعبد مناف وقصياً فصعد إلى غالب ؛ ولو أسعفه واقع النسب ،
لصعد بهم إلى فهر واكتفى بنسبتهم إلى الطينة « التي تسنخ » من قریش كما
فعل بني عبد شمس .

العباسيون أبناء الطليق

لذلك لا يتمادى في هذا الاحتجاج ويتحول إلى حجة أخرى هي في
نظره أخزى للعباسيين : وهي وصمة الأسر التي علقت بجدهم العباس بن عبد
المطلب في وقعة بدر. فقد شارك في محاربة الرسول في صفوف المشركين
ووقع في الأسر وبقي يثنّ في قيوده حتى رقى له النبي فأمر باطلاق سراحه . ومن
ذلك اليوم سمي « الطليق » كما سمي الحكم « الطريد » وصار العباسيون أبناء
الطليق كما سمي المروانيون أبناء اللعين أو الطريد ؛ بل يختصر الشاعر
المراحل : فكما أن المعزّ عنده هو ابن الرسول فإن العباسي المنتصب ببغداد
والأمويّ المتسلط على قرطبة هما الطليق والطريد ، يغطّان في نومهما ولا
يهتمهما من أمر الإسلام شيء ، في حين أنّ المعزّ يبيت ساهراً يفكر في الدفاع
عن بيضة الدين وقد ثلّم الرومُ ثغورها الشامية : [طويل]

61/13 غَضِبْتُ لَهُ أَنْ ثُلَّ بِالشَّامِ عَرْشُهُ وعادك من ذكر العواصم عيداً⁽¹⁾
62 فَبِتُّ لَهُ دُونَ الْأَنَامِ مُسْهَدًا ونام طليقُ خائنٌ وطريدُ

هذه النسبة التي ينعت بها الفاطميون أبناء عمّهم ، هذه الوصمة التي
تشهد عليهم بالعداء الأوّل للدين الحنيف ، هي كافية في نظر الشاعر لدفع أيّ
حقّ في إمرة المسلمين عن الأسرة العباسية ، ويدعمها بأن يجعل تلقب
العباس بالطليق من عمل الرسول نفسه ، فهذه الكناية أبعدّ سلالة العباس عن
بيته وفصلهم عن العترة المنتخبة : [متقارب]

(1) الضمير في « له » و « عرشه » يعود على دين محمد في بيت سابق . والعواصم هي منطقة
أنطاكية وقد احتلّها الروم . والبعد هنا ما يعاود الإنسان ويتأبّه من هموم وأحزان .

بمكة سَمَى الطليقَ الطليقَ ففرّق بين القصص والذنبي
شهيدي على ذاك حكم النَّبِيَّ سَيَّ بين المقام وبين الصفا

وهذا البيت الثاني لا يخلو من غموض : فما هو الحكم الذي أصدره الرسول بمكة بين مقام ابراهيم وهضبة الصفا ؟ هل كانت قوله فيها تفضيل لعليّ أو وصيّة له كوصيّة الغدير التي يستظهر بها الشيعة الى اليوم ، ويرون فيها إقراراً لذريّة فاطمة باستحقاقهم دون غيرهم خلافة الرسول على الأمة الإسلامية ، وتعلّقوا بها وعظّموها حتى جعلوا من يوم ذكرها 18 ذي الحجة من كل سنة - عيداً كبيراً « يُحيون ليلة الذكرى بالصلاة ويصلّون في صبيحتها ركعتين قبل الزوال ، وشعارهم فيها لبس الجديد وعتق الرقاب وبرّ الأجانب والذبايح⁽¹⁾ » .

ويدعم الشاعر وصيّة الغدير بما يزعمه من شهادة القرآن للعترة المنتخبة ، وهيئات أن يحرز العباس مثل هذا التفضيل ! [طويل]

17/22 أفي ابن أبي السبطين أم في طليقكم تنزلت الآيات والسور الغرّ؟

وهي مقارنة معتادة عند شعراء الشيعة من فاطميين وغيرهم . فهذا الخليفة العزيز يستظهر ببنوتهم للرسول ويحتج على بني العباس باغتصابهم إرث النبيّ الراجع الى أبناء فاطمة وبمعجزهم - وهم الأسارى عند قوادهم من الأكراد أو الديلم - عن القيام بواجب الجهاد : [طويل] .

أنا ابن رسول الله غير مدافع تنقلت في الأنوار من قبل آدم
لي الشرف العالي الذي خضعت له رقاب بني حواء من كل عالم
بنا فتحت أبواب كل هداية ومنا بحمد الله خير الخواتم

(1) في موضوع الغدير ، انظر : النوري : نهاية الأرب 1/177 ، والفقرة منه ، نقلًا عن كتاب «الغدير في القرآن والسنة والأدب» للأميني ، وهي موسوعة في كل ما قيل في حديث الغدير ، أو حديث الإخاء أو المؤاخاة .

فقل لبني العباس مع ضُعب ملكهم بأنهم أسرى بأيدي الأعاجم
غصبتهم بني مروان ما غصبوه من موارثنا، سحقاً لظالم ظالم⁽¹⁾

وهذا أخوه تميم يجري المقارنة مباشرة بين علي والعباس ، بين بطل الإسلام
في بدر وبين حليف المشركين ، بين العالم بتأويل القرآن والصادق تعالىمه ،
ويختتم بتفضيل أبناء البنت على أبناء العمومة ، [متقارب]

أعبّاسُها كأبي حربها عليّ ، وقاتل نُصّابها ؟
أعبّاسُكُم كان في بدره يذود الكتائب عن غابها ؟
أعبّاسكُم شرّح المشكلات وفتّح مقفل أبوابها ؟
ومن لكم يا بني عمّه بمثل البتول وأنجابها؟⁽²⁾

ولا تقتصر هذه الحجة على الشعراء الشيعة ، بل نجدها عند شعراء غير
معدودين في زمرة الشيعة الرسمية ، وإنما عرفوا بعطفهم على العلويين عامّة ، ولا
سيّما في هذا القرن الرابع الذي انتشر فيه التشيع فطبع العصر كله بطابعه . فهذا أبو
فراس الحمداني (ت 968/357) أمير منبج من قبل سيف الدولة يُجري هو أيضاً
المقارنة ويحتجّ لهم بالانتساب المباشر الى النبي : [بسيط]

لا يُطغين بني العباس ملكهم بنو عليّ مواليتهم ، وإن زعموا
أنفخروا عليهم ، لا أبا لكم حتى كأنّ رسول الله جدّكم ؟
... قام النبيّ بها يوم الغدير لهم والله يشهد والأملاك والأمم
... ثم ادّعاها بنو العباس إرثهم وما لهم قدّم فيها ولا قدّم⁽³⁾

العباسيون عبيد بالوراثة

وتكتسي المفاضلة عند شاعرنا وجهة أخرى : لما كانت أعظم حجة على

(1) محمد كامل حسين : في أدب ... 163 .

(2) ديوانه 80 . وانظر كذلك ص 20 من الديوان مقارنة طويلة بين الأسرتين .

(3) ديوانه 256 .

العباسيين هي انتسابهم المباشر الى الرسول عن طريق فاطمة ، فاطمة الزهراء ، فاطمة البتول ، وهي النسبة التي أكسبت الأئمة هالة القداسة علاوة على إرث النبي ، فإن الشاعر ينتقص في المقابل أم العباس « نثيلة » ويقول : شتان بين نثلة هذه وفاطمة بنت محمد ! وزيادة في التحقير ، يزعم أن نثلة هذه كانت أمة من رقيق قريش ، وهذا الرق المزعوم⁽¹⁾ يحمله على إجراء قياس بين عبوديتها وبين أسر العباس في بدر ، فيستتج منه أن نثيلة أورثت العباس ، لا حق الخلافة كما فعلت فاطمة لأبنائها ، بل عادة الرق والعبودية : [طويل]

18/22 بني نثلة ، ما أورث الله نثلةً وما نسَلْتُ ، هل يستوي العبد والحر ؟
19 وأنى بهذا ، وهي أعدت برقها أبأكم ، فإياكم ودعوى هي الكفر !

ومعلوم أن العبودية تقوم حائلاً دون الوصول الى الإمامة : فالإمام ينبغي أن يكون حراً ، والعباسيون ، بحكم هذا الرق الموروث ، ليسوا أهلاً لخلافة المسلمين . وهكذا تتظاهر هذه الحجج التاريخية : العبودية المفترضة ، ثم عداوة العباس للإسلام في بدر وقبل بدر وأسرهم وإطلاقه ، والتفاوت بين النسب المباشر عن طريق البنت والنسب البعيد عن طريق العمومة ، تتضافر لصرف العباسيين عن الخلافة .

انخذالهم أمام الروم

ولكن الشاعر لا يقف عند هذا الحد التاريخي القديم ، بل يتجاوزه إلى الموقف الراهن فيقابل بين تخاذل العباسيين ازاء العدو البيزنطي وجهاد الفاطميين براً وبحراً لحماية الدين . وإنما قصروا في واجب الجهاد لأنهم ألقوا عادات اللهو والمجون والترف ، بينما يشغل أبناء فاطمة بإعداد السلاح لمواجهة العدو : [كامل]

(1) لا ذكر له في ترجمة أسد الغابة 164/3 ، بل تضيف في شأنها: هي أول عربية كست البيت الحرير والديباغ .

97/40 تُلْهِيكِ صَلَصلة العوالي كُلِّمَا أَلْهَتْ أَوْلَانِكَ قَيْنَةَ وَشَمُولَ
98 وَيَذَاكَ حَسْبُكَ: أَنْ تُجَرَّرَ لَامَةً وَبِحَسْبِ قَوْمٍ أَنْ تُجَرَّ ذِيُولُ

وإنَّ الهزائم التي لحقت جيش الإسلام بالشام لا تُعزى الى قوَّة العدوِّ الرومِيِّ بقدر ما تُعزى الى عجز العباسيّين عن المقاومة ، والى اضطراب دولتهم وتحكُّم موالِيهم في ملكهم . ففي حين يَطُأُ الروم أرضَ الإسلام ، يقضي العباسيون أوقاتهم على جنوب الراحة ، بين الكؤوس والقيان : [طويل]

46/3 ومن عجب أن تشجر الرومُ بالقنا فتوطأ أغمارَ وهضْبُ شناخِبِ
47 ونومُ بني العباس فوقَ جنوبهم ولا نصر الا قينةً وأكاوبُ⁽¹⁾

وهذا التفسير أوهم الامبراطور أن جميع ملوك المسلمين هم على شاكلة أصحاب بغداد ، فطمع في الوصول إلى الأراضي المقدسة دون تعب . لكن أهيات ! ليس الأئمة الصادقون مثل الأشباح المترنحة ببغداد ، وما المعز بالخليفة المغلوب ولا بالملك الأسير بين الأتراك والديالمة ، ولا ملكه بلقمة سائغة للدماسقة : [طويل]

32/3 ولكن ، لعلَّ الجائليق يَغُرُّهُ على حَلَبٍ نَهَبَ هُنَالِكَ مَنُهَوَّبُ
33 وَتَغُرُّ بِأَطْرَافِ الشَّامِ مُضَيِّعٌ وَتَفْرِيقُ أَهْوَاءِ مَرَضٍ وَتَخْرِيبُ

فلا غرو أن يستنجد الدين بابن النبوة ، وأن يستنصر العربُ الأحرارُ سلاحَ المعزِّ ، بعد أن أذلَّهم الموالِي والحجَّابُ . فيقول سلاح الإمام : لَبَّيْكَ ! لَبَّيْكَ ! وقد ملَّ الراحة في الأغمار : [طويل]

117/47 وَقَدْ سَيَّمَتْ بِيضُ الطُّيِّ مِنْ جُفُونِهَا وَكَانَتْ مَتَى تَأْلَفُ سِوَى الْهَامِ تَسَامِ
118 وَقَدْ غَضِبَتْ لِلدِّينِ بِاسِطٍ كَفِّهِ إِلَيْهِنَّ فِي الْأَفَاقِ كَالْمُتَظَلِّمِ

(1) الشناخِب : الجبال الوعرة والأغمار خُفر الماء .

119 وللغرب العرياء ذَلَّتْ حدودُها وللفترة العمياء في الزمن العمي
120 وللعرز في مصر يُرَدَّ سريره إلى ناعبٍ بالبين يَنَعُقُ أسْحَمَ⁽¹⁾

وتأهب للانتقام لكل مهضوم الجانب من هؤلاء المنتصبين المتسلطين
العاجزين الذين شوَّهوا وجه الإسلام : عزيز مصر صار غراباً أسود ، والدولة
العباسية يدعي حمايتها ساعِدُ مقطوع الكف والذراع فلا يعضد شيئاً ، وألقابهم
هذه أنما هي ادَّعاءات وأباطيل . أما العباسي ، فهو كما قال الآخر «لحم
على وِصْمٍ» وكذلك أمراؤه وولاته : دوابٌ سائمة يسوقها حُجَّاب القصر :

121/47 وللملُك في بغداد أن ردَّ حكمه إلى عضدٍ في غير كفٍّ ومعصم
122 إلى شِلو مبيتٍ في ثياب خليفة ويضع لحام في إهابٍ مُورَم
124 ... سوامٍ رِثاعٍ بين جهلٍ وخيرةٍ وملُكٍ مضاعٍ بين تُركٍ وديلمٍ

المعرز ناصر الدين

ويبالغ الشاعر في التشنيع بعجزهم وخذلانهم للدين، ويفرط في وصف
قصورهم عن المقاومة وقعودهم عن الجهاد . ويقصد بهذا الغلو أن يبرز في
المقابل عزيمة المعرز وصدق نضاله ، ويظهر للعيان انتصاراته الباهرة على
أعداء الدين ، ومن جهة أخرى ليجعل تحرك المعرز نحو الشرق ، أي فتح مصر
وما سيتبع من فتوحات ، استجابةً للمسلمين المهتدين بالغزو البيزنطي ، لا
في الشام وفلسطين والعراق فقط ، بل في مصر أيضاً رغم بعدها النسبي عن
الروم : [طويل]

68/27 وقد أشعرت أرضُ العراقيين خيفةً تكادُ لها دارُ السلام تضعضع
69 وأعطت فلسطينُ القيادَ ، وأهلها فلم يبقَ منها جانبٌ يَتَمَتَّعُ
70 وما الرملةُ المقصورةُ الحظو وحدها بأول أرض ما لها عنك مفزعُ

(1) : الغراب الناقع هو كافرور .

71 وما ابن عبيد الله يدعوك وحدهُ غداة رأى أن ليس في القوس منزُع⁽¹⁾

وها مصر قد تحرّرت من رعاتها العاجزين ، وصار أهل العراق والشام
يتمنّون خلاصاً مماثلاً يأمنون به غائلة العدو في الدين ، ويطمثون على قبر
الرسول ومناسك الإسلام وقد أصبحت مهدّدة بالزحف البيزنطي . ويهول
الشاعر المشهد عن قصدٍ ويجعل الافتراض حقيقةً واقعةً وأمرًا مقضيًا :
[كامل]

32/30 أيسرُ قوماً أن مَكّة غودرتْ بمجرّ جيش الروم قاعاً صفصفا ؟
أو أن ملحودَ النبي ورمسه بمدارج الأقدام يُنسَفُ مُنسفاً ؟

ويعتدّ الهزائم التي نتجت عن إخلال العباسيين بواجب الجهاد لأنهم
صاروا عبيداً لمواليهم وخدماءً لحجّابهم ورضوا بالهوان وأبوا أن يوكّلوا الجهاد
الى أهله ، أي الى آل البيت :

20/30 ما لي رأيْتُ الدينَ قلّ نصيرُهُ بالمشرقين ، وذلّ حتّى خُوفاً ؟
21 هم صَيروا خدماً تسوس أمورهم يا للزمان السّوء كيف تصرّفاً !
23 ... عُبدانُ عبادي ، وتُبْعُ تبع فالفاضلُ المفضول ، والوجهُ القفا
26 ... هلاً استعانَ بأهل بيتِ محمدٍ من لم يجدْ للذلّ عنكم مصرفاً ؟
27 يا ويلكم ! أفما لكم من صارخ الآ بشعرٍ ضاعَ أو دينٍ عفا !
28 فمدينَةٌ من بعد أخرى تُستبى وطريقَةٌ من بعد أخرى تعفَى
29 حتّى لقد رجفتْ ديار ربيعة وتزلزلت أرضُ العراق تخوفاً
30 والشام قد أودى ، وأودى أهله الا قليلاً ، والحجازُ على شفا

ولكن مهلاً ! إنّ الخلاص قريب : فجيوش المعزّ تحرّكت نحو أرض

الأجداد :

(1) ابن عبيد الله هو النقيب العلويّ الذي كُلف بالتفاوض مع جوهر عند فتح مصر . ومنزع
القوس : إمكانية الرمي والحطو هو الحظ .

35/30 هذا المعزّ ابن النبيّ المصطفى سيّدب عن حرّم النبيّ المصطفى
41 ... فكأنّني بالجيش قد ضاقت به أرض الحجاز وبالمواسم زلّفا

ويتصوّر الشاعر زيارة المعزّ لقبر أبيه وصعوده منبره وارتدائه البردة
وتقلّده السيف ذا الفقار :

44/30 وازدرت قبرَ أبيك قبرَ محمّد بملائك الله العلى مُتكنّفا

45 ورقيت مزقاه وقمت مَقامه في بردة تذري الدموع الذرفا

46 متقلداً سيفين : سيف الله من نصر، وسيفك ذا الفقار المرهفاً

*

أطلنا كما أطل الشاعر ، في الاستشهاد لهذا الجانب من الاحتجاج على
العبّاسيّين . ذلك أنّ حجة الانتساب المباشر الى الرسول تصبح حجة ثانوية
أمام هذه الحجة الدامغة : قصورهم عن القيام بواجبات الخلافة ، وأولها
الدفاع عن الإسلام ودفع خطر الروم المباشر ، والحال أنّهم أقرب الى أرض
العدوّ من المعزّ ، فكان عليهم أن يبادروا الى اقتحام بلادهم قبل أن
يدهاموهم . ولكنّ انخذالهم جرّنا الى هذه النتيجة الغريبة : وهي أنّ المعزّ ،
على بعده عن الروم ، يهبّ مسرعاً للقيام بالواجب ، أما بنو العبّاس ، فهم ،
رغم متاخمتهم لهم ، يتحاشون الاحتكاك بهم : [طويل]

66/13 همُ بُعدوا عنْهم ، على قرب دارهم وجحفلك الداني ، وانت بعيد

بنو العبّاس مجوس

هناك تهمة أخيرة يوجّها ابن هانيء الى العبّاسيّين : وهي سيطرة
العنصر الفارسيّ عليهم في شؤون الدولة . وقد لا نثير اهتماماً لهذا الاتهام
الذي لا يضير المعنّيين به لولا أنّ الشاعر يساوي ، في قياس متسرّع ، بين
الانتساب الى الجنس الفارسيّ واعتناق المجوسية . وهكذا يجمع عسفاً وظلماً

بين الترف الذي ينسبُه الخيال الشعبي إلى هارون الرشيد، وعبادة النار التي علقت بالأعاجم طيلة الخصومة بين العرب والموالي : [طويل]

40/37 لَكُمْ دَوْلَةُ الصَّدَقِ الَّتِي لَمْ يَقُمْ بِهَا تَنْتِيلُهُ ، وَالْأَيَّامُ هَوَجٌ رِكَائِلُكَ
41 إِمَامِيَّةٌ لَمْ يُخْزِ هَارُونُ سَعِيَهَا وَلَا أَشْرَكَتْ بِاللَّهِ فِيهَا الْبِرَامِكُ

وكان يمكنه ، والحق يقال ، أن يجد في أخبار الأمين مع أبي نواس ، وفي النزاع بين الأمين والمأمون ، وسيطرة الغلمان الأتراك على الخلفاء ابتداء من المتوكل ، مندوحةً عن هذه الأباطيل في خصوص خليفة عظيم كالرشيد ووزراء مقتدرين ألمعيين مثل البرامكة .

وكان يمكنه أن يسلك مسلك أبي فراس الحمداني مثلاً ، حين تهكم بهذه الأسرة المالكة التي أنجبت ، فيمن أنجبت ، أميرةً مغتيةً وأميراً يحترف الطرب [بسيط]

مَنْكُمْ عَلِيَّةٌ أَمْ مِنْهُمْ ، وَكَانَ لَهُمْ شَيْخُ الْمَغْنَيْنِ إِبْرَاهِيمُ أَمْ لَكُمْ ؟
تَبْدُو التَّلَاوَةَ مِنْ أَبِيائِهِمْ أَبَدًا وَفِي بَيْتِكُمْ الْأَوْتَارُ وَالنِّغَمُ⁽¹⁾

التحامل على الروم

يخصّ الشاعر الأباطرة البيزنطيين بجانب وافرٍ من حملته الكلامية . ولكن الاحتجاج هنا مختلف . فلا ذكر للشرعية الخلافية مع هؤلاء الخصوم في الدين ، ولا للنسب الفاطمي أو القرابة من الرسول . وإنما الموضوع الذي يطرده باستمرار هو الجهاد ، أي الحرب بين عقيدتين : الدين الطاهر والشرع الواضح من جهة ، ونحلة الشرك من جهة أخرى .

ولئن اتّصف الصراع بين الإسلام والروم النصاريّ عنده بهذه الهالة من

(1) ديوانه 259 .

القداسة ، وهي صدى لما يروج في الأوساط الفاطمية ، فإن الطرف البيزنطي لم يُهمل بدوره هذا السلاح الدعائي ، بل كان يعمل على إقناع الشعوب النصرانية بأن الحملات العسكرية التي يقودها الأباطرة ضدّ ثغور الشام والجزيرة إنما هي نضالٌ في سبيل المسيحية وتمهيد لاسترجاع الأماكن المقدسة بفلسطين من أيدي المحتلّين العرب . وكذلك تحركات الأسطول البيزنطي في الحوض الأوسط أو الغربيّ من البحر الأبيض المتوسط : فالغاية منها إبقاء سكّان إيطاليا وصقلية واقريطش على مسيحيّتهم وطرُد « الكفّار » الأفارقة إلى بلادهم . ولا شكّ أنّ العالم النصرانيّ الأوروبي قد فهم أنّ هذه الحروب المتواصلة براً وبحراً بين الدولتين ، الإسلامية ، سواء كانت عباسية أو فاطمية ، والنصرانية ، هي في الواقع تمهيد للحملات الصليبية التي تنطلق نحو المشرق ابتداء من القرن الخامس / الحادي عشر . وقد أكّد المؤرّخ ج. شلمبرجي في رسالته عن نقفور فقاس ، على هذه الصفة الجهادية التي اكتسها الصراع لدى الطرفين فقال : « كان الصراع بين الجنسين [العربيّ والإغريقيّ] وبين العقيدتين [الإسلام والنصرانية] متواصلاً ، لا على سفوح جبال الأناضول ، أو ضفاف الفرات فقط ، بل في إيطاليا الجنوبية وجزيرة صقلية أيضاً ، علاوة على سواحل جزيرة اقريطش⁽¹⁾ » . وكان يصحب الجيش الروميّ قساوسة يثبّتون عزيمة المقاتلين بخطبهم الحماسية ويتوسّلون بصلواتهم إلى الربّ حتى ينصر الجيش الروميّ⁽²⁾ .

الروم في لغة الشاعر

يؤكد شاعرنا ، كلّما ذكر الروم ، على انتسابهم إلى العقيدة المنافسة . فالإمبراطور - وهو الذي تسمّيه النصوص الرسمية « طاغية الروم »⁽³⁾ - هو عنده

(1) شلمبرجي G. Schlumberger: Un empereur...435 .

(2) الكتاب المذكور ص 446 .

(3) هكذا يدعو القاضي النعمان بالخصوص في ك . المجالس والمسائرات .

« الجاثليق » ، وهو لقب يدلّ في الواقع ، لا على الانتساب الى النصرانية مطلقاً ، بل على رتبة كنسية عند النصارى المشرقيين : فالجاثليق هو رئيس الكنيسة النسطورية ببغداد كما أثبتّه ماريوس كانار⁽¹⁾ . ولكنه عند الشاعر لقب صاحب القسطنطينية . فالأسطول الفاطمي يُعدّ نيرانه المحرقة لسفن الجاثليق وسفن المروانيين على السواء : [طويل]

45/13 تشبّ لال الجاثليق سعيَرها وما هي من آل الطريد بعيد
وليس هذا التلقب وهماً من الشاعر أو خلطاً . فهو يستخدم اللفظ في معناه العام ، أي الانتساب الى النصرانية ، بدليل إطلاقه على صاحب حانة طرقوه ليلاً على غرار ما كان يصنعه أبو نواس : [رجز]

1/34 وشامخ العرنيين جاثليق مروع بمثلنا مطروق
ويجنح في أكثر الأحيان الى اسم الجنس : الروم ، أي الإغريق أصحاب بيزنطة ، أو إلى لقب قائد الجيش « الدمستق » فيجمع تحت هذه الرتبة الرسمية كافة الجيوش الرومية : [كامل]

56/44 لن يستفيق الروم من سكراتهم انّ الذي شربوا رحيق سلسل
63 . . حسبّ الدمستق منك ضرب أهرت هديل مشافرة وطعن أنجل⁽²⁾

ويطلق عليهم أحياناً لقباً أخرى ، إمّا محايدة كالبطاريق أو استهجانية مثل « الأعاجم » أو « المشركين » :

79/44 لم يبقَ فيها للأعاجم ملجأ يُلجأ إليه ولا جناب يُؤهل
82 . . . ورجا البطارق أن تكون لثغرم باباً ، فغودر ، وهو عنهم مقفل
85 . . . ضمنّ الدمستق منك منع حريمها هلاً امتناع حريمه لو يعقل؟
86 وأراد نصر المشركين بجحفل لجب ، فأول ما أصيب الجحفل

(1) م . كانار : توسّع الفاطميّين . . . تبيّه 145 ص 186 . L'impérialisme .

(2) أهرت : واسع الشدين ، وهديل المشافر : مسترخيا . شبه الضرب ببعير قوي نهم أكل .

وقد يلجأ إلى الكناية فيقول « أرض قسطنطين » عوض القسطنطينية كنايةً
عن أرض الشرك : [بسيط]

45/12 لم يبق في أرض قسطنطين مشرقةً إلا وقد خصّها تُكلُّ بمفقودٍ

أو يشير إلى لون بشرتهم فيطلق عليهم لقب « بني الأصفر » المتداول
عند العرب في شأنهم⁽¹⁾ : [طويل]

91/13 وأخذك قسراً من بني الأصفر الذي تذبذب كسرى عنه وهو عنيد

وربما صعد بهم إلى جذهم الأعلى « هرقل » ، زمن البعثة المحمدية :

75 فإن هرّ أسياف الهرقل فإنّها إذا شئت أغلال له وقیودُ

أو إلى لقب « القيصر » المشترك بين روما الشرقية وروما الغربية :

65 وما سرهم ما ساء أبناء قيصر وتلك ترات لم تزل وحقود

الروم أعداء في الدين

ولكن ، مهما تنوّعت عنده ألقابهم ، فهم أعداء في العقيدة وجهادهم
فرض . وهم أيضاً يضمرون لعقيدتنا العداوة ، بل يظهرونها اليوم وقد اتخذوا
الصليب شعاراً لهم إذا ما تحرّكوا لقتالنا . ولكن الله ينصر أوليائه على هذه
الفئة المشركة : [بسيط]

49/12 ألقى الدمستق بالصلبان حين رأى ما أنزل الله من نصر وتأييد

وينقلب الشاعر إلى مبشر فيدعوهم إلى نبذ عقيدتهم التي تحملهم على

(1) يقول عديّ بن زيد ، ولكن في مدحهم والتحرر عليهم [خفيف] :

وبنو الأصفر الكرام ملوك الـ روم لم يبق منهم مذكور
ويقول أبو تمام في خاتمة قصيدة عمورية :

أبثّ بني الأصفر الممرّاض كاسمهم صفر الوجوه ، وجلت أوجه الغرب

عبادة بشر يدعونه إلهاً وتزيّن لهم الرهبانيّة : [كامل]

59/44 فليعبدوا غيرَ المسيح فليس في دين الترهّب عن سيفوك مزحَلٌ

وقد يظنّ أن هذه الدعوة إنّما هي تهكّم من الشاعر وتندّر ، ولكن لا نستبعد أن تكون صدقٌ لمعنى مماثل من الدعاية الرسميّة . ذلك أنّ المصادر الإسماعيليّة تنسب إلى المعزّ نفسه « رسالة مسيحيّة » قيل إنّها موجّهة إلى الإمبراطور تدعوه إلى الإسلام⁽¹⁾ . وهي في الواقع نصّ باطنيّ في أنّ الإمام يمكن أن يكون صورة الإله مجسّمة في شخصه البشريّ ، مثلما يعتقد النصارى أنّ المسيح هو الإله في هيئة بشريّة . ولعلّ هذا التمثيل للإمام بالمسيح هو الذي حملهم على نعتها بالرسالة المسيحيّة . وهي ، على كلّ حال ، لمؤلف غير المعزّ⁽²⁾ بالرغم من أنّ لهذا الخليفة دوراً هاماً في توجيه الدعاية الفاطميّة وربّما في تحرير النصوص المذهبيّة ، كما يشهد بذلك القاضي النعمان⁽³⁾ . وقد زعم باحث إسماعيليّ معاصر⁽⁴⁾ أنّ كتاب دعائم الإسلام الذي يجمع حصيلة الفقه الفاطميّ ، إنّما هو من تأليف المعزّ نفسه ، لا القاضي النعمان كما يظنّ الناس . وقد نقل الينا القاضي النعمان فصولاً من رسائل المعزّ إلى طاغية الروم وجانباً من احتجاجه العقائديّ يشبه إلى حدّ بعيد الدعوة التبشيريّة .

هذه الدعوة تكتسي أحياناً عند الشاعر صبغة الإعلان المنتصر والنخوة المتغلّبة : [كامل]

69/40 فلتعلم الأعلاجُ علماً ثاقباً أنّ الصليبَ - وقد عززت - ذليلٌ

(1) M.Canard:Sources... 289 . وكذلك Massignon: Essai...19 .

(2) انظر فهرس المكتبة الوطنية بباريس ، صنع De Slane تحت رقم 131 .

(3) المجالس والمسائرات 366- 369 .

(4) هو محمد حسن الاعظمي ناشر تمتّة الدعائم بعنوان «تأويل الدعائم» القاهرة 1969 ص 13 من المقدمة .

ولكنّ الشاعر قد يعترف ضمناً بأنّ الغلبة ليست دائماً من جانب المسلمين : فقد يُغلبون فيسرعون إلى المعزّ حتى يأخذ بثأرهم : [طويل] 95/13 إليك يُقرّ المسلمون بأسرهم وقد وُتروا وترأ، وأنت مُقيد

وقد يضع الحرب ، حسب ملاحظة شلومبرجي ، على صعيد الصراع بين جنسين : العرب ، والأعاجم ، وكلمة العجم تُتخذ هنا في معنى أصحاب العجمة ، أي الذين لا ينطقون العربية : [كامل]

نحرت بها العربُ الأعاجمَ إنّها ربح أمّ ، ولهزم مصقول⁽¹⁾ 58/40

الإشادة بانتصارات المعزّ عليهم

في هذا الصراع العقائديّ ، يهتمّ الشاعر خاصّة بالجانب العسكريّ فيشيد بانتصارات الأسطول الفاطميّ ، وهي انتصارات حقيقة لا يحتاج خيال الشاعر إلى تعظيمها كما كان يفعل بالتحركات المحدودة في المغربين الأوسط والأقصى .

وقد حلّلنا بعض هذه القصائد التي تعرّضت للوقائع البحريّة وافتخر فيها الشاعر بقوة السفن المعزّيّة . فبجهادها ملك العرب عنان البحر وافتكوا سيادة الأمواج من الروم بعد ألفي عام من سيطرتهم المطلقة كما يقول : [بسيط]

قد كانت الروم محذوراً كتابيها تُدني البلادَ على شُحط وتبعيد 60/12
... وشاغبوا اليمّ ألفي ججّة كملاً وهم فوارس قاريّاته السود 63
فاليوم قد طُمست فيه مسالكهم من كل لاجب نهج الفلك مقصود⁽²⁾ 64

وسيشيد خاصّة بوقعة المجاز التي تبعت مقتل القائد منويل فقاس ويصِف الغنائم بإطنابٍ في تهكّم لاذع بالإمبراطور الذي أرسل عمّه منويل إلى

(1) أمّ : طويل . لهزم : سيف قاطع .

(2) اللاجب : طريق تُحب ولاحية : واضحة . والقاريّات السفن المطلية بالغار ، أي القطران .

الهلاك ، وأهدى هذه الأسلاب النفيسة الى المعز ، ويتندر بهذا الكرم غير المنتظر : [كامل]

31/40 وبعثت بالأسطول يحمل عُدَّة فائبنا بالعُدَّة الأسطول
33 ... أَدَى إلينا ما جَمَعْتَ مُوَفَّرًا ثُمَّ انثنى في اليم وهو جفول
34 ومضى يخفُّ على الجنائب حملهُ ، ولقد يُرى بالجيش وهو ثقیل
35 نَقَلْتُهُ من بعد ما وَفَّرْتُهُ: مَنْ لِعَمْرُكَ ما أَتَيْتَ جَزِيلُ
36 إِيَّاهُ كَذَاكَ! فَإِنَّهُ ما كان مِنْ بَرِّ الكرام فَإِنَّهُ مقبول!

على أنه يترك أحياناً لهجة التهكم إلى التشفي والشعور بالنخوة والتعالي على هذا الإمبراطور الذي صار مضطراً إلى دفع جزية كالتى تفرض على الذميين : [طويل]

77/13 وَيُعْطِي الْجَزَى والسلم عن يد صاغر ويقضي ، وصدر الرُمح فيه قصيد
78 يقرب قُرْبَاناً على وَجَلٍ فَإِنَّ تَقَبَّلْتَهُ من مثله ، فَسَعِيدُ

فالبيزنطي يعطي المال ويعرض السلم ، ولعل الشاعر يشير إلى عروض الدمستق التي تقدم بها سفراؤه الى المعز ، ومن بينها استعداداه لإطلاق سراح عدد من الأسرى المسلمين الذين ظفر بهم الروم في المشرق . وقد راقت الفكرة للمعز لأنه رأى في ذلك اعترافاً بولايته على كافة المسلمين ، شرقاً وغرباً . وقد ذكر بعض هذه السفارات القاضي النعمان في كتاب المجالس والمسائرات : « وأرسل ملك الروم بأموال عظيمة وهدايا جليلة إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، ورغب في التوقف عمن بقي من الروم بأرض قلورية⁽¹⁾ ، على ما قطعه على نفسه يؤديه عنهم ، وأسرى من أسارى أهل المشرق ليطلقهم في كل عام لمدة يسيرة يسأل الهدنة فيها ... »⁽²⁾ . ولا نجزم بأن نص القاضي النعمان يتعلق بالفترة التي تهمننا ، أي

(1) قلورية مقاطعة بالجنوب الغربي من إيطاليا في قبالة مضيق ميسينا ، ويسمى المؤرخون المغاربة « الأرض الكبيرة » .

(2) ص 167 وص 367 .

بعد سنة 964/353 ، فالسفارات البيزنطية لدى المعز قد تكررّت وأبرمت هدتان على الخصوص ، سنة 957/346 وسنة 968/357 . ولكن لا مانع من أن نفترض أنّ السفارة التي أوفدها الإمبراطور بقيادة شخص يدعى « نيكولا ووس »⁽¹⁾ بعد وقعة المجاز مباشرة كانت مُحَمَّلةً بعروض مماثلة لما ذكره القاضي النعمان ، خصوصاً إذا ما اعتمدنا على طلبهم الإبقاء على أهل قلورية ، وهم المهثدون قبل غيرهم بعد هزيمة مناصريهم .

علاوة على التهكم والتشفيّ يجنح الشاعر أيضاً إلى الهجاء الصريح فيرمي الروم بالجين ويجعل فنون الحرب ، كما فعل ببني أمية . فإذا ما برز لهم جيش الإمام ، لا تفيدهم عساكرهم الجرارة ولا أسلحتهم المتنوعة الكثيرة لأنّ الرهبة تملّكهم فيغادرون ساحة القتال كأنّ في نيتهم أن يكتفوا بلمس تربتها تحلاً من نذر نذروهم : [كامل]

48/40 جَاؤُوا وَحَشُوا الْأَرْضَ مِنْهُمْ جَحْفَلُ لَجِبْ ، وَحَشُوا الْخَافَقَيْنِ صَهِيلُ
49 ثُمَّ انْتَبَهَوْا ، لَا بِالرَّمَا حِ تَقْصُصُ بَادٍ ، وَلَا بِالْمَرْهَفَاتِ فُلُولُ⁽²⁾
50 نَزَلُوا بِأَرْضٍ لَمْ يَمْسُوا تُرْبَهَا حَتَّى كَأَنَّ وَقُوعَهُمْ تَحْلِيلُ

ويعود إلى السخرية منهم بهذه المقابلة بين ادلالهم بقوتهم وتكبرهم من جهة وجبنهم الفطريّ الذي سرعان ما يعود إلى البروز فيغطي شجاعتهم الكاذبة :

79/40 الْأَكْثَرِينَ تَخْطِطُ وَتَكْبُرُ مَا لَمْ تُهْزِ أَسْنَةُ وَنُصُولُ
80 حَتَّى إِذَا ارْتَعَصَ الْقَنَا ، وَتَلَمَّظَتْ حَرْبُ شُرُوبٍ لِلنَّفُوسِ أَكُولُ
81 رَجَعُوا فَاِبْدَوْا ذَلَّةً وَمَهَانَةً وَإِلَى الْجَبَلَةِ يَرْجِعُ الْمَجْبُولُ⁽³⁾

ويخصّ الدمستقّ بالاستهزاء فينعي عليه جهله بالحرب واللقاء بقائد الأسطول الى الموت لأنّ منويل لم يسمح لهم بالفرّ حيث يجب الفرّ ، وكان

(1) الدشراوي : الخلافة الفاطمية بالمغرب ، 291، 250 .

(2) التقصّد : تقصّد الرمح والتقصدّ : انكسر .

(3) التخطّط هو التكبر ، وارتعص : تحرّك واضطرب واهتزّ .

الشاعر لم ينتبه الى ما في أبياته من اعتراف للجيش الرومي بالصمود :

- 25/40 قل للدستق مُورد الجمع الذي ما أصدرته له قنا ونصول:
26 سل رهط منويل، وأنت غررتُه: في أيّ معركة ثوى منويل؟
27 منع الجنود من القفول رواجعاً تبأ له بالمنديات قفول⁽¹⁾

جُبِن الدماسق وجهلهم بالحرب

ويتوسّع في الهجوم، فينفي عنه صفة المُلك، كأنه يعلم أن الدستق افتك الإمبراطورية من أصحابها الشرعيين إثر انقلاب عسكري. أولعله يحقره حين ملوك العصر، وخصوصاً بالمقارنة مع المعز، فهو قزم بين العمالقة :

- 37/40 رمّت الملوك فلم يبن لك بينها شخص ولا سيماء، وأنت ضئيل
38 أتقدماً فيهم وأنت مؤخر؟ وتشبهاً بهم، وأنت دخیل؟
39 ماذا يؤمل جحدّر، في باعه قصر، وفي باع الخلافة طول؟

لكن هذه القصيدة الأربعين تطلعنا على حقائق تاريخية لم يستطع الشاعر إخفاءها رغم قدرته على الهجوم والانتقاص والاحتيال في تأويل الأحداث : ذلك أن جانباً من الأسرى المسلمين ربّما اعتنقوا دين النصرانية، إمّا عن رهبة أو عن رغبة، كما لاحظ مارايوس كانار، وقد نقل عن المسعودي أن بعض هؤلاء المرتدين جندوا في العساكر الرومية فكان منهم فيلق يضم اثني عشر ألف فارس من العرب⁽²⁾. ومهما يكن من أمر هؤلاء الأسرى الذين « برثوا من الإسلام » خوفاً من السيوف المسلطة على رقابهم، فإن الشاعر لا يقبل لهم هذا العذر ويلومهم على قلة صبرهم :

- 72/40 برث من الإسلام تحت سيوفه ألا اعتدأ الصبر، وهو جميل؟

(1) المنديات : ما تندي له الجبين من فضائح وهزائم ونحوها .

(2) ما . كانار : العلاقات... 43 . Les relations .

73 سَلَكْتَ سَبِيلَ الْمَلْحَدِينَ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ إِلَى الْحَيَاةِ سَبِيلُ
 وَيُؤَكِّدُ لَهُمْ أَنَّهُمْ خَسَرُوا الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ، علاوة على الشرف المضاع :
 75/40 فَالْحَرَّ قَدْ يَقْتَنِي الْحَيَاءَ حَفِيزَةً وَهُوَ الْجَنِيبُ إِلَى الرَّدَى الْمَمْلُوكُ
 وَالْخَزْيُ الَّذِي لِحَقِّهِمْ خَزْيٌ مُضَاعَفٌ ، لَأَنَّهُمْ اسْتَسْلَمُوا إِلَى أَعْدَاءِ
 زَائِفِي الْمُسْلَطَانِ مَكْذُوبِي الْإِقْدَامِ ، أَشْبَهَ بِالنُّوقِ اللَّقَاحِ مِنْهُمْ بِالْفُحُولِ
 الْمَصَاعِبِ :

76/40 هَلْ كَانَ يُعْرِفُ لِلْبَطَارِقِ قَبْلَ ذَا بَاسٌ ، وَرَأَيْ فِي الْجِلَادِ أَصِيلٌ ؟
 77 أَنَّى لَهُمْ هِمَمٌ ؟ وَمِنْ عَجَبٍ : مَتَى غَدَبَ اللَّقَاحُ الْخَوْرُ وَهِيَ فُحُولُ !

في هذه القصيدة الأربعين كما في غيرها يَهْتَرِ الشاعر نخوةً وتَخَمُّطاً كَلَّمَا
 ذَكَرَ الْمَعْرَ فِي قُوَّتِهِ وَالرُّومَ فِي هَزَائِمِهِمُ الْمُتَوَالِيَةِ . وَيُوسِّعُ خَيَالَهُ إِلَى الْإِفْتِرَاضِ
 غَيْرِ الْمَعْقُولِ ، إِلَّا أَنَّهُ مِنَ التَّصَوُّرَاتِ الْعَادِيَةِ فِي الْمَلَا حَمِ وَالشَّعْرِ الْحَمَاسِيِّ
 عَامَّةً : فَالْبَحْرُ أَصْبَحَ مِنْ أَنْصَارِ الْإِمَامِ يَغْرُقُ الْأَسْطُولَ الرُّومِيَّ وَيُلْقِي بِعَسَاكِرِهِ
 إِلَى السَّيْفِ الْفَاطِمِيِّ : [كامل]

88/44 وَالْمَوْجُ مِنْ أَنْصَارِ بَاسِكٍ خَلَفَهَا فَالْمَوْجُ يَغْرِقُهَا ، وَسَيْفُكَ يَقْتُلُ⁽¹⁾

وشيوخ الروم من هيئته صاروا يوصون أبناءهم بمسالمة : [كامل]

55/1 جَهْلَ الْبَطَارِقِ أَنَّهُ الْمَلِكُ الَّذِي أَوْصَى الْبَنِينَ بِسَلَامَةِ الْأَبَاءِ

وَنَسَاؤُهُمْ يَتَشَاءَمَنَّ بِكُلِّ مَوْلُودٍ ذَكَرٍ لِأَنَّ مَالَهُ الْخَتْمِيُّ هُوَ الْقَتْلُ بِالسَّلَاحِ
 الْإِمَامِيِّ ، فَهِنَّ جَمِيعاً تُكَالِي مَلَانَ « أَرْضَ قُسْطَنْطِينِ » بِصَرَاحِهِنَّ : [بسيط]

44/12 لَوْ كَانَ لِلرُّومِ عِلْمٌ بِالَّذِي لَقِيَتْ مَا هُتِّتَتْ أُمٌّ بِطَرِيقِ بِمَوْلُودٍ
 45 لَمْ يَبْقَ فِي أَرْضِ قُسْطَنْطِينِ مُشْرَكَةٌ إِلَّا وَقَدْ خَصَّهَا تُكُلُّ بِمَفْقُودٍ
 46 أَرْضٌ أَقَمَتْ رَنْبِئاً فِي مَاتِمِهَا يُغْنِي الْحَمَائِمَ عَنْ سَجْعٍ وَتَغْرِيدٍ

(1) ضمير التانيث يعود على الكتابات البيزنطية .

ومعلوم أن السخرية، والهُزء الثقيل والقهقهة المتشفيّة هي أيضاً من متطلبات الشعر الملحمي، إلى جانب السبب العالي والتقاذف الغليظ، حتّى إنّها صارت تُجمَع في الاصطلاح الغربي تحت اسم «الشتيمة الهوميرية»، نسبة إلى صاحب الإلياذة. وشاعرنا يلجأ بكثرة إلى هذا النوع من التهكم، فيتساءل مثلاً في براءة كاذبة: [طويل]

29/3 ولم أَرْ زَوْاراً كسيفِكَ للعدي فهل عند هامِ الروم أهلٌ وترحيب؟

غلبة الروم في المشرق تُغزى إلى انخزال العباسيين

هذه الشواهد الكثيرة من قصائده ضدّ الروم، لئن دلّت على أنّ الغرض الأساسي من الحرب هو الجهاد، فهي تدلّ أيضاً على اعتقاد الشاعر - ومن ورائه الأوساط الفاطميّة - بأنّ الانتصارات التي أحرزها نفقور فقاس في الشام والجزيرة إنّما سمحت له بها الدولة العباسيّة بخذلانها وانصرافها عن واجب الجهاد، ممّا يبرّر عزم المعزّ على الإطاحة بخلافتهم الواهية كما اعتزم الإطاحة بحكّام قرطبة، أولئك الذين تحالفوا صراحةً مع الروم المشركين واستنجدوا بأسطولهم ضدّ المعزّ⁽¹⁾. فالحروب التي يقودها ضدّ هؤلاء وأولئك، مثل الحملات التي قادها ضدّ المروانيين وأتباعهم، هي في الحقيقة جهادٌ واحدٌ يرمي إلى إحلال إمامة الحقّ على العالم الإسلاميّ بأسره، في انتظار أن يمتدّ سلطان الأئمة على الكون كلّ، لأنّ الله جعل لهم وراثته الأرض. وهكذا يرى الشاعر في تقبيل المعزّ التراب عند ورود البشري بانتصار المجاز، رمزاً لامتلاك الأرض وبادرةً نحو المآل الموعود: [كامل]

24/40 أنت الذي ترثُ البلادَ لديهم فالأرضُ فألٌ والسجودُ دليلُ

(1) يقول القاضي النعمان: كتب الناصر إلى طاغية الروم يسأله النصرة... فأجابته إلى ذلك وجاءت أساطيل الروم من القسطنطينية ومراكب بني أمية من الأندلس (المجالس والمسايرات، 166).

شاعرية ابن هاني

أشرنا في الفصلين السادس والسابع إلى الجوانب التقليدية من شعر صاحبنا ، كما تظهر من الأغراض المطروقة أولاً ، وهي المدح والرثاء ، ثم من أتباعه التقسيم القديم للقصيدة . لكن هذه التبعية لم تكن دائمة مطلقة . فكثيراً ما يتحرر مثلاً من الاستهلال الغزليّ فيدخل إلى المدح وثباً ، أو ، إذا بدأ باستهلال ، فقد يعوّض فيه الوقفة على الاطلال بوصف مشهد ليليّ أو عارض من البرق والسحاب . وقد يعوّض الرحلة المعهودة إلى الممدوح بوصف مجلس لهو أو بتأملات حكمية في انقضاء الشبية وصروف الزمان .

¹ ورأينا أنّ شخصية الشاعر لا تكمن في القصائد الكبيرة الرسمية بقدر ما تظهر في المقطوعات الصغيرة والأبيات المرتجلة التي يعبر فيها عن ميوله وآرائه وهواجسه في حرية لا يكتبها الوقوف امام الخليفة ورجال دولته .

ونعتمد في هذا الفصل دراسة شخصية ابن هانيء الشعرية لنقف على ما يبدو عنده تقليدياً مطبوعاً بطابع القدماء ، وما تظهر فيه سمات الطرافة والغنائية الصادقة .

الأغراض

لو اتّخذنا الأغراض معياراً ، لقلنا إنّ ابن هانيء مثالٌ للشعراء

التقليديين . ذلك أَنَّ المدح يستأثر بالقسم الأوفر من الديوان : ثلاث وستون قصيدة من سبعين ، فإذا أضفنا إليها المراثي الثلاث - والرثاء كما يقول أبو هلال العسكري ، إِنَّمَا هو مدح الميت⁽¹⁾ - صارت الأغلبية المطلقة لهذا الغرض القديم المعهود المعروف الذي به عاشت أُمَمٌ من الشعراء ولا تزال .

أَمَّا القصائد الأربع الباقية ، فقد حلَّلناها بإيجاز ، وتوقَّفتنا قليلاً عند القصيدة السادسة والخمسين في الأكل ، فبيَّنا قدرة الشاعر على الوصف الساخر وقلنا لعلَّها تشير إلى حادثة واقعية ، سيَّما وأن الشاعر ذكر رقادة ، وهي المدينة الوحيدة من إفريقية والمغرب التي ذكرت في كامل الديوان ؛ فقد يكون لقي هذا الثَّور المفتوح كما قال فطاب له أَنَّ يصف ما هاله منه من قدرة على الالتهام تفكَّهاً وتندراً ، بعيداً عن كل رغبة أو رهبة . فلذلك لم نعتبرها هجاء لفقدان الدافع ، من حقد أو ثأر أو غضب .

المحاكاة الصريحة

والقصيدة التاسعة والأربعون تخرج أيضاً عن الشعر الرسمي إلا أنها تقليد محض : فهي نوع من « التمرين » يحاكي به الشاعر مغامرات عمر بن أبي ربيعة الغزلية فيجمع المعاني المعهودة ، من مراقبة لِلْحَيِّ في انتظار الليل ، ثم ارتياح الحبيبة حين برز لها وسط الظلام وتسكينه لها بالضم والقبلاط : [طويل]

11/49 طرقتُ فتاة الحيّ إذ نامَ أهلُها وقد قامَ ليلُ العاشقينَ على قَدَمِ
13 . . . فسكُنتُ من إزعاجِها ، وهي هَوْنَةٌ ضعيفَةُ طيِّ الخصر ، في لحظها سَقَمُ

وانتباه الرقيب اليه عند الفجر حين وجب الفراق . فما العملُ ؟ إذا كان

(1) ك . الصناعتين 137 .

المخزوميّ يجنح الى التثكّر في مُطَرَفِ الأخت الصغرى وبردّها⁽¹⁾ وإذا تعلّق الفرزدقُ بـ «أسباب طوالٍ» فتدلّى «من ثمانين قامّة»⁽²⁾ وأفلت من القوم ، فإنّ صاحبنا يأنف من هذه الحيل النسائيّة بل يجابه أهل الفتاة فيسلّ سيفه ويردي الرقيب قتيلاً . ولكنه في آخر القصيدة يعلمنا بأنّه لم يقتل أحداً وإنّما سار في كلّ هذه الرواية على نهج عمرو . ولعلّه يعني أمراً القيس وهو أيضاً صاحب مغامراتٍ مع العذراء ، والمرضع ، وربّما خلط الشاعر بين أمرىء القيس وأبيه الذي يدعى «ابن عمرو حجر»⁽³⁾ .

وكذلك القصيدة الرابعة والثلاثون تقليد ومحاكاة . ولكنه هنا يجاري أبا نواس في مغامرة خمريّة الى حانة خارج البلد فيذكر غضب الخمار وقد أوقظ من نومه ، وهو بالطبع من أهل الكتاب ، ثمّ طمعه في المال الوفير حين عرف الطّراق ، ثمّ إشعاع الخمرة وهي تنصبّ هادرةً من دَنّها المَبْزول ، رقيقةً لطيفةً مثل عقيدة الزناديق : [رجز]

7/34 لم يُبق منها الدنّ للراووق إلاّ كيّاناً ليس بالحقيق
مثل يقين الملحد الزنديق كأنّه حشاشة المَشوق

ويختم التمرين بنصائح سلوكيّة للندامي على غرار ما يدعو إليه أبو نواس من رفيق بالصديق المتشّبي :

21/34 لا تجزيّن البرّ بالعقوق واغنّ عن العدو بالصديق
وواصل الصبوح بالغبوق !

هاتان قصيدتان لا تعبّران عن تجربة واقعيّة ، ولئن عبّرنا عن شيء ، فعن محاولة الشاعر في التخلّص من قيود الشعر الرسميّ ، وتوقّه إلى خوض مثل

(1) ديوانه ص 100 .

(2) ديوانه ص 261 .

(3) «وهرّ تصيد قلوب الرجال ، وأفلت منها ابن عمرو حُجْرُهُ» ديوانه 95 .

هذه المغامرات التي يحرّمه منها منصبه كشاعر مذهبى في بلاط الإمام . وقد تكونان أيضاً محاولة منه في اختبار قدرته على النظم في القصص الغزلي والخمري حتى يظهر بمظهر الشاعر المكتمل الآلة ، مثل كبار الأسلاف كعمر والفرزدق وأبي نواس .

وفي هذا الإطار بالذات ، أي موقف ابن هانىء من مشاهير الشعراء ، تندرج القصيدة الحادية والعشرون عن المتنبي . وهي غريبة من ناحيتين : أولاً ، لأنها لا تطرّق غرضاً واضحاً ، فهي في آن واحد نقد أدبي وهجاء وفخر . وهي غريبة أيضاً لأن صاحبنا فيها متذبذب إزاء المتنبي بين الانتقاص له والغيرة من منزلته في الشعر وعند المعاصرين ، وقد تنبّه الى هذا الاضطراب المستشرق الإسباني الكبير قارثيا - قوميث في دراسته القيمة لهذه القصيدة .

لكنّ المقارنة بين المتنبي وابن هانىء ، وقد راجت عند القدماء والمحدثين ، تستدعي منا وقفة طويلة نرجئها إلى حين .

أداته الشعرية - القصيدة

نظم ابن هانىء شعره في قصائد متفاوتة الطول تتراوح بين أحد عشر بيتاً ومائة بيت . وتبلغ القصيدة السابعة والأربعون مائتي بيت . وقد علّنا هذا الطول المفرط بافتراض أنها قد تكون أرسلت من الزاب الى مصر فكانت تتوجّه للقراءة المتأنية من الممدوح لا للإنشاد أمامه . وقد جمع فيها الشاعر كل المعاني المذهبية وكل الشعارات الإسماعيلية حتى لكأنها - وهي آخر ما نظم - وصيته إلى من يأتي بعده من شعراء الدعوة . وبقيّة القصائد لا تتجاوز مائة بيت إلا نادراً : هي سبع من سبعين . والمدايح المعزّية بوجه عام أطول من شعر المسيلة . وقد افترضنا أيضاً أن الشاعر ربّما كان أكثر تحرّراً إزاء الأميرين

الأندلسيين منه إزاء الخليفة الفاطمي فيجيز لنفسه ، من تصرف في حجم المدحة وتنوع في الأغراض ، ما لا يتجاسر عليه مع الإمام . هذا مع إمكان افتراض آخر ، وهو أنَّ القصائد الطويلة قد تكون ، مثل الميمية الأخيرة ، نُظِّمَتْ لتُقرأ على الممدوح لا لينشدّها الناظم .

القوافي

يَقْسَمُ المعرِّي في البسطة الضافية عن علم القوافي ، التي قَدَّم بها لديوان اللزوميات ، يَقْسَمُ القوافي إلى ذُلِّلٍ وَنُفِّرٍ وَحُوشٍ : « فالذِّلُّ ما كثر على الألسن ، وهي عليه في القديم والحديث . والثُّفَرُ ما هو أَقَلُّ استعمالاً من غيره كالجيم والزاي ونحو ذلك . والحوشُ التي تُهَجَّرُ فلا تُسْتَعْمَلُ »⁽¹⁾ . وصاحبنا يبني قصائده على القوافي الذلل في الأغلب ، ولا يصل به حَبَّ للغريب إلى حدِّ تغليب الثُّفَرِ أو الإكثار من القوافي الحوش . ولكنه لا يستنكف من استعمال الرويِّ الصعب . فإذا قارنّا قوافيه بما عند شعراء معاصرين له أو متأخرين عنه قليلاً ، كأبي فراس والمنتبي وابن زيدون⁽²⁾ ، ظفرنا بالجدول التالي، الذي نحصي فيه عدد الأبيات المبنية على بعض الحروف غير المأنوسة :

(1) ج 37/1 .

(2) المنتبي بشرح العكبري .

أبو فراس ، طبعة صادر .

ابن زيدون، طبعة رشيد الكيلاني ، القاهرة 1956 .

الرويّ	ابن هانيء	المتنبى	أبو فراس	ابن زيدون
ث	36	0	5	8
ج	39	12	5	0
خ	64	0	0	0
ذ	2	0	0	0
ش	7	36	0	8
ص	46	0	0	0
الجملة	194	48	10	16

فكانه أقل تحفظاً من هؤلاء الشعراء وأكثر جرأة في التماس الجرس الغريب الذي قد تستقله الأذن وتمجّه النفس. على أنّ هذه النسبة العالية في القوافي « التّفَرُّ » عنده لا تنفي أنّ نسبة القوافي الذلل متقاربة عنده وعندهم ففي المقدمة يأتي رويّ الميم تليه اللام والراء والنون الخ . . .

والقافية عنده مطلقة غالباً ، ولا يجنح إلى الرويّ الساكن إلّا في سبع قصائد ، أي عُشْر الديوان تقريباً . ونحن لا نستنتج من هذا شيئاً ، سوى أنّه واثق من نفسه لا يخشى إقواء أو صعوبة في إعراب أواخر الأبيات .

وختاماً لحديثنا عن القافية ، نقول إنّنا نرفض الرأي القائل بأن بعض الحروف أوفق من غيرها لبعض الأغراض . وقد أبدى هذه الفكرة الشيخ سليمان البستانيّ معرّب الإلياذة فقال إنّ القاف مثلاً أوفق للشعر الحماسيّ ، والراء واللام أصلح للوصف الخ . . . بل نتبع رأي المعريّ في أنّ الرويّ « أثبت حروف البيت ، وعليه تبنى المنظومات ، وهو يكون من أيّ حروف المعجم وقّع . . . »⁽¹⁾ . فحرية الشاعر في اختيار الرويّ تامة ولا تُحدّ إلّا بطبيعة الجرس الذي يرتضيه لشعره من جهة ، وهذه قضية ذوق واختيار ،

(1) مقدّمة اللزوميّات ص 6 . أما رأي البستاني فقد نقلناه عن صفاء خلوصي : فنّ . . . 257 .

وبوفرة المواد التي يكون الحرف المقصود لأمها ، ومعلوم أن الكلمات التي تختتم بالظاء أو الخاء أو السين نادرة قليلة إذا قيست بالكلمات التي لأمها باء أو دال أو ميم⁽¹⁾ .

الأوزان

يستخدم شاعرنا البحور المتينة الوفيرة المقاطع كالطويل والكامل والبسيط ، وهي التي تأتي عنده في المقدمة :

الطويل : 36 قصيدة ومقطوعة .

الكامل : 33 قصيدة ومقطوعة .

البسيط : 19 قصيدة ومقطوعة .

تليها في نسبة قليلة جداً :

الخفيف : 7 قصائد و 3 مقطوعات .

السريع : 5 قصائد و 4 مقطوعات .

المتقارب : 4 قصائد و مقطوعة واحدة .

الرمل : 4 قصائد ومقطوعتان .

المنسرح : 3 قصائد ومقطوعة واحدة .

الرجز : 3 منظومات ومقطوعتان .

الرمل : مقطوعة واحدة .

وقد تخلّى عن البحور القصيرة كالمجتث والمضارع ، وأهمّل المجزوءات ، حتّى مخّلع البسيط ، فلم ينظم عليها قطّ ، حتّى في الشعر البعيد عن الدعوة والمذهب ، كوصف مجلس أنس أو زهرة رمان أو تغزل بقينة أو غلام . وهنا أيضاً نرفض فكرة التخصص . فكلّ الأوزان العربية - ما لم

(1) ابراهيم أنيس : موسيقى الشعر ص 247 ، وهو يُفَرِّق القلّة ويرفض التناثر الصوتي .

تنقص كمّية مقاطعها الى حدّ أنّ تصبح مجزوءة أو مشطوبة - صالحة لكل الأغراض . دليلنا عل هذا الشمول أنّ المراثي الثلاث نُظِمَت على الكامل فالرمل فالمتقارب ، وأنّ المتقارب نجده أيضاً في مدحة وفي مقطوعة في الشكوى .

ونتبيّن «كلاسيكية» شاعرنا، أي أتباعه لسنة القدماء في اختيار الأوزان ، من هذا الجدول الذي أضفنا اليه أوزان المفضليات والمعلقات العشر ، علاوة على بحور الشعراء الثلاثة الذين اخترناهم نموذجاً للمقارنة :

البحور	ابن هانيء	المتنبّي	أبو فراس	ابن زيدون	المفضّليّات	المعلّقات
الطويل	36	58	65	35	45	3
الكامل	33	42	60	25	27	2
البسيط	19	45	32	25	19	3
الخفيف	7	21	15	15	3	1
السريع	5	8	11	11	5	
المتقارب	4	25	13	10	10	
الرّمل	4	2	7	18	3	
المنسرح	3	21	3	2	2	
الرجز	3	10	8	2		
الوافر	1	46	39	14	18	1
المجثّت			5	6		
الهمزج			7			

التقسيم الثلاثي للقصيدة

قُتِنَ نقاد القرن الثالث القسمَ الثلاثيّة لقصيدة المدح ، فجعلوا من الوقوف على الأطلال وتذكّر الأحبة وذكر الرحلة الطويلة الى الممدوح ،

مراحل واجبة قبل الولوج الى المدح⁽¹⁾ . وقد ضاق الشعراء بهذه القواعد حتى رأينا المتنبي يسخر من هذا الغزل الواجب : [طويل]

إذا كان مدحُ فالنسيب المقدمُ أكلُ فصيحٍ قال شعراً متيمٌ ؟

وهي قواعد على الحقيقة تأخذ بالعامّ الأعمّ والمتداول المنتشر كجميع القوانين ، ولا تنفي الشذوذ والخروج عن السّنة المتبعة . فكان فحول الأقدمين ينسبون حين يطيب لهم النسيب ، ويتركونه حين لا تنشط نفوسهم . وكذلك ابن هانيء ، ينسب أحياناً ، ويترك النسيب أحياناً ، أو يحول الاستهلال من الغزل الى الوصف ، كما يظهر من هذا التحليل لعشر من قصائده المعروفة :

1 - القصيدة 9 في مدح المعزّ . 59 بيتاً مطلعها [كامل] :

هل كان ضَمَحَ بالعبير الريحاً مُزَنُ يُهزُّ البرقُ فيه صفيحاً ؟

من بيت 1 الى بيت 10 : نسيب : طيف الحبيب يزور الشاعر المُسَهَّد .

البيت 11 : اشارة خاطفة الى الرحلة الى الإمام بدون وصف .

الأبيات 12 - 59 : مدح الخليفة بالمعاني التقليدية والمذهبية .

2 - القصيدة 35 في مدح المعزّ أيضاً . 41 بيتاً ومطلعها [خفيف] :

قمن في مأثمٍ على العشاق ولبسنَ الحدادَ في الأحداقِ

8-1 : نسيب : الشاعر يبكي رحيل الأحبة .

20-9 : ذكرى أيام الهناء . وصف أباريق الخمر .

41-21 : مدح الخليفة .

3 - القصيدة 40 في المعزّ . 114 بيتاً ومطلعها [كامل] :

(1) انظر مقدّمة الشعر والشعراء لابن قتيبة .

يومٌ عريضٌ في الفخار طويل ما تنقضي غرر له وحجولٌ
لا نسيب فيها ولا وصف للراحلة . يقتصر الشاعر على مدح الإمام وشم
خصومه .

4 - القصيدة 3 في المعزّ، 73 بيتاً ، مطلعها [طويل] :

أقولُ دُمي وهي الحسانُ الرعائِبُ ومن دون أستار القباب محاربُ

19-1 : نسيب : لوعة الشاعر بعد ترحّل الخليط .

61-20 : مدح الخليفة بالثيم التقليديّة والخصال الإماميّة معاً .

69-62 : شكوى الشاعر من الحساد .

73-70 : عودة الى المدح .

5 - القصيدة 58 في المعزّ . 86 بيتاً ، مطلعها [متقارب] :

تقدّم خطي أو تأخّر خطي فإنّ الشباب مشى القهقري
11-1 : نسيب .

28-12 : وصف الخيل .

48-29 : شغف المعزّ بالصافنات الجياد .

86-49 : مدح المعزّ سياسياً ومذهبياً .

6 - القصيدة 27 في مدح جوهر . 105 أبيات ، مطلعها [طويل] :

رأيتُ بعيني فوقَ ما كنتُ أسمعُ

وقد راعني يومٌ من الحشرِ أروعُ

14-1 : عظمتُ هذا الجيش في العدة والعديد .

30-15 : وصف مدقّق للعتاد الحربيّ .

105-31 : مدح جوهر بخصاله الإداريّة والسياسيّة والحربيّة ، الإشادة

بولائه الفاطميّ .

7 - القصيدة 43 في المعز . 95 بيتاً ، مطلعها [بسيط] :

كدأبك آبن نبيّ الله لم يزلِ قتل الملوك ونقل الملك والدول
لا نسيب فيها ، وهي مخصّصة بأكملها للإشادة بالممدوح .

8 - القصيدة 63 في بني حمدون . 84 بيتاً ، مطلعها [طويل] :

ألا أيّها الوادي المقدّس بالندی وأهل الندى ، قلبي اليك مشوّق

13-1 : تحيّة الشاعر لجعفر من بعيد .

33-14 : مدح يحيى بالتجربة الحربيّة .

50-34 : وصف خيل أهداها يحيى الى شقيقه .

66-51 : خصال جعفر .

75-67 : وفاء الشاعر للأخوين ، وشكره معروفيهما .

84-76 : عود الى مدح بني حمدون .

فلا نسيب هنا أيضاً ، ولا وصف للراحلة .

9 - القصيدة 57 في إبراهيم بن جعفر . 100 بيت ، مطلعها [كامل] :

الشمسُ عنه كليلة أجفأناها عبرى يضيق بسرّها كتمانها

38-1 : وصف القصر الذي بناه جعفر لابنه .

64-39 : قسم خمريّ : تحريض على خلع العذار .

93-65 : مدح إبراهيم ، وهو سليل جعفر في المجد .

100-94 : اعتراف بجميل بني حمدون .

فالنسيب متروك هنا أيضاً ، وكذلك وصف الرحلة والدابة .

10 - القصيدة 39 في يحيى بن حمدون . 43 بيتاً ، مطلعها [كامل] :

فتكاتُ طرفكِ أم سيوفُ أبيك ، وكؤوسُ خمريّ أم مراشفُ فيك؟

10-1 : نسيب .

33-11 : مدح يحيى ، سيف الدعوة المسلول .

38-34 : وصف الخيل .

43-39 : عود إلى خصال الممدوح الحريّة .

فالنسيب يحضر ويغيب في هذه المدائح العشر ، وكذلك القسم الوصفى ، إن وُجد ، فهو لا يتعلّق ضرورة بالرحلة إلى الممدوح ولا يصف الناقة ، بل يحوّل الشاعر إلى وصف مجلس لهو أو إلى وصف خيل أو وصف قصر ؛ وقد يُعرض عنه تماماً .

ولنحلّل الآن في شيء من التفصيل إحدى المراثي ، كمرثية حفيد جعفر ابن حمدون ، وهي دالّة ذات 97 بيتاً مطلعها [رمل] :

وهب الدهر نفيساً فأستردّ ربّما جاد لثيمٌ فحسّد

13-1 : خواطر حكميّة حول الموت والحياة : خداع الدهر الذي يعطي بيد ويأخذ بالأخرى . شكوى الشاعر من الزمان الذي ابتلاه غير ما مرّة .

25-14 : مثال من خداع الدهر : أخذ هذا الطفل وهو صبيّ عاجز عن دفعه . ولو عاش لكان فيه فخر العرب جميعاً .

40-26 : لوعة أهله وذويه . حتى الأبطال المحنّكون يكونون بالدمع الغزير .

51-41 : لا قوّة تثبت أمام الموت ، ولا حتى قوّة جعفر الحريّة .

64-52 : دعوة إلى التصبّر : الموت مآل كلّ كائن . والنجل التحق بالجد وهكذا فالشبل رجع إلى الليث .

90-65 : الموت لا يترك حيّاً : لا القويّ ولا الضعيف ، لا الطيّب ولا الخبيث ، الأسد في عرينه ، والنسر في وكره ، الظبية الوديعه والأفعى المخاتلة ، كلّ لا يبيّهم الحدثان .

97-91 : عود إلى الخواطر المتشائمة حول حتمية الهلاك وقصر الحياة .

وهكذا نرى أن تعلق ابن هانيء بمثال الأقدمين لا يمنعه من الخروج أحياناً عن جادتهم فيسلك مسلك المولدين الذين جدّوا الشعر بمقدار ، مثل البحترى وأبي تمام والمنتبي . فهو يجمع بين الرصيد الثقافي الموروث عن الجاهليين والصنعة البلاغية التي برز فيها أبو تمام ودونها ابن المعتز في كتاب « البديع » .

الصنعة البلاغية : الاستعارة وأصناف المجاز

يفرط ابن هانيء في استخدام أساليب المجاز ، من التشبيه العادي البسيط الى الاستعارة البعيدة الغور . وقد سبق أن ذكرنا بعض النماذج أثناء درسنا للمعاني والأغراض عنده . ونسوق الآن بعض الأمثلة الأخرى ، زيادةً في الاطلاع على أسلوب الشاعر . فهذه مثلاً وسيلة للتعبير عن قصر ليلة الوصال ، يحشر فيها الشاعر ثلاثة تشابهات متتالية : [كامل]

- 19/1 لبست بياضَ الصبح حتى خلّتها فيه نجاشياً عليه قباء
20 حتى بدت ، والبدْرُ في سربالها فكأنها خيفانةُ صدراء
21 ثم انتحى فيها الصديق ، فادّبرت فكأنها وحشيّة عَفراء⁽¹⁾

وقد قصد الشاعر الى الشكوى من سرعة انقضاء الليل التي حملته على ذم كل الليالي بالمقارنة مع ليلة الوصل :

- 18/1 دُم الليالي بعدَ ليلتنا ألتى سلّقت ، كما دُم الفراق لقاء

فعبر عن هذه السرعة بالتشبيهين الأخيرين ، بالفرس ، وبالظبية ، وكان

(1) النجاشي : ملك الحبشة ويعني به الأسود . والقباء الرداء . والخيفانة في الأصل الجراة وصارت تعني الفرس لدقة مفاصله ، والصدراء ذات البياض على صدرها وانتحى : اتخذ مكانة والصديق : ضوء الفجر والوحشيّة : الغزالة .

تشبيه واحدٌ يكفيه ، ولكنّ تداخل البياض في السواد تدريجيّ ، فاضطرّ الى التمهيد بذكر الخيفانة فأطال المشهد وزاده تفصيلاً . أمّا تشبيه الظلام الممزوج بنور الصبح بالنجاشيّ الملتفّ بعباءة بيضاء ، مع الاستعارة في « لبست الليلة بياض الصبح » ، ففيه مقابلة بين بياض الوصل وسواد الفراق وقد سبقت له المقابلة بين سواد المقلة وبياض سائر العين في مطلع القصيدة ، ولكن في معنى آخر . وهكذا نجد في الأبيات الثلاثة الاستعارة والتشبيه والمقابلة ، إلى جانب المشهد المتواصل ، أي ما يسمّيه أهل البلاغة « التشبيه التمثيلي » . ونلاحظ عرضاً أنّ الشاعر نسيّ الشكوى بعد البيت الثامن عشرَ فاهتمّ بالوصف فقط ، كما طاب له أن يتخيّله . والشاعر شغوف بوصف النجوم كما تشهد به القصيدة الحادية والثلاثون الآتي تحليلها . والشعر العربيّ بل اللغة نفسها بوجه عامّ ، يردّد بكثرة المقابلة بين البياض ، لون كل خير ، والسواد ، عنوان كل مصيبة : فلا غرابة أن يعود شاعرنا مراراً إلى وصف الليل وقد بدأت جحافلُه تفرّ أمام عسكر الصباح ويعمّق فكرة الصراع ويستفرغ صورة الحرب ، فيلاحظ تكاثر النجوم مع قدوم الفجر فيتخيّل أنّ الظلام ، وقد أعجله النور ، نثر تاجه في هربه كأنّه ملك مهزوم : [كامل]

- 9/25 والفجرُ من تلك الملاءة ساحبٌ والليل في منقذ تلك الأقمصِ
 10 قد بات يمطيني سنًا ، حتّى إذا عجل الصباح به ، فلم يتربّص
 11 ألقى مؤلفه النجوم قلائدًا من كلّ إكليلٍ عليه مفصّص

وهنا يشكو بالعكس طول الليل ، ليل المسهّد، ويتوق الى الصبح الذي يجلي الهموم ، فأدخل مشاعره في البيت العاشر ، ولكنّه أعتمد كما في المثال السابق ، على استعارة الملبوس ، الملاءة للصبح والقمصان للظلام ، وعلى المقابلة البارزة في شكل تعادليّ بين شطري البيت التاسع .

وإلى مثل هذه المحسنات المعنويّة وهذه الصور البديعيّة تنتسب مقدّمة القصيدة « الفلكيّة » التي عوض فيها النسيب بوصف مطوّل لنجوم السماء

وأفلاكها ، وتصوير مدقق للأشكال المختلفة التي تتخذها في القبة السوداء :
27 بيتاً - من 71 - لا يخلو واحدٌ من تشبيه أو استعارة أو مشهدٍ تمثيلي . وقد
أعطى « النغمة » منذ البيت الأول : فالليلة حسناء ذات شعرٍ دجوجي ، وقد
تقلدت في أذنيها كوكبَ الجوزاء أحرصاً برآقة : [طويل]

1/31 أَلَيْتَنَا إِذْ أَرْسَلْتَ وَارِداً وَحَفْفاً وَبَتْنَا نَرَى الْجُوزَاءَ فِي أَذْنِهَا شَتْفًا⁽¹⁾

وَيُنْتِي بِمَشْهَدٍ خَمَرِيٍّ غَزَلِيٍّ يَصِفُ السَّاقِيَّ وَقَدْ لَعِبَتْ بِهِ الْمَدَامُ هُوَ أَيْضاً
فَزَادَتْ تَشْتِياً عَلَى تَنْيٍّ :

3/31 أَغْنُ غَضِيضُ خَفَفَ اللَّيْنُ قَدَّهُ وَثَقَلَتِ الصَّهْبَاءُ أَجْفَانَهُ الْوُطْفاً
4 ولم يُبقِ إِرْعَاشُ الْمَدَامِ لَهُ يَدَا وَلَمْ يُبقِ إِعْنَاتُ الشَّيِّ لَهُ عِطْفَاً

ولكنه لا يطيل التغزل بهذا الغلام ويعود إلى وصف النجوم ، وكأنه يريد
منه أن يكون بُرهاناً على قدرته الإبداعية ، ولا ننسى أن القصيدة هي أول
شعرٍ أنشده بالمسيلة ، فبقاؤه في خدمةِ الأخوين مشروط باستحسانهما لها .
فيضع الإطار العام ، وهو الصراع بين الليل والنهار ، والقتال المعهود بين
الظلمة والنور ، بين جحافل الظلام وجيش الصباح :

10/31 وَقَدْ وَلَّتِ الظُّلُمَاءُ تَقْفُو نَجُومَهَا

وقد قام جيش الفجر لليل واصطفَا

ثم يأتي التفصيل ، كل كوكب ، وقد استعدَّ للأفول ، يتخذ في السماء
التي خُطَّتْ بالبياض صورة يترجم لها الشاعر بتشبيه جديد ، بل غريب أحياناً
في بعض متعلقاته ، كهذه اليد التي لا يزال الظلام يخفيها فلم تظهر منها إلا
الإصبع المزدانة بالخاتم :

11/31 وَلَوَّتْ نَجُومٌ لِلثَّرِيَّا كَأَنَّهَا خَوَاتِيمُ تَبْدُو فِي بَنَانٍ يَدٍ تَخْفَى

(1) الوارد : الشعر الطويل المنبدل .

وتعود الصورة الحريية ، فهذا الدبرَانُ يتبع الثريا بخيله وقد كانت الخيلُ
في كمين ، تستعد لنصرتها :

12/31 ومَرَّ على آثارها دبرَانُها كصاحب ردءٍ كُئِيت خيله خُلُفاً

وكذلك الشعري تعبر على فرس ومعها المرزم كالفرس الجنيب ،
فيخترق الركبُ المجرةَ كأنه تهيبُ نثرة الأسد وقد تعلق به السماكان يرومان
قتله ، إلا أن الأعزل منهما لا قبل له به فصار يقضم إصبعه حسرةً :

13/31 وأقبلت الشعري العُبورُ مكبَّةً بمرزَمِها اليعُوبُ تجنُّبه طِرفاً

14 وقد بادرتها أختها من ورائها لتخرقَ من ثنْيٍ مجرتَها سِجْفاً

15 تخافُ زئيرَ الليثِ يقدِّمُ نثرةً وبرَّيرَ في الظلماءِ ينسِفُها نسفاً

16 كأنَّ السماكين اللذين تظاهرا على لبدتيه ضامنانِ له حتفاً

17 فذا رامحٌ يهوي إليه سنانهُ وذا أعزلٌ قد عضَّ أنمله لهفاً

ويواصل التعداد والتفصيل ، كأنه فلكيُّ يلقي درساً أمام خريطةٍ من
السماء بنجومها ، ولكنه يزيل هذا الوهم بسلسلة « كأن » التي تبدأ بها الأحد
عشر بيتاً الموالية : فاداة التشبيه تُرجعُها إلى الأدب والفن والخيال ، فنجم
الرقيب كالنسر يرقب من وكره الأفق ، أو ينقي ريشه ، وينات نعش كما يدل
اسمهن طباء يحملن رشاً ميتاً إلى قبره :

18/31 كأنَّ رقيبَ النجم أجدلُ مرقبٍ يقلِّب تحت الليل في ريشه طَرفاً

19 كأنَّ بني نعش ونعشاً مطافِلُ بوجرةً قد أضللن في مهمٍ خِشفاً

وقد لمَحنا عرضاً إلى ضربٍ من المحسنات المعنوية ، وهو أن يستخدم
الاسم الاصطلاحي في حقيقته اللغوية ، فيتناسى الشاعر أن ذلك الاسم فقد
صفته المجازية وصار بمثابة العلم أو الاسم العادي ، إلا أنه يرجعه من جديد
إلى الحقيقة ويستعمله استعمالاً مجازياً ، كما يفعل المتنبي مثلاً بعبارة
« جناح » الجيش فيستخرج منها « الخوافي والقوادم » وقد أخذ الجناح - وهو

مجاز - مآخذ الحقيقة فذكر لوازم الريش⁽¹⁾ . وإلى مثل هذه الطريقة يجنح ابن هانيء في ذكر النجم الرامح فيجعل له رمحاً على الحقيقة ، والنجم الأعزل فيجردّه من السلاح ، والرقيب على مرقبته وبنات نعش يحملن نعشاً الخ . . . ولا شك أن هذه الطريقة ، إذ تعود بالمجاز - الذي أصبح بالتداول حقيقة - إلى المجاز ، فيها شيء من الطرافة ، على شرط أن لا تكون مسترسلة دائماً .

ونلاحظ أيضاً في البيت العشرين ذكر « وجرة » وهي بادية في جزيرة العرب ، مع أن المفروض أن صاحبنا يصف ليلاً مغربياً ، ولا المغرب ولا إفريقية يخلوان من الصحارى والبوادي والظباء . إلا أنه الرصيد الثقافي يعمل عمله في الذاكرة ، وسيكون لنا فيه حديث .

ثم يأتي دور سهيل في انفراده ، والسَّهْيا في فتوره ، ومعلّى القطب بين رأيته، والنسر الواقع ، فيجردّ منه صورة الريش المقطوع فلم يقدر على الطيران ، أما أخوه فقد صعد إلى القمر فاقتطع منه شطراً ، وبذلك فسّر صفتي الواقع والطائر :

- | | | |
|-------|---|---|
| 20/31 | كَأَنَّ سُهَيْلاً فِي مَطَالَعِ أَفْقِهِ | مُفَارِقِ إِلْفٍ لَمْ يَجِدْ بَعْدَهُ إِلْفاً |
| 21 | كَأَنَّ سَهَاها عَاشِقٌ بَيْنَ عُرُودٍ | فَأَوْنَةً يَبْدُو، وَأَوْنَةً يَخْفَى |
| 22 | كَأَنَّ مَعْلَى قَطْبِها فَارَسُ لَهُ | لِوَاءِانِ مَرْكُوزَانِ، قَدْ كَرِهَ الزَحْفَا |
| 23 | كَأَنَّ قَدَامِي النَّسْرِ، وَالنَّسْرُ وَاقَعُ | قُصَصُنْ، فَلَمْ تَسْمُ الْخَوَافِي بِهِ ضَعْفَا |
| 24 | كَأَنَّ أَخَاهُ حِينَ دَوْمٍ طَائِراً | أَتَى دُونَ نَصْفِ الْبَدْرِ فَاخْتَطَفَ النِّصْفَا |

ويختتم المشهد بعودة إلى القتال بين الليل والنهار ، فقد انهزم الظلام فترنّج كالسكران ، ثم لاذ بالفرار أمام عسكر الفجر ، إلا أن الشاعر في هذه المرة مثّل للمقابلة المعهودة بين البياض والسواد بصراع بين قائد تركي -

(1) في بيته المعروف :

ضَمَمْتُ جَنَاحَهُمْ عَلَى الْقَلْبِ ضُمَّةً تَمُوتُ الْخَوَافِي تَحْتَهَا وَالْقَوَادِمُ

والأتراك بيضٌ - وقائد حبشي :

26/31 كأنَّ ظلامَ الليل إذ مال ميلاً

صريعُ مُدام بات يشربُها صرفاً

27 كأنَّ عمودَ الفجر خاقانٌ عسكر

من الترك، نادى بالنجاشي فاستخفى

التشبيه المقلوب

بعد هذه الأبيات التي يتضمن كل واحد منها تشبيهاً في شكل صورة أو افتراض، يصل الشاعر الى المدح، مباشرة دون تدرج في التخلص. ولكن هذا الانتقال السريع ليس خاصية المولدين أو المحدثين، فقد يوجد عند القدماء أيضاً، وإن كان النقاد المنظرون يفضلون التخلص التدريجي. وقد بدأ شاعرنا بيت التخلص أيضاً بـ « كأن »، فهل اعتبر تكرار الأداة تخلصاً كافياً؟

إلا أن الأهم في البيت هو التشبيه المقلوب، فلواء الشمس، وقد انتصرت أخيراً على الظلام، هو الذي يشبه وجه الممدوح وقد تلالاً حين أبصر بعدوه :

28/31 كأنَّ لواء الشمس غرَّة جعفر رأى القرن فازدادت طلاقته ضعفاً

ومعلوم أن التشبيه المقلوب من الأساليب المخبوءة عند البلاغيين، لما يرون فيه من تقوية للمماثلة وتأكيد على وجه الشبه، بصورة تجعل الأمر المتحدث عنه أعظم في الصورة المقصودة من المثل الذي يتخذ عادةً معياراً لها. وشاعرنا يجنح كثيراً الى هذا التوكيد كأن يدعي أن البحر هو الذي يشبه الممدوح في جوده : [متقارب]

11/50 فأنشبهك البحرُ إن قيل : ذا غِطَمَ ، وهذا جوادٌ خِصَمَ

والتوكيد والتقوية يجزان عادةً الى الغلو، مثلما وقع في البيت التالي

الذي اشترك فيه التشبيه المقلوب مع المبالغة : [كامل]

29/53 لو كان في الطوفان جودٌ يمينه لم يُنَجِ نوحاً فُلُكُه المشحونُ

وهنا قد خَفَّف المبالغة بحرف الافتراض ؛ ولكنه لا يلتبس دائماً مثل هذا التخفيف ، كأن يدَّعي أن جيش الممدوح غطى البحر بأسره : [كامل]
37/9 حتى إذا غَمَرَ البحارَ كتاباً . . .

فلا تكفيه هذه المبالغة فيضيف افتراضاً لعلّه أقرب الى التفكه منه الى الجذ ، وهو أن هذا الجيش لو شرب كل واحدٍ من أفرادهِ قطرة من البحر لَنَفِدَ ماؤه وجف :

... لو يرتشِفُنْ أجاجها لأميحا

وأداة الشرط « لو » ، بوضعها الدلالي الذي جعلها « حرف امتناع لامتناع » ، أي تدلّ على صعوبة - بل استحالة - تحقيق الافتراض ، تسمح للشعراء بأنواع من المبالغة المشروعة ؛ فهذا المعز يتصرّف في الحفظ والأعمار حتى لكأنّه قادرٌ على إحياء الموتى :

22/9 نَعَشَ الجدودُ فلو يصفاحُ هالكاً ما وسَدَتْهُ يد المنون ضريحاً

ولكنّه يستغني أحياناً عن أداة التخفيف هذه ، فتأتي الفكرة غريبة بل ممجوجة : كأن يبرّر عُذوبة التقييل بحلاوة الأفواه ، وحلاوتها مكتسبة من ذكرها لخصال الممدوح : [كامل]

30/6 قد طيبَ الأفواءَ طيبُ ثنائِهِ مِن أجلِ ذا نجدِ الثغورِ عذاباً

ولا شك أن هذا الإفراط في التخيّل وهذا الالتواء في التعبير عن الفكرة كانا محبّبين لدى الجمهور الذي يروج بينه هذا الشعر ، لا فرق بينه وبين جمهور بغداد أو حلب . فقد دخلت الصنعة الى المغرب أيضاً والأندلس ، وصارت من العادات والتقاليد التي يتبارى الشعراء في أتباعها وفي توسيعها .

بهذا الميل الى التكلّف نفّسَ اعجاب النقاد طيلة عصور وعصور بهذا التشبيه الذي يبعث على الضحك ، حتى مع العلم أن العقرب هي خصلة الشعر :

وكانَ صفحةً خديّه وعذاره تُفاحه رُمِيَتْ لتقتلَ عقرباً 46/4

الجناس

تتجاوز الصنعة حيّز التصوّر والخيالات إلى حيّز اللفظ ، فيختار الشاعر الكلمات التي يتكرّر فيها جرسٌ ما ، قصد إحداث وقع خاصّ في نفس السامع ، كالإكثار من حروف الإطباق للإشعار بضرب الطبول ونحوها ، أو من حروف الصفير للإيحاء بصلصلة السيوف . ذاك هو الجناس المستحبّ الذي يرمي الى تعزيز المعنى بالأصوات المناسبة والأجراس التي تخدمه . ولكن هيهات ، سرعان ما تركّوا هذه الغاية وصاروا يقصدون الجناس لذاته ، في نوع من البهلة اللفظيّة ، خصوصاً إذا ما وافقت المجانسة الخطيّة مجانسة الأصوات : [طويل] .

ترفّع عنا سجنه فكأنّه يُحيي يئخي صُبْحَهُ المتبلّجا⁽¹⁾ 15/8

الثورية أو اللبس المقصود

وهو أن يستخدمَ الكلمةَ في مدلولين مختلفين فتذهب النفس الى أحدهما مع أن الشاعر أراد الآخر ، مثل الأزواجيّة الحاصلة في كلمة « جفن » ، أهو جفن العين ، بقرينة الماء ، أي الدمع ، أم جفن السيف ، بقرينة السلم والأعناق [طويل] :

تُرَشِّفُهَا في السلم ماءً جفونها فتجزأ عن ماءِ الطلى والبادل⁽²⁾ 36/42

(1) يحيي مضارع خي ويحيى ابن حمدون هو ممدوحه .

(2) تجزأ عن : تغني أو تستغني عن . . . والبادل ج بادرة صفحة العنق .

فتوجّه البيت الى فهمين ممكنين : السيوف تشرب دموعها كمدًا ،
وكمدًا ناتج عن قعودها عن المعارك . أو هي تشرب دم أعمادها ، انتقاماً
لنفسها من بطالتها التي أثقلتها .

وبعد ، هذه النماذج من الصنعة ينبغي أن لا تحملنا على حشر ابن
هانيء في مدرسة البديع وجعله من أتباع أبي تمام وابن المعتز لا غير . فالتأني
في التعبير والتلطف في تجديد الفكرة ليسا وليدَي القرن الثالث / التاسع ، بل
حتى الجاهليون كانوا يسهرون ويقلبون ويحورون حتى يستوي لهم « الحوليُّ
المحكَّك » ، ويزعم ابن هانيء نفسه أنه جعل هؤلاء القدماء نصب عينيه
فصاروا عنده المثال الذي يُحتذى . على أن إكثاره من هذه الأساليب
والمحسنات يخرج عن صف شعراء الفطرة والعفوية ويقربه من شعراء التعمّل
والصنعة .

الازدواج داخل البيت

هو ضرب من الموازنة بين الصدر والعجز يفضي الى تقسيم البيت إلى
وحدتين معطوفتين متوازيتين في عدد الكلمات وموازينها ، متماثلتين في
المعنى أو مختلفتين . ويسميه البلاغيون « ردّ الأعجاز على الصدور » . وهو
امتداد للقاعدة العروضية التي توجب استقلال البيت عن سابقه وعن لاحق .
فالاستقلال هنا يلحق الشطرين أيضاً ، فيختلفان أو يتشابهان في المعنى ،
ولكنهما يتساويان في الكمية الصوتية : [رمل]

7/14 فلقد ذُكرَ مَنْ كان سهاً ولقد نبّه مَنْ كان رَقْدَ

6 فإذا ما كدّر العيشَ نَمًا وإذا ما طيّب الزادَ نَفِذَ

وقد يؤكّد الشعراء على المماثلة فيجعلون للصدر قافية كما للعجز . ألا
أن القاعدة المتبعة هي أن لا تتماثل القافية في الضرب والعروض الا في مطلع
القصيد . ولكنّ القدامى كانوا يتصرفون بحرية ، فربما صرّعوا البيت - أي

جعلوا لشطريه نفس القافية - في داخل القصيدة ولا يصرّعون مطلعها . وقد ساق ابن رشيق منه نماذج عند الجاهليين والإسلاميين⁽¹⁾ .

هذا النوع من التصريع هو النوع البسيط المتداول . ولكن الشعراء تفتنوا وأغرّقوا فقسّموا البيت ، لا إلى وحدتين متوازيتين فقط ، بل إلى ثلاث وحتى أربع وحدات ، وختّموا كل وحدة أحياناً بقافية مماثلة للقافية الختامية ، وابتهج أهل الصنعة بهذا الاكتشاف فرحبوا به وأطلقوا عليه اسم « التصريع » . وعند شاعرنا نجد منه أنواعاً ، من التقسيم الثنائي كما رأينا ، الى الثلاثي : [كامل]

15/53 والزاعبئة شُرْع ، والمشرف يّة لَمْع ، والمقربات صفوف⁽²⁾
الى الرباعي : [طويل] .

16/3 فؤادك خفاق ، ووكرُك نازح وروضك مطلول ، وبأنك مهضوب
وحتى السداسي ، مثلما في هذا البيت الذي يحكي بتقطّعه سرعة الحركة في أذني الفرس : [كامل]

15/30 فتقدّما وتنصّبا وتذلّقا وتلطّفا وتشرفا وتحرفا
ولا يكون النجاح حليفه دائماً ، بل يتورّط أحياناً في أبيات لا قيمة لها إلا التراكم المعجمي الذي يضطرّه اليه طلب القافية الداخلية : [كامل] .

19/45 وعوابس وقوانس وفوارس وكوانس وأوانس وعقائل⁽³⁾

والتنوع يلحق المعاني أيضاً فربّما كان العطف بين الوجدتين يحمل مقابلةً كالمقابلة بين حالتي الحرب والسلام عند المعزّ ، الا أنّهما حالتان تشابهان في أمر : السيول من الدم ، دم الأعداء أو دم الأضاحي : [طويل]

(1) العمدة 175/1 . قال في الغرزدق : وكان قليلاً ما يصرّع او بلفي بالاً بالشعر .

(2) الزاعبئة الرماح . والمقربات هي الخيل .

(3) القوانس : الأسنة . الكوانس : الظباء في كناسها .

25/3 فان تك حربٌ ، فالمفارقُ والطلّي وإن يك سلم ، فالشوى والعراقيبُ⁽¹⁾

أو ترميان الى نفس النتيجة ، كبيان عتق خيل المعزّ : [متقارب]

ومن رفقها أنها لا تُحسّ ومن عذوها أنها لا تُرى 23/58

هذه الأساليب تُعجب النفس إذا وردت لمأماً بين الفينة والفينة ، وإذا رمث الى غرض معنويّ فحقّقته . أمّا إذا كثرت وتكرّرت واقتصرت على الرياضة اللفظيّة والبلهنة العروضيّة ، فانها تستثقل وتمجّها النفس . هذا ما عبّر عنه أبو هلال العسكري بعد أن نقل نماذج من الترصيع المكروه عند القدماء كالخنساء وأبي صخر الهذليّ⁽²⁾ . وهذا ما يقع فيه صاحبنا أحياناً : ففي القصيدة الخمسين مثلاً ، صرّع ورصّع خمسة وعشرين بيتاً - من خمسة وسبعين - أي ثلث القصيدة !

لغة الشاعر . طلب الغريب

نبّه المرحوم زاهد علي ، شارح الديوان ، الى بعض المفردات من قاموس الشاعر « غير مقيّدة في كتب اللغة المتداولة⁽³⁾ » فأحصى منها ثلاثين كلمة . وهي في الحقيقة كلمات عربيّة ، وأوزانها توافق أوزان الصرف والاشتقاق ، إلّا أن المدلول الذي يسنده اليها الشاعر يخرج عن المتعارف ، مثل « التاح » - افتعل من لاح يلوح - في معنى المجرّد ، أو « استبدّ » في معنى : وَجَدَ بَدْءاً مِنْ كَذَا ، أي وجد مخرجاً ، فـ « لا نستبدّ » في البيت التالي تعني عنده : لا نجد حيلة : [متقارب]

(1) الشوى : أطراف البدن .

(2) الصناعتين 392 . قال : « وقد تعايط نَفَرٌ من القدماء [هذا النوع] فظهر فيه أثر التكلّف ، وبان عليه سمة التعمّف » . وعرف الترصيع بقوله : « أن يكون خَشُو البيت مسجوعاً » .

(3) تبيين المعاني ص 59 من المقدمة .

91/14 كلنا نبشع من كأس الردى غير أنا لا نرانا نستبد

وهي نماذج ، إن صحّ شذوذها في المعنى - وهذا يقتضي بحثاً مدقّقاً مطوّلاً في لغة الشاعر ومقاييسها الصرفيّة مع مقارنتها بالعُرف المَعْجَمِيّ - تدلّ على أنّ ابن هانيء ، مثل كلّ المبدعين ، لا يتهيب الابتكار الجريء وخلق المدلولات التي لم تدوّنها المعاجم .

ولكنّ الغريب الذي نقصده هو الكلمات المهجورة لثقل جرسها ونبوّ حروفها مع صحّة انتسابها الى لغة الضاد ، كأنّ الشاعر ، وقد أراد أن يفرض نفسه في جميع الأغراض والأساليب التي اشتهر بها القدماء ، تعتمد نوعاً من « التمارين الأسلوبية » فأخذ نفسه بصنع شعر بدويّ . وقد فاته أنّ شعراء الحماسة والهدليّين وأصحاب المعلقات لم يعمدوا الى معتاص اللفظ ولم يقصدوا اليه قصداً ، بل كثيراً ما يأتي كلامهم سلساً مقبولاً محبوباً مع الجزالة والدقّة . وصاحبنا لا يكتفي بالكلمة الواحدة ، بل يثقل البيت بالثنتين والثلاث ، فيستغلق الفهم وتشمئزّ الأذن : [طويل]

1/47 أصاغت فقالت : وقع أجرد شيطم وشامت فقالت : لمع أبيض مخذم

مما دفع ابن رشيق الى الاستنكار فضمّ شاعرنا الى « أصحاب الجلبة والقعقة بلا طائل معنى ... وليس تحت هذا كلّه الآ الفساد ، وخلاف المراد » ويأسف لترك ابن هانيء السليقة وجنوحه الى التكلّف فيضيف : « إذا عمل بطبعه وعلى سجيّته ، دخل في جملة الفضلاء . وإذا تكلّف الفخامة وسلك طريق الصنعة ، أضرب بنفسه وأنعب سامع شعره⁽¹⁾ » .

ولا شكّ أن الطبع خانّه ، والذوق خالفه ، حين نظم قصيدتين على رويّ الثاء والخاء ، فالتمس لهما القوافي فاضطرّ الى تجريد المعاجم من موادّها المختومة بهذين الحرفين ، فانتقى من الثاء أربعاً وعشرين مادّة - من

(1) العمدة 1/125 .

التسعين التي تذكرها المعاجم - واختار من الخاء ثلاثاً وأربعين من مائة وأربع عشرة ، أي اضطرَّ الى استعمال ثلث المادَّتين تقريباً ، ولم يعصمه الانتقاء من الوقوع في الحوشي النابي كالفرع الجُثاجِث ، أي الشعر الكثيف : [طویل] .

29/7 تورَّعت عن دنياك ، وهي غريرةٌ لها مبسمٌ بَرْدٌ وفَرْعٌ جُثاجِثٌ

أو الطخطخة ، في معنى ظلام الليل أو ضعف البصر : [طویل]

45/11 رجالٌ أضلُّوا رائداً فهذيتُم وجَلَّيتُم عنه الغمَاء وطَخَطَخُوا

الرصيد الثقافي المشترك

إنَّ تعلَّق ابن هانئ بالبداوة لا يتمثل فقط في شغفه باللفظ الجزل والكلمة القويَّة وحتى الحوشية، وإنما يتعدى أيضاً الى العادات العربية والتقاليد الجاهلية ، والأعلام المشهورين بشجاعتهم أو حلمهم أو كرمهم ، وأسماء الأماكن التي ردَّدها الشعراء القدامى ، وحتى أعلام الخيل والإبل . هذا علاوة على التقاليد الأدبية التي صارت بكثرة التداول قواعد راسخة ، كالوقفة الباكية على الأطلال ، والرحلة المضنية الى الممدوح ، في حرِّ الهجير ومخاطر الوحوش .

وقد سقنا، أثناء دراستنا لمقدمات قصائده في الفصل السابع، نماذج كثيرة من هذا الذي نسميه الرصيد الثقافي لكل عربي له نصيب من العلم والمعرفة ، وقد قيل ان الثقافة هي ما يتبقى في أغوار النفس بعد أن ينسى المرء كلَّ ما تعلَّمه . والعلم الذي يتلقاه الطالب العربي كان الى عهد غير بعيد يُستمد من « الميثولوجية » الجاهلية والإسلامية ، أي من روايات أيام العرب وأمجاد القبائل وشجاعة المجاهدين الفاتحين ، وقيم الشعراء الفرسان والمثل العليا السائدة عند شيوخ العشائر ، حتى صارت أسماء حاتم أو كعب بن مامة

أو هرم بن سنان أو كليب وائل أو بسطام بن قيس أعلاماً مندمجةً في الرصيد اللغوي ، كأنها رموز للكرم والشجاعة والعزة⁽¹⁾ . فإذا صار الشاعر أو الكاتب الى مدح جوادٍ ذكر بصفةٍ آلية حاتماً أو هرمأ ، وإذا أراد تمثيل الشجاعة استحضر في الحال صورة عنترة أو خالد العامري ، مثلما أنّ الشاعر المتغزل إذا ما وصف تثنّي محبوبته مثل قوامها بغصن البان ، وقد لا يعرف ما هو البان ولا رآه قط .

وليست هذه الصور الجاهزة ، أو « الكليشيات » كما يقولون استهجاناً ، ليست خاصةً بالحساسية العربية . فالمثقف الأوروبي يستحضر أيضاً بصفة شبه آلية الرصيد الإغريقي - اللاتيني الذي تلقاه في دروس « الإنسانيات الكلاسيكية » . بقي أن الفرق بينه وبين المتأدب العربي القديم يكمن في أنّ الفرنسي أو الإيطالي قد يستحضر أيضاً بطولاتٍ محلية فرنسية أو إيطالية أو إسبانية ويراجع تاريخ بلاده وأمجاد وطنه . أما الإفريقي في القرن الرابع وحتى بعده ، أما المغربي وحتى الأندلسي ، فلا يحيل ذاكرته إلا الى الموروث الثقافي فإذا رام تشبيه رصانة الممدوح وحلمه لم يتجه الى الجبال القريبة منه ، بل الى جبل رضوى الحجازي أو متالع الطائي . وإذا أشاد ابن هانيء بعظمة السفن المعزّية ، المنشآت في البحر كالأعلام ، فالعلم الذي يتبادر الى ذهنه ليس جبلاً مغربياً ، بل هو ككبك المحاذي لعرفات : [طويل]

39/13 وليس بأعلى ككبك ، وهو شاهقٌ وليس من الصّفاح ، وهو صلودٌ
وإذا عظمّ مناعة الحصن الذي افتتحه جعفر ، مثله بحصن السمؤال
وحول جبال كيانة الى بادية تيماء في جزيرة العرب : [طويل]

1/16 بلى ! هذه تيماء ، والأبلق الفردُ فسل أجمات الأسد ما فعل الأسد !

(1) انظر في هذا الصدد تحقيقنا للقصيدة الغزالية في الحواريات 1973/10 . وكذلك دراستنا لأدب أيام العرب : الحواريات 1980/20 .

والخيل لا تكون إلا من سلالة ذي العقال وأعوج : [كامل]

25/24 من آل أعوج والصريح وداحس فيهن منها ميسم وإنجار
وكذلك الحبيبة ، أسماء أو هند أو أروى ، لا تكون إلا أزدية مثله أو
طائية متمنعة أو عدوية شامخة .

ولسنا نعيب على الشاعر المغربي انصرافه عن محيطه ولا نتهمه بخيانة
وطنه ولا نرميه بالمسخ الثقافي ، فهو يستحضر ما لقته ويرجع ما أعطيه ويعتبر
أنه يؤدي أمانة إلى أهلها ، والأهل هم كل الشعوب التي تغطيها الثقافة
العربية - الإسلامية . ولعله إن هو ذكر جبلاً بفريقية عوضاً عن يذبل ، أو نهراً
مغربياً بدلاً من الفرات أو النيل ، حكم على شعره بالمحدودية الإقليمية
الضيقة وصرفه عن الرواج وأغلق في وجهه الأفهام .

الميل إلى الأقدمين

اعتماداً على هذه الأزواجية بين القديم والحديث في شعر ابن هانئ ،
قد نكون محمولين على وضعه في منزلة وسطى بين مدرسة الجاهليين ومدرسة
المولدين أصحاب الصنعة . هذا بالرغم من رفضه هو أن ينسب إلى أبي تمام
وأضرابه من بعيد أو من قريب ، فقد أعلن عن ميوله الأدبية في قصيدة أشاد
فيها بفصاحة الممدوح ، فقال إنَّ بيانَ هذا البكري يؤهله أن يكون صنواً لا
للطائيين ولا حتى للفرزدق وجريز ، بل لفحول الأقدمين كعلقمة وامرئ
القيس : [بسيط]

20/60 ثقفتُ منه أديباً شاعراً لسناً
22 مستظلاً لجوابي من بديهيته
23 من لا يفاخر بالطائي في زمن
24 ولا الفرزدق ، والفاخر له
شَتَّى الأعارض محذور الأحاجي
فما يجاوبُهُ مثلُ النواسي
ولا الخزاعي في عصر الخزاعي
ولا جريز ، ولا الراعي النميري

25 لكن بعلممة الفحل الذي زعموا في الشعر، أو بامرىء القيس المراري

وكأنه نسي تقليده لأبي نواس في الرحلة الخمرية وللفرزدق أو عمر في المغامرة الغزلية . ولكن هذا التناقض معروف عادي عند من يصدر عن الشعراء والبيانات دون أن يوائموا بين المبادئ الطئانة وواقع تجربتهم الشعرية .

ويعود الى الإعلان عن عجب بهم من الشعراء السابقين فيطرح الحجازيين وشعراء القرن الأول من حسابه ، ولا يرتضي قرناً له إلا عبید بن الأبرص : [كامل]

43/25 صنع يؤلف من نظام كواكب طلعت لغير كثير والأحوص
متبلجات قيل في أزديةها ما قيل في أسدية ابن الأبرص
وحتى إن بدا منه بعض الترفع عن شاعر جاهلي كما في هذا البيت :
[متقارب]

28/58 ومن أجل ذلك لا غيره رأى الغنوي بها ما رأى
29 وكان يجيد صفات الجياد وإن بها اليوم عنه غنى
فإنما هو ترفع في الظاهر فقط ، فالتخريج الصحيح يبقى لطيف صفته
البارزة وهي الإجابة في وصف الخيل والإطلاع على كل خصالها ، إلا أن
المعز أيضاً بها عارف وعليها عطوف فصارت في غنى عن الغنوي .

ابن هانيء والمتنبى

هذا موقف صاحبنا من شعراء صدر الإسلام والقرن الثالث ، وهذا إعجابه العلني بالفحول الأقدمين . أما موقفه من معاصره الكبير ، أبي الطيب المتنبى ، فلا يخلو من غموض كما سرى بعد قليل . وإن ما يتفق فيه من

إجادة في المدح وغلو في المعاني ومثانة في التعبير وتوسع في الخيال ، حمل النقاد وأصحاب المختارات الى المقارنة بينهما ، بل جاوز بعضهم المقارنة فاختلفوا أو تخيل لقاء بين الشعارين على شواطئ قابس⁽¹⁾ . فالتشابه في الأغراض والأسلوب مبرر أول للمقارنة بين شاعر سيف الدولة وشاعر المعز ، ولكن المبرر الحقيقي هو ميل المشاركة الى اعتبار أنفسهم أوصياء ثقافيين على المغرب ، وشعور المغاربة بأنهم مدينون للمشرق ، وهو منبع الثقافة العربية الإسلامية ، بكل ما لقنوه وحفظوه . وهكذا فعبارة « متني الغرب » التي أطلقت على صاحبنا قد تؤول بتأويلين : تأويل الاستعلاء إذا كان أول الناطقين بها مشرقياً ، وذلك بجعل المتنبي في موقع المشبه به ، أي المعيار الذي يقاس عليه والمثال الذي يحتذى . أو تأويل الغيرة والمنافسة إذا كانت العبارة صادرة عن مغربي ، فكأنه يباهي المشرق بهذا الشاعر الذي وصل إلى مرتبة شاعرهم الكبير رغم اختلاف البيئة وحدائقة السنّة الثقافية وعجمة المحيط الخ . . . وعلى هذا النمط يمكن أن نبرّر أيضاً التماسهم نظيراً للبحرّي تارة في ابن درّاج القسطلّي وأخرى في ابن زيدون القرطبي وحتى في عليّ الإيادي التونسي . هذا الاستعلاء المشرقي قد مثّلته قوله صاحب بن عبّاد حين تصفّح كتاب العقد الأندلسي فقال ، مثل إخوة يوسف : ﴿ هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾⁽²⁾ . أمّا الشعور بالنقص والتبعية عند المغاربة فلم يطل ، بل سرعان ما انقلب الى اعتزاز بالأمجاد المحليّة وتعلّق بفضايا الأندلس كما يظهر من كتابات ابن حزم وابن بسّام والشقندي ؛ وتتخذ المباهاة أشكالاً فكهة كتفضيل لسان الدين نهر الشّنبيل الغرناطيّ على النيل المصري ، لأنّ حرف الشّين في حساب الجمل يساوي ألفاً⁽³⁾ فأصبح للأندلس ألف نيل ! وقریباً منا ، فضّل بعض شعرائنا نهر مجردة على النيل لا لشيء إلا لأنّ النهر التونسي خلّو من التماسيح ، فالسباحة فيه آمنة⁽⁴⁾ .

(2) يوسف ، 65 .

(1) شذرات الذهب لابن العماد 42/3 تحت سنة 362 .

(3) إحاطة نشرة عنان 124 و 341 .

(4) ولعلّ شاعرنا أخذ الملحّة من نفح الطيب 308/1 (الرفاعي) : « ونهرها نيل بلا تمساح ! » .

ومهما يكن من دوافع هذه المقارنة بين ابن هانيء والمتنبي، فإن عبارة المماثلة هذه - وهي من كلام ابن خلكان في الأصل - قد أسيء نقلها وأسيء فهمها . فصاحب الوفيات اكتفى بأن قال: « وهو عند المغاربة كالمتنبي عند المشاركة » فقارن بين منزلة الشاعرين كلَّ عند قومه ، لا بين الشاعرين ولا حَكَمَ بينهما ولا قابل الواحد بالآخر . ولكنَّ العبارة نفقت وراجت حتى صار ابن هانيء يدعى متنبي الغرب وبقي هذا اللقب لاصقاً به الى اليوم . ولكن لندرس بالتدقيق موقفه من صنوه أو منافيه !

القصيدة الحادية والعشرون في المتنبي

لقد لَفَتْنَا النظر، بعد قارئاً - قومث، إلى أهمية هذه القصيدة، لتحديد موقف ابن هانيء من أبي الطَّيِّب. وظروف نظمها مذكورة في التوطئة، ومفادها أنَّ الشاعر استعار من أديب إفريقيّ نسخة من ديوان المتنبي مصحوبة بشرح ولكنه أبطأ في إرجاعها وماطل، فغضب صاحبها واقتضاه بلهجة عنيفة. فنظم الشاعر الأبيات، يلومه على إساءة الأدب ويتهكَّم بقصوره عن فهم شعر المتنبي فضلاً عن شرحه . والقصيدة بعد هذا لا تخلو من غموض، وكثير من أبياتها يضطرُّنا إلى التأويل والافتراض .

يبدأ الشاعر بالإشارة إلى علو صيت الشاعر بإفريقية، ولكنه صيت مبنّي على سو فهم لشعره، واندفاع نحو الشهرة العابرة . أما هو، فلا يرسل الأحكام جزافاً واعتباطاً ولا ينساق مع الهوى السائد : [بسيط]

1/21 تنبّه المتنبي فيكم عُصُرا ولو رأى رأيكم في شعره كفرًا⁽¹⁾
 2 مهلاً ! فلا المتنبي بالنبي، وَلَا أَعُدُّ أمثاله في شعره السُورَا
 ثم يستغرب ادّعاء الخصم أنه لَقِيَ المتنبي وأخذ عنه الديوان مشافهةً ،

(1) اخترنا قراءة « تنبّه » عوض « تنبّا » وقد وردت القراءتان في النسخ .

مع أن الشرح الذي صنفه لا يخدم قط شهرة المتنبي نظراً لما فيه من تحريف للفظ والمعنى ، ومن تخريجات مضحكة :

- 3/21 تَهْتُم علينا بمرآه، وعلكم لم تدركوا منه لا عيناً ولا أثراً
4 هذا ، على أنكم لم تنصفوه ، ولا
5 ويلمه شاعراً أحملتُموه ، ولم تغلوا له عندنا ذكراً ولا خطراً
6 فقد حملتم عليه في قصائده ما يضحك الثقلين ، الجن والبشرا
7 صفحتُم اللفظ والمعنى عليه معاً في حالة ، وزعمتم أنه حصراً
8 إذ تقسمون برأس العير أنكم شافهتموه ، فهل شافهتم الحجر؟

ويؤكد على جهل هذا الشارح المدعي العلم ويسخر من شرحه المزعوم الذي كان يشي المتنبي عن قول الشعر ويزهده فيه لو قرأه :

- 9/21 فما يقول لنا القرطاس وملككم؟ إننا نرى عظة فيكم ومعتبراً
10 شعراً أحطتم به علماً كأنكم فاوضتم العير في فحواه والحُمراً
11 فلو أصاخ اليكم سمع قائله ما بات يعمل في تحبيره الفكر⁽¹⁾
12 أريتموني مثلاً من روايتكم كالأعجمي أتى لا يفصح الخبراً

ثم يذكر أنه سهر عليه الليالي - على الشرح في رأينا - يصلح ويقوم ويصوب، حتى كاد يستوي شرحاً مقبولاً، فإذا بالخصم يتقاضاه في إلحاح وعنجهية :

- 13/21 أصم أعمى ، ولكني سهرت له حتى رددت اليه السمع والبصر
14 كانت معانيه ليلاً فامتعضت له حتى إذا ما بهرن الشمس والقمر
15 ضجرتُم ، وأتانا من ملامكم ومن معارضكم ما يشبه الضجراً
16 ترى رسائلكم فيه ورسلكم إذا أتت زمراً أردفتُم زمراً

(1) في جميع النسخ : لو يصيخ ، ولا يستقيم المضارع مع الإشارة في البيت 18 الى أن المتنبي مات . فلذلك حولنا الفعل الى الماضي . على أن هذا الإصلاح لا يعين الافتراض ضرورة للزمن الماضي .

- 17 فلو رأى ما دهاني من كتابكم وما دهي شعره منكم ، لما شَعَرَ
18 ولو حرصتم على إحياء مُهَجَّتِهِ كما حرصتم على ديوانه ، نُشِرَا

فاضطرَّ إلى إرجاعه برمته - بعد أن حاول استبقاء أجزاء منه لمزيد من الشرح ؟ - فبقي منقوصاً مشوّهاً ، وعلى كلّ حالٍ ، ما كان الخصمُ لينتفع به نظراً لضعف بصره بالشعر وسطحية تفكيره وفساد ذوقه :

- 19 هُبُوا الكتاب رددناه برمته فمن يردّ لكم اذهانكم أحرًا ؟
20 لئن أعدتُ عليكم منه ما ظَهَرَ فما أعدتُ عليكم منه ما استترَا
21 أعرتُموني نفيساً منه في آدمٍ فَمَنْ لكم أن تعاروا البحث والنظرًا!!؟

هذه القصيدة تدفعنا الى استخلاص الملاحظات التالية ، وقد سبق قارئنا - قوميث الى البعض منها :

1 - أن ديوان المتنبي قد وصل الى افريقية مبكراً ، في حياة الشاعر أو بعد وفاته (965/354) بقليل .

2 - أن الأوساط الأدبية بإفريقية تعلّقت بالديوان وطلبت له الشروح وأعجبت بصاحبه ، وربما زهدت بالتالي في الشعراء المحليين ، ومن بينهم ابن هانيء .

3 - أن شاعرنا ، رغم تحفظه إزاء شهرة المتنبي ، قد سهر الليالي في دراسة شعره وربما اعتزم أن يؤلف شرحاً على الديوان أو شرع فيه فعلاً ، حسب ما نفهم من الأبيات 13-14 و 19-20 . ولا ذكر لهذا الشرح عند المترجمين للشاعر ، فلعلّه لم يتجاوز حدّ النية والعزم . وعلى كلّ حال ، فإنّ ابن هانيء يعترف بأنّه درس هذا الديوان مدّة طويلة وسهر عليه وعالجّه ظاهراً وباطناً . وفي هذه الممارسة ما قد يفسّر الشبهة الكثيرة الذي يلاحظ في شعر الشعارين ، أي يؤيد فكرة التأثير بالمتنبي ، إن لم نقل تقليد المتنبي .

4 - أن ابن هانيء متذبذب إزاء أبي الطيب : لا يشاطر الناس إعجابهم

المفرط به ، ولا يتجاسر على انتقاصه صراحةً .

5- لعلّ الاهتمام بالمتنبّي المتمثل في هذه القصيدة بالذات ، هو السبب في تلقيب شاعرنا بـ «متنبّي الغرب» ، بقطع النظر عن عبارة ابن خلّكان . فيكون اللقب صادراً عن اعتزاز من المغاربة بشاعرهم وتباً به - لكم متنبّيكم ولنا متنبّينا - وأيضاً عن خوفٍ من منافسةٍ ممكنةٍ من شعراء قادمين من المشرق . وهذا الخوف هو الذي ولّد في نظرنا خرافة اللقاء بين الشاعرين على خليج قابس . وبوادر المنافسة قد تمثّلت في المدحة التي أرسلها الصنوبريّ من حلب إلى جعفر بن حمدون .

6- ليس من السهل أن نبث في مسألة تأثر ابن هانيء بالمتنبّي . فما يلاحظ من تشابه في شعرهما ليس بالضرورة نقلاً أو تقليداً أو محاكاةً ، وإنما هو في بعض القصائد تشابهٌ في المعاني والأغراض تولّد عن تشابه في الظروف والحالات ، كالقصائد الجهاديّة مثلاً : فالخصم هو الروميّ هنا وهناك ، والدافع هو الجهاد ، والرمز هو التوحيد أو الشرك . على أنّ السلاح قد يختلف : فابن هانيء يلجّ في وصف الأسطول والنار الإغريقيّة . أما التشابه في الافتخار بالشاعريّة والشكوى من الحساد ، فليست هذه معاني خاصّة بالشاعرين ، بل لا يخلو شاعر محظوظ عند ممدوح من حساد ومنافسين ، وكذلك الأمر في التأمّلات الحكميّة - تلك التي سمّاها ابن هانيء « أمثالاً » ولم يعتبرها آياتٍ وسوراً - فهي من الرصيد الفلسفي المشترك عند كافّة البشر .

7- لكن ، لا يسعنا إلّا أن نتساءل ، عندما نقف على مماثلةٍ شبه تامّة ، لا في المضمون فقط ، بل وفي العبارة أيضاً كاستخدام صيغة « فَعول » في الأكل والشرب وإسنادها إلى جيش المسلمين عند الشاعرين :

المتنبّي : [طويل]

أغرّكُم طول الجيوش وعرضُها ؟ عليّ شُروبٌ للجيوش أكوّلُ (1)

(1) عليّ هو سيف الدولة ، والخطاب للروم .

ابن هانيء : [كامل]

80/40 حتى إذا ارتعص القنا، وتلمّظت حربُ شروب للنفوس أكلُ... .

أو الاتفاق في وصف جيش العدو بالكثرة والجلبة :

المتنبّي : [طويل]

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه وفي أذن الجوزاء منه زمازم

ابن هانيء : [كامل]

48/40 جاؤوا ، وحشو الأرض منهم جحفل لجبٌ ، وحشو الخافقين سهيل

نتساءل فحسب ، ولا ننتهم صاحبنا بالسطو على معاني غيره . ولا نستبعد على كل حال التأثير بديوانٍ درسه بإمعانٍ .

على أن هناك فرقاً أساسياً بين الشاعرين : ابن هانيء شاعر عقيدة ومذهب ، آمن بالدعوة الإسماعيلية فسخر لها طاقاته ولم يسخرها لغيرهما . أما المتنبّي فشاعر أمراء وملوك متعدّدين مختلفين ، طلب النفوذ والجاه وسخر عبقريته لمدح من همّ دونه ، طمعاً في الوصول إلى مبتغاه فلا قوّة تحرّكه غير الطموح الشخصي .

غنائيّة ابن هانيء

لعلنا ظلمنا الشاعر بإلحاحنا على الجوانب التقليدية في شعره ، كأننا نفينا عنه كلّ حساسيّة ذاتيّة وكلّ طرافة . والحال أنّه ، على الرغم ممّا تضطرّه إليه وظيفته لدى المعزّ كشاعر رسميٍّ للدولة والدعوة ، من كبتٍ لعواطفه واقتصارٍ على ما يروق للممدوحين ، فإنّه يتخلّص بين الفينة والأخرى من كابوس المقولات الرسمية فتبرز على صفحات الأبيات الإحساسات المكظومة ، كالشفقة والرحمة والحسرة . وقد وجدنا من هذه الحساسيّة مثلاً في مدحة جوهر التي تعرّض فيها إلى أسر ابن واسول ومقتل ابنه ، ذلكم

القضيب البانع الذي قطع⁽¹⁾ : [طويل]

45/10 ولا كابينه أذكى شهاباً بمعرك

وأجمع في ثني العنان وأطمحاً

46 مَرَّتْ لك في الهيجاء ماء شبابه

يدٌ فَجَرَّتْ منه جداولٌ سُيِّحَا

47 وأثكَلَتْه منه القضيب تهَصَّرَتْ

أعاليه ، والروضُ المفوفُ صَوْحَا⁽²⁾

هذا الترحم الخافت على الغصن المكسور والروض الذي جفَّ دليلٌ على أَنَّ الشاعر قد تغلَّبه العاطفة فيتكلَّم بقلبه غير آبه لما يكون من ممدوحه من تساؤل أو استنكار .

ولكنَّ الغنائية ليست بالضرورة متنفساً للعاطفة المكبوتة . فحتَّى في الإشادة بخصال الممدوح ، إذا كانت علاقة الشاعر به علاقة ودٍّ صادقٍ وولاءٍ مطلق ، يمكن أن تبرز غنائية من نوع آخر : التعلُّق المتين والخشوع الشبيه بعبادة المؤمن لربه أو خضوع العاشق لمحبوبه ، كما يظهر من هذا الدعاء الذي ختم به آخر قصائده : [طويل]

171/47 فلا برحّت تترى عليكم من الورى

صلاةٌ مُصلٍّ أو سلامٌ مسلمٍ

ومن هذا الالتزام الذي لم تسمح له المقادير بتحقيقه :

182/47 واني، وإن شطَّ المزار، لراجعُ إلى ودِّ قلبٍ في دُراكٍ مخيمٍ

(1) انظر الفصل الخامس ص 162 .

(2) مرى يمرى (باب ضرب) الدم : أجزاء وتهصرت الأغصان : تهذلت وانكسرت وصُوحُ النبث : ييس .

183 بأنصح من جيب المحب على النوى وأظهر من ثوب الحرام المهين⁽¹⁾

الحقد على خصوم الإمام

ومن الغنائية كذلك، الضغينة على أعداء الفاطميين ، وهي كراهية لم يسلم منها حتى الشيبخان أبو بكر وعمر . وقد رأينا في حملته العنيفة على أصحاب السقيفة ومشركي بدر وسفّاكي كربلاء، حقدًا لا يمكن أن يكون مكذوباً مفتعلاً، بل هو صادر عن نفس لا تزال تستفطع التنكيل الذي سلط على آل البيت منذ وفاة الرسول :

144/17 وأولى بلومٍ من أمية كلها
وإن جل أمر من ملام ولوم
145 أناس هم الداء الدفين الذي سرى
إلى رمم بالطف منكم وأعظم
146 هم قدحوا تلك الزناد التي ورث
ولو لم تشب النار لم تضرم⁽²⁾

التهكم بهم

ومن الغنائية أيضاً التندر بالخصوم : المروانيون الذين لا يعرفون من الدماء إلا دم المحيض ، والعباسيون في انحلالهم بين القيان والعلمان وعجزهم عن كل حركة كأنهم لحم على وضم ، والروم الذين دأبوا على تنفيل

(1) جيب المحب هنا قلب وصدرة والرجل الحرام : المحرم والمهين : الذي يناجي ربه بالدعاء الخفي .

(2) انظر الفصل التاسع / 281 - 284 .

المعزّ بالهدايا المتتالية من جيوش وعناد حتى اضطرّ الشاعر إلى حثّ الإمام على قبولها من هذا الدمستق الجواد : [كامل]

46/40 ذَرُّهُ يَجْمَعُ أَلْفَ أَلْفِ كَتِيبَةٍ فهو التَّكْوِيلُ وجمعُهُ المفلولُ
65 وهو الذي يُهْدِي حُمَاةَ رِجَالِهِ نفلاً إليك، فهل لديك قبول؟

التأملاتُ الحكيميةُ

تنطقُ الغنائيةُ أيضاً في الأبيات الحكيمية التي تتخلّلُ المراثي وبعض المدائح، من تساؤل في الحياة والموت ، وشكوى من الدهر وصروفه ، وتحسّر على الشباب الذي يمضي ، وطلع الإنسان أمام نهايته المحتومة . وهي معانٍ معروفة متداولة ، وخاصيةُ الحكمة أن تنطق عن كلّ لسان في كل عصر ومكان ، ولقد سبق إليها فحولُ كليد بن ربيعة وأبي ذؤيب الهذلي . ولا يكتفي شاعرنا بترديدها على وجه تقريريّ ، بل يلتمس لها التمثيل والتصوير ، كما فعل في هذه المشاهد الحيوانية التي تشعر بأنّ الفناء مكتوب على كلّ حيٍّ مهما كان قوياً ومهما اعتصم وتحصّن : [رمل]

66/14 لو مُعافَى من خطوبٍ عوفيّ لِقُوَّةَ بَيْنِ هِضَابٍ وَنُجْدٍ
67 ترتبي مرهوبةً تحسبها كوكب الليل على الليل رَصْدُ
68 تلك ، أو مُغْفِرَةٌ في حالتي تأمنُ الإنسان إذا الوحشُ شَرَدُ
70 ... حيث لا النازلُ معهودٌ، ولا الماءُ مورودٌ، ولا القلْقُ ثَمَدُ
71 تلك، أو وحشيةُ أدمانةٍ انبتت أنقاءَ زملٍ وعَقْدُ
74 ... وهي في ظلِّ أراكٍ مائِدٍ ترتدي المرْدُ إذا ذابَ الوَمَدُ
82 ... تلك، أو أَيْمٌ خفيفٌ وطوهُ يربأُ القُفُّ كُلُّوْهُ مَا هَجَدُ
83 بات يُذْنِي حُمَةً من حُمَةٍ وهو يطوي مَسْدًا فوقَ مَسَدُ
87 .. ذاك، أو جِبَارٌ غِيلٍ أَشْبِ طَرَدَ الأسادَ عنه وانْفَرَدُ

88 نازلٌ كُرسِيَّ أرضٍ، هابَهُ ملكُ الخابل فيها إذ مرَّد...⁽¹⁾

لكنَّ هذه الخواطر ليست بعيدة الغور فلا يوصلها الشاعر الى التساؤل في كبرى القضايا الإنسانية كسبب وجوده في الكون ، ومنزلة أفعاله من حتمية الأقدار ، وازدواجية الخير والشر في الحياة الدنيا . فابن هانيء ليس فيلسوفاً ماورائياً، فكأنه حصر أفاقه العقائدي في الإيمان بالدعوة الشيعية وربط مصيره بالأئمة ، فلا نجاة إلا بهم : [متقارب]

79/58 ليعرفك مَنْ أنت منجأته إذا ما اتقى الله حق التقي
80 كأنَّ الهدى لم يكن كائناً إلى أن دُعيت مُعزُّ الهدى

تدَيُّنُهُ

وهو مع ذلك لم يكن بعيداً عن الدين، فكثير من معانيه وصوره وحتى تعبيره مستمدٌ من القرآن . وقد لا تكون هذه حجةً على إيمانه ، إذ حفظ القرآن ومعرفة علومه جزء لا يتجزأ من ثقافة المسلم ، ولا سيما في العصور المتقدمة . ولكنَّ التضمين القرآني عنده يتكرَّر ويتردَّد بدرجة تنفي أن يكون مجرد استثمارٍ لرصيدٍ موروثٍ . نسَمُّه مثلاً يُقسِّمُ بالعصرِ على ولاته للممدوح : [طويل]

19/18 فلا تسألاني عن زماني الذي خلا
فوالعصر! إني قبل يحيى لفي خسر!

أو يشبه حبَّ المعزِّ للخيل بحبِّ سليمان لها فيضمَّن الحادثة التي رواها

(1) اللقوة أنثى النسر والمغفرة أنثى الزَّغل تيس الجبال والأمانة الطيبة والأيمُ الأفعى وجبار الغيل : الأسد . عدَّد هذه الحيوانات ووصفها في وداعتها أو قوتها أو خبيتها ولكنَّ ذلك لا يعصمها من الموت ولا يعافها من الخطوب . وانظر في عينية أبي ذؤيب مشاهد مماثلة .

القرآن [ص، 31-33]: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعِشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِنَادُ ، فَقَالَ : إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ . رُدُّوهَا عَلَيَّ ! فَنَظَّفُ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ . مع فارقٍ واحدٍ ، وهو أنَّ المعزَّ لا يطيبُ خاطره لمثل هذه التضحية : [خفيف]

39/35 أَنْتَ أَصْفَيْتَهُنَّ حُبَّ سُلَيْمًا نَ قَدِيمًا لِلصَّافِنَاتِ الْعِتَاقِ
40 لَوْ رَأَى مَا رَأَيْتَ مِنْهَا إِلَى أَنْ تَتَوَارَى شَمْسٌ بِسَجْفِ الْغَسَاقِ
41 لَمْ يَقُلْ : رُدَّهَا عَلَيَّ ! وَلَا يَنْظُرُ _____ فَنَظَّفُ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ

وفي مناسبة أخرى ، يستشهد بالتضامن بين موسى وأخيه هارون لحضِّ الأخوين الأميرين على التفاهم والإخاء : ﴿قَالَ : رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ، وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ، وَأَحْلِلْ غُفْدَةَ مِنِّ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي . وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي أَشَدُّ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي﴾ (طه 25-32) فيقول : [طويل]

64/18 لعمري لقد أَيْدَتْ يَوْمَ الْوَعَى بِهِ
كما أَيْدَتْ كَفَّاكَ بِالْأَنْمَلِ الْعَشْرِ
65 لَئِكَ نَاجَى اللَّهُ مُوسَى نَبِيَّهُ
فنادى أَنْ أَشْرَحْ مَا يَضِيقُ بِهِ صَدْرِي
66 وَهَبْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَخِي أَسْتَعِزُّ بِهِ
وَشُدُّ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي !

التغني بالجمال

حاولنا فيما سبق أن نبين أنَّ غنائية ابن هانئ قد تبرزُ حتى في القصائد المدحية : الإشادةُ بفضائل الإمام قد تنبع من محبة صادقة ، والتحامل على الخصوم قد يترجم عن كراهية فطرية . وقد لفَّتنا النظرُ الى ما يتخلل الاستهلالات أحياناً من شعور بالجمال ، جمال دوحة منتصبة في الأرض

البراح ، أو جمال نافقة قوية القوائم وثيدة الخطر ، أو شعشة البرق في سحاب بعيد ، أو سكون ليلة مغمرة . ونريد أن نختم هذا الفصل بأنموذج بديع من وصفه للخيل ، وله فيه باع طويل .

هذه الجياد يمثلها بالحسان الوثائق من سلطانهن على القلوب
بجمالهن الذي لا تغلبه الأردية الموقفة : [طويل]

6/23 يمشين مشي الغانيات تهادياً عليهن زى الغانيات مشهراً
7 وجررن أذيال الحسان سوابغاً فعلمن فيهن الحسان تبختراً

ثم يفصل ألوانهن في ثراء لغوي عجيب ، لعله مستمد من المعاجم ،
ولكنه رغم ذلك يعبر عن إدراك حاد لجمال الألوان والأشكال :

11/23 وما خلئت أن الروض يختال ماشياً ولا أن أرى في أظهر الخيل عبقرأ
هذا المشهد الإجمالي ، ثم يأتي التفصيل :

12/23 غداة غدت عن أبلقي ، ومجرع
13 ومن أدرع قد قنع الليل حالكا
14 وأشعل وردي ، وأصفر مذهب
15 وذو كمتة قد نازع الخمر لونها
16 محجلة غراً ، وزهراً نواصعاً

مثل هذا الحس دليل على حكمة الباري في خلقه ، وهكذا يقودنا
تأمل الخليفة إلى الإيمان بالخالق :

20/23 أفكه منها الطرف في كل شاهد بأن دليل الله في كل ما يرى

تأثير ابن هاني

من المتوقع أن شاعراً سياسياً مذهبياً مثل ابن هاني ، سخر طاقته الواسعة لخدمة دولة دخيلة ونحلة مارقة ، سيلقى من أهل افريقية والمغرب السئين السخط والانتقاص . ويُخشى أن تكون الأحكام فيه مختلطةً فيغلب فيها العداء المذهبي الحياد والإنصاف . وقد بلغ التورّع ، كما رأينا ، حدّ الطرح لبعض قصائده ، كالرابعة والعشرين الرائية ، من بعض نسخ الديوان .

وفي هذا الفصل نعتمد استعراض الأحكام التي قيلت في صاحبنا ، سواءً في معتقده أو في شاعريته . وفي قسم ثانٍ نتتبع سيرورة ديوانه في المغرب والمشرق . ثم ندرس ميراث الشاعر الأدبي ، أي تأثيره في الشعراء المعاصرين له أو اللاحقين ، كما نحاول البحث عن ورثته له بالفعل ، أي : هل كانت له أسرة؟ هل خلّف عقباً؟ وفي نهاية الفصل نشير إلى الصورة الهزلية التي اتخذتها شخصية ابن هاني في بعض المصادر ، ونحاول تفسيرها .

الأحكام المذهبية

مرّ بنا حكم ابن شدّاد مؤرّخ القيروان ، وقد يشمّل نقده المادح والممدوح معاً لأنّ المعزّ في نظره شجع شعراءه على الغلو⁽¹⁾ . ونقلنا أيضاً

(1) انظر الفصل الثامن ، 241 .

حكم ابن شرف. وهو، في قساوته، لا يُستغرب من أديب قيرواني نشأ في بيئة تلهج بعداء الشيعة، خصوصاً بعد أن خلع الحكّام الصنهاجيّون الولاء الفاطميّ. والكتّاب الذين عابوا عليه غلوّه كثيرون، وأهواؤهم مختلفة ومشاعلهم؛ فلا يُتهمون جميعاً بالتقرّب إلى أعداء الفاطميّين بالتهجّم على شاعر «المشاركة» المفضّل. هذا الحميدي في الجذوة وابن دحية في المغرب⁽¹⁾، وهما أندلسيّان يكتبان في المشرق، يتفقان على استنكار «غلوّه واستهتاره». وهذا ابن بسّام في الذخيرة⁽²⁾ يعلّق على بيت لابن مقانّا الأشبونيّ، وهو: [خفيف]

وإذا ما رُفِعَتْ رايته خفقت بين جناحيّ جبرئين
فلاحظ الشبه بينه وبين بيت ابن هانيء الذي استفظعه الكثير من النقاد:

[كامل]

29/41 أمديرها من حيث دار، لشدّ ما زاحمت حول ركابه جبريلاً
ويقول: «حَسَدَ ابْنُ هَانِيءٍ فِي هَذِيانِهِ، وَتَقَبَّلَهُ فِي خَذْلَانِهِ». والمترجمون ليسوا به أرفقَ وكذلك العلماء⁽³⁾. وابن خلّكان يأسف لما شاب الديوان «من الغلوّ في المدح والإفراط المفضي إلى الكفر»⁽⁴⁾. وتبعه الذهبي وأبو الفداء ومتمّمه ابن الشحنة⁽⁵⁾.

وليس لدينا أحكام من مؤلّفين شيعيين قدامى. غير أنّه من المفروض أنّ رأيهم فيه، لو وصلنا، ما كان يختلف كثيراً عن رأي الشيعة المعاصرين من إسماعيلية واثني عشرية. فهم لا يرون في غلوّه كفراً، ومعاني المدح في

(1) جذوة المقتبس، ترجمة 157. والمطرب، 192.

(2) 793/2.

(3) الكامل - 46/7.

(4) الوفيات - ترجمة 640.

(5) روض المناظر - 31/2. وتوفي ابن الشحنة سنة 1412/815.

نظرهم تصدر عن اعتقاد صادق راسخ بمبادئ الشيعة . هذا زاهد عليّ ، شارح الديوان ، ينزهه عن الكفر ، ويفسر الغلو بخصوصيات التوحيد الإسماعيليّ الذي « ينزه الباري المبدع عن جميع التّعوت والصفات » ويوقعونها « على المبدع الأول ، وهو الأمر والكلمة » . والإمام يقوم مقام الأمر والكلمة ، فلا حرج أن يطلق الشاعر على الإمام صفتيّ الواحد والقيّم (1) . على أن هذا الباحث الرصين يعترف ضمناً بإفراط الشاعر ، إذ يحتج بسنة الشعراء في المبالغة ، ولا سيما المتنبي .

وينحو الإسماعيليّ عارف تامر في دفاعه عنه نفس المنحى : فما يبدو للقارئ العاديّ مبالغة وغلواً ، ليس كذلك ، إنما هو صدى التكوين الفلسفيّ الذي يتلقاه كل إسماعيليّ (2) .

كذلك حسن الصدر (ت 1934) يرى أنه « صحيح الاعتقاد ، وهو بريء من كلّ سوء وغلو . وأنه رجل شيعيّ مجاهر بالتشيع مبغض لخصوم عليّ عليه السلام . . . حتى قتل على التشيع » (3) .

ومهما تباينت هذه الآراء ، فإن أصحابها يكادون يُجمعون على صدق الشاعر في ولائه واعتقاده . لم نر واحداً من القدماء اتهمه بالتزلف الكاذب جرياً وراء المال . ولكن هذه التهمة نجدها عند بعض الدارسين في عصرنا مثل حسن إبراهيم حسن في تأريخه للدولة الفاطمية : « . . . إن ابن هانيء أصبح شيعياً متحسناً لهذا المذهب استدراكاً لكرم الفاطميين ، لا حباً في عقائدهم واستمساكاً بها » (4) .

(1) تبين المعاني ، المقدّمة 58 .

(2) عارف تامر : ابن هانيء ، دراسة - 62 وفصل ابن هانيء في دائرة معارف البستاني 112/4 .

(3) تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام ، 206 .

(4) ص 441 . وقد أعاد الفكرة نفسها في الدراسة التي ألفها مع طه أحمد شرف عن المعزّ ، ص

ومن يتفكّر في ندرة المطالب الماليّة في مدائحه - على عكس المتنبي مثلاً - ثم في قُصْرِهِ مَذْحَهُ على المعزّ وقوّاده وولائه ، أي على قوم تجمعه بهم عقيدة واحدة ، ومن يدرس بالخصوص قصيدته الأخيرة ، تلك المطوّلة القويّة التي حمّلها وفاءه ومحَبّته ، لا يسعه إلا أن ينزّهه عن الطمع والطموح والتظاهر بما لا يبطن .

الأحكام الأدبيّة

تنزّه الأحكام في خصوص شاعريّته عن التّحامل المذهبيّ . فربّ ناع عليه كفره يعترف له في المقابل بمتانة التعبير وسعة الخيال وجمال الصور . ويتميّز بالإنصاف والاعتدال النقاد المحترفون مثل ابن شرف ، فلقد ذكر ما له وما عليه : « أما ابن هانيء . . . فرعديّ الكلام ، سرديّ النظام ، متين المباني ، غير مكين المعاني . . . إلّا أنّه إذا ظهرت معانيه ، في جزالة مبانيه ، رمى عن منجنيق ، يؤثّر في التّيق »⁽¹⁾ . فيعترف له بالإجادة إذا تمكّن من معالجة المعاني ، ويعيب عليه القمقعة اللفظيّة .

والجلبة اللفظيّة أيضاً مع التكلّف والصنعة ، هي ما عابه ابن رشيق : « وكانت عند أبي القاسم مع طبعه صنعة ؛ فإذا أخذ في الحلاوة والرقّة ، وعمل بطبعه وعلى سجيّته ، أشبه الناس ، ودخل في جملة الفضلاء ، وإذا تكلف الفخامة ، وسلك طريق الصنعة ، أضمرّ بنفسه ، وأتعب سامع شعره⁽²⁾ » .

هذه المساوئ هي في نظر الفتح بن خاقان محاسن وفضائل ، فيطريه بدون تحفّظ : « علق خطير ، وروض أدب مطير . غاص في طلب الغريب حتى أخرج درّه المكنون ، وبهرج بافتنانه فيه كلّ الفنون . . . اعتمد فيه

(1) مسائل الانتقاد ، 40 . وفي رواية : « نحدّي الكلام » . والنيق قَمّة الجبل .

(2) العمدة 124/2 .

التهذيب والتحرير، وأتبع في أغراضه الفرزدق مع جرير . فلذلك حسد العراق عليه المغرب وأخذت الشرق الغصة . وإن في أسلوب الفتح نفسه لدليلاً على تغلب نزعة البهرج والتعمّل بكامل أقطار المغرب . وكان ذلك بعيد وفاة ابن هانيء فنسبت إليه هذه الأساليب وأسندت إليه طريقتها . يقول ابن بسام في ترجمة أحد شعراء المائة الخامسة : « وكان يميل إلى طريقة محمد بن هانيء . على أن أكثر أهل وقتنا ، وجمهور شعراء عصرنا ، إليها يذهبون ، وعلى قلبه وجدتهم يضربون ⁽¹⁾ » . وقد ذكر زميلنا الشاذلي بو يحيى هذه الطريقة وحدّد نشوءها بزمان وفاة الشاعر ، فقال فيها وفي صاحبها : « ابتدع هذا الشاعر أسلوباً جديداً سبّغ به الإفريقيون طيلة أجيال . . . وصار شعره المحوّر الذي يتجمّع حوله الإنتاج الشعري ، وساعدت شهرته أهل المغرب على التخلص من مركّب النقص إزاء المشرق [إذ] صار بمقدور المغاربة أن ينجبوا مُتَنَبِّئاً ⁽²⁾ » .

هذا التحرّر من التبعية هو الذي عناه صاحب المصطلح إذ ذكر غصة الشرق وشرقه . ولكنه من جهة أخرى يعيب عليه تجرؤة على الدين ، فيقول ، غير آبه بالفارق الزمني بين طرفي المقارنة : « سلك مسلك المعري ، وتجرّد من التدين وعري . وأبدى الغلو ، وتعذّى الحق المجلو ، فمجتّه الأنفس ، وأزعجته الأندلس ، فخرج على غير اختيار . . . ⁽³⁾ » وهكذا نظفر بسبب آخر لهجرته - أو طرده - من الأندلس : التناول على الدين والإفراط في التحرّر العقلي ، على غرار صاحب اللزوميات (الذي ولد بعد وفاته بعام) . وعلى ذكر أبي العلاء ، نذكّر بأنّه هو أيضاً عاب عليه المبالغة : « كان من شعرائهم المُجيدّين ، وكان يغلو في مدح المعزّ غلوّاً عظيماً ⁽⁴⁾ » . كما عاب عليه ،

(1) الذخيرة 799/2 .

(2) . . . Vie littéraire ، المقدمة 31 .

(3) مصطلح الأنفس ، 84 .

(4) رسالة الغفران ، 453 .

حسب روايات المترجمين ، الجلبة اللفظية ، كالرحى تطحن القرون⁽¹⁾ ، والإغراق في الصنعة مع قلة المعنى فصارت أبياته أبعاراً ملفوفة في ورق الفضة⁽²⁾ .

فالطريقة التي نسبت إليه لم تعجب إذن جميع الناس . هذا الحميدي مثل ابن رشيق يعترف له بالموهبة القوية ولكن يستقيح الجلبة ، وكذلك ابن دحية ، يغلب مساوئه على المحاسن : « ... ربما صدرت عنه دررٌ تلحقه بالشعراء الكبار ... وبقيّة شعره قعاقع وجعاجع ، وثالثة الأثافي ، والرسوم البلاقع » .

هذا بخصوص اللفظ . فلننظر الآن في مواقفهم من صوره وخياله : ابن سعيد يعظم صورة التفاحة والعقرب : [كامل] .

وكانْ صفحة خدّه وعذاره تفاحةٌ رُميتْ لتقتلَ عقرباً 46/4

حتى جعل البيت في مختاراته المرقصات المطربات . ولكن ، في مختاراته الأخرى ، يفضل عليه الشاعر الوزير ابن عمّار ويجري هذا التفضيل على ذكر القصيدة الفلكية ، فهو لم يستسغها ، رغم كثرة التشبيه فيها ، كما استساغ رائية ابن عمّار في عباد أمير اشبيلية⁽³⁾ . والغريب في الأمر أن كثيراً من المصادر تجعل من ابن عمار تلميذاً - في الشعر - لابن هانئ⁽⁴⁾ .

أحكام معاصرة

نجد نفس القسمة عند الدارسين المعاصرين . فالذين ينقدونه يتجهون

(1) ذكره ابن خلكان ، ترجمة 640 .

(2) ذكره الصفدي : الوافي ، عدد 240 . وقد فسر الصفدي تحامل المعري عليه بتعصبه للمتني دون غيره .

(3) رايات المبرزين . رقم 77 ص 55 .

(4) انظر عبد الواحد المراكشي - المعجب 111 .

الى مبالغاته وضجيج قاموسه وتكلفه المفرط . ذاك موقف منير ناجي في الدراسة التي خصصها له وناقشها بمدريد ، وهي والحق يقال ، أغزر مادة وأنفذ بحثاً من دراسة الشيعي السوري عارف تامر ، ألا أن منير ناجي غلب السلبيات ، أو اعتبر من السلبيات ما لم يكن للشاعر فيه حيلة ، كقصر الشعر على المدح ، أو غلبة الرصيد الثقافي الموروث عن الشرق على معانيه وصوره ، أو انحسار غنائيته لأنه لا هم له إلا طلب المال⁽¹⁾ . وهي لعمرى أحكام منحازة ، بدليل المقارنة الختامية التي يجريها بين ابن هانيء والمنتبي ؛ فالفضل والغلبة للمنتبي طبعاً ، وكأنّ الباحث لم يعر أي اهتمام للميزة الأساسية عند شاعرنا ، ألا وهي التحزب .

والذين يطرونه يعتمدون على خياله الزاخر ، ولغته الثرية وتراكيبه المتينة ولين التعبير أو شدته بحسب الموضوع والغرض . ذاك ما يفهم من هذا النص لقسطاكي الحمصي [ت 1941] الذي علّق به على أبيات من القصيدة السابعة والعشرين في وصف جيش جوهر : « لا يصف هذا الوصف إلا ابن هانيء منتبي الغرب ، أو من هو مثله ، فيأتي على ذكر دقيق الموصوف وجليله ، ويقرب بعيده ويحيط بمجموعه ، حتى يمثل لكل المشهودات كأنك تراها . . . بل يصف لك الأخلاق من لطيفة وكثيفة حتى تحسب أصحابها أشخاصاً ماثلةً بين يديك . . »⁽²⁾ .

واهتم فاسيلياف مؤرّخ الحرب بين بيزنطة والعرب ، بوصفه للأسطول ، فرأى فيه المبالغة والتوسع⁽³⁾ ، وكريم في دراسته عنه لاحظ القوّة في التعبير ، ووفرة الخيالات مع تصنّع نادر المثل⁽⁴⁾ .

(1) منير ناجي : ابن هانيء 231 .

(2) من كتابه « منهل الوراد في علم الانتقاد » ص 198 ، نقلاً عن : عبد الحي دياب : التراث النقدي قبل مدرسة الجيل الجديد القاهرة 1968 ص 110 .

(3) فاسيلياف : بيزنطة والعرب 303 .

(4) كريم : ابن هانيء ZD MG 1924 .

أما فصل « ابن هانيء » بدائرة المعارف الإسلامية ، الذي كتبه زميلنا فرحات الدشراوي ، فيرفع الشاعر الى مرتبة « أول شاعر عظيم بالمغرب » ويؤكد على ولائه الشيعي الذي به تفسر زُمُوزُهُ ويبرر ميلُهُ الى الإفراط والمغالاة . ويبدو أن صاحب الفصل لم يعلم بوجود طبعة زاهد عليّ للديوان . ومن جهة أخرى ، كنا نتوقع من هذا الزميل وقد خصص أطروحته للخلافة الفاطمية بالمغرب ، أن يعمق دراسته لأغراض ابن هانيء ومعانيه حتى نزداد فهماً للأحداث والوقائع والسفارات والعلاقات في مدة المعز ، لكنه اهتم . وهو المؤرخ - بالمصادر التاريخية خاصة ، وهذا في نظرنا ظلم للمصادر الأدبية ، فقد تعين المؤرخ على استجلاء ما قد يغمض عند المؤرخين ، وحتى على اكتشاف ما لم يذكره ، كالذي افترضناه - ولعلنا توهمناه - من تعيين المعز لابنه عبد الله على ولاية إفريقية⁽¹⁾ .

سيرورة الديوان

لا ندري هل جمع ابن هانيء شعره في حياته ، شأن معاصره المتنبّي . وإذا ما اعتبرنا أن أطول قصائده ، القصيدة السابعة والأربعين ، لم يفرغ من نظمها إلا قبيل مقتله بقليل ، أمكننا الافتراض بأن مختلف القصائد والمقطوعات لم تُجمع وترتب إلا بعد وفاته بكثير ، خصوصاً وأن الوسط الإفريقي ، بعد رحيل المعز الى القاهرة وانتصاب الولاة الصنهاجيين بدلاً من الدولة الشيعية ، كان ينتظر أن تقطع الدولة الجديدة الصلة العقائدية مع الفاطميين ، بل كان يحثها على ذلك . وفي هذا الجو من العداء للشيعية والحنق عليهم ، لا نظن أن أحداً كان يجسر على جمع شعر داعيتهم ونصيرهم . فإذا اضطّر الأديب المتنبّي ، والمؤلف الجامع ، الى الاستشهاد بشيء من شعره ، اختار ما لا غلو فيه ولا تقديس : وهكذا لم ينتق منه الحصري في زهر الآداب إلا أوصافاً بريئة

(1) انظر الفصل الخامس 154 .

للخيل ، أو السفن ، فجمع ستة وثمانين بيتاً ، ولكن الأقل منها مأخوذ من المدائح المعزية .

أول إشارة إلى حجم الديوان نجدها عند الحميدي ، ولكنه لا يشعرنا هل رأى ذلك الشعر مجموعاً في ديوان . ونستنتج من نادرة رواها المقرئ⁽¹⁾ أن الديوان كان معروفاً بالأندلس في أواخر القرن الخامس : فقد كان ابن رزين (ت 496) ملك السهلة يستمع إلى قراءة من ديوان ابن هانيء ، فتعثر القارئ في فهم كلمة « حرام » فقسمها شطرين فضحك القوم .

وأول شهادة بوجود الديوان بإفريقية أتت من مخطوط تونس 1 . وقد ذكرنا مزايا هذه النسخة⁽²⁾. وأهم ميزة لها أنها نُقلت عن نسختين : واحدة هي الأصل ، وتاريخها سنة 1211/608 . فهي أقدم نسخة تُذكر من الديوان . فقد جاء في خاتمة هذا المخطوط : « الحمد لله . ذكر محمد بن القاسم كاتب الأصل المنقول منه السفر المقابل منه هذا ، أنّ هذا ما صحّ لديه ووقع إليه من شعر أبي القاسم في عجز ربيع الآخر الذي من سنة ثمان وستمئة » .

والثانية نسخة تتضمن قصائد ومقطوعات خلت منها النسخة الأصل ، نسخة 608 ، فضمّ كاتب المخطوط هذه الزوائد إلى ما نقله عن نسخة 608 وعنون كلّ إضافة بعبارة « وقال من غير الأصل المنقول عنه » . فلذلك جاءت مخطوطة تونس 1 أكمل من غيرها .

ولعلّ الإضافات والزيادات نُقلت من نسخة أندلسية كالتى كانت عند ابن رزين : ذلك أن البيت الذي تعثر النديم في قراءته هو من إحدى المقطوعات الإضافية التي لا توجد في غير هذا المخطوط . فالنسخة الإفريقية - نسخة 608 - كانت ناقصة بالمقارنة مع نسخة ابن رزين : فهل يعني هذا أن النسخة -

(1) نفح الطيب 407/3 نادرة 198 .

(2) انظر الفصل الثاني ص 34 ، والحواليات 1969/6 ص 79 - 81.

أو النسخ - الأندلسية كانت تتضمن شعراً لا يوجد في النسخة - أو النسخ - الإفريقية ؟ فإن صح هذا يوماً باكتشافات جديدة ، فهل يُعزى نقصان النسخة الإفريقية الى عملية تطهير من الشعر الماجن والأبيات المسفة⁽¹⁾ ؟

أم هل نفسّر زيادة النسخة الأندلسية بافتراض أنها ربّما تضمنت شيئاً من الشعر الذي نظمّه صاحبنا في الأندلس ، وهو هذا الشعر الخليع بالذات ؟

وبعد ، فهذا افتراض لا يمكن تحقيقه بما لدينا من وثائق . وهو ، على كل حال ، يدعو إلى التفكير والتمحيص بقدر ما دعانا إليه افتراض منير ناجي في أنّ الأقسام الخمرية من قصائده إنما هي شعره الأندلسي⁽²⁾ .

أما وجود الديوان بالشرق ، فتشهد به ضمناً عبارة ياقوت إذ يلاحظ ، في خصوص القصيدة الثالثة والخمسين ، أنها أطول قصائده جميعاً ، فهي تربو على الثمانين بيتاً⁽³⁾ . والعبارة تدلّ أيضاً على أن هذا الديوان كان ناقصاً : فنحن نعلم أنّه في صورته الحالية يتضمن خمس عشرة قصيدة تتجاوز كل واحدة ثمانين بيتاً . وجميع الشواهد التي ساقها ياقوت من شعر ابن هانيء مستخرجة من قصائد لا تتجاوز ثمانين بيتاً ، وكذلك الشأن في خصوص المختارات التي نقلها ابن خلكان وابن سعيد ، وجميع هؤلاء كانوا يكتبون في القرن السابع . ولكن لا نستنتج بالضرورة أنّ الشرق كان لا يعرف من الديوان إلا نسخاً جزئية . بل الأغلب على الظنّ أن ابن سعيد قد أطلع على نسخة كاملة تامة - أي مثل مخطوطة تونس 1 - لأنّه في مغربه ينقل إحدى المقطوعات الإضافية التي انفرد بها مخطوط تونس 1 .

وفي القرن الموالي استخدم الدواداري وابن فضل الله العمري (ت 1348/748) نسخاً أكمل من نسخة ياقوت ، إذ ينقلان أبياتاً من القصيدة السابعة

(1) وهي التي نشرت بالحواليات 1972/9 ص 75 .

(2) انظر الفصل الثاني ص 51 .

(3) معجم الأدباء ، ترجمة 27 .

والأربعين ، أطول القصائد على الإطلاق . ثم إنَّ صاحب مسالك الأبصار ينقل⁽¹⁾ أبياتاً من القصيدة السبعين هي الأبيات التي نقلها الحصري في زهر الآداب . وكان الديوان يُعرض للبيع في أسواق القاهرة حسب خبر أورده ابن حجر (ت 1449/852) في خصوص فقيه تونسِي يدعى ابن القويح (ت 1337/738) كان يتصفَّح نسخة من الديوان بسوق الكتب⁽²⁾ .

وليس وجود الديوان في المكتبات أو الأسواق هو وحده الدليل على شهرة صاحبه . فذكر اسمه أو نقل شيء من أبياته أو تضمين شطر أو بيت من أبياته في قصيدة ، كلُّ هذا قد يعبر أيضاً عن ذبوع صيته بين الأدباء والمتعلِّمين . ويبدو أنَّ شهرته بلغت أوجها في العصور التي يصطلح على تسميتها بـ « عصور الانحطاط » ، لندرة النبهاء والمبدعين فيها .

وقد تكون شهرة سيئة ، كأنَّ يُستشهد بصاحبنا في أمور انحرافية ماجنة . هذا ما يجيب به بعض شعراء مصر لائمهُ : [خفيف]

أنا دعني وما تراه فساداً فإمامي فيما ارتكبُ ابن هاني⁽³⁾

ولكنَّ الأغلب أن يذكر اسمه في معنى الإشادة والإطراء ، حتى يخيل إلينا أنَّ شعره أصبح منذ القرن الخامس مثلاً يحتذى ، كما يدلُّ عليه هذا البيت الذي أورده ابن سعيد مع البيت السابق : [وافر]

وندمان ينادمني بشعر يتيه به على شعر ابن هانيء

وصارت البلدان تتجاذبه بعد أن أزعجته ومجَّته . فقد رأينا الفتح بن خاقان يرجعه إلى بلاده فيقول : « زهت به الأندلس وتاهت ، وحاسنت

(1) مسالك الأبصار مخطوط 2327 ورقة 7 وجه .

(2) الدرر الكامنة 491/4 ، ترجمة 491 . وقد نقل الخبر الوزير السراج في الحلل السندسية 3/1 ص 699 .

(3) ابن سعيد : المغرب (قسم مصر) 246 .

ببدائع الشمس وزاهاً » . وكذلك يرى فيه الشُّقندي مفخرة للأندلس . في حين أن ابن حزم يطبّق معياراً أكثر رصانة : ينسب الرجل إلى البلد الذي آواه حتى موته . فأبو علي القالي الوافد من المشرق إلى الأندلس ، يعتبر أندلسياً . أما ابن هانئ فينسب إلى ما هجر إليه⁽¹⁾ .

وغلبت شهرته صيت الملوك والأمراء الذين مدحهم ، فصاروا يعرفون به كأن يقول المقرئ معرفاً جعفر بن حمدون : « وهو الذي مدحه ابن هانئ »⁽²⁾ وهذا تفضيلٌ مشروع ، وإن كان لا يغني عن جوع ، لأصحاب الأقلام على أصحاب السيوف .

وكذلك التقليد والمحاكاة ، هُما عنوان الشهرة : فكم قلّدوا مثلاً القصيدة الحادية والثلاثين الفائية ! مثلما فعل أحد النساك في عصر المقرئ : نظم قصيداً مطوّلاً في نعل الرسول (صلى الله عليه وسلم) على وزن قصيدة النجوم وروّيها فقال في بعض أبياتها : [طويل]

وما أنا فيه كالذي قال هازلاً : أليتنا إذ أرسلت وإرداً وحفا⁽²⁾

ويقول ابن بسّام إن أهل الأندلس كانوا معجبين بها خاصّة ، فانبهر كثير من الشعراء للنسخ على منوالها ، « منهم أبو الربيع القضاعي في تشبيهات كثيرة » بكأن « احتذى فيها طريقة محمد بن هانئ الأندلسي وسلك سبيله فضل عنها »⁽³⁾ . واعتذر الشقندي بطولها الذي ثناه عن نقلها برمتها⁽⁴⁾ ونقل منها أبو البقاء الرندي (ت 1284/684) أبياتاً « من أحسن ما قيل في وصف البدر والهلال والنجوم »⁽⁵⁾ .

(1) نفع الطيب 293/1 و 297 . و 164/3 .

(2) أزهار الرياض 275/3 .

(3) الذخيرة 508/3 .

(4) نفع الطيب 186/4 .

(5) قطعة من كتابه « الوافي بعلم القوافي » ، نشرها جعفر ماجد بالحواليات 1969/6 ص 181 .

وذاع صيت القصيدة في المشرق أيضاً فنظم ابن سنان الخفاجي (1073/466) قصيدة في الموضوع نفسه ، فانقلبت هذه الفائيّة من المحاكاة الى المعارضات⁽¹⁾ . وصار يكتفى بذكرها إذا أشير إلى ابن هانيء . بل رأينا بعض المخطوطات تقتصر على نقلها دون غيرها .

وتليها في الشهرة القصيدة العشرون التي كثيراً ما استحسنا مطلعها :

[كامل]

1/20 فتقت لكم ريحُ الجِلاَد بعنبر وأمدكم ربح الصبّاح المسفر
2 وجنيتُم ثَمَرَ الوقائع يانِعاً بالنصر، من ورق الحديد الأخضر

أعجبوا بما فيها من استفراغ للصورة الحرّية الممتزجة بمشهد الطبيعة : رؤوس الأعداء ثماراً أينعت ونضجت فقطفها الممدوح بسيف عريضة كالورق النضر الأخضر ، مع المقابلة بين الثمر الناضج والحديد الذي لا يزال أخضر أي قوياً على قطوف أخرى موالية ، مع تضمين الإشارة القرآنية البعيدة في البيت الأوّل : وهي تسخير الرياح لخدمة الجيش الغالب ، وهو معنى جارٍ على لسان شاعرنا ، لا سيّما في الإشادة بالأسطول الفاطمي . هذا الرّصف لصور بلاغيّة كثيرة في بيت أو بيتين هو الذي جعلهم يلهجون بمثل هذا الشعر ويتسابقون إلى محاكاته . وهو الذي جعل ابن جِجّة الحمويّ [ت 1433/837] يفضّلها حتى على «قفا نبك»⁽²⁾ ، وحمل شاعراً حليياً يدعى الكورانيّ (1646/1056) على أن يضمّنّها في شعره :

فُتّق العِذار بخيّه فكأنّما فتقت لكم ريحُ الجِلاَد بعنبر⁽³⁾

وصيت ابن هانيء بلغ الى شعراء عصرنا الحاضر : أحمد شوقي سمّى

(1) الدواداري ، كنز الدرر 241/6 .

(2) خزّانة ... 123 .

(3) المحبّي (ت 1700/1111) : ربحانة اللبّاء ، 617/2 .

بيته بالقاهرة «كرمة ابن هانيء» وهو الذي أصبح اليوم متحفاً يزارُ . والغناء الشعبي اتخذ شاعرنا مثلاً للحبِّ الوفيِّ وقرنَه بمجنون ليلى . يقول المغني المغربي الحاج التهامي الهروشي في أغنيته «محبوب القلب» :

نشبه في الحبِّ قيس وابن سهل وابن هانيء

هذا ، وقد أشرنا إلى الشعراء الذين يتبعون «طريقة» ابن هانيء وقد ذكر منهم ابن بسام طائفة مثل القضاعي والدارمي وابن البين ، كما ذكر المراكشي في المعجب أبا عبد الله محمد بن حبّوس الذي كان يطلب اللفظ الفخم والتراكيب المتينة والصور البليغة ، ولكنّه ، كما قال ، لا يصل إلى درجة ابن هانيء من الطبع والحلاوة⁽¹⁾ . وكذلك كان شاعر بني عبّاد ، ابن عمّار ، الذي مرّ ذكره .

عقب الشاعر

قلنا إن حياة هذا لرجل يكتنفها الغموض : فلا شيء ثابتاً صحيحاً عن فترتها الأندلسيّة ، وشعره بالبيرة او غرناطة او إشبيلية أهمل أو مُجّح من الكتب ومن الذاكرة . ولسنا بأوفر حظاً في خصوص فترته المغربيّة والإفريقيّة : قبل كلّ شيء ، أين كان يقطن ؟ أبالمسيلة ؟ أم بالقيروان - المنصوريّة مع الخليفة ؟ كنّا نأمل أن نجد شيئاً من أخباره عند القاضي النعمان في كتاب المجالس والمسائرات الذي نُشر أخيراً ، وقلنا : هذا كتاب بمثابة المذكرات التي يسجّل فيها كبيرُ قضاة الدولة أقوال الإمام وتحركاته الخاصّة والعامة . ولكن خاب الأمل : لم يذكره مرّة واحدة ولا استشهد ببيت من شعره ! فحوّلتنا أملنا الى كتاب الداعي ادريس «عيون الأخبار» الذي استخدم كتب النعمان كثيراً . فإذا به يورد كثيراً من شعر صاحبنا ، ولكن في غير ربط صحيح

(1) المعجب 183 .

بالأحداث : على سبيل المثال ، ينقل جانباً كبيراً من القصيدة الأربعين اللامية في الإشادة بانتصار المجاز ، ولكنه يلصقها بالوقعة القديمة التي دارت سنة 956/345 ، والشاعر آنذاك لم يغادر بعدُ بلاده . ثم هو لا يذكر شيئاً عن حياته في البلاط ، لا حادثة ، ولا إنشاد ، ولا مكافأة ، ولا خصومة ، ويقتصر على نقل التوطئات المبهمة التي نجدها في الديوان⁽¹⁾ .

وقد افترضنا ، بناء على أبياتٍ في قصيدته الأخيرة ، أنه كان يقطن بالزباب بصفة مسترسلة ، إذ أنه اعتذر على مفارقة المعزّ بركة - مؤقتاً - بواجب الرجوع الى الزباب بسبب « قطين في قصي من النوى » وقلنا : لعله يعني عياله ، ولو كان يسكن القيروان ، فما حاجته بالرجوع إلى المسيلة ، خصوصاً وقد فارقها صاحبها منذ سنتين ؟

ثم ، هل كان له أسرة ؟ زوجة وأولاد وأهل ؟ نحن نعلم أن الشعراء والأدباء المتصلين بأصحاب السلطان لا يتبسطون في هذا الموضوع . فما علمنا مثلاً بأنّ المستنبي أنجب ولداً إلا في حادثة قتله . أما شعره ، فلا شيء فيه من هذا ، وكذلك شعر صاحبنا .

فلذلك فوجئنا حين وجدنا في كتب الأدب أنّ له عقباً ، لا في معنى التلاميذ المقلّدين ، بل في معنى النسل ، وأن هذا النسل كان يحترف الشعر هو أيضاً : وأول ذكر لابن هانيء آخر ، نجده عند الثعالبي في تنمة البيتمة⁽²⁾ حيث يورد بيتين منسوبين الى شاعر يُدعى جعفر بن هانيء الأندلسي . والبيتان مثبتان في مخطوط تونس 1 باسم محمد بن هانيء صاحبنا . فافترضنا أنّ الثعالبي قد يكون وهم وخلط بين جعفر بن هانيء هذا وشاعر مصري يدعى محمد (بن إبراهيم) بن هانيء ، خصوصاً وأنّ جعفر بن هانيء مجهول في جميع المصادر ، في حين أن محمد بن إبراهيم بن هانيء معروف ، نقل له

(1) عيون الأخبار ، السبع السادس الذي نوي نشره عن قريب ان شاء الله .

(2) تنمة البيتمة 34/1 .

العماد الأصفهاني في شعراء مصر طائفة غزيرة من الأبيات ، وهي أبيات على طريقة ابن هاني ، لا سيما قصيدة فائية من جنس القصيدة الفلكية رصعها هو أيضاً بسلسلة من التشابه المبدوءة بـ « كأن » ، إلا أنها لا تصف النجوم ، بل الأزهار⁽¹⁾ .

ومحمد بن إبراهيم هذا ليس من ورثته في الأدب فحسب ، بل هو من عقبه الفعلي ، فهو ، حسب شهادة العماد ، سليل ابن هاني الأندلسي المغربي ، مات في آخر مدة الوزير ابن رزيك ، أي قبل سنة 1164/560 . ويضيف صاحب الخريدة أنه همّ بوضعه مع شعراء المغرب والأندلس ، ممّا يحملنا على الظنّ بأنّ هذا الشاعر المصري لم يكن مصري المولد والنشأة ، بل رحل الى خدمة الفاطميين بالقاهرة من موطنه الأندلس . هذا الأصل الأندلسي يدعمه ما نجده عند ابن ظافر (1216/613) من صريح الإعلان بانتسابه الى شاعرنا : « . . . ولو لم يكن له ممّا يمتّ به إلا انتسابه إلى أبي القاسم بن هانيء شاعر هذه الدولة ، ومُظهِر مفاخرها ، وناظم مآثرها ، لكفى . فكيف ، وفيه هذا الأدب الغضّ النضير ، والشعر الذي لا ندّ له ولا نظير ؟ »⁽²⁾ . وهكذا يكون ابن هانيء الحفيد أو « المحدث » كما يدعوه ابن ظافر ، قد حقّق ما راى به جدّه الأعلى ، وهو الالتحاق بالدولة الفاطمية بالقاهرة .

وهناك حفيد آخر لشاعرنا ، كشف لنا عن نسبه المؤرّخ ابن القنفذ القسنطيني (ت 1407/810) ، ألا وهو البهاء زهير شاعر الأيوبيين . قال : « وفي هذه السنة [1258/656] توفّي بالقاهرة الصاحب بهاء الدين زهير ابن محمد المهلبّي ، الحجازي المولد والمنشأ ، المصري الدار . ويُذكر أنه من ولد محمد بن هانيء الأندلسي شاعر بني عبيد المشهور ، وأن والده انتقل من سبتة إلى مكّة المشرفة ، وولد بها ، وبها نشأ وتادّب ، وسار إلى الديار

(1) الخريدة (مصر) 248/1 .

(2) بدائع البدائع ، بولاق 1860/1278 ، ص 224 .

المصريّة . . . «⁽¹⁾ وابن قنفذ هو الوحيد الذي ذكر له هذا النسب ، ولكن ذكر مدينة سبته يحملنا على قبول قوله كما سيظهر بعد قليل ، بالرغم من أنّ مؤرّخي الدولة الأيوبيّة ، ودارسي شعرائها مثل جودت الركابي⁽²⁾ لم يؤيدوه . ولكنّ البهاء زهير مهلبيّ أزديّ مثل صاحبنا ، أفيكفي هذا الاشتراك لربطهما بنسب مباشر؟

وهناك ابن هانيء ثالث ذكره المقرّي فيمن رحل من إشبيلية الى سبته⁽³⁾ ، وهو فقيه مؤرّخ يدعى أبا عبد الله محمد بن هانيء اللخميّ السبتيّ . فهو يمّنيّ - لخمّيّ - وإشبيليّ الأصل مثل صاحبنا ، واستقرّ بسبته التي عاش بها والد البهاء زهير حسب قول ابن قنفذ . فهل كان هذا الفقيه حفيداً أيضاً لشاعر المعزّ؟ ونلاحظ بهذا الصدد أنّ المستشرق الإسبانيّ بونس بوافس نسب إلى صاحبنا كتاباً في التاريخ ، وهو بدون شكّ من تأليف الفقيه السبتيّ⁽⁴⁾ .

تدهور شخصيّة ابن هانيء

بعد هذه الخواطر حول تأثير ابن هانيء الفعلّي ، يجدر بنا أن نتوقف قليلاً عند الصور الخرافيّة أو المضحكة التي انحدرت اليها صورته في كتب الأدب وعند المترجمين الذين قد لا يمتّصون ما يقع اليهم من أخبار فيقبلون ما يلفقه الخيال الشعبيّ حول الأعلام الذين اشتهروا بخاصيّة ما ، كالجاحظ وشغفه بالكتب ، وأبي نواس ومجنونه ، وابن الروميّ وطيرته ، والمعرّي وذاكرته العجيبة .

(1) الفارسيّة في مبادئ الدولة الحفصيّة ، 121 .

(2) في دراسته عن الشعر في العهد الأيوبيّ وفصل « بهاء الدين زهير » بدائرة المعارف الإسلامية .

(3) نفع الطيب 245/6 .

(4) Ensayo . . . ترجمة 37 و 273 (محمد بن علي بن هانيء) .

ففي جانب الروايات الخيالية ، نجد توطئة القصيدة الثالثة والخمسين التي يقول الديوان انها أول ما أنشده بالقيروان : [كامل]

1/53 هل من أعقّة عالِجٍ يبرينُ أم منهما بقرُ الحدوج العينُ؟⁽¹⁾

ويضيف أن المعزّ أمر للشاعر « بدست قيمته ستة آلاف دينار . فقال : يا امير المؤمنين ، ما لي موضع يسع الدست إذا بسط ، فأمر له ببناء قصر ، فغرم عليه ستة آلاف دينار ، وحمل إليه آلة تشاكل القصر والدست قيمتها ثلاثة آلاف دينار » . فهذه خمسة عشر ألفاً من الدنانير المعزّية ، وكانت ثقيلة بالمقارنة مع غيرها . وأعجب من هذا المبلغ أن يكافئ الممدوح شاعره لا نقداً بل بضاعة . وأعجب منه أن يبدأ بالزرايبي قبل الدار . وكنا نتوقع بعد هذا أن يعطيه الجارية والغلمان ويعمر له الدار !

وبعد ، نقبل من التوطئة أن القصيدة أول شعر له أمام المعزّ ، فتكون القصائد السابقة - كالحادية عشرة - أرسلت إلى المعزّ من المسيلة ، ولكن لا نقبل بقاء الخبر بسبب مسحته العجيبة التي لا تتفق مع ما عرفناه من المعزّ ومن الشاعر معاً ، لا سيما وأن الديوان انفرد وحده بهذه الخرافة .

توطئة أخرى تقدّم لنا منه عجيبة وغريبة ، ولكن بقصد الإطراف ، هي توطئة القصيدة العشرين التي أعجبت الأدباء كثيراً كما بينا . ينفرد بهذه المقدمة مخطوطا تونس ت 2 رقم 15850 وتونس 3 رقم 15890 فيقولان : « وهي [القصيدة] التي امتحن بها وأنشدها ارتجالاً ومات حال إنشادها رحمه الله تعالى » ويضيفان : « ولها قصة » . وكنا نود أن نعرف هذه القصة الأخرى ، حتى نفهم كيف حيي بعدها حتى التحق بالمعزّ وعاشه مدة ثم صاحبه حتى برقة حيث لقي حتفه النهائي ، وحتى نفهم بالخصوص الدوافع إلى اختلاق

(1) عالِج ويبرين موضعان بجزيرة العرب ، والأعقّة ج عقيق : مسيل الماء . والبقر العين : الحسناوات مثل البقر الوحشي والحدوج : هودج الطعائن .

مثل هذه الخرافة : هل أراد صاحبها أن يستدلّ على قدرة الشاعر في الارتجال ؟ ولكن ، أيّ قدرة ، إذا حمّله الجهد إلى القبر بمثل هذه السرعة ؟ أم أراد أن يستنكر قساوة الامتحان ؟ ولكن هل فرض عليه الممدوح هذا المقدار القاتل : ثمانية وثلاثين بيتاً في الحين والحال ؟

والرأي عندنا أنّ الرواية ليست لا شيعيّة ولا سنيّة ، وإنّما هي محاولة لتجسيم صورة الشاعر الباهتة وتلوينها بشيء من السماكة والحركة ، إلّا أنّ الراوي لم يقدر المرمى فتجاوز الغرض .

أمّا الرواية الهزليّة ، فعند ابن سعيد وابن العماد . صاحب المغرب يصوّره لنا وهو يخاتل حاجب جعفر بن حمدون حتى يدخل على الأمير ، فيضطرّ إلى التّنكّر في زيّ بهلول فيستطرفه الحاجب - دون أن يعرفه - فيدفعه إلى مولاه حتى يضحكه وهناك يخلع ابن هانيء حمقه المستعار ويندفع منشداً قصيدة النجوم ، فيقول جعفر مبهوراً : أنت ابن هانيء !⁽¹⁾ واستظرف الخرافة الدواداري أيضاً فأثبتها في كنزه⁽²⁾ .

ابن العماد يخبرنا بلقاء بين ابن هانيء والمتنبّي : هنا أيضاً يتنكّر مواطننا في هيئة مسكين ذي أطمار يسوق أمامه شاة عجفاء ويعترض منافسه وهو قاصد أمير قابس تارك كافوراً فيقول له ، مشيراً إلى الدابة الهزيلة : هذا ما كافاني به على مدحي . فيفهم المتنبّي أن هذا البحر الذي وصفوه له إنّما هو ساقية ، فيعود أدراجه ، فيفرح ابن هانيء وقد أمن المنافسة⁽³⁾ . وقد بلغت الحكاية إلى سماع اليافعيّ قبل أن تصل إلى صاحب الشذرات ، فاكتمى بأن قال : ما سمعنا أن المتنبّي دخل المغرب قطاً⁽⁴⁾ ، ولكنه لم يستغرب الخرافة .

(1) المغرب ، ترجمة 409 .

(2) كنز الدرر 241/6 .

(3) شذرات الذهب 41/3 .

(4) مرآة الجنان 1/ ورقة 230 .

وهكذا فالصورة التي تقدّمها الحكايتان من شخص ابن هانيء هي وسط بين نوادر جحا وأخبار أبي نواس . وابن العماد - عن قصد أو غير قصد - يكتفي صاحبنا بكنية أبي نواس « مثل الشاعر العراقي » ، وبهذا الخلط يتضح المسعى : شاعران يكتنيان بأبي نواس . وأبو نواس يحمل في الذهنية الشعبية شحنة من المُلح والنوادر ، فيتحوّل هذا الجانب الهزليّ بصفة طبيعية إلى النواسي المكذوب ، أي صاحبنا .

ولا نَتهِم أخيراً خصوصاً له سَتّيين ولا أنصاراً شيعيين ، كأن نقول : الصور المضحكة هي انتقام من مؤلّفين قيروانيين مالكيّين من هذا الذي ألّه الدخلاء المشاركة المارقين . أو نقول : إنّ الصور الخرافية كالهبات السنية أو الارتجال المتبوع بسكتة قلبية هي من صنع الشيعة ، تعظيماً لكرم المعزّ من جهة ولعبقريّة شاعره من جهة أخرى .

لا نَتهِم أحداً ، بل نكتفي بالرأي الذي اقترحنه قبيل الساعة : هي محاولات مغالية - وبالتالي غير ناجحة - لإعطاء صورة محسوسة ملموسة فيها ألوان الحياة ، لهذا الشاعر الغامض المبهم الغريب .

الخاتمة

حين شرعنا في هذا العمل ، كانت تحدونا رغبتان : أن نلتمس أولاً من دراسة هذا الشعر المذهبيّ مزيداً من المعلومات عن الدولة التي نُظِم في الإشادة بها ، وذلك اعتماداً على التواصل الوثيق بين الأدب والتاريخ ، وخاصة في بيئتنا العربية الإسلامية .

ثمّ أن نبرّر - أو نزيّف - الشهرة الواسعة التي نالها هذا الشعر طيلة العصور التالية : فهل له من القيمة الذاتية ما يُثري الأدب العربيّ عامّة ، والمغربيّ خاصّة ؟ أم كان الإعجاب بابن هانيء نتيجة لنزعة المباهاة الإقليمية التي حاول بها المغاربة أن يتحرّروا من الشعور بالتبعية نحو الشرق ؟

وكنا نأمل أيضاً ، علاوة على هاتين الغايتين ، أن نلقّي أضواءً جديدة على شخصيّة هذا الرجل الذي يكتنفه الغموض بالرغم من وصوله الى منصب الداعية الرسميّ لأعظم دولة إسلاميّة في القرن الرابع .

والآن ، وقد وصل عملنا الى نهايته ، يحق لنا أن نقيّم النتائج :

في خصوص ترجمته ، نقول انها نتائج متفاوتة : لم نصل إلى جديد فيما يخصّ الفترة الأندلسيّة من حياته وبقينا ، مثل سابقينا ، في دائرة الظنّ والتخمين ، في كلّ ما يهمّ شبابه ، وأسرته ، وهائناً أباه الداعي الغريب أو

المزعوم، وخروجه طوعاً أو كرهاً من إشبيلية . ولم نفهم بالخصوص كيف مُجّي شعره الأندلسي من الذاكرة حتى لم يبق لنا منه ، ولو بيت واحد ثابت ، مع أنّ إنتاجه الشعري بموطنه الأول كان ولا شك غزيراً ، كما تشهد له به المدحة الجيدة التي توجّه بها إلى جوهر حال وصوله إلى برّ العدو .

أما الفترة الإفريقية ، فلئن وضحنا بعض جوانبها ، فإنّ مناطق كثيرة منها لا تزال مبهمّة : مثلاً ، كم دامت إقامته بالمسيلة ؟ أي ، متى دخل في خدمة المعزّ ، حتى نحدّد بالضبط المدة التي صحب فيها الخليفة وعاصر الأحداث ؟ ثمّ ، ما هي حقيقة علاقته بالإمام ؟ هل كان يقطن بجانبه بالقيروان ، أم كان يأتيه لماماً من المسيلة ؟ وهل كان له ما يشدّه إلى المسيلة ، أي أهل ورهط وخلان ؟

كما بقي بعض مدحويه مجهولين لدينا بصفة تامّة : الشيباني وأحمد بن زائدة ، أو مفتقرين إلى مزيد من التعريف كأفلح الناشب أو طاهر والحسين الأميرين الفاطميين .

وبقينا نستغرب عزوفه عن مدح ولاية وقّاد مشهورين مقتدرين كالأمرء الكلبيين بصقلية والصنهاجيين بأشير : ألبعد المسافة بين الزاب وصقلية ؟ أم للعنصرية الخفية والصريحة بين العرب والبربر ؟

وفي المقابل ، تمكّنا ، على ضوء ما أسعفنا به مخطوط تونس 1 من قطع ذاتية مجهولة ، من كشف الجوانب المخفية من شخصيّة الشاعر ، كالانحراف المكبوت ، والشذوذ الجنسي ، والميل إلى اللهو ، والإسفاف في المطارحات الإخوانية ، ممّا يدعّم الرأي القائل بأنّ قتله كان « في مشربة على صبي » أو أنّ موته كان بعد سكر شديد ضلّ معه الطريق .

أما شعره ، فقد حاولنا أن نظهر خاصيّته الأساسية : وهي الجانب السياسي العقائدي الذي يرفعه ، في مضمار الدعاية الحزبية ، إلى مستوى المؤلّفات « النظرية » المختصّة مثل كتب القاضي النعمان أو الداعي إدريس ،

ويجعل من صاحبه شاعراً مندرجاً عن جدارة في سلسلة الشعراء المذهبيين الذين خدّموا قضية أو تعلّقوا بفكرة ، ابتداءً من الثالث الأمويّ وخصومهم الزبيريين أو الخوارج ، إلى شعراء الوطنية والمقاومة اليوم ، وبرهنوا على أنّ الشعر قادرٌ على الدفاع عن فكرة سامية والإقناع بقضية مشروعة ، بقدر ما هو قادر على التعبير عن عواطف القلوب وأحاسيس النفس . فشعر ابن هانيء ، في دفاعه عن شرعية الدولة الفاطمية ، واستدلاله على أحقيتها بإمرة المؤمنين ، وخصوصاً في حملته العنيفة ضدّ الأعداء والمنافسين ، أقوى لهجةً وأشدّ تأثيراً من قصائد التحسّر والتفجّع التي عرف بها الشعر الشيعي في أيامه الأولى . ولقائل أن يقول إنّ كان في مأمّن من غضبٍ هؤلاء الخصوم لا يحتاج إلى تقية أو مداراة لأنّه كان محروساً بدولة قويّة متألفة منتصرة . ونجيب بأنّ مثل هذا الشاعر كان يصرخ بنفس الشعارات ويصدع بنفس المبادئ ، في نفس القوّة ونفس العنف ، لو قدّر له أن يعيش تحت حكم عباسيٍّ أو أمويٍّ ، وقد فعل مع هؤلاء فأزعجوه ونفوه ، مثل اللاجئين السياسيين اليوم .

وفيما عدا ذلك ، فإنّ شعره يلفت الانتباه بخاصيتين : ميل الشاعر إلى الجزالة في اللفظ والقوّة في التعبير ، ممّا حمل إليه تهمة التفوق والجلبة الفارغة ، وشغفه بالصور والخيالات وكلّ أصناف الصنعة البلاغية ، ممّا يجعل منه رائداً لمدرسة البديع في المغرب .

هذه الصنعة ، هذا التطبّع من جهة ، وهذه القعقة اللفظية من جهة أخرى - وإن كانتا ظرفيتين عابرتين ، لا تشوبان كافّة شعره - تطمسان في الأغلب غنائية الشاعر فتبهت الجوانب الذاتية الفطرية الصادقة من حساسيّته وتفكيره .

رمضان 1404 / جوان - حزيران 1984

الفهارس العامة

- 1 - فهرس الآيات المضمنة في الآيات
- 2 - فهرس الأعلام والمفاهيم .
- 3 - فهرس البلدان والأماكن
- 4 - فهرس الكتب المذكورة في المتن
- 5 - فهرس المراجع العربية وغير العربية
- 6 - فهرس المواضيع

1 - فهرس الآيات المضمنة في الأبيات

الصفحة	الآية	السورة
114	﴿ ... أَلَا نَحْصَحُصَ الْحَقُّ ... ﴾	يوسف ، 51
343	﴿ إِذْ عَرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِبَادُ ... ﴾	ص ، 31-33
187 ، 343	﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ... ﴾	طه ، 25-32
145	﴿ ... كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ... ﴾	البقرة ، 183
333	﴿ هَذِهِ بَضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ... ﴾	يوسف ، 65
114	﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ ... ﴾	الأعراف ، 148
342	﴿ وَالْعَصْرِ ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ! ﴾	العصر ، 1-2
128 ، 266	﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾	الرعد ، 7

2 - فهرس الأعلام والمفاهيم

أسقطنا عبارات « ابن » و « أبو » و « بنو » . فابن هانيء يطلب في الهاء
وبنو حمدون في الحاء .

وأضربنا عن ذكر الأعلام الذين يتردد ذكرهم كابن هانيء والمعرّ ، أو
اكتفينا بالإحالة الى أهم الصفحات المتعلقة بهم ، مثل جوهر وبني حمدون .
وكذا نفعل بأسماء الأماكن .

وأقتصرنا على أسماء المتن دون الهوامش .

- أ
- آدم عليه السلام : 261 ، 262 ، 287 .
- ابن الأبار : 10 ، 14 ، 16 ، 35 ، 44 ، 101 .
- أعوج (في س) : 331 .
- إبراهيم بن جعفر بن حمدون : 180-191 .
- إبراهيم الرياحي : 36 ، 37 .
- أفلق الناشب : 92-96 .
- الأبرقطي (أو : الأبروطي) : 158 .
- الإلياذة : 310 .
- أماري (ميكال) : 20 ، 171 .
- الأبلق : 147 ، 192 .
- أمرؤ القيس : 180 ، 206 ، 210 ، 307 ، 331 .
- ابن الأثير : 18 ، 132 ، 171 ، 174 ، 249 .
- أحمد بن أبي بكر الجذامي : 117 .
- الأميني : 151 .
- أحمد بن دينار : 174 .
- الإنجيل : 240 ، 260 ، 262 .
- أحمد بن زائدة : 102-103 .
- الإيادي (علي) : 7 ، 21 ، 82 ، 123 ، 157-8 .
- الأحوص : 332 .
- 176 ، 193 ، 200 ، 236 ، 333 .
- أبو أيوب بن مخلد : 85 .

ب

بابك الخزّمي : 174 .

« البارود » : 175 .

البتول : 247 ، 288 ، 289 .

البحرّي : 101 ، 174 ، 227-9 ، 317 .

333 .

البرامكة : 294 .

ابن بَسّام : 182 ، 333 ، 346 ، 349 ، 356-8 .

البيستاني (سليمان) : 310 .

البسوس (حرب) : 97 .

بشار : 208 .

ابن بشكوال : 10 .

أبو بكر الصديق : 280 ، 283 .

بكر بن وائل : 63 ، 97 ، 245 .

يلقيين بن زيري : 60 ، 87 ، 104 ، 169 ، 194 .

البهاء زهير : 1-360 .

البهرة : 43 .

بهلول بن راشد : 194 .

بونس بوافس : 361 .

بو يحيى (الشاذلي) : 349 .

بنو بويه : 166 .

بيرم الثاني : 38 .

ابن البين : 358 .

ت

تامر (عارف) : 347 ، 351 .

ابن تغري بردي : 19 ، 135 .

أبو تَمّام : 101 ، 200 ، 317 ، 325 ، 331 .

تميم بن المعزّ : 5-24 ، 122 ، 130 ، 132 .

134 ، 156 ، 169 ، 198 ، 242 ، 5-264 .

267 ، 288 .

التوراة : 260 ، 262 .

التيفاشي : 23 .

تيم (رهط أبي بكر) : 128 ، 268 ، 283 .

ث

الثعالبي : 197 ، 359 .

ج

الجائليق : 54 ، 290 ، 296 .

جبريل : 151 ، 260 ، 274 ، 346 .

ابن الجبلي : 145 .

جعفر بن هانيء : 199 ، 359 .

جرير : 331 ، 349 .

الجعفران : 118 .

جعفر بن حمدون : 83-88 ، 179-200 .

226-234 .

جعفر الصادق : 258 ، 263 .

جعفر بن فلاح : 19 ، 58 ، 80 ، 119 ، 166 .

199 .

جعفر بن منصور اليمن : 82 .

« الجفر » : 258 .

جوذر : 21 ، 86 ، 147 .

جوهر الصقلي : 88-92 .

ح

ابن حاتم الأزديّ : 126 ، 129 .

الحاكم الفاطميّ : 250 .

ابن حبّوس : 358 .

بنو الحجاج : 115 ، 125 .

ابن حجر المسقلاني : 355 .

22, 44, 107, 112, 132, 135, 138,

216, 333 .

ابن خلدون : 19, 86, 120, 181, 251,
258 .

ابن خلّكان : 5, 6, 15-19, 23, 28, 41, 44,

107, 111, 114, 122, 132, 134, 139,

166, 334, 337, 346, 354 .

الخنساء : 327 .

الخوارج : 146, 191, 192 .

أبو الخير (الزنديق) : 126 .

د

الدارمي : 358 .

الداعي إدريس : 82, 358, 366 .

الدبّاغ : 144, 157, 159 .

ابن دحية : 15, 346, 350 .

ابن درّاج : 11, 333 .

الدشراوي : 78, 84, 169, 352 .

دعبل الخزاعي : 7, 331 .

الدلنجاوي : 36, 37 .

«الدمستق» : 172, 296-302, 341 .

الدواداري : 25, 133, 354, 363 .

ابن أبي دينار : 20 .

ذ

الذهبي : 19, 20, 114, 346 .

ذو الفقار : 98, 150-152, 244-5, 293 .

أبو ذؤيب الهذلي : 230, 341 .

ذو يزن : 25 .

ر

الراعي النميري : 331 .

ابن الرايس : 159 .

حجر أكل المرار : 180, 307 .

ابن حجة الحموي : 357 .

« الحرّاقات » : 174 .

الحروريّة : انظر : الخوارج

ابن حزم : 182, 333, 356 .

حسن (حسن ابراهيم) : 347 .

الحسان : 5, 118, 152 .

الحسن بن عمّار الكلبي : 171 .

الحسين : 247, 248, 275, 281, 282 .

الحسيني (زيد بن المنصور) : 33 .

الحسيني (عبد الرحمان) : 33 .

الحصري : 21, 157, 352, 355 .

ابن حفصون (عمر) : 125 .

الحكم الثاني : 17, 18, 87, 185, 196,

243, 284 .

الحكم بن العاص : 277 .

الحلواني الداعي : 85 .

ابن حمّاد : 18, 48, 89, 153, 249 .

بنو حمدون : 83-88, 180-196 .

ابن حمديس : 176 .

حميد الدين علي : 43 .

الحميدي : 11, 13, 15, 346, 350, 353 .

ابن حوقل : 126 .

ابن حيّان : 17 .

خ

ابن خاقان (الفتح) : 13, 38, 43, 88, 114,

116, 348, 355 .

بنو خزر : 60, 81, 87, 3-162, 168-170,

193 .

ابن الخطيب (لسان الدين) : 15, 16, 18,

أبو الربيع الفضاوي : 356 , 358 .
 ابن رزّيك : 360 .
 ابن رزين : 137 , 353 .
 ابن رشيّق : 14 , 16 , 21 , 110 , 116 , 134 , 158 , 326 , 328 , 348 , 350 .
 الركابي (جودت) : 361 .
 «رمانة المسك» : 199 .
 الرندي : 356 .

روح بن حاتم : 110 .
 ابن الروميّ : 216 , 361 .
 رينو (هـ) : 175 .

ز

زاهد عليّ : 24 , 31 , 33 , 35 , 39 , 41 , 43 , 44 , 115 , 133 , 134 , 198 , 203 , 261 , 285 , 327 , 347 , 352 .
 الزاوي (طاهر أحمد) : 92 .
 الزجاجي : 115 .
 ابن أبي زَمُور : 198 .
 زنّانة : 78 , 86 , 87 , 103 , 163 , 168 , 170 , 190 , 193 , 194 , 273 .

الزّهّار (لطفي) : 42 .
 الزهراء ، (فاطمة) : 247 , 248 .
 الزهراني : 23 .
 ابن زولاق : 91 .
 ابن زيدون : 309 , 312 , 333 .
 زيري بن مناد : 60 , 80 , 87 , 194 .
 زين العابدين (علي) : 261 .

س

السبائي (أبو إسحاق) : 146 .
 شوقي (أحمد) : 357 .

ع

- الشيواني (أبو الفرج) : 100-96 .
 الشيخان : 126، 128، 130، 268، 277، 340 .
 الشيرازي (هبة الله) : 145 .
- ## ص
- الصاحب بن عباد : 333 .
 أبو صخر الهذلي : 327 .
 الصدر (حسن) : 347 .
 الصفدي : 19، 111 .
 صلاح الدين الأيوبي : 175 .
 صنهاجة : 78، 87، 90، 147، 176، 194، 273، 366 .
 الصنوبري : 120، 337 .
- ## ض
- الضبي : 11 .
 ابن أبي الضياف : 37 .
 ابن الضيف : 13 .
- ## ط
- طاغية الروم (الدمستق) : 295، 298 .
 طاهر والحسين (أخو المعز) : 82، 189، 197، 366 .
 الطريد (أو اللعين) : 277، 286، 296 .
 طفيل الغنوي : 214، 332 .
 الطليق (العباس) : 248، 286 .
 الطمشيش : 199 .
 طمىء : 205 .
- ## ظ
- ابن ظافر : 200، 360 .
- ابن أبي العافية (آل موسى) : 47، 117 .
 161، 272، 273 .
 ابن أبي عامر : 18 .
 «العامة» : 259 .
 عائشة : 115، 126 .
 بنو عباد : 350، 358 .
 العباس بن عبد المطلب : 248، 285-289 .
 عبد الرحمان الناصر : 53، 115، 125، 273 .
 274، 276، 284 .
 أبو عبد الله الداعي : 84، 85، 192، 249 .
 عبد الله بن سليمان : 24، 198 .
 عبد الله بن محمد (وال صنهاجي) : 170 .
 عبد الله بن المعز : 168-170، 265، 267، 352 .
 عبد الوهاب (ح.ح.) : 22، 37، 38 .
 «العشمية» (بنو أمية) : 275، 280 .
 عبيد بن الأبرص : 332 .
 عبيد الله المهدي : 7، 18، 85، 92، 108 .
 125، 155، 235، 249، 251 .
 العتقي : 158 .
 عثمان بن أمين : 189 .
 عثمان (بن عفان) : 277 .
 عدّي (رهمط عمر) : 268 .
 ابن عذاري : 18، 124، 155 .
 أبو العرب : 125 .
 عروس المؤذن : 144 .
 العزيز الفاطمي : 130، 169، 264-5، 287 .
 العسكري (أبو هلال) : 306، 327 .
 عضد الدولة البويهّي : 291 .

العكبري : 23، 44، 45 .
 علقمة الفحل : 206، 331، 332 .
 علّم الإسلام الداعي : 144 .
 علي الإيادي : انظر : الإيادي .
 علي بن حمدون : انظر : بنو حمدون .
 علي بن أبي طالب : 78، 98، 126، 128،
 150-152، 235، 248، 250، 261، 268،
 280، 283-4، 287-8، 347 .

ق

علي بن يحيى الصنهاجي : 176 .
 عليّة بنت المهدي : 294 .
 العماد الأصفهاني : 13، 137، 360 .
 ابن العماد الحنبلي : 16، 32، 138،
 363-4 .
 عمّار بن ياسر : 124 .
 ابن عمّار (الشاعر الوزير) : 350، 358 .
 العُمران : 5، 118 .
 عمر بن الخطاب : 267 .
 عمر بن أبي ربيعة : 203، 207-8، 306-8،
 332 .
 عمرو بن العاص : 280 .
 « العواتك » : 247-8 .
 عيسى عليه السلام : 242، 247، 262 .

ف

فاسيلياف : 351 .
 فاطمة الزهراء : 79، 235، 247-8، 268،
 283، 285، 287، 289 .
 الفتح بن خاقان (الوزير العباسي) : 228 .
 أبو الفداء : 19، 346 .
 أبو فراس الحمداني : 23، 208، 288، 294،
 309، 312 .

ك

كافور الإخشيد : 57، 80، 155، 180،
 213، 291، 363 .

- ابن كافي (عامل برقّة) : 145 .
 كانار (ماريوس) : 20, 85, 153, 193 .
 196, 296, 302 .
 الكلبيون : 80, 147, 171-2, 366 .
 كتامة : 90, 142, 192, 273 .
 كثير عزّة : 332 .
 كريم (فون) : 284, 351 .
 كليب وائل : 97, 180, 330 .
 كندة : 180 .
 الكوراني : 357 .
- ل**
- لبد : 230 .
 لبيد : 230, 341 .
 اللعين : انظر : الطريد .
 لقمان : 230 .
- م**
- مارسي (جورج) : 228 .
 ماسي (هنري) : 165 .
 ماسينيون (لويس) : 6, 77 .
 مالك بن أنس : 126 .
 المالكي (أبو بكر) : 5-144, 157 .
 المنتبي : 332-338 .
 محمد بن إبراهيم بن هانيء : 19, 111, 137, 199, 359, 360 .
 محمد بن حمدون : انظر : بنو حمدون .
 محمد بن الحنفية : 247 .
 محمد بن القاسم (ناسخ) : 353 .
 المراكشي (عبد الواحد) : 358 .
 مرضي بن علي : 175 .
- مرغوليوث : 44 .
 مروان بن الحكم : 277 .
 المروزي : 159 .
 مريم بنت عمران : 247 .
 ابن مسرة : 125 .
 المسعودي : 302 .
 «المشاركة» : 12, 115, 126, 144, 146, 346 .
 «المظلة» : 143, 149 .
 معاوية بن أبي سفيان : 78, 179, 277 .
 ابن المعتز : 317, 325 .
 المعتزلة : 241, 256 .
 المعري : 114, 309, 310, 349, 361 .
 المعز الفاطمي : 75-83 .
 مغراوة : 78, 170, 193 .
 ابن مقانا : 346 .
 المقدسي : 126 .
 المقرري : 14, 138, 353, 356, 361 .
 المقريري : 12, 19, 58-9, 64, 91, 101, 142-3, 154, 165, 169, 240, 249, 251 .
 ابن ملجم : 128, 284 .
 الممسي (أبو الفضل) : 146, 158 .
 المناذرة : 181 .
 المنصور الفاطمي : 77, 6-85, 143, 146, 151, 158, 180, 192-3, 240, 257, 260 .
 منويل ففاس : 53, 171, 173, 299-302 .
 ابن المذهب : 100-102 .
 المهلب بن أبي صفرة : 14, 109 .
 موسى عليه السلام : 187, 193, 253, 261-2, 343 .

ميكايل : 260 .

ابن هانيء اللغميّ : 361 .

هانيء (الأب) : 9-108, 124, 239, 365 .

الهرقل (الدمستق) : 172, 279, 297 .

هوميروس : 304 .

ن

ناجي (منير) : 51, 351, 354 .

«النار الإغريقية» : 2-171, 174, 337 .

نافع (قارىء المدينة) : 126 .

نتلة (أمّ العباس) : 289, 294 .

نقفور ففاس (الدمستق) : 20, 79, 171,

295, 304 .

أبو نواس : 8-27, 51, 200, 203, 255,

6-294, 8-307, 332, 361, 364 .

نوح (صاحب الفلك) : 184, 237, 323 .

نيكولاووس (سفير الروم) : 301 .

ي

اليافعيّ : 7-16, 32, 363 .

ياقوت : 16, 18, 132, 134, 354 .

يحيى بن حمدون : انظر : بنو حمدون .

أبو يزيد صاحب الحمار : 77, 85, 125,

146, 158, 3-192 .

يزيد بن حاتم المهلبّي : 110 .

يزيد بن معاوية : 282 .

يعقوب : 254 .

يوسف النبيّ : 254, 333 .

يونس (ذو النون) : 261 .

هـ

هارون (أخو موسى) : 187, 343 .

هارون الرشيد : 174, 255, 294 .

هاشم (عمر) : 42 .

«الهامة» : 276 .

ابن هانيء الحفيد : محمد بن إبراهيم .

3- فهرس البلدان والآماكن

أ

- برقة : 132-136 ، 145 ، 197 ، 245 ،
 285 ، 359 ، 362 .
 برقة ثمهد : 206 .
 البصرة (بالمغرب) : 189 .
 بغداد : 7 ، 11 ، 56 ، 60 ، 121 ، 161 ،
 181-2 ، 251 ، 256 ، 269 ، 271-2 ، 284 ،
 286 ، 289 ، 296 .
 بنغازي : 47 ، 135 .
 بويشتر : 125 .
 بولاق (طبعة) : 41 .
 بيروت (طبغات) : 2-41 ، 46 .
 بيزنطة (القسطنطينية) : 170 .
 الأرض الكبيرة : (إيطاليا) : 81 ، 160 .
 الإسكندرية : 58 ، 91 .
 الاسكوريال (مخطوط) : 33 ، 34 .
 أسوان : 93 .
 إشبيلية : 7 ، 12 ، 16 ، 20 ، 28 ، 57 ،
 109 ، 112 ، 114 - 116 ، 125 ، 127 ،
 186 ، 284 ، 350 ، 358 ، 361-366 .
 أشير : 78 ، 366 .
 البيرة : 14 ، 84 ، 88 ، 107 - 110 ، 125 ،
 358 .
 العريّة : 278 .
 أنطاكية : 56 ، 60 .
 الأوراس : 81 ، 96 ، 147 .

ت

- التاڤيلالت : 117 .
 تاهرت : 90 ، 97 ، 197 ، 239 ، 242 ، 245 .
 تونس 1 (مخطوط) : 35 .
 تونس 2 ، 3 ، 4 (مخطوط) : 36 ، 37 ، 362 .
 تيماء : 192 ، 330 .

ب

- باريس (مخطوط) : 28 ، 32 .
 بجاية : 84 .
 بسدر (غزوة) : 151 ، 248 ، 274-5 ،
 279-81 ، 284 ، 286 ، 288 ، 340 .

ح

حلب : 7, 20, 54, 80, 116, 120, 290 .
حيدر آباد : 31, 39, 43 .
الحيرة : 181 .

خ

خزافي (يوم) : 180 .
الخصوص (وقعة) : 151 .
خم (غدِير) : 143, 151, 268, 287-8 .

د

الدلتا (البحيرة) : 93 .

ر

رضوى (جبل) : 7, 147, 330 .
رقادة : 85, 92, 108, 164, 236-7 .
رمطة : 53, 55, 81, 171 .
الرملة : 291 .
ريو (رية) : 171 .

س

سبته : 78, 90, 119, 278, 280, 360-1 .
سجلماسة : 163 .
سرت : 31, 39, 43 .
سردانية : 134, 138 .
السقيفة : 128, 279, 280-283, 340 .
سكون : 107 .
سلمية : 85 .
السهلة : 137, 353 .
سيناء : 193 .

ش

شط الحضة : 85, 192 .
الشليل : 333 .

ص

الصعيد : 93 .
صفين : 280 .
صقلية : 18, 20, 55, 79, 81, 89, 170-1, 174, 271, 295, 366 .

ط

طبرمين : 171 .
الطف : 128, 202, 274, 282-3, 340 .
طنجة : 78, 90, 278 .

ع

« العواصم » : 286 .

غ

الغدِير (انظر : خم)
غرناطة : 8-107, 358 .

ف

فاس : 47, 59, 90, 117, 245 .
الفرات : 7, 237, 295, 331 .
فراقس : 61 .
الفسطاط : 116, 138, 139 .

ق

قابس : 17, 132, 333, 337, 363 .

- القاهرة : 18 ، 61 ، 81 ، 89 ، 95 ، 134-138 ،
 165 ، 170 ، 189 ، 250 ، 355 .
 قرطبة : 14 ، 17 ، 53 ، 87 ، 103 ، 112 ،
 125 ، 134 ، 161 ، 189 ، 243 ، 251 ،
 269 ، 273-4 ، 279 ، 285 ، 304 .
 قريش : 79 ، 295 .
 القسطنطينية : 89 ، 170 ، 271 ، 296-7 .
 قلورية : 81 ، 170-1 ، 300-1 .
 القيروان : ذكرت كثيراً : 48-58 ، 122-126 ،
 144-146 ، 191-196 ، 206 ، 239-249 ،
 260 .
 المحمدية (المسيلة) : 85 .
 المجاز (وقعة) : 171-174 .
 المسيلة : ذكرت كثيراً : 85 .
 مسينا (مجاز) : 20 ، 55 ، 81 ، 171 .
 المعاضيد (جبال) : 85 ، 192 .
 مكة المكرمة : 5-154 ، 168 ، 255 ، 277 ،
 281 ، 287 ، 292 ، 360 .
 مجردة : 333 .
 مدريد (مخطوط) : 28 ، 33 .
 المرج : 135 .
 المنصورية : ذكرت كثيراً .
 المهدية : 59 ، 108 ، 147 ، 155 ، 206 ، 240 .
 منى : 192 .

ن

- النيل : 58 ، 80 ، 91 ، 167 ، 331 ، 333 .

و

- «الواحات» : 93 .
 الوادي المالح : 158 .

ي

- يثرب : 186 ، 225 ، 251 ، 277 .
 يذبل (جبل) : 47 ، 331 .

ك

- ككب (جبل) : 147 ، 330 .
 كربلاء : 128 ، 244 ، 274-5 ، 282-279 ،
 284 ، 340 .
 الكوفة : 128 ، 280 .
 كيانه : 85 ، 191-2 ، 195 .

م

- متالع (جبل) : 330 .
 المتحف البريطاني (مخطوط) : 34 ، 43 .

4 - فهرس الكتب المذكورة في المتن

أ

- تبين المعاني (زاهد علي): 43 .
 تنمة اليتيمة (الثعالبي): 199، 359 .
 تخليص الذهب (ابن الخطيب): 15 .
 التكملة لكتاب الصلة (ابن الأبار): 10، 14، 107 .
 إتحاف أهل الزمان (ابن أبي الضياف): 37 .
 الإحاطة (ابن الخطيب): 15، 16، 22 .
 أخبار ملوك بني عبيد (ابن حماد): 18، 249 .

ج

- جذوة المقتبس (الحميدي): 11، 12، 14، 346 .
 الجمع بين الصحيحين (الحميدي): 13 .
 الجمع والبيان (ابن شداد): 16، 134، 139، 241 .
 إرشاد الأريب (ياقوت): 16 .
 الاستقصاء (الناصري السلاوي): 20 .
 افتتاح الدعوة (القاضي النعمان): 84 .

ب

- بغية الملتبس (الضبي): 11 .
 البيان المغرب (ابن عذاري): 18 .

ت

- تاريخ الإسلام (الذهبي): 20 .
 تاريخ الدولة الفاطمية (حسن إ. حسن): 347 .
 تاريخ العلماء والرواة (ابن الفرضي): 10 .
 التبيان في شرح الديوان (العكبري): 45 .
 التحلل السندسية (الوزير السراج): 20 .
 خريدة القصر (العماد الاصفهاني): 137، 360 .
 خطط المقرئ (المقرئ): 240 .

خ

د

- دعائم الإسلام (القاضي النعمان): 143،
298 .
الديباج الخسروانيّ (التيغاشي): 23 .

ذ

- الذخيرة (ابن بسّام): 182، 346 .

ر

- رسالة في فضائل الأندلس (ابن حزم):
182 .
الرسالة الى الحسن القرمطيّ (المعز): 77 .
رسالة الشقندي : 182 .
الرسالة المسيحيّة : 298، 77 .
رياض النفوس (المالكي): 144، 158 .

ز

- زهر الأداب (الحصري): 21، 352، 355 .

س

- سيرة الأستاذ جوذر: 21، 89، 92، 101، 142،
181، 185 .

ش

- شذرات الذهب (ابن العماد): 16، 363 .

ص

- ك. الصلة (ابن بشكوال): 10 .

ط

- طبقات أبي العرب : 125 .

ع

- العقد الفريد (ابن عبد ربّه): 333 .
العمدة (ابن رشيق): 21، 158 .
عيون الأخبار (الداعي إدريس): 82، 358 .
عيون التواريخ (ابن شاكر): 38 .

ف

- فهرسة ابن الخير : 112 .

ق

- قراضة الذهب (ابن رشيق): 14، 16، 110،
134 .
القصيدة الغزاريّة : 158 .
قلائد العقيان (الفتح بن خاقان): 14 .

ك

- الكامل (ابن الأثير): 18 .

ل

- اللزوميّات : 309، 349 .

م

- المجالس والمسائرات (القاضي النعمان):
142، 300، 358 .
المجالس المستنصرية : 144 .
المجالس المؤيّدية : 144 .
مرآة الجنان (اليافعي): 16 .
مسالك الأبصار (ابن فضل الله): 354 .
مسائل الانتقاد (ابن شرف): 16 .
المطرب من أشعار أهل المغرب (ابن
دحية): 15 .

مطمح الأنفس (ابن خاقان): 4-13، 38، 88،
المؤنس (ابن أبي دينار): 20، 92 .
349 .

ن

معالم الإيمان (الدبّاع/ ابن ناجي): 144 .
المعجب (عبد الواحد المراكشي): 358 .
المغرب في حلى المغرب (ابن سعيد):
15، 346، 353 .

و

المفضليات: 312 .
المقتبس (ابن حيّان): 8-17 .
موطأ مالك: 126 .
الوافي بالوفيات (الصفدي): 19، 111 .
وفيات الأعيان (انظر: ابن خلكان في
فهرس الأعلام) .

5 - فهرس المراجع العربیة وَغیر العربیة

باللغة العربیة

رتبنا المراجع على أسماء مؤلفيها ترتيباً أبجدياً بقطع النظر عن « ابن » و« أبو » . فابن هانئ يأتي في الهاء ، وأبو الطيب في الطاء . وجعلنا بين قوسين سنة الوفاة .

أ

ابن الأتار (1260/658) :

- التكملة لكتاب الصلة ، مدريد 1889 .

- الحلة السيرة ، نشر حسين مؤنس ، القاهرة 1963 ، في جزأين .

ابن الأثير (1233/630)

- الكامل في التاريخ ، القاهرة 1353/1934 في 9 مجلدات .

إدريس عماد الدين الداعي (872 / 1468) : عيون الأخبار ، السبع السادس ، مخطوط .

الاصطخري (957/346)

المسالك والممالك ، القاهرة 1961 .

الأعظمي (محمد حسن) : الحقائق الخفية عن الشيعة الفاطمية والأثني عشرية ، القاهرة ، 1970 .

امرو القيس : ديوان ، نشر السندوبي ، القاهرة 1053 .

أمين (أحمد) : ظهر الاسلام ، 4 أجزاء ، القاهرة 1957 .

الأميني النجفي (عبد الحسين أحمد): الغدير في الكتاب والسنة والأدب،
بيروت 1977
أنيس (ابراهيم): موسيقى الشعر، القاهرة، 1965.

ب

الباخرزي (1074/467): دمية القصر، بغداد 1970.
البحثري: ديوان، نشر البرقوفي 1911/1329.
- ديوان، نشر حسن كامل الصيرفي، ذخائر العرب عدد 34.
ابن بَسَام (1147/542):
الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، تونس - ليبيا
1975.
البكري (1094/487)

المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، الجزائر 1857.
البلاذري: أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله، القاهرة 1959.

ت

تامر (عارف) : - ابن هانيء، سلسلة الأعلام، بيروت 1961.
- ابن هانيء، فصل بدائرة معارف البستاني 112/4.
ابن تغري بردي (1470/874) : النجوم الزاهرة، القاهرة 1933 .
أبو تمام : ديوان، تحقيق محمد عبده عزّام، ذخائر العرب رقم 5 .
تميم بن المعزّ الفاطمي : ديوان، القاهرة 1957.

ث

الثعالبي (1038/429): كتاب تَمّة اليتيمة، تحقيق عباس اقبال، طهران
1934/1352.
- يتيمة الدهر، القاهرة 1934/1352.

ج

جوذر (سيرة الأستاذ)، نشر محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي
شعيرة. القاهرة، د.ت.

ح

- ابن حجر العسقلاني (1448/852) :
 الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة - حيدر آباد 1350/1931.
 ابن حبة الحموي (837/1433): خزانة الأدب وغاية الأدب ، القاهرة 1304/1887.
 ابن أبي حجلة التلمساني (776/1375)
 سكردان السلطان (مع ك. المخلاة للعالملي) القاهرة 1957.
 حسن (حسن إبراهيم): تاريخ الدولة الفاطمية ، القاهرة 1967.
 حسن (علي إبراهيم): تاريخ جوهر الصقلي ، القاهرة 1933.
 محمد كامل حسين: في أدب مصر الفاطمية ، دار الفكر العربي ، 1970 .
 الحصري (1022/413): زهر الآداب ، القاهرة 1953.
 ابن حماد (628/1230): أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم ، الجزائر 1927.
 الحميدي (488/1095): جذوة المقتبس ، تحقيق محمد بن تاويت ، القاهرة 1952.
 ابن حيّان (469 / 1076): المقتبس في أخبار بلد الأندلس ، نشر عبد الرحمان الحنجي ثم محمود علي مكّي (1973) ثم بدرو شلميتا (1979) .

خ

- ابن خاقان (الفتح - 529/1134) :
 - قلائد العقيان ، نشر سليمان الحريري ، باريس 1860 .
 - مطمح الأنفس ، القاهرة 1325/1905.
 ابن الخطيب (776/1375) لسان الدين :
 - الإحاطة في أخبار غرناطة ، نشر عبدالله عنان ، القاهرة
 - أعمال الأعلام ، قسم نشره ح.ح. عبد الوهاب ، بالرمو 1910.
 قسم نُشر بمدرّيد، 1956 (بتحقيق رفائيل مركاس).
 الخفاجي (الشهاب - 1069/1658)

- ريحانة الألباء ، نشر عبد الفتاح الحلو ، القاهرة 1967 .
 ابن خلدون (1406/808) : ك. العبر ، بيروت 1958 .
 ابن خلكان (1282/781) : وفيات الأعيان ، القاهرة 1948 .
 خلوصي (صفاء) : فن التقطيع الشعري والقافية ، بيروت 1966 .
 ابن خير (1179/575) : فهرسة ما رواه عن شيوخه ، مدريد 1894 .

د

- الدبّاغ (1297/696) / ابن ناجي : معالم الإيمان ، تونس 1902/1320 .
 ابن دحية (1265/663) : المطرب من أشعار أهل المغرب ، القاهرة 1954 .
 ابن الدواداري (1335/736) : كنز الدرر وجامع الغرر ، الجزء السادس ، نشر صلاح الدين المنجد ، القاهرة 1961 .
 ابن أبي دينار (1698/1110) : المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ، تونس 1868/1236 .

ذ

- الذهبي (1348/748)
 - تاريخ الإسلام ، مخطوط المكتبة الوطنية بباريس ، رقم 1581 .
 - العبر في تاريخ من عبر ، الكويت 1961 .

ر

- ابن رشيق (1063/456)
 - العمدة ، القاهرة 1955 .
 - قراضة الذهب ، نشر الشاذلي بويحيى ، تونس 1972 .

ز

- الزبيدي (989/379) :

طبقات النحويين واللغويين ، نشر محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة
1954 .

ابن زيدون : ديوان ، نشر رشيد الكيلاني ، القاهرة 1956 .

س

السراج (الوزير) [1736/1149] :

الحلل السندسية في الأخبار التونسية ، نشر محمد الحبيب الهيلة ،
تونس 1974-1970 .

ابن سعيد المغربي (1286/685) :

- رايات المبرزين : نشر فارثا قوميث ، مدريد 1942 .
- عنوان المرقصات ، نشر عبد القادر محداد ، الجزائر 1949 .
- المغرب في حلى المغرب ، نشر شوقي ضيف ، القاهرة 1955 .
- قسم منه خاص بمصر ، نشر زكي محمد حسن ، القاهرة 1953 .

ابن سهل الجياني : نوازل الأحكام . . . مخطوط دار الكتب الوطنية بتونس
رقم 18394 .

ش

ابن شاکر الکتبی (1362/764) :

- عيون التواريخ ، مخطوط المكتبة الوطنية بباريس رقم 1588 .
- فوات الوفيات ، القاهرة 1957 .

ابن الشحنة (1412/813) : روضة المناظر في أخبار الأوائل والأواخر (طبع
بهامش مروج الذهب) القاهرة 1885/1303 .

ابن شرف القيرواني (1067/460) : مسائل الانتقاد ، نشر شارل بلّا ، الجزائر
1953 .

ص

- الصدر (السيد الحسن) : تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام ، بيروت 1981 .
الصفدي (1363/764) : الوافي بالوفيات ، نشر ريتر ، فيسبادن 1962، ومخطوط
دار الكتب الوطنية بتونس رقم 13318 .
الصنوبري : ديوان ، نشر إحسان عباس ، بيروت 1970 .

ض

- الضبي (1203/599) : بغية الملتبس في تاريخ رجال الأندلس نشر كوديرا ،
مدريد 1884 .

ط

- الطالبي (محمد) : تراجم أغلبية ، تونس 1968 .
الطرازي (فيليب) : تاريخ الصحافة العربية ، بيروت 1914 .
الطرسوسي (مرضي) : ك. تبصرة الألباب ، نشر كلود كاهين ، صحيفة
الدراسات الشرقية (B.E.O.) مجلد 12 ، دمشق 1947-1948 .

ظ

- ابن ظافر الأزدي (1216/613) : بدائع البدائه ، بولاق 1860/1278 .

ع

- العامللي (1622/1031) : كتاب المخلاة ، القاهرة 1957 .
عبد الوهاب (ح.ح.) : تاريخ الأدب التونسي ، تونس 1966 .
ابن عذارى (1312/712) : البيان المغرب ، نشر ليفي بروفنسال وكولان، ليدن
1951-1948 .
أبو العرب التميمي (945/333) : طبقات علماء إفريقية ، نشر محمد بن أبي
شنب ، الجزائر 1917/1332 .

- المسكريّ (1010/400) : ك . الصناعيتين ، القاهرة 1971 .
- العماد الأصفهاني (1201/597) : خريدة القصر - (قسم شعراء مصر) ، القاهرة 1959 .
- (قسم شعراء المغرب) تونس 1972/1966 .
- ابن العماد الحنبليّ (1678/1089) : شذرات الذهب ، القاهرة 1931 .
- العمريّ (ابن فضل الله) [1348/748] :
- مسالك الأبصار ، نشر أحمد زكي ، القاهرة 1924 .
- قسم المغرب ، ترجمة ديمومبين ، باريس 1927 .
- الباب 17 : شعراء الجانب الغربيّ ، مخطوط المكتبة الوطنيّة باريس 1327 .
- عليّ (زاهد) الحيدرابادي : تبين المعاني في شرح ديوان ابن هانيء ، القاهرة 1933/1352 .

ف

- أبو الفداء (1331/732) : المختصر في أخبار البشر ، القاهرة 1907/1325 .
- أبو فراس الحمداني : ديوان ، بيروت 1966 .
- الفرزدق : ديوان ، نشر الصاوي ، القاهرة 1936/1354 .
- ابن الفرضيّ (1013/403) : تاريخ العلماء والرواة بالأندلس ، القاهرة 1954 .

ق

- ابن قتيبة (889/276) : الشعر والشعراء ، المقدّمة ، نشر ديمومبين ، دمشق .
- القلقشندي (1418/821) : صبح الأعشى ، القاهرة 1972-1963 .
- القميّ (عبّاس) : الكنى والألقاب ، النجف 1970 .
- ابن قنفذ القسطنطيني : الفارسيّة في مبادئ الدولة الحفصيّة ، تونس 1968 .
- الوفيات ، نشر بريس 1939 .

ك

ابن كثير (1373/774) : البداية والنهاية ، القاهرة 1932 .

م

المالكي (1061/453) : رياض النفوس - ج 1 نشر حسين مؤنس ، القاهرة

1951 . ج 2 ، مخطوط القاهرة رقم 116 ، مخطوط باريس رقم 2153 .

- نشر البشير البكوش في 3 أجزاء ، دار الغرب الاسلامي ، بيروت

1981- 1984 .

المنتبي : الديوان بشرح العكبري ، القاهرة 1956 .

مجهول : ك . العيون والحدائق ، الجزء الرابع في قسمين ، تحقيق عمر

السعيد ، دمشق 1973 .

المحبي : (1699/1111) : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ،

القاهرة 1967 .

- نفحة الريحانة ، نشر عبد الفتاح الحلو ، القاهرة 1967 .

المراكشي (عبد الواحد) (1250/647) : المعجب في تلخيص أخبار

المغرب ، القاهرة 1949 .

المقدسي (988/378) : أحسن التقاسيم ، نشر شارل بلّا - الجزائر 1950 .

المقري (1631/1041) : أزهار الرياض في أخبار عياض ، القاهرة 1942 .

- نفح الطيب ، القاهرة 1949 .

- نفح الطيب نشر احسان عباس ، بيروت 1968 .

المقريزي (1441/845) :

- أتعاط الحنفاء ، نشر جمال الدين الشّيال ، القاهرة 1948 .

- الخطط (المواعظ والاعتبار) . بولاق 1898/1316 .

- ك . الذهب المسبوك فيمن حجّ من الخلفاء والملوك ، نشر الشّيال ،

القاهرة 1955 .

- المعري (1057/449) : اللزوميات ، بيروت .
- رسالة الغفران ، تحقيق بنت الشاطيء ، القاهرة 1950 .
- مكي (محمود علي) : التشيع في الأندلس ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدير 2,1/1954 .
- ابن منظور (1311/711) : أخبار أبي نواس ، القاهرة 1924 .
- المنقري (نصر بن مزاحم) [828/212] : وقعة صفين ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة 1365 .

ن

- ناجي (منير) : ابن هانيء الأندلسي ، بيروت 1962 .
- الناصرى السلاوي (أحمد) : ك. الاستقصاء ، الدار البيضاء ، 1954 .
- القاضي النعمان (974/363) : - افتتاح الدعوة ، نشر وداد القاضي ، بيروت 1970 .
- تأويل الدعائم ، نشر محمد حسن الأعظمي ، القاهرة 1969 .
- دعائم الإسلام ، نشر آساف فيضي ، القاهرة . .
- المجالس والمسائرات ، نشر كلية الآداب ، تونس 1978 .
- ك. الهمة ، نشر محمد كامل حسين ، القاهرة 1951 .
- أبو نواس : ديوان ، بيروت 1962 .

ي

- اليافعي (عفيف الدين) [1367/768] :
- مرآة الجنان . . . مخطوط دار الكتب الوطنية ، تونس رقم 13443
- 13444 . وطبعة بيروت الثانية ، 1970 .
- ياقوت الحموي : (1230/627) :
- إرشاد الأريب (معجم الأدباء) نشر الرفاعي ، القاهرة 1939 .

- Amari** (Michele): – B.A.S. (Biblioteca arabo-sicula), Leipzig 1957.
 – Su i fuochi di guerra... Roma 1871.
- Blachère** (Régis): – Histoire de la littérature arabe, Paris 1952-1966.
- Bouyahia** (Chedli): – La vie littéraire en Ifriqiya sous les Zirides, Tunis 1972.
- Brunschvig** (Robert): – Fiqh fatimide et Histoire de l'Ifriqiya, in Mélanges d'histoire et d'archéologie de l'Occident musulman, tome 2, Alger 1957.
- Un aspect de la littérature historico-géographique de l'Islam; mélanges Gaudefroy-Demombynes, Paris 1945.
- Canard** (Marius):
 – L'autobiographie d'un chambellan du Mahdi 'Ubayd Allah, Hespéris 1952.
 – Cérémonial fatimide et cérémonial byzantin; Byzantion 21 (1951).
 – Une famille de partisans puis adversaires des Fatimides en Afrique du Nord, in Mém. d'Hist. et d'Archéol. de l'Occ. musulman, t. 2, Alger 1957.
 – Histoire de la dynastie des Hamdanides... Alger 1951.
 – L'impérialisme des Fatimides et leur propagande, A.E.I.O.A. 6/156.
 – La procession du Nouvel an chez les Fatimides, A.E.I.O.A. 1952.
 – Vie de l'ustadh Jawdhar, Alger 1958.
- Dachraoui** (Farhat):
 – Le califat fatimide au Maghreb, Tunis 1981.
 – La captivité d'Ibn Wāsūl... in: Cahiers de Tunisie 1956.
 – La Crète entre Byzance et mu'izz, in Cahiers de Tunisie, 1959.
 – Contribution à l'Histoire des Fatimides en Ifriqiya, Arabica 8.
 – Tentative d'infiltration chiite en Espagne musulmane, al-Andalus 23/1958.
- Fournel** (H.): – Les Berbers, Paris 1881.
- Garcia-Comez** (E.): – Poemas arabigo-andaluces, Madrid 1940.
- Mutanabbi et Ibn Hāni; Mélanges W. Marçais; 1950.
- Guyard** (St.): – Fragments relatifs à la doctrine des Ismailis, Paris 1874.
- Idris** (H.-R.): – La Berbérie Orientale sous les Zirides, Paris 1962.
- Contribution à l'Histoire de l'Ifriqiya, Revue des Etudes Islamiques 1935-36.
- Ivanow** (W.): – A guide to Ismaili literature, London 1933.
- Ismaili traditions concerning the rise of Fatimids, Bombay 1942.
- Kremer** (A. von): – Ibn Hāni', in Z.D.M.G. 24.

- Lévi-Provençal (E.):** – Fragments sur les Berbères au moyen-âge, Rabat 1934.
- Histoire de l'Espagne musulmane; Paris 1950-53.
- Luya (A.):** – La Risāla d'al-Šaḡundī, Hesperis 22/1936.
- Marçais (G.):** – La Berbérie musulmane et l'Orient au moyen-âge, Paris 1946.
- Manuel d'art musulman, Paris 1926.
- Massé (H.):** – Le poème d'Ibn Hānī' sur la conquête de l'Égypte; Mélanges d'Hist. et d'Archéol. de l'Occident musulman, 1957.
- Massiera (P.):** M'sila du 10^e au 15^e siècle, Cahiers de Tunisie no. 85/ 86.
- Massignon (Louis):** – Esquisse d'une bibliographie garmate, 1922.
- Monès (Husayn):** – Le malékisme et l'échec des Fatimides en Ifriqiya; Mél. Lévi-Provençal, Paris.
- Pellat (Ch.):**– Ibn Hazm, bibliographe et apologiste de l'Esp. musul. al-Andalus 19/1954.
- Pérès (H.):** – La poésie à Fés sous les Almoravides, Hespéris 18/1 (1934).
- La poésie andalouse en arabe classique au 11^e siècle, Paris 1953.
- Pons Boigues (F.):** – Ensayo bio-bibliografico, Madrid 1898.
- Quatremère (M.):** – Mémoires historiques sur la dynastie des Fatimides Journal Asiatique, 1836.
- Vie du calife Moezz; Journal Asiatique 1836-37.
- Observations sur le feu grégeois, Journ. asiat. 1850.
- Reinaud (H.):** – De l'art militaire chez les Arabes, Paris 1848.
- Du feu grégeois; Mélanges H. Reinaud.
- Rikābi (J.):** – La poésie profane sous les Ayyubides, Paris 1949.
- Schlumberger (Gust.):** – Un empereur byzantin au 10^e siècle: Nicéphore Phocas, Paris 1890.
- Vassiliev (A.A.):** – Byzance et les Arabes, Bruxelles 1935-50.
- Zbiss (Mustapha-Sulaymān):** – Mahdia et Sabra- Mansuriyya, Journal asiatique, 1956.

6 - فهرست المواضيع

- تمهيد 5
- الفصل الأول : مصادر ترجمة ابن هانيء 9
- كتب الرجال الأندلسية - 10 - كتب الرجال الشرقية - 16 -
- كتب التاريخ - 17 - كتب الأدب - 21 - المخطوطات - 22 17
- الفصل الثاني : ديوان ابن هانيء 31
- النسخ المخطوطة - 32 - النسخ التونسية - 34 - النسخ الأخرى - 39 -
- ترتيب القصائد في المخطوطات - 39 - طبعات الديوان - 41 - شرح
- زاهد علي - 43 - محاولة ترتيب القصائد ترتيباً زمنياً - 46 -
- القصائد الإفريقية - 52 - مدائح ولالة المعز - 62 .
- ملحق 1 : مخطوطات الديوان مرتبة ترتيباً زمنياً تقريباً 65
- ملحق 2 : قصائد الديوان مرتبة بالتقريب ترتيباً زمنياً 68
- الفصل الثالث : مدوحو الشاعر 75
- المعز لدين الله - 75 - أمير الزاب - 83 - جوهر الصقلي - 88 - أفلح
- الناشب - 92 - أبو الفرج الشيباني - 96 - أبو عبد الله بن
- المهذب - 100 - أحمد بن زائدة - 102 - الوهراني - 103 .

107 الفصل الرابع : ترجمة ابن هانيء .

هانيء أبوه - 108 - الأصل المهلبى - 109 - تاريخ ميلاد
الشاعر - 110 - نشأة الشاعر - 112 - أسباب تركه الأندلس - 114 -
ابن هانيء بالمغرب وافريقية - 117 - تشيع ابن هانيء - 124 -
تضارب الأقوال في ظروف وفاته - 132 .

141 الفصل الخامس : الإشارات التاريخية في الديوان .

الحياة ببلاط المعزّ - 141 - الاحتفالات وظهور الإمام - 148 -
المظلة - 149 - الخيل - 149 - السيف ذو الفقار - 150 - التاج - 152 -
العرش - 153 - مدى حظوة الشاعر لدى المعزّ - 156 - حروبُ
المعزّ : في المغرب - 160 - فتح مصر - 164 - تعيين ابنه عبد الله
على ولاية افريقية والمغرب - 168 - الحرب ضدّ بيزنطة - 170 -
الأسطول الحربي ، النار الإغريقية - 172 .

179 الفصل السادس : الإشارات التاريخية (تابع : قصائد المسيلة .

البلاط الحمدوني - 179 - حياة اللهو - 183 - أحداث البلاط - 184 -
الولاء الفاطميّ - 186 - مدى الوفاق بين الأخوين - 187 - حملات
الأخوين ضدّ أعداء الخلافة - 190 - بقية شعره 197

203 الفصل السابع : أغراض ابن هانيء ومعانيه : المعاني التقليدية .

المدح - 203 - الاستهلاطات - 204 - وصف الراحلة والتخلّص إلى
المدح - 210 - وصف الطبيعة - 214 - المجالس الخمرية - 217 -
شكوى الدهر - 219 - معاني المدح : الكرم - 221 - الجلم - 223 -
البأس والقوة - 225 - مدح الأمّهات - 234 .

الرناء	229
الهجاء	235

239 . الفصل الثامن : أغراض الشاعر ومعانيه (تابع) المعاني العقائدية المذهبية .

تدرّجه في اعتناق المذهب - 239 - موقف أهل السنة من غلوّ الشاعر في ولائه - 240 - المعاني المذهبية في شعره المغربي - 242 - قصائد المسيلة - 243 - تشييع السلاح أيضاً - 244 - مدائح الشيباني - 244 - مدحة أفلح الناشب النونية - 245 - التأكيد على النسب الفاطمي - 247 - بين المثبت للنسب الفاطمي والقادح فيه - 249 - إرث الرسول مادّي ومعنوي - 251 - الإمام هو محور الخليقة - 252 - قدسية الإمام - 256 - علم الإمام - 258 - شفاعة الإمام تنال السابقين واللاحقين - 261 - معرفة الإمام واجبة - 263 - اشتراك هذه المعاني عند ابن هاني وتميم بن المعز - 264 - الإمام واجب الوجود - 266 - عصمة الإمام - 267 - الإمام يعيّن بالنص - 268 .

271 . الفصل التاسع : معاني الشاعر وأغراضه (تابع) - المعاني السياسيّة .

التحامل على الأمويين - 272 - حقد الأمويين على آل البيت حقد قديم - 275 - وصمتان في تاريخهم - 276 - الأضغان القديمة : السقيفة وبدر وكربلاء - 279 - مبرّرات التحامل على بني أمية - 284 - التهجم على العباسيين - 285 - بنو العباس أبناء الطليق - 286 - هم عبيد بالوراثة - 288 - انخذلهم أمام الروم - 289 - المعزّ ناصر الدين - 291 - الدولة العباسيّة دولة مجوسية - 293 - التحامل على الروم - 294 - الروم في لغة الشاعر - 295 - الروم أعداء في الدين - 297 - انتصارات المعزّ عليهم - 299 - جبن الدماسق

وجهلهم بالحرب - 302 - غلبة الروم في المشرق سببها خذلان بني
العبّاس - 304 .

305 الفصل العاشر : شاعريّة ابن هانيء
الأغراض - 305 - المحاكاة الصريحة - 306 - أدوات الشعرية -
القصيدة - 308 - القوافي - 309 - الأوزان - 311 - التقسيم الثلاثي
للقصيدة - 312 - الصنعة البلاغيّة : أصناف المجاز - 317 - التشبيه
المقلوب - 322 - الجناس - 324 - التورية أو اللبس المقصود - 324 -
الازدواج داخل البيت - 325 - لغة الشاعر ، طلب الغريب - 327 -
الرصيد الثقافيّ المشترك - 329 - الميل الى الأقدمين - 331 - ابن
هانيء والمنتبيّ - 332 - القصيدة الحادية والعشرون في
المنتبيّ - 334 - غنائية ابن هانيء - 338 - الحقد على خصوم
الإمام - 340 - التهكم بهم - 340 - التأمّلات الحكميّة - 341 -
تديّنهُ - 342 - التغني بالجمال - 343 .

345 الفصل الحادي عشر : تأثير ابن هانيء
الأحكام المذهبيّة - 345 - الأحكام الأدبية - 348 - أحكام
معاصرة - 350 - سيرورة الديوان - 352 - عقب الشاعر - 358 - تدهور
شخصيّة ابن هانيء - 361 .

365 الخاتمة
371 فهرس الآيات
373 فهرس الاعلام والمفاهيم
381 فهرس البلدان والأماكن
385 فهرس الكتب المذكورة في المتن
389 فهرس المراجع
401 فهرس المواضيع

وَلَرُّ الْغَرْبِ الْإِسْلَامِيِّ / الْجَنِبِ الْمَسِيِّ

شارع الصوراتي (المعماري) — الحمراء — بناية الأسود
تلفون 340131 - 340132 — ص.ب. 113-5787 بيروت — لبنان

الرقم 85/1/3000/50

التنفيذ: أبجد غرافيكس

الطبعة: مؤسسة نزيه كركي

